د. جوست ميرلو

مكتبة

اغتصاب العقل

سيكولوجيا السيطرة على التفكير وإبادة العقل وغسيل الدماغ

ترجمة: عمر فايد

مراجعة: عبد المقصود عبد الكريم

The Rape Of The Mind

Dr. Joost A M. Meerloo



اغتصاب العقل

«سيكولوجيا السيطرة على التفكير وإبادة العقل وغسيل الدماغ»

تأليف

جوست ميرلو

ترجمة: عمر فايد

مراجعة: عبد المقصود عبد الكريم





الكتاب

اغتصاب العقل

المؤلف

جوست ميرلو

الطبعة الأولى: 2021

الترقيم الدولي:

978-603-91498-7-3

رقم الإيداع:

1442/2154

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان: الجبيل، شارع مشهور،

المملكة العربية السعودية



الفهرس



كلمة المترجم



أتعجب من أن هذا الكتاب لم يحقق الشهرة التي يستحقها مقارنة بكتاب آخر مثل **الإنسان والبحث عن المعنى**، فمع أهمية الكتابين إلا أنني أجد لهذا الكتاب عمقًا متميزًا. فكلاهما صدر في نفس الحقبة تقريبًا (في أعقاب الحرب العالمية الثانية وأهوالها)، وكلاهما خُطَّا بيدي طبيبين نفسيين شهدا من المآسي وذاقا من ويلات الحرب والأسر ما جعلهما شاهدين على حدود الطاقة البشرية ونقاط انهيارها، ليس في نفسيْهما فقط، بل في عشرات أو حتى مئات المعتقلين وأسرى الحرب الذين تعاملا معهم. كما عاصر كلاهما أتون الحربين العالميتين. إلا أن الكتاب الذي بين يديك لم يكتب على عجل، (كُتب **الإنسان والبحث عن المعنى** عقب خروج «فيكتور فرانكل» من المعتقل مباشرة)، ولم يقتصر مؤلِّفه على تناول تأثير ويلات الحروب وقهر المعتقلات ومناهج الطغيان على الفرد فحسب، بل تناول بذكاء ثاقب تأثيرها على الجماهير في ظل الحكومات الشمولية المستبدة، ووسائلهم في السيطرة على الجماهير؛ وستدرك بنفسك أن الوسائل المذكورة في الكتاب، بعد مرور قرابة سبعة عقود على صدوره، ما زالت وسائل النظم التي تؤسس للطغيان في شتى بقاع الأرض حتى يومنا هذا.

أمتعني هذا الكتاب إلى الدرجة التي جعلتني أقول مازحًا لأحد أصدقائي

المترجمين إنه ينبغي علي دفع المال لدار النشر لقاء ترجمته لا العكس! فعندما اجتمعت بصيرة المؤلف ومعرفته بالحقبة التاريخية المهمة التي وصل فيها العالم إلى ذروة تطبيق الشمولية بنظاميها الأشهر الشيوعية والنازية، جعل من هذا الكتاب وثيقة مهمة للكيفية التي يمكن أن تتشكل بها عقول أجيال متعاقبة، وذلك بسوء استخدام حيل نفسية تلعب على وتر مشاعر دفينة قابعة داخل كل منا. وفي هذا اللون من المؤلفات، لا شيء يلفت الانتباه بقدر معرفة العاقبة التي تصل إليها النفس البشرية تحت وطأة القهر والتعذيب الممنهج والظلم، أما ما يسترعي الانتباه أكثر فهو النتائج الكارثية التي يمكن أن تؤول إليها شعوب بأكملها إذا ما جرى تدجينها بهذه الأساليب، وإذا ما سخرت كل أشكال الإعلام والتعليم والثقافة وتزييف العلم خدمة لأهداف هذه الأنظمة الشمولية.

لم يكتف المؤلف د. «**جوست ميرلو**» بوصف الحالة فقط، بل أعطى علاجًا ناجعًا يمكن للأمم الحرة والعادلة أن تحصن به نفسها ضد هذا السرطان الشمولي الذي قد يصيبها في أي وقت؛ وذلك بطرحه لحلول على المستويين الفردي والجماعي، تجعل من هذا الكتاب من وجهة نظري المتواضعة دليلًا إرشاديًّا مهمًا لكل فرد، ولكل أمة.

اغتصاب العقـــل

منذ عام 1933، عندما اعترف حطام إنسان مخدر تمامًا وخاضع لارتباط شرطي بالتجربة بأنه أشعل النيران في الرايخستاغ الألماني[1] ببرلين، عكف «**د. جوست أبراهام موريتس ميرلو**» على دراسة الوسائل التي يتسبب فيها الضغط العقلي المنهج في الإخضاع المذل للناس، الذي يغرس الشموليون من خلاله «حقيقتهم» الذاتية في عقول ضحاياهم.

وكان رأي «**د. ميرلو**» أنه من خلال الضغط على نقاط ضعف معينة في التكوين الإنساني، يمكن للوسائل الشمولية أن تحول أي شخص إلى «خائن». وهو، في كتاب **اغتصاب العقل**، يمضي أبعد بكثير من الحديث عن التأثيرات العسكرية المباشرة للتعذيب العقلي ليصف كيف أن ثقافتنا تُظهر، بشكل ليس من السهل

---

1 - مبنى الرايخستاغ: مقر البرلمان الألماني في برلين، كان قد تعرض لهجوم متعمد في يوم الاثنين 27 فبراير من العام 1933؛ أي بعد أربعة أسابيع تمامًا من أداء "أدولف هتلر" اليمين الدستورية بصفته مستشار ألمانيا. وقد أشعل النيران "مارينوس فان دير لوبي - Marinus Van der Lubbe"، من مواليد 13 يناير 1909، وأعدم بتاريخ 10 يناير 1934، وهو سياسي هولندي ينتمي للحزب الشيوعي الألماني، اتهمته حكومة الرايخ الثالث بإحراق المبنى.
أما الارتباط الشرطي بالتجربة trial-conditioned، أو الارتباط الشرطي الكلاسيكي، أو البافلوفي نسبة إلى العالم الروسي إيفان بافلوف (1849-1936) الحائز على جائزة نوبل في الطب في عام 1904، إجراء يتم فيه إقران حافز قوي بيولوجيًّا (مثل الطعام) مع محفز محايد (مثل الجرس). وينتج عن هذا الاقتران أن يستجيب الخاضع لهذا الإشراط للمحفز المحايد استجابة مماثلة لتلك التي تنتج عادة عن المحفز القوي (المراجع).

ملاحظته، أعراض الضغوط التي تتعرض لها عقول الناس. إنه يقدم تحليلًا منهجيًا لوسائل غسيل الدماغ والتعذيب العقلي والإكراه، ويوضح كيف أن الإستراتيجية الشمولية التي تستخدم «**سيكولوجيا الجماهير**- Mass Psychology»تؤدي إلى "اغتصاب العقل" اغتصابًا منهجيًا، كما يصف العصر الجديد، عصر الحرب الباردة، بالهلع العقلي الذي يميزه والغموض اللفظي والدلالي، وكيفية استخدام الخوف أداةً لإخضاع الجماهير، ومشكلة الخيانة والولاء المحملين بتشوش خطير.

كما كتب جون دولارد[2] في مجلة **نيويورك تايمز**:

(إن «د. ميرلو» متحدث متحمس باسم الممارسة الديمقراطية في الحياة، باعتبارها هدفًا إنسانيًا عامًا، وليس باعتبارها وسيلة لهزيمة الشموليين فحسب... على كل أمريكي مفكر أن يستقطع من وقته 'الذاتي self' – وقته المكرس لتطوره الذاتي self-development – ويقرأ هذا الكتاب. يعرض لنا د. «ميرلو» بنفسه ما يمكن لعلم النفس التحليلي فعله عندما يُدمَج بحرية مع المعرفة بالعلوم الاجتماعية. إنه شخص متطور إلى حد بعيد؛ في الواقع، إنه أحد أعظم المتحدثين باسم العالم الديمقراطي، وينبغي على كل شخص معرفته).

كتب «**د. ميرلو**» عمله الشهير، **اغتصاب العقل**، من أجل الأشخاص العاديين، وليس من أجل الخبراء والعلماء.

أمضى «**د. ميرلو**» أول عامين ونصف العام من الحرب العالمية الثانية تحت وطأة الاحتلال النازي في هولندا، وشهد بعينيه وسائل التعذيب العقلي النازية في أكثر من مناسبة. وخلال ذلك الوقت تمكن من استخدام معرفته في الطب النفسي والتحليل النفسي لمعالجة بعض الضحايا. وعقب خبراته الشخصية بالتحقيقات الإجبارية، هرب من معتقل نازي ومن موت محتم ليصل إلى إنجلترا؛ حيث

---

2 - جون دولارد John Dollard (1900-1980): عالم نفس أمريكي (المراجع).

استطاع هناك، بصفته رئيس قسم علم النفس في القوات الهولندية، ملاحظة الوسائل القهرية ودراستها بشكل رسمي.

وبهذه الصفة لم يتمكن من فحص الخونة والمتعاونين معهم فقط، ولكنه تمكن أيضًا من فحص أفراد المقاومة الذين خضعوا لأقصى درجات الضغط العقلي. وبعد ذلك، بصفته مفوضًا ساميًا «للرعاية الاجتماعية- High Commissioner for Welfare»، تواصل عن قرب أكثر مع من خضعوا للتعذيب البدني والعقلي. وبعد الحرب، جاء إلى الولايات المتحدة؛ حيث لم تسمح له خبراته في الحرب من التركيز على ممارسة الطب النفسي فقط، لكنها أجبرته على تجاوز الجوانب الطبية المحضة إلى الجوانب الاجتماعية للمشكلة.

ومع الكشف عن المزيد والمزيد عن حالات التحكم في الأفكار وغسيل الدماغ والقهر العقلي – الكاردينال «ميندزنتي» والكولونيل «**شوابل وروبرت فوجيلر**»[3] وغيرهم – ازداد اهتمامه بالأمر. إن د. «**ميرلو**» هو من صك مصطلح «إبادة العقل- Menticide»؛ أي قتل الروح، لوصف هذه الجريمة تحديدًا. وتم الاعتراف رسميًّا بمعرفته بهذه الإجراءات الشمولية، وعمل بصفته شاهدًا خبيرًا في قضية الكولونيل «شوابل»، ضابط القوات البحرية الأمريكية الذي أجبر على الاعتراف بالمشاركة في حرب جرثومية، بعد أشهر من الخضوع للتعذيب البدني والعقلي عقب وقوعه في الأسر في كوريا.

---

3 - الكاردينال جوزيف ميندزنتي Mindszenty (1892-1975): زعيم الكنيسة الكاثوليكية في المجر من 1945 إلى 1973. وقد جسد لمدة خمسة عقود معارضة شديدة للفاشية والشيوعية في المجر.

- الكولونيل فرانك هاوز شوابل Schwable (1908-1988): كان طيارًا في مشاة البحرية الأمريكية، وتمت مقاضاته بتهمة التعاون مع آسريه الكوريين.

- روبرت فوجيلر Robert Vogeler: مواطن أمريكي، ومساعد نائب رئيس شركة الهاتف والتلغراف الدولية، ألقت الشرطة المجرية القبض عليه في 18 نوفمبر 1949 بتهمة التجسس والتخريب. (المراجع)

تصدير

وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا.[4]

(إنجيل متَّى - 10:28)

يحاول هذا الكتاب وصف عملية التحول الغريبة لعقل الإنسان الحر ليصبح آلة تستجيب بشكل آلي – وهو التحول الذي يمكن أن يطرأ من خلال بعض التيارات الثقافية الخفية في مجتمعنا المعاصر، فضلًا عن التجارب المدروسة التي تخدم إيديولوجيا سياسية معينة.

إن اغتصاب العقول والقهر العقلي الخفي من بين أقدم الجرائم في تاريخ الإنسانية، وربما ترجع بدايتها إلى عصور ما قبل التاريخ حينما اكتشف الإنسان للمرة الأولى قدرته على استغلال سمات إنسانية، مثل التعاطف والتفاهم من أجل فرض قوته على رفاقه من البشر. إن كلمة«**اغتصاب**- Rape» مشتقة من الكلمة اللاتينية- Rapere؛ أي الخطف أو الاستيلاء- Snatch، لكن لها علاقة أيضًا بالكلمتين: يحتد- Rave وغراب أسود- Raven. والكلمة تعني أن تتسلط، وتبتهج، وتغزو، وتسطو، وتنهب، وتسرق.

أما المصطلحات الحديثة «غسيل الدماغ»، و«السيطرة على التفكير»، و«إبادة العقل» فالغرض منها تقديم مفاهيم أوضح للوسائل الفعلية التي يمكن

---

4 - من الترجمة العربية للكتاب المقدس (المراجع).

باستخدامها انتهاك كرامة الإنسان. وحين يطلق على مفهوم ما اسمه المناسب، تسهُل معرفته أكثر – وبهذه المعرفة تسنح الفرصة للتصحيح المنهجي.

في هذا الكتاب يجد القارئ مناقشة لبعض الأخطار المحدقة التي تهدد التفاعل الثقافي الحر. كما يؤكد على التأثير الثقافي الهائل لموضوع الاقتحام الذهني القسري. ليست الوسائل الاصطناعية للقهر وحدها هي المهمة، لكن الأدهى من ذلك هو الاقتحام الخفي لمشاعرنا وتفكيرنا. يمكن مقارنة خطر تدمير الروح بالتهديد بالتدمير المادي الشامل خلال الحرب الذرية. في واقع الأمر، إن الخطرين كليهما مترابطان ومتشابكان.

ومقاربتي لهذا الموضوع مبنية على الاعتقاد بأنه لا يمكن الوصول إلى جوهر أية مشكلة إلا حين ننظر إليها من عدة زوايا.

ووفقًا لمبدأ بور عن التكامل[5]، يمكن الاطلاع على ظاهرة فيزيائية بسيطة إلى حد ما من وجهات نظر متنوعة؛ إن المفاهيم المختلفة التي تبدو متناقضة ظاهريًا لازمة لوصف الظاهرة الفيزيائية. على سبيل المثال، لشرح سلوك الإلكترونات يكون مفهوم الجزيء ومفهوم الموجات كليهما مفيدان. ويصح الأمر نفسه حتى في التفاعلات النفسية والاجتماعية الأكثر تعقيدًا. لا يمكننا دراسة موضوع غسيل الدماغ من وجهة النظر البافلوفية البسيطة وحدها. يحاول هذا الكتاب النظر إلى هذا الموضوع أيضًا من المنظور الوصفي الإكلينيكي، ومن المفهوم الفرويدي في علم النفس، ويحاول النظر إلى موضوع غسيل الدماغ انطلاقًا من منظور أن القهر العقلي العام ربما يوجد في كل تفاعل بشري.

يمكن مقارنة التواصل من أي نوع تقريبًا بمحاولة الإيقاع بمجموعة من الدمى

---

5 - مبدأ بور عن التكامل Bohr's principle of complementarity: مبدأ في الفيزياء ينص على أن المعرفة الكاملة للظواهر على الأبعاد الذرية تتطلب وصفًا لكل من خصائص الموجة والجسيمات. أعلن عن هذا المبدأ في عام 1928 عالم الفيزياء الدنماركي نيلز بور Niels Bohr (1885-1962). (المراجع)

في لعبة القذف؛ فكلما زاد عدد الكرات التي نقذفها، زاد احتمال أننا قد نصيب كل الدمى. وكلما زادت المقاربات التي نتناول بها أية مشكلة، زادت فرصة استيعابنا لجوهرها الأساسي. وهذه المعالجة التفصيلية ستكون مستحيلة بدون بعض التكرار في النص.

في هذا الكتاب سوف ننتقل من الموضوع المحدد الذي يتعلق بالقهر العقلي المخطط والمتعمد إلى السؤال الأكثر عمومية عن التأثيرات التي تميل في العالم الحديث إلى تحويل الإنسان إلى روبوت وإلى آلة. والفصول الأخيرة مخصصة لمشكلة العمود الفقري الداخلي- Inner Backbone؛ باعتبارها خطوة أولى في اتجاه أن نتعلم المحافظة على حريتنا العقلية.

كتب أحد أعظم المؤلفين الهولنديين – «**مولتاتولي**»[6] – خطابًا إلى صديقه يعتذر فيه لأن الخطاب طويل للغاية؛ ذلك أنه لم يكن لديه ما يكفي من الوقت لكتابة خطاب أقصر. في تلك المفارقة عبَّر عن جزء من مشكلة الجميع في البحث عن التعبير والتواصل. يتطلب الأمر وقتًا طويلًا للتعبير عن فكرة تعبيرًا دقيقًا يمكن فهمها. إلا أن الإيجاز والبساطة في الأوصاف التي يستخدمها المرء لا تحظى دومًا بالتقدير. إن علم النفس الحديث محمل بمعارف فائقة – مع النية السرية بترك جمهور القراء في حالة ذهول. إن الرجل الذي يحاول التعبير عن نفسه بكلمات بسيطة ويتجاوز الرطانة، يخاطر بأن يوصف بأنه شعبي وغير علمي. غير أنني على دراية بحقيقة أني كنت منزلقًا للغاية في مصطلحات علم النفس إلى درجة أنني لا أستطيع غض الطرف تمامًا عن اللغة السيكولوجية. إن الاختبار الحقيقي للوضوح السيكولوجي هو الطريقة التي يستوعب بها الشخص العادي الأفكار المطروحة ويفهمها. وكان هدفي أن أكتب لعامة الناس ليس للشهرة، ولكن لفرض بعض

---

6 - مولتاتولي Multatuli (1820-1887): اسم الشهرة للكاتب الهولندي "إدوارد دويس ديكر". عرف بروايته **ماكس هايفلار** (1860) التي فضحت الإساءات التي مارسها الاستعمار الهولندي في مستعمرة جزر الهند الهولندية. (المراجع)

النظام على فوضى عصرنا تحديدًا.

كل كلمة يتفوه بها الإنسان انتحال، ومهمة المؤلف هي استيعاب المعرفة والتيارات الانفعالية في عصره ودمجها وتحويلها وعرضها بطريقته الشخصية، وإثراؤها بتجربته الخاصة. وأنا ممتن في الحقيقة لكل الذين تمكنت من استعارة أفكارهم، وخاصة من ألهموني القدرة على كتابة أفكاري حول هذا الموضوع المثير للجدل.

جوست أبراهام موريتس ميرلو

يناير، 1956

الجزء الأول

تقنيات إخضاع الفرد

إن **الجزء الأول** من هذا الكتاب مكرس للتقنيات المتنوعة التي تستخدم لجعل الإنسان ممتثل خنوع. وبالإضافة إلى أحداث سياسية حقيقية، يتم لفت الانتباه إلى بعض الأفكار التي تولد في المختبرات، وإلى الأساليب التي تستخدم فيها العقاقير لتسهيل عملية غسيل الدماغ. أما آخر فصل فسوف يتناول الآليات السيكولوجية المعقدة للإذعان العقلي.

الفصل الأول

أنت أيضًا ستعترف

يحدث شيء مذهل في عالمنا؛ فلم يعد الإنسان يعاقب فقط على الجرائم التي ارتكبها بالفعل، بل قد يجبر على الاعتراف بجرائم لفقها قضاته، الذين يستخدمون اعترافه لأغراض سياسية. ولا يكفينا فقط أن نلعن من يجلسون على كراسي القضاء لأنهم أشرار، بل ينبغي علينا فهم الدافع إلى هذا الاعتراف الزائف بالذنب؛ علينا أن نلقي نظرة أخرى على عقل الإنسان بكل هشاشته وضعفه.

الاعتراف الإجباري

خلال الحرب الكورية، أسر الشيوعيون الصينيون ضابطًا من قوات مشاة البحرية الامريكية وهو الكولونيل «**فرانك هاوز شوابل**»، وبعد أشهر من الضغوط النفسية المكثفة والإهانات الجسدية، وقَّع على «**اعتراف**» موثق جيدًا بأن الولايات المتحدة كانت تشن حربًا بالأسلحة البكتيرية ضد العدو. وفي هذا الاعتراف حدد أسماء، واستشهد بمهام، ووصف لقاءات ومؤتمرات إستراتيجية. كان هذا الاعتراف آلة دعائية بالغة القيمة للشموليين؛ حيث بثوا ذلك الخبر في جميع أنحاء العالم: «إن الولايات المتحدة الأمريكية تحارب شعب الصين المحب للسلام بإلقاء قنابل محملة ببكتريا تنشر الأمراض، منتهكة بذلك القانون الدولي.»

وبعد أن عاد الكولونيل «شوابل» إلى أرض الوطن أصدر تصريحًا بعد حلف

اليمين يتنصل فيه من اعترافه، ويصف الشهور الطويلة التي مرت عليه في الأسر. ولاحقًا عُرِض على محكمة تحقيق عسكرية، وشهد في دفاعه أمام المحكمة قائلًا: «لم أقتنع قط في قرارة عقلي أننا استخدمنا في الجناح الجوي البحري الأول الحرب بالجراثيم. أعرف أننا لم نفعل هذا، لكن باقي الأمر كان حقيقيًّا بالنسبة إلي – المؤتمرات، والخطط، وكيف يتعاملون مع مهامهم.»

وواصل الكولونيل: «كانت الكلمات كلماتي، لكن الأفكار أفكارهم؛ وهذا أصعب شيء ينبغي عليَّ شرحه: كيف يمكن أن يجلس شخص ما ويكتب شيئًا يعرف أنه زائف، وفي الوقت نفسه ينبغي أن يدركه ويشعر به ويجعله يبدو حقيقيًّا.»

وبهذه الطريقة شرح «**تشارلز وليم ماي**»[7]، الطبيب الأمريكي الرائد والممثل الحكومي، شرح عملية غسيل الدماغ في تصريح رسمي أمام الأمم المتحدة: «... إن أساليب التعذيب المستخدمة... وإن كانت تشمل العديد من الإصابات الجسدية الوحشية، لا تشبه وسائل التعذيب في العصور الوسطى باستخدام آلة شد الجسد، ومسمار ملولب لسحق الإبهام؛ إنها أكثر تعقيدًا، وتدوم أطول، وتهدف إلى أن يكون تأثيرها أكثر فظاعة. إنها مصممة لتحطيم عقل الضحية الذكي، وتشويه إحساسه بقيمته إلى درجة تجعله يصرخ ببساطة قائلًا: 'لقد فعلتها!' ، لكن سيبدو شريكًا بإرادته في تحطيم نزاهته وإنتاج حكاية تفصيلية ملفقة.»

وما قضية «شوابل» هذه إلا مثالًا واحدًا على سجين لا حيلة له يجبر على أن يكذب كذبة كبيرة. فلو أردنا النجاة باعتبارنا بشرًا أحرارًا، فعلينا مواجهة مشكلة القهر العقلي بإيعاز سياسي، ومواجهة كل تداعياتها.

مر أكثر من عشرين عامًا منذ أن بدأ علماء النفس الشك لأول مرة في أن عقل

---

7 - تشارلز وليم مايو Charles W. Mayo (1898-1968): كان جراحًا أمريكيًا، وعضوًا في مجلس محافظي مايو كلينيك Mayo Clinic ابتداءً من عام 1933. وهو ابن مؤسسي مايو كلينيك، "تشارلز هوراس مايو"، و"إديث مايو". (المراجع)

الإنسان يمكن بسهولة أن يقع ضحية لقوى الاستبداد. في عام 1933، حُرق مبنى برلمان الرايخستاغ الألماني بأكمله، فاعتقلت القوات النازية شخصًا دنماركيًّا يدعى «مارينوس فان دير لوبي»، واتهم بالجريمة. وكان الأطباء النفسيون الدنماركيون يعرفون أن «دير لوبي» غير متزن عقليًّا؛ فقد كان أحد مرضى مؤسسة للصحة العقلية في هولندا. وقد أصبح ضعفه وعدم اتزانه العقلي واضحين للعالم أجمع حين مثُل أمام المحكمة. وأينما وصلت أخبار هذه المحاكمة، كان الناس يتساءلون: «هل يمكن لهذا الشخص الأحمق الوضيع أن يكون بطلًا ثوريًّا، أن يكون شخصًا لديه استعداد لأن يضحي بحياته من أجل مُثل عليا؟»

خلال جلسات المحاكمة، كان «**فان دير لوبي**» مراوغًا وبليدًا ومثيرًا للشفقة، إلا إن تقارير الأطباء النفسيين الهولنديين وصفته بأنه مثلي وشخصية حريصة وغير متزنة، رجل متقلب المزاج بسرعة ويحب التشرد، ولديه كل أنواع الفانتازيا عن تغيير العالم.

في اليوم الثاني والأربعين من المحاكمة، تغير سلوك «فان دير لوبي» تغيرًا دراميًّا. اختفى تبلده، وأضحى جليًّا أنه على وعي تام بكل ما جرى خلال الجلسات السابقة. انتقد بطء إجراءات المحاكمة، وطالب بالعقوبة – بالسجن أو بالموت، وتحدث عن «أصواته الداخلية»[8]، وأصر على أن مزاجه تحت السيطرة، ثم عاد إلى حالة التبلد. والآن نعرف هذه الأعراض بأنها تركيبة من أشكال السلوك التي يمكن أن نطلق عليها «متلازمة الاعتراف- Confession Syndrome». في عام 1933 لم يكن هذا النوع من السلوكيات معروفًا للأطباء النفسيين، لكنه للأسف مألوف جداً الآن، وكثيرًا ما نجده في حالات القهر العقلي الشديد.

ومن ثَم أدين «فان دير لوبي» وحكم عليه بالإعدام. عند انتهاء المحاكمة بدأ

---

8 - الأصوات الداخلية inner voices: الأفكار أو المشاعر التي لا يعبر عنها المرء، ولكن يبدو أنها تحذره أو تنتقده أو تنصحه. (المراجع)

العالم يدرك أنه لم يكن إلا كبش فداء. أحرق النازيون أنفسُهم مبنى الرايخستاغ ولفقوا التهمة والمحاكمة؛ بحيث يمكنهم الاستيلاء على ألمانيا. وبعد ذلك أدركنا أن «فان دير لوبي» كان ضحية سوء استخدام المعرفة الطبية والتقنيات النفسية بمهارة شيطانية، تحول من خلالها إلى إنسان آلي مفيد وسلبي وخانع، لا يرد على محققيه إلا بنعم أو لا خلال معظم جلسات المحكمة، وفي لحظات قليلة كان يهدد بالخروج عن دوره المفروض عليه. وحتى في ذلك الوقت، كانت هناك شائعات بأن الرجل يُعطى عقاقير ليخضع، وإن لم يتسن لنا قط التأكد من ذلك[9].

وبين عامي 1936 و1938، أصبح العالم أكثر وعيًا بالخطر الحقيقي جدًّا للقهر العقلي الممنهج في مجال السياسة، وكانت تلك فترة محاكمات التطهير في موسكو التي نتذكرها جيدًا. لقد كان من المستحيل تقريبًا الاعتقاد بأن البلاشفة القدامى المتفانين الذين وهبوا حياتهم لحركة ثورية، انقلبوا فجأة إلى خونة غادرين، وعندما كان المتهمون يعترفون واحدًا بعد الآخر ويضرب صدره، كانت ردة الفعل العامة أنه عرض كبير للخداع، بهدف أن يكون حركة دعائية فقط للعالم غير الشيوعي. ثم اتضح أنه كانت هناك مأساة أكبر تتم. ذات يوم كان الرجال الذين خضعوا للمحاكمة بشرًا، وقد تغيروا الآن بمنهجية ليصبحوا دمى متحركة. وكان محركو الدمى ينسقون حركاتهم ويتلاعبون بأفعالهم، وبعدما بدأت الأخبار تتسرب من آن إلى آخر إلى جميع أنحاء العالم، وظهر كيف يمكن تغيير الثوار الأشداء الصارمين إلى قطعان من الخراف الخانعة التي تتهم نفسها، بدأت تتهاوى آخر بقايا الاعتقاد في المجتمع الحر المفترض إقامته في روسيا السوفياتية.

وفي السنوات الأخيرة شاع مشهد الاعتراف بالجرائم غير المقترفة أكثر فأكثر. وتتراوح القائمة من الشيوعية إلى عدم الشيوعية إلى معاداة الشيوعية، وتشمل

---

9 - تقرير الطب النفسي حول قضية "فان دير لوبي" نشره بونهوفر Bonhoeffer، وزوت Zutt، على الرغم من أنهما لم يكونا على معرفة بـ "متلازمة الإبادة العقلية"، ولم يطلع عليها قادتهم السياسيون، إلا أنهما يقدمان وصفًا جيدًا للسلوك المرضي المتبلد، والتغير الهائل في حالته المزاجية، وينكران استخدام المخدرات. (المؤلف 1)

رجالًا من أطياف مختلفة، مثل التشيكي البلشفي «رودولف سلانسكي»[10]، والكاردينال المجري «جوزيف ميندزنتي».

القهر العقلي واحتلال العدو

إن أولئك الذين عاشوا بيننا في بلدان احتلها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية، تعلموا أن يفهموا جيدًا كيف يمكن إجبار الناس على الاعترافات الزائفة، وخيانة من يحبونهم. وأنا شخصيًّا ولدت في هولندا وعشت فيها إلى أن أجبرتني قوات الاحتلال النازية على الهروب. في الأيام الأولى للاحتلال، عندما سمعنا أول أوصاف من الشهود العيان لما حدث خلال التحقيقات النازية مع عمال المقاومة الأسرى، أصابنا الخوف وأخذنا حذرنا.

كان أول أهداف الجستابو إجبار المعتقلين تحت وطأة التعذيب على خيانة أصدقائهم والإبلاغ عن ضحايا جدد من أجل المزيد من حالات التعذيب. كانت كتيبة العاصفة[11] تطالب بالأسماء والمزيد من الأسماء، ولا تعبأ بالتأكد بما إذا كانت هذه الأسماء تُقدَّم زورًا تحت تأثير الضغط بالترهيب. وأتذكر جيدًا أحد الاجتماعات التي عقدتها مجموعة صغيرة من رجال المقاومة لمناقشة تنامي الخوف وعدم الأمان. كان بإمكان كل شخص في الاجتماع أن يتوقع ذكر اسمه واختطافه من الجستابو في وقت ما. هل يمكن أن نواجه المعاملة النازية، أم نجبر نحن أيضًا على أن نصبح مخبرين؟ كان المناهضون للنازية يطرحون هذا السؤال في كافة الدول المحتلة.

وخلال السنة الثانية من الاحتلال، أدركنا أنه كان أفضل لنا ألا نتواصل مع

---

10 - رودولف سلانسكي Rudolf Slansky (1901-1952): كان سياسيًا شيوعيًا تشيكيًا رائدًا، شغل منصب السكرتير العام للحزب بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أحد أبرز المؤسسين والمنظمين للحكم الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا. (المراجع)

11 - كتيبة العاصفة Brown Shirts: أو Sturmabteilung بالألمانية، كانت الجناح شبه العسكري للحزب النازي (1921-1945). لعبت دورًا مهمًا في صعود "أدولف هتلر" إلى السلطة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. (المراجع)

بعضنا بعضًا. لم يكن من الأمان التواصل بين أكثر من اثنين. حاولنا أن نجد الوسائل الوقائية الطبية والطب نفسية لتقوينا ضد التعذيب النازي الذي توقعناه. في حقيقة الأمر، أجريت بنفسي بعض التجارب لأعرف إن كانت المخدرات ستقوينا ضد الألم أم لا، غير أن النتائج كانت غريبة؛ فالمخدرات يمكن أن تجعل الألم غير محسوس، لكن تأثيرها المخدر في الوقت نفسه يجعل الناس أكثر عرضة للضغط العقلي. حتى في ذلك الوقت كنا نعرف - كما عرف النازيون أنفسهم - أن الألم البدني المباشر لم يكن السبب الذي يكسر الناس، وإنما كان السبب يكمن في الإذلال المستمر والتعذيب العقلي. تمكن أحد مرضاي، وقد تعرض لتحقيق مماثل، من التزام الصمت، وقد رفض الإجابة على أي سؤال، وفي النهاية أطلق النازيون سراحه. لكنه لم يتعافَ قط من خبرته المريعة، وكان يتحدث بصعوبة حتى عندما عاد إلى وطنه. أصبح ببساطة يجلس – متألمًا ومفعمًا بالسخط – وبعد عدة أسابيع وافته المنية. لم تكن آلامه الجسدية هي التي قتلته؛ قتله مزيج من الخوف والكبرياء المجروح.

لقد أجرينا الكثير من المناقشات حول الطرائق الممكنة لتقوية أفراد المقاومة التابعين لنا المتخفين تحت الأرض إذا ما وقعوا في الأسر، أو منعهم من خيانة أنفسهم في نهاية الأمر. فهل ينبغي إعطاء بعض الأشخاص التابعين لنا كبسولات للانتحار؟ يمكن أن يكون هذا ملاذًا أخيرًا، فالمخدرات مثل المورفين تتسبب فقط في التخدير والارتياح المؤقتين؛ وعلاوة على ذلك، فإن العدو سيجد بكل تأكيد تلك الكبسولات ويصادرها.

لقد سمعنا عن محاولات ألمانيا أن تعطي طياريها كوكايين وأمفيتامين للاستخدام إذا ما شعروا بالإرهاق في أثناء القتال، لكن العقارين كليهما لم يكن ليُعتمد عليهما. ربما ينشطان الجسد بجعله أقل حساسية تجاه الألم، لكنهما في الوقت نفسه يتسببان في بلادة العقل. وإذا ما تناولهما أفراد المقاومة المختفين تحت الأرض، كما أظهرت التجارب، فربما لا تشعر أجسادهم بتأثيرات التعذيب البدني، لكن عقولهم المشوشة

ربما تجعل النازيين يخدعونهم بشكل أسهل.

كما جربنا أيضًا تدريبات ممنهجة للاسترخاء الذهني والتنويم المغناطيسي الذاتي (مماثلة لتدريبات اليوجا) لجعل الجسد أقل حساسية للجوع والألم. إذا ما ثبت شخص ما تركيزه على تطوير إدراك واعٍ لوظائف الجسم التلقائية مثل التنفس، يمكن تقليل وظيفة الانتباه لقشرة الدماغ، ويقل الوعي بالألم. وتلك الحالة من عدم الإحساس بالألم يمكن أن تتحقق في بعض الأحيان من خلال تدريبات التنويم المغناطيسي الذاتي. لكن القليل جدًّا من الأشخاص التابعين لنا كانوا قادرين على الوصول بأنفسهم إلى تلك الحالة من الخدر.

وفي النهاية توصلنا إلى تلك الخدعة النفسية البسيطة: عندما لا يعود في وسعك التحايل على العدو أو مقاومة الكلام، فإن أفضل شيء تفعله أن تتكلم كثيرًا. والفكرة من وراء هذا التصرف تتمثل في أن تبقى متجهمًا وتتصرف بحماقة؛ وتتظاهر بالجبن وتعترف بأكثر مما يطلب منك الاعتراف به. ولاحقًا أصبح في وسعنا أن نتأكد من نجاح هذه الطريقة في عدة حالات. كما تمكنا من التحقق أن هذه الوسيلة كانت ناجعة في حالات عديدة. أربكت هذه الطريقة، طريقة الطائشين السذج، العدو أكثر مما أربكهم الأبطال الصامتون الذين انهارت قدرتهم على التحمل في النهاية بالرغم من كل شيء.

اضطررْتُ إلي الهروب من هولندا بعد أن حذرني شرطي من أن اسمي ذكر في أحد التحقيقات. وكان النازيون قد استجوبوني مرتين حول أمور صغيرة لكن بدون تعذيب جسدي. وعندما أمسكوا بي لاحقًا في بلجيكا، نتيجة خيانة على الأرجح، كان عليَّ الخضوع لتحقيق أوليٍّ مطول تعرضت فيه للضرب، لكنه لم يكن مبرحًا لحسن الحظ. بدأ التحقيق بطريقة جيدة نوعًا ما. من الواضح أن الضابط النازي المسؤول اعتقد أنه سيكون قادرًا على الحصول على معلومات مني بوسائل ودية. في الحقيقة، أجرينا كذلك مناقشة (حيث إنني طبيب نفسي) حول الوسائل المستخدمة في التحقيق. بيد أن الضابط حين وجد أن المقاربة الودية لم تكن مجدية،

تغير مِزاجه، وتصرف بكل الصفات السادية التي كنا نتوقعها من نوعه. لكنني لحسن الحظ تمكنت من الفرار من بلجيكا في تلك الليلة تحديداً قبل أن يبدأ التحقيق الأكثر منهجية، الذي ينطوي على تعذيب أكثر.

عقب الوصول إلى المقرات الرئيسية في لندن بعد رحلة مليئة بالمغامرة عبر فرنسا وإسبانيا، أصبحت رئيس قسم علم النفس للقوات الهولندية في إنجلترا. وفي هذا المنصب الرسمي، كنت قادرًا على تجميع البيانات حول ما يحدث لملايين الضحايا من الإرهاب والتعذيب على أيدي النازيين. بعد ذلك استجوبْتُ وعالجت العديد من الهاربين من السجون ومعسكرات الاعتقال. وقد صار هؤلاء الأشخاص خبراء حقيقيين في المعاناة. علَّمنا هذا التنوع في ردود فعل الإنسان في ظل هذه الظروف الجهنمية حقيقة بشعة: يمكن تحطيم أرواح معظم البشر، ويمكن أن ينحدر البشر إلى مستوى السلوك الحيواني، وفي النهاية يفقد كل من المُعذِّب والضحية كل الكرامة الإنسانية.

منحتني حكومتي سلطة فحص مجموعة من الخونة، واستجوبْتُ أيضًا معتقلين نازيين. وعندما أراجع كل خبرات زمن الحرب، وكل الارتباك حول الشجاعة والجبن والخيانة والروح المعنوية والقوة الذهنية، يجب أن أعترف بأن عينيَّ كانتا مفتوحتين فعليًّا من الدهشة بعد دراسة محاكمات نورنبرغ للقادة النازيين(12). وقد كشفت لنا هذه المحاكمات القصة الحقيقية لوسائل القهر الممنهجة التي استخدمها النازيون. وفي الوقت نفسه تقريبًا بدأنا نعرف المزيد حول الإستراتيجية النفسية المنحرفة التي كانت تستخدمها روسيا والدول التي تسير في فلكها.

---

12 - محاكمات نورنبرغ Nuremberg trials: من أشهر المحاكمات التي شهدها التاريخ المعاصر، تناولت المحاكمات في فترتها الأولى مجرمي حرب القيادة النازية بعد سقوط الرايخ الثالث، وفي الفترة الثانية تمّت محاكمة الأطباء الذين أجروا التجارب الطبية على البشر. عُقدت أول جلسة في 20 نوفمبر 1945، واستمرّت الجلسات حتّى 1 أكتوبر 1946. (المراجع)

السحر والتعذيب

إن التقنيات الخاصة المستخدمة في العصر الحديث لتحطيم عقل الإنسان وإرادته، وانتزاع اعترافات منه لأغراض الدعاية السياسية جديدة نسبيًّا ومعدلة للغاية. إلا أن الاعتراف بالإجبار نفسه ليس جديدًا. منذ عصور سحيقة احتاج الطغاة والمستبدون إلى هذه الاعترافات "الطوعية" لتبرير أعمالهم الشريرة. إن المعرفة التي يمكن من خلالها التأثير على عقل الإنسان وترويضه وتحطيمه لينحط إلى درك الخضوع والهوان، أقدم من مفهوم الاستبداد المعاصر للتلقين القسري. لقد استخدم الشامان[13] البدائي طقوسًا تدفع الرعب في النفوس ليجعل الضحية يصل إلى تلك الحالة من التنويم المغناطيسي تحت تأثير الخوف، ويجعله يخضع لكل ما يقترحه عليه. كذلك ابن البلد الذي يُلقي عليه ممارس الطب تعويذة الموت، فقد يصبح منوَّمًا بدافع من الخوف، فيجلس ببساطة ويتقبل مصيره ويموت (**مالينوفسكي**)[14].

على مر التاريخ، كان لدى البشر فهم حدسي بأنه يمكن التلاعب بالعقل. وقد جرى العمل على تطوير إستراتيجيات معقدة لتحقيق هذا الهدف. طقوس النشوة والأقنعة المرعبة، والضوضاء الصاخبة، والهتافات غريبة – استخدمت كل هذه الأساليب لترغم الحشود على القبول بمعتقدات قادتهم. حتى وإن قاوم شخص عادي في البداية شامانًا وحشيًّا أو أحد ممارسي الطب، فإن طقوس التنويم المغناطيسي تحطم إرادته تدريجيًّا.

والوسائل الأكثر إيلامًا ليست جديدة هي الأخرى، فعندما ندرس التقارير القديمة عن محاكم التفتيش، أو كثير من المحاكمات التي عقدت للساحرات في كل

---

13 - الشامان shaman: في ديانات معينة هو الشخص الذي يُعتقد أن لديه سلطات خاصة للتحكم في الأرواح الطيبة والشريرة أو التأثير عليها، مما يتيح له اكتشاف سبب المرض وسوء الحظ وما إلى ذلك. (المراجع)

14 - برونسيلاف مالينوفسكي Bronisław Malinowski (1884 - 1942): أنثروبولوجي بولندي، يعد من أهم المتخصصين في الأنثروبولوجيا في القرن العشرين. (المراجع)

من أوروبا وأمريكا، نعرف الكثير عن هذه الوسائل؛ واختبار الطفو أحد الأمثلة. فمن كانوا يتهمون بالسحر يلقون في النهر، وأقدامهم وأيديهم مقيدة معًا؛ فإذا لم يغرق الجسد، كانت الضحية تسحب على الفور من الماء وتحرق على الوتد. إن عدم غرق الضحية يثبت عليها التهمة. ومن ناحية أخرى، إذا ما انصاع المتهم لقوانين الجاذبية وغرق في قاع النهر، فإن الجسد الغارق كان يُخرج بمراسم احتفال من النهر وتعلن براءته. وبالتالي لم تكن هناك خيارات كثيرة أمام الضحية!

كان الإنسان مبدعًا جدًّا في تطوير وسائل تلحق الأذى بأخية الإنسان. وبشغف هائل اخترع تقنيات تبعث أشد الآلام في أضعف أجزاء جسد الإنسان. إن آلة شد الجسد، أو المسمار الملولب لسحق الإبهام آلتان من الأدوات القديمة التي استخدمت ليس من الحكام البدائيين فقط، لكن استخدمها أيضًا ممن يوصفون بأنهم مستبدون وطغاة متحضرون.

ولكي نفهم التعذيب في العصر الحديث فهمًا أفضل، علينا أن نتذكر على الدوام حقيقة أنه منذ القدم لم يكن الغرض قط من التعذيب الجسدي وآلة مط الجسد إيلام الضحية فحسب. ربما لم يعبر القاضي والجلاد في القرون الوسطى عن فهمهما لمصطلحات معقدة، لكنهما كانا مع ذلك على دراية بأن هناك علاقة روحية خاصة وتفاعلًا ذهنيًّا بين الضحية وبقية المجتمع. وكان لابد من تنفيذ أكثر عمليات التعذيب والتنكيل علنًا في عروض عامة. وبعد المعاناة من أكثر الآلام المبرحة، لم يكن بإمكان الساحرة أن تعترف فقط بالعمليات الجنسية الفاسقة والصادمة مع الشيطان، لكنها كانت تصدق تدريجيًّا القصص التي لفقتها وتموت مقتنعة بذنبها. وكان ذلك الطقس بأكمله من تحقيق وتعذيب يجبرها في النهاية على الخضوع إلى فانتازيا قضاتها ومتهِميها، حتى إنها كانت تشتاق إلى الموت في النهاية؛ كانت تريد أن تُحرق على الوتد لطرد شياطينها والتكفير عن ذنوبها.

وكان هؤلاء القضاة والجلادون أنفسهم يدركون أيضًا أن محاكماتهم للساحرات لم يكن الهدف منها فقط تعذيب الساحرات، لكن الأهم كذلك تعذيب المتفرجين

الذين تماهوا مع الضحايا وإن كان بلا وعي. وهذا بالطبع أحد الأسباب التي جعلت تنفيذ الحرق والشنق علانية مناسَبة للعروض الكبرى. وهكذا انتشر الرعب، وتحدث كثير من القضاة بحماس عن الإجراء الوقائي لمثل هذا التعذيب. ومن الناحية النفسية يمكننا أن نرى هذه الآلية برمتها باعتبارها وسيلة ابتزاز للتعاطف البشري والميل العام للتماهي مع الآخرين.

ومنذ فترة بعيدة تعود إلى عام 1563 نشر الطبيب الدنماركي الشجاع «**يوهانس وير**»[15] أهم أعماله، **عن أوهام الشياطين**، الذي يعلن فيه أن اتهام النفس الطوعي والشامل للنساء المسنات – اللائي كن يتعرضن بسببه إلى التعذيب والموت من محققيهن - كان عملًا في حد ذاته مستلهمًا من الشيطان، وخدعة من خدع الشياطين لا تطال بالعذاب النساء البريئات فقط، لكن أيضًا قضاتهن المتهورين. كان «يوهانس وير» أول طبيب يقدم ما عرف بعد ذلك بمفهوم الطب النفسي عن «**الهذاء**- Delusion» **والعمى الذهني**. وأينما كان لكتابه تأثير توقف اضطهاد الساحرات، وقد حدث ذلك في بعض الدول قبل مائة وخمسين عامًا من وضع حد نهائي لهذا الاضطهاد في العالم المتحضر. وقد أصبح عمله وأفكاره أحد أهم الأدوات لمكافحة هذاء الساحرات والتعذيب البدني «باشويتز»[16]. وقد أدرك وير آنذاك أن الساحرات كن كِباش فداء للارتباك الداخلي، ويأس قضاتهن، وروح العصر عمومًا.

التحسينات التي أدخلت على آلة شد الجسد

يمكن استخدام كل المعارف في الخير أو في الشر، وعلم النفس ليس محصنًا ضد

---

15 - يوهانس وير Johannes Wier (1515 - 1588): كان طبيبًا هولنديًا وخبيرًا في التنجيم وعالم الشياطين. والعمل المشار إليه هو أشهر أعماله، وعنوانه الأصلي بالكامل: **عن أوهام الشياطين وعن التعاويذ والسموم** *De Praestigiis Daemonum et Incantationibus ac Veneficiis* (المراجع)

16 - كورت باشويتز Baschwitz (1886 - 1968): صحفي ألماني، وأستاذ في الصحافة والدعاية والرأي العام، وباحث في علم نفس الحشود. (المراجع)

هذا القانون العام؛ فقد قدم علم النفس للإنسان وسائل جديدة للتعذيب وانتهاك العقل. وعلينا أن نكون أكثر دراية بماهية هذه الأساليب والتقنيات إذا كنا نرغب في مكافحتها بنجاح. يمكن أن تكون أكثر إيلامًا وأكثر قدرة على شل العقل من آلة شد الجسد. إن الشخصيات القوية يمكنها أن تحتمل المعاناة الجسدية، ويكون لها عادة دور في زيادة صلابة المقاومة، ولكن مهما يكن تكوين الضحية، فإن التعذيب الجسدي يؤدي في النهاية إلى فقدان للوعي بشكل وقائي. غير أن تحمل التعذيب العقلي يؤدي إلى تسلل الانهيار الذهني؛ وهو ما يتطلب شخصية أقوى.

ما نطلق عليه غسيل الدماغ (كلمة مشتقة من الكلمة الصينية هسي- ناو Hsi-Nao) هو أحد الطقوس المعقدة من التلقين، والتحويل، والاتهام الذاتي المستخدم لتغيير الشخص غير الشيوعي ليصبح تابعًا ذليلًا للحزب (هنتر)[17]. وأما مصطلح «**إبادة العقل-** Menticide» فهو عبارة من صياغتي، وهي مشتقة من كلمة- mens، أي العقل، وكلمة- caedere، أي يقتل [وهنا اتبعت الاشتقاق نفسه الذي تستخدمه الأمم المتحدة لصياغة كلمة «**إبادة جماعية**- genocide»؛ وتعني التدمير الممنهج لجماعة عرقية][18]. إن الكلمتين كلتيهما تشيران إلى التعديل المنحرف نفسه لآلة شد الجسد، بالتظاهر بأنه يبدو في مستوى أكثر قبولًا، لكنه أسوأ ألف مرة وأكثر فائدة بألف مرة للمحقق.

إن إبادة العقل جريمة قديمة ضد عقل الإنسان وروحه، لكنها أخذت مؤخرًا شكلًا منهجيًا. إنها نظام متماسك للتدخل النفسي والانحراف القضائي، يمكن للمستبد القوي من خلاله أن يطبع أفكاره الانتهازية الخاصة في أذهان من يخطط لاستغلالهم وتدميرهم. وفي النهاية يجد الضحايا المروَّعون أنفسهم مجبرين على التعبير عن الانصياع التام لرغبات الديكتاتور. وعبر الإجراءات القضائية التي

---

17 - إدوارد هنتر Hunter (1902 - 1978): صحفي أمريكي، مؤلف كتاب **غسيل الدماغ في الصين الحمراء**-*Brain-washing in Red China* (1953). (المراجع)

18 - وفي الترجمة أتبع الأسلوب نفسه وأترجم المصطلح إلى إبادة العقل. (المراجع)

يشغل فيها الضحية تسجيلًا داخليًّا أعده له محققوه في فترة سابقة، يتم إغواء الرأي العام وإثارة دهشته بشكل غير متوقع. «اعترف الرجل!» ويمكن استخدام اعترافه للدعاية، أو للحرب الباردة، أو لبث الخوف والرعب في النفوس، أو لاتهام الأعداء زورًا أو لممارسة الضغط الذهني المستمر على الآخرين.

وتتمثل إحدى النتائج المهمة لهذا الإجراء في الارتباك الشديد الذي يخلقه في عقل كل ملاحظ، سواء أكان صديقًا أم عدوًّا. وفي النهاية لا يكون بمقدور أحد تمييز الحقيقة عن الزيف. يحتاج الحاكم الشمولي في البداية، لتحطيم عقل الرجال، إلى فوضى عقلية واسعة النطاق وتشويش لفظي؛ لأنهما كليهما يشلان المعارضة ويتسببان في تدهور معنويات العدو - ما لم يكن خصومه على دراية بالهدف الحقيقي للديكتاتور. ومن هذه اللحظة فصاعداً بإمكانه أن يشيد نظامًا منصاعًا له.

في كل من قضيتي «ميندزنتي» و«شوابل»، وثقنا تقارير عن أساليب إبادة العقل كما كانت تستخدم لتحطيم عقول رجال شجعان وإراداتهم.

لننظر أولًا في قضية الكاردينال «ميندزنتي»، الذي اتهم بتضليل الشعب المجري والتعاون مع الأعداء؛ أي مع الولايات المتحدة. في كشفه لظروف اعتقال الكاردينال «ميندزنتي»، أوضح «ستيفن سويفت»[19] بالرسوم البيانية ثلاث مراحل اعتيادية تستخدم في «التهيئة» النفسية للمساجين السياسيين: المرحلة الأولى موجهة إلى انتزاع الاعتراف؛ حيث تنهال الأسئلة على الضحية ليلًا ونهارًا، وتقدم له كميات غير كافية من الطعام على فترات غير منتظمة، ولا يسمح له بأية راحة تقريبًا، ويبقى في غرفة التحقيق لساعات متواصلة، بينما يتناوب عليه المحققون. وفي تلك الحالة من الجوع والإنهاك والأعين الزائغة والصداع الناتج عن الضوء المباشر، يصبح السجين أقرب ما يكون إلى حيوان مطارد.

... بعد أن وقف الكاردينال لمدة ست وستين ساعة [تقرير سويفت]، أغلق

19 - ستيفن سويفت Stephen K. Swift: مؤلف كتاب عن قصة الكاردينال (المترجم).

عينيه وبقي صامتًا. لم يرد على الأسئلة حتى بالإنكار. وقد ربت الكولونيل المسؤول عن هذه المناوبة على كتف الكاردينال وسأله لماذا لم يجب، فرد عليه الكاردينال: «ضع نهاية لكل هذا. اقتلني! أنا مستعد للموت!» قيل له إنه لن يُلحق به أذى، وإنه يمكنه إنهاء كل هذا ببساطة بالإجابة على أسئلة معينة.

... وبحلول يوم السبت أضحى التعرف عليه صعبًا، فطلب شرابًا آخر، وفي تلك المرة رفض الأمر. كانت قدماه ورجلاه قد تورمت إلى الدرجة التي تسببت له في ألم شديد، وسقط عدة مرات.

وبالإضافة إلى الرعب الذي عانى منه الضحية المتهم خارجيًا، يجب إضافة الرعب الذي انتابه داخليًّا؛ إذ كان يلاحقه عدم ثباته العقلي، الذي لا يمكن أن ينتج دومًا الإجابة نفسها على سؤال متكرر. وحيث إنه إنسان لديه ضمير يلاحقه شعور بالذنب الخفي المحتمل، ومهما كانت درجة ورعه، فإن هذا يقوض من وعيه العقلاني بالبراءة. إن هلع «مغسول الدماغ» هو إجمالي الارتباك الذي يعاني منه بشأن كافة المفاهيم. إن تقييماته ومعاييره مدمرة، ولا يمكنه الإيمان بأي شيء موضوعي بعدئذ باستثناء المنطق الذي يملى عليه ويلقنه إياه من هم أقوى منه. والعدو يعرف هذا؛ يعرف أن حياة الإنسان، تحت السطح بكثير، مشيدة من تناقضات داخلية. إنه يستخدم هذه المعرفة ليهزم مغسول الدماغ ويربكه. وهذا التحول المستمر للمحققين يجعل الإيمان بالتفكير المترابط منطقيًّا أكثر استحالة. فعندما يتكيف الضحية بصعوبة مع أحد المحققين يتعين عليه أن يغير من بؤرة تركيزه مع محقق آخر.

ومع ذلك فإن هذا الصدام الداخلي بين المعايير والمفاهيم، هذا التناقض الداخلي بين الأفكار والمعتقدات جزء من الاعتلال الفلسفي في عصرنا!

وتلاحق الكاردينال، بصفته كائنًا اجتماعيًّا، الحاجة إلى علاقات وصحبة إنسانية جيدة. وهذا الإيحاء المتكرر باستمرار بذنبه يدفعه إلى الاعتراف. وباعتباره شخصًا يعاني، يجد أنه يشعر بالابتزاز من حاجته الداخلية لأن يترك وحده ودون إزعاج،

ولو لبضعة دقائق فقط. ومن الداخل والخارج يجد نفسه مدفوعًا لا محالة تجاه توقيع الاعتراف الذي أعده مضطهدوه. لماذا يجب أن يقاوم أبعد من ذلك؟ لا يوجد أي شهود واضحين على بطولته، ولا يمكنه إثبات شجاعته المعنوية ونزاهته بعد موته. إن لب استراتيجية إبادة العقل هو سلب كل الأمل وكل التوقعات وكل الإيمان بالمستقبل. إنها تدمر العناصر نفسها التي تبقي العقل حيًا. يصبح الضحية وحيدًا تمامًا.

[ملاحظة: هذا الهجوم المستمر على الضمير البشري والإحساس بالذنب الناتج عن الاتهامات الذاتية في اللاوعي، عبَّر عنها ببراعة المؤلف «فرانز كافكا» في رواية **المحاكمة**. في تلك الرواية لا يعرف الضحية أبدًا سبب اتهامه، لكن يقوده إحساسه الداخلي بالذنب إلى الاعتراف. توقع «كافكا» عهد الابتزاز من أجل الاعتراف، فقد كتبت روايته قبل ثلاثينيات القرن العشرين. وتم تناول نفس الموضوع من وجهة نظر نفسية من «تيودور رايك»[20] في كتابه «**الإكراه على الاعتراف والحاجة للعقاب**» (انظر الفصل الثالث).]

ولو ثبت أن بمقدور عقل الضحية الصمود كثيرا، فهو يعطى المواد المخدرة لإرباكه: المسكالين، والماريجوانا، والمورفين، والباربيتورات، والكحول[21]. وإذا انهار جسده قبل أن يذعن عقله، يتم إعطاؤه منبهات: بنزيدرين، وكافيين، وكورامين[22] التي تساعد كلها على الحفاظ على وعيه حتى يعترف. إن العديد من المواد المخدرة والمنبهات تساعد على إثارة التبعية العقلية والارتباك القسري، الذي يمكن أن يؤدي أيضًا إلى فقدان الذاكرة، بل وحتى نسيان التعذيب نفسه. تحقق تقنيات التعذيب النتائج المرجوة، لكن الضحية ينسى ما حدث بالفعل خلال

---

20 - **تيودور رايك** Theodor Reik (1888 - 1969): محلل نفسي أمريكي يهودي من أصل نمساوي. (المراجع)

21 - المسكالين mescaline: من المركبات التي تسبب الهلوسة. الباربيتورات barbiturates: مجموعة من الأدوية المهدئة والمنومة. (المراجع)

22 - بنزيدرين benzedrine: عقار من الأمفيتامين. كورامين coramine: علاج منبه كان يستخدم لعلاج الجرعات الزائدة من المهدئات. (المراجع)

التحقيق. (إن الأطباء الذين يستخدمون مشتقات الأمفيتامين في العلاج، وهي مشتقات تساعد المرضى عندما تحقن في مجرى الدم على تذكر الخبرات التي نسوها منذ فترة، على دراية بقدرة الدواء على النسيان الهادئ للفترة التي كان يعطى فيها المريض العقاقير، ويحقق فيها معه).

بعدئذ يتم تدريب الضحية على تقبل اعترافاته، مثلما يدرب الحيوان على أداء الخدع. تعاد قراءة الاعترافات الزائفة وتُكرَّر وتُقحَم في دماغه. يُجبَر على أن ينتج في ذاكرته مرة تلو الأخرى جرائمه الخيالية، والتفاصيل الزائفة التي تقنعه في النهاية بجريمته. في المرحلة الأولى، يجبر على الخضوع الذهني للآخرين، وفي المرحلة الثانية يدخل في حالة التنويم المغناطيسي الذاتي، ويقنع نفسه بالجرائم الملفقة. وفقًا لـ «سويفت»: «إن الأسئلة خلال التحقيق تتناول الآن بالتفصيل 'اعتراف' الكاردينال. أولًا تقرأ عليه تصريحاته؛ ثم تصريحات المعتقلين الآخرين المتهمين بالتواطؤ معه؛ ثم توضيحات هذه التصريحات. وفي بعض الأحيان كان الكاردينال يتجهم، وفي أخرى يكون منزعجًا ومنفعلًا للغاية. لكنه كان يجيب على كل الأسئلة طوعًا، ويكرر كل الجمل – مرة، أو مرتين، أو حتى ثلاث مرات حين يطلب منه ذلك.» *(لاسيو - Lassio)*

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة من التحقيق وإبادة العقل، يكون المتهم - وقد أصبح الآن مهيأً تمامًا لتقبل الذنب الذي فرض عليه - مدربًا على شهادة الزور ضد نفسه والآخرين. لا يكون عليه إقناع نفسه بعد ذلك من خلال التنويم المغناطيسي الذاتي؛ يتحدث فقط «بصوت سيده.» إنه معد للمحاكمة، ولين تمامًا؛ ويصبح نادمًا ويرغب في المحاكمة. يصير رضيعًا بين يدي محققيه، ويطعم كما الطفل، ويدلل بالكلمات كما الطفل.

[ملاحظة: توجد دراسة استقصائية موسعة عن المراحل النفسية المختلف المتعلقة بإبادة العقل وغسيل الدماغ، نتناولها في نهاية الفصل الرابع – لماذا يخضعون: التحليل النفسي للاعتراف الزائف].

إبادة العقل في كوريا

والآن لنلقِ نظرة على قضية «شوابل». فيما يخص مخططها العام فإنها مشابهة لقصة «ميندزنتي»؛ إنها تختلف فقط في تفاصيلها. وبصفته ضابطًا في قوات مشاة البحرية الأمريكية يحارب مع الأمم المتحدة في كوريا، اعتقله العدو. يتوقع الكولونيل حمايته بموجب القانون الدولي، وبموجب الأحكام المتعلقة بالضباط الأسرى في الحرب، والتي قبلتها كل الدول. ومع ذلك، يتضح له ببطء أنه خاضع إلى نوع من المعاملة مختلف تمامًا عما توقعه. إن العدو لا ينظر إليه باعتباره أسير حرب، ولكن باعتباره ضحية يمكن استخدامه لأغراض دعائية.

إنه يخضع لضغوط لكنها بطيئة ومستمرة مصممة لتحطيمه ذهنيًا. الإذلال، والقسوة، والمعاملة غير الإنسانية، والإهانة، والترهيب، والتجويع، والتعريض للبرد القارس – استخدمت جميعها لتحطيم إرادته وإضعافه. إنهم بحاجة إلى استخراج المعلومات العسكرية منه بطرائق ملتوية، واستخدامها أداة في التهم الدعائية. يشعر بأنه وحيد تمامًا؛ إنه محاط بالقذارة والحشرات. وفي النهاية عليه الوقوف لساعات والإجابة على الأسئلة التي يرشقه بها محققوه. إنه يعاني من آلام في الظهر وإسهال، ولا يسمح له بالاغتسال أو الحلاقة، ولا يعرف ما يحدث له بعد ذلك. وتستمر هذه المعاملة لأسابيع.

ثم تزداد ساعات التحقيق الممنهج والمتكرر والاضطهاد. لم يعد يجرؤ على أن يثق في ذاكرته. كانت هناك فرق جديدة من المحققين يوميًّا، وكل فريق جديد يشير إلى عثراته وأخطائه الجديدة. لم يعد يستطيع النوم. يخبره محققوه يوميًّا بأن لديهم الكثير من الوقت، ويدرك أنهم على الأقل في هذا الجانب يقولون الحقيقة. يبدأ بالشك فيما إن كان بإمكانه مقاومة مقترحاتهم المغرية. يخبرونه بأنه إذا اعترف بذنبه فسوف يعامل معاملة أفضل.

إن المحقق غادر ويعرف بالضبط ما يريده. إنه يريد أن يقع الضحية في أسر التنويم المغناطيسي الذي يدفع إليه ببطء. إنه يريد اعترافًا موثقًا جيداً بأن الجيش

الأمريكي شن حربًا بكتيرية، وأن الأسير نفسه كان له دور في مثل هذه الحرب الجرثومية. يريد المحقق هذا الاعتراف مكتوبًا لأنه سوف يعطي انطباعًا مقنعًا ويصدم العالم. ابتليت الصين بالجوع والأوبئة؛ ومثل هذا الاعتراف يفسر ارتفاع معدل المرض ويبرئ الحكومة الصينية، التي تراجعت شعبيتها كثيرًا. ولذلك يجب إعداد الكولونيل لاعتراف ممنهج يدلي به أمام مجموعة دولية من الخبراء الشيوعيين. يتم إنهاكه عقليًا وجسديًا، وتغرس «الحقائق» الشيوعية في عقله يوميًّا.

أصبح الكولونيل في واقع الأمر منوَّمًا مغناطيسيًا؛ إنه قادر الآن على إعادة تفاصيل ودقائق الاعتراف الذي أملاه عليه سجانوه. إنها حقيقة علمية معروفة جيدًا أن الذاكرة السلبية عادة ما تتذكر الحقائق التي تعلمتها تحت تأثير التنويم المغناطيسي أفضل من تلك التي تتعلمها في حالة الوعي اليقظ. إنه يستطيع حتى كتابة بعضها. في النهاية، تصبح كل القطع الصغيرة متلائمة، مثل لعبة تركيب الصور- jigsaw puzzle، لتصبح صورة كاملة ومرتبة جيدًا؛ إنها تمثل جزءًا من المستند الذي أعده آسروه مسبقًا. وهذا المستند يسلم ليد الكولونيل، بل ويسمح له حتى بإجراء بعض التغييرات الطفيفة في صياغة الجمل قبل أن يوقعه.

والآن، أصبح الكولونيل محطمًا تمامًا. استسلم. لم يعد يشعر بالواقع؛ اكتمل تماهيه مع العدو. بعد أسابيع من توقيع الاعتراف كان في حالة اكتئاب. وأمنيته الوحيدة الآن أن ينام، وأن يستريح من هذا كله.

عادة ما يحاول الإنسان أن يصمد إلى درجة تتخطى حدود تحمله لأنه مازال يعتقد أن هؤلاء المعذِبين لديهم الحد الدنى من الأخلاق، وأنهم في النهاية سيدركون مدى فداحة جرائمهم ويتركونه وشأنه؛ وهذا هذاء. إن الطريقة الوحيدة لتقوية دفاعات شخص ما ضد هجمة منظمة على العقل والإرادة أن تفهم بطريقة أفضل ما يحاول العدو أن يفعله وتفوقه دهاء. بالطبع، يمكن للمرء أن يقسم بأن يصمد حتى الموت، لكن حتى راحة الموت في يد المحقق. يمكن إلقاء الناس على حافة الموت، ثم يجري إنعاشهم ويعودون للحياة مرة أخرى؛ بحيث يمكن تكرار

عمليات التعذيب. إن محاولات الانتحار متوقعة ويمكن إحباطها.

في رأيي يصعب على أي شخص أن يقاوم مثل هذه المعاملة. يعتمد الأمر كله على قوة أنا الشخص، والتقنية المستنزفة التي يتبعها المحقق. ولكل شخص حدوده الخاصة في التحمل، لكن حقيقة أن هذه الحدود ما يتم الوصول إليها في الغالب، بل وحتى تجاوزها، تدعمها الأدلة الإكلينيكية. ليس بمقدور أي أحد أن يتنبأ بنفسه عن كيفية تعامله مع مثل هذا الموقف عندما يُستدعى للاختبار؛ حيث يفيد تقرير غسيل الدماغ الرسمي الصادر عن الولايات المتحدة[23] أن "كل أسرى الحرب الأمريكيين قد تعاونوا فعليًا في وقت أو آخر، بدرجة أو بأخرى، وفقدوا هويتهم بصفتهم أمريكيين... وسوف يفقد الآلاف إرادتهم في الحياة"، وهكذا دواليك. والتقرير البريطاني (انظر صحيفة نيويورك تايمز، 27 فبراير 1955) يعطينا دراسة إحصائية حول الانتهاكات بحق أسرى الحرب. ووفقًا لهذا التقرير فإن ثلث الجنود تلقوا ما يكفي من التلقين ليصنفوا باعتبارهم متعاطفين مع الشيوعية.

ويصف التقرير نفسه بإسهاب أكبر بعض الوسائل السادية التي يستخدمها العدو:

إذا قبل المعتقل المبادئ الشيوعية، تصبح حياته أسهل وفقًا للقصص التي رواها الرجال. لكن إذا ما قاوم المعتقل المبادئ الشيوعية، يعتبره الصينيون مجرمًا رجعيًّا ويستحق معاملته بأية وسيلة وحشية. وتشمل وسائل التعذيب التي تطبق على «الرجعيين» ما يلي:

«جعل المعتقل يقف منتبهًا، أو يجلس وقدماه ممددتان في صمت تام من الساعة 4:30 فجراً حتى 11 مساء. ويوقظونه على الدوام خلال الساعات القليلة المسموح له فيها بالنوم.»

---

23 - صحيفة نيويورك تايمز، 18 أغسطس 1955 (المؤلف 2).

«الإبقاء على المعتقلين في حبس انفرادي في صناديق بحجم خمسة أقدام في ثلاثة أقدام في قدمين. أمضى أحد الجنود من فوج جلوسيستر[24] أكثر من ستة أشهر في أحد هذه الصناديق.»

«منع السوائل عنه لأيام» لمساعدته على التأمل الذاتي.

«ربط المعتقل بحبل يمر فوق عارضة؛ بحيث يثبت أحد طرفيه كحبل مشنقة حول عنقه والطرف الآخر يربط بكاحليه، ويقال له إنه إذا انزلق أو ثنى ركبتيه فسوف يموت منتحرًا.»

«إجبار المعتقل على أن يركع على صخور خشنة ويمسك بصخرة كبيرة فوق رأسه ممددًا ذراعيه. ويتطلب الأمر أيامًا من الرجل الذي يخضع لهذه المعاملة ليتعافى ويتمكن من المشي.»

«في أحد معسكرات الاعتقال، دفع السجانون من كوريا الشمالية بقطعة خشبية أو معدنية على شكل قلم رصاص عبر ثقب في باب الزنزانة وجعلوا المعتقل يجز بأسنانه على الطرف الداخلي لها. ودون سابق إنذار، كان الحارس يقرع الطرف الخارجي بزاوية جانبية، مما يتسبب في كسر أسنان الرجل، أو شق أحد جانبي فمه. وفي بعض الأحيان كان ذلك العود يُدك ليدخل في الفم أو إلى أسفل الحلق.»

«كان المعتقلون يمشون حفاةً على نهر **يالو**[25] المجمد، وكانت المياه تسكب على أقدامهم ويظلون هكذا لساعات إلى أن تتجمد أقدامهم على الجليد لكي 'يتأملوا' في 'جرائمهم'».

من المعروف أن الوقت والخوف والضغط المستمر ينتج عنهم تنويم مغناطيسي مبيد للعقل، ولا يصبح بمقدور الجزء الواعي من الشخصية أن يكون له دور في الاعترافات الآلية. يعيش مغسول الدماغ في حالة غشية- trance، ويكرر ما

24 - فوج جلوسيستر Gloucester Regiment: كتيبة مشاة تابعة للجيش البريطاني من 1881 – 1994. (المراجع)
25 - نهر يالو Yalu River: نهر على الحدود بين كوريا الشمالية والصين. (المراجع)

يغرسه في ذهنه شخص آخر. لكن لحسن الحظ أن هذا أيضًا معروف: بمجرد أن يرجع الضحية إلى الظروف الطبيعية، تتبخر فترة الهلع والتنويم، ثم يفيق مرة أخرى على الحقيقة.

وهذا ما حدث مع الكولونيل «شوابل». نعم، صحيح أنه اعترف بجرائم لم يرتكبها، لكنه أنكر اعترافاته بمجرد أن عاد إلى بيئة مألوفة.

عندما تم استدعائي خلال الاستجواب العسكري في قضية «شوابل» للشهادة بصفتي خبيرًا في إبادة العقول، أخبرت عدالة المحكمة عن قناعتي التامة بأن أي شخص تقريبًا يخضع للمعاملة التي تلقاها الكولونيل «شوابل» يمكن أن يجبر على كتابة اعتراف مماثل ويوقعه.

سألني محامي الكولونيل، وهو ينظر بدوره إلى كل ضابط يجلس للحكم في تلك القضية الجديدة والصعبة: «أي شخص في هذه القاعة، على سبيل المثال؟»

وبراحة ضمير استطعْتُ الإجابة، بثبات: «أي شخص في هذه القاعة.»

من الممكن تقنيًّا الآن إدخال العقل البشري في حالة استعباد وخضوع، وقضية «شوابل»، إضافة إلى قضايا معتقلي الحرب الآخرين، أمثلة مأساوية على هذا، وافتقارنا إلى فهم لحدود البطولة يجعلها أكثر مأساوية. لقد بدأنا لتونا فهم ماهية هذه الحدود، وكيف يمكن أن يستخدمها الشموليون على كل من الصعيدين السياسي والنفسي. ومن حينها أصبحنا ندرك أن الاعتراف الذي يصاحبه ضرب الصدر والاستياء العام من الخدع الدعائية، وبدأنا الآن نرى بوضوح أكبر كيف يستخدم الشموليون إبادة العقل: عن عمد وبشكل واضح، وبدون إحساس بالخزي باعتبارها جزءًا من سياستهم الرسمية، ووسيلة لتوطيد سلطتهم والحفاظ عليها، مع أنهم بالطبع يذكرون تفسيرًا مختلفًا للإجراء ككل – إنه كله اعتراف عن جرائم خيانة حقيقية.

ومع ذلك فإن هذا الأسلوب الشمولي الوحشي له على الأقل فضيلة واحدة؛ إنه

واضح ولا لبس فيه، ونحن نتعلم أن نأخذ حيطتنا ضده، لكن كما سيتبين لنا لاحقًا، فإن هناك أشكالًا أكثر مكرًا من التدخل الذهني، ويمكن أن تكون بنفس خطورة الهجوم المباشر، تحديدًا لأنها أكثر مكرًا؛ وبالتالي يكون اكتشافها أكثر صعوبة. إننا لا ندرك غالبًا عملها على الإطلاق؛ فهي تؤثر على العقل ببطء شديد وبصورة غير مباشرة، إلى درجة أننا ربما حتى لا ندرك ما فعلته بنا.

ومثلما هو حال الإبادة العقلية عند الشموليين، بعض هذه الأشكال الأقل وضوحًا من التلاعب العقلي ذات غرض سياسي، والبعض الآخر ليست كذلك، حتى وإن كانت تختلف في مقصدها، إلا أنه يمكن أن تكون لها العواقب نفسها.

إن هذه القوى المعقدة المبيدة للعقل تعمل داخل العقل وخارجه، وقد زادت قوة تأثيرها بزيادة تعقيد حضارتنا. كما أن التقنيات الحديثة للتواصل الجماهيري جعلت كل العالم يتواجد يوميًّا في منزل كل إنسان، ووسائل الدعاية وفن التسويق تحسنت وأصبحت ممنهجة؛ وقد ندر وجود مكان للاختباء من الهجوم المرئي والسمعي على العقل. إن ضغوط الحياة اليومية تدفع المزيد والمزيد من الناس إلى البحث عن مفر سهل من المسؤوليات والنضج. ومن الصعب، في الحقيقة، تحمل هذه الضغوط؛ وبالنسبة إلى العديدين يكون عرض الترياق السياسي مغريًا للغاية، ويكون عرض الفرار من خلال المواد الكحولية، أو المخدرات، أو الملذات الاصطناعية الأخرى بالنسبة إلى الآخرين أمرًا لا يقاوم.

ينبغي على الرجال الأحرار في المجتمعات الحرة ألا يتعلموا فقط التعرف على هذا الهجوم الخفي على سلامة العقل ومكافحته، ولكن عليهم أن يعرفوا أيضًا ما يوجد داخل عقل الإنسان ويجعله عرضة لهذا الهجوم، وما يجعله في عدة حالات يشتاق فعليًّا إلى طريق للهروب من المسؤوليات التي تضعها الديمقراطية والنضج على عاتقه.

الفصل الثاني

تلاميذ «بافلوف» بوصفهم مروضين في سيرك

لنحاولْ، قبل أن نسأل أنفسنا عن الآليات الذهنية الأعمق لغسيل الدماغ والاعتراف الزائف وتحول المرء إلى متعاون، أن نرى الأشياء من وجهة نظر أنصار الشمولية؛ ما هدفهم؟ وما المصطلحات التي يستخدمونها لوصف سلوك أسراهم؟ وماذا يريدون من أمثال «شوابل» و«ميندزنتي»؟

لا يتحدث السجانون الشموليون عن التنويم المغناطيسي أو الإيحاءات؛ لكنهم ينكرون حتى حقيقة الاعتراف الإجباري. إنهم يفكرون في السلوك الإنساني والحكومة الإنسانية بطريقة آلية أكثر. وحتى نفهمهم، علينا أن ننتبه أكثر إلى ولعهم بالمفاهيم البافلوفية المبسطة.

الكلب الذي يسيل لعابه

في أواخر القرن التاسع عشر، أجرى «إيفان بيتروفيتش بافلوف» الحائز على جائزة نوبل تجاربه الشهيرة بجرس وكلب. كان يعرف أن اللُعاب مرتبط بالأكل، وأن الكلب إذا كان جائعًا فسوف يسيل الزبد من شدقيه كلما رأى الطعام. وقد استغل «بافلوف» هذه الاستجابة الفطرية التي تساعد في عملية الهضم، ليولِّد داخل الحيوان الذي يخضع لتجربته ردة الفعل هذه بإفراز اللعاب؛ استجابة لمثير لم يكن يولد ردة الفعل نفسها في الظروف العادية. في كل مرة كان «بافلوف» يقدم

فيها الطعام للكلب كان يرن الجرس، وفي كل مرة يقدم الطعام يسيل لعاب الكلب. ثم بعد تكرار محفز الطعام والجرس مجتمعين عدة مرات، رن «بافلوف» الجرس ولم يطعم الكلب. عندئذ تفاعل الكلب مع الجرس وحده كما كان يتفاعل مع رؤية الطعام – سال لعابه. عندها اكتشف العالم أنه يمكن حث الكلب ليسيل لعابه لا إراديًّا استجابةً لإشارة اعتباطية. صار خاضعًا لارتباط «شرطي-conditioned» ليستجيب لرنين الجرس، وكأن ذلك الصوت هو بمثابة رائحة الطعام ومذاق.

ومن خلال هذه التجربة وتجارب أخرى، طور «بافلوف» نظريته عن الانعكاس الشَرْطِي، التي تفسر التعليم والتدريب على أنهما مكونان صغيران للانعكاس الشرطي؛ فكل منهما مبني على أساس تكوين رابط بين مثيرين مختلفين. وكلما زاد عدد الاستجابات المعقدة – تدعى أيضًا أنماطًا – التي يتم تعلمها، ازداد عدد الانعكاسات الشرطية. ولأن الإنسان، من بين كل الحيوانات، لديه أكبر قدرة على التعلم، فإنه الحيوان الذي لديه أكبر قدرة على هذه الحالة الشرطية المعقدة.

كان لتجربة «**بافلوف**» هذه قيمة عظيمة في دراسة سلوك الحيوان والإنسان، وفي دراسة تطور الأعراض العصابية. إلا أن هذه المعرفة ببعض آليات العقل البشري يمكن استخدامها كما شاهدنا بالفعل مثل أية معرفة، للخير أو للشر. ولسوء الحظ، استخدم الشموليون معرفتهم بكيفية عمل العقل لأغراضهم الخاصة. لقد طبقوا بعض نتائج نظريات «**بافلوف**» بطريقة متطورة ومعقدة، وفي بعض الأحيان بطريقة غريبة، لمحاولة إنتاج الانعكاس الشرطي ذهنيًّا وسياسيًّا، وإخضاع البشر الذين يعاملونهم مثل فئران التجارب تحت سلطتهم.

ومع أن النازيين وظفوا هذه الوسائل قبل الحرب العالمية الثانية، فإنه يمكن القول إنها وصلت إلى ذروتها في عهد روسيا السوفياتية. من خلال التكرار المستمر للتلقين، قرع الجرس والإطعام، من المتوقع أن يصبح الإنسان السوفياتي آلة انعكاس شرطي، ويتصرف وفقًا لأنماط معدة من قبل، تمامًا كما تفعل الكلاب في

المعامل. على الأقل، أصبح هذا المفهوم المبسط يجول في عقول بعض القادة والعلماء السوفيات (سيرجي م. دوبروجيف- Dobrogaev).

وبما يتوافق مع أحد توجيهات «ستالين»، تحافظ موسكو على «**جبهة بافلوفية**» خاصة (دوبروجيف)، و«**مجلس علمي حول مشاكل النظرية النفسية للأكاديمي إ. ب. بافلوف**» (ت. د. لندن- T. D. London). وهذان المعهدان، وهما جزء من أكاديمية العلوم، مخصصان للتطبيقات السياسية لنظرية «بافلوف»، ولديهما أوامر للتأكيد على الجوانب الآلية الخالصة في استنتاجات «بافلوف». ومثل هذه الرؤية النظرية يمكن أن تختزل كافة انفعالات الإنسان إلى نظام بسيط وآلي من الانعكاسات الشرطية. والهيئتان كلتاهما وكالتا مراقبة تتعاملان مع مشاكل الأبحاث، والعلماء الذين يعملون فيهما يستكشفون الطرائق التي يمكن أن يتكيف الإنسان بها شرطيًّا من الناحية النظرية ويُدرَّب مثل الحيوانات. وحيث إن المنظرين الشموليين المتعنتين يدعون أن نظرية «بافلوف» بمثابة إنجيل عن سلوك الحيوان والإنسان، فإننا مضطرون إلى التعامل مع الحقائق التي يدلون بها لإثبات وجهة نظرهم، ومع وسائلهم وتفسيراتهم النظرية.

ما يحاول المجلس البافلوفي تحقيقه نتيجة تبسيط مفرط لعلم النفس؛ حيث تتلخص مهمتهم السياسية في جعل عقل الإنسان خاضعًا لارتباط شرطي وقولبته؛ بحيث ينحصر استيعابه في مفهوم شمولي ضيق عن العالم. والفكرة أن مثل هذا الاقتصار للتفكير على فكر النظرية اللينينية والماركسية ينبغي أن يكون ممكنًا لسببين: الأول، إذا كرر الشخص بالقدر الكافي تبسيطها، والثاني، إذا أحجم المرء عن أي شكل آخر في تفسير الحقيقة.

إن هذا المفهوم مبني على الاعتقاد الساذج بأن المرء يمكنه باستمرار أن يكبح على الدوام أية وظيفة حيوية والتحقق من تفكير الإنسان. إلا أنه، وعبر الترويض والارتباط الشرطي المطبق على الناس، وخلال تلك الفترة، يجب تصحيح الأخطاء والعيوب باستمرار، يجري بناء حس نقدي عن غير عمد. والحقيقة أن خطر

استخدام هذا الحس النقدي يكون في الوقت نفسه مسلطًا على الطلبة. إنهم يعرفون خطر أية معارضة، لكن حتى هذا يعزز من تطوير حس نقدي ثانوي محسّن أكثر. وفي النهاية، لا يمكن كبح تمرد الإنسان وانشقاقه؛ إنهما ينتظران فقط نسمات الحرية ليستيقظا مرة أخرى. إن فكرة وجود طرائق أخرى للحقيقة مخالفة للمتاح تقبع في مكان ما داخل كل إنسان. يمكن للمرء أن يضيق من سبل بحثه وتعبيراته، لكن اعتقاد الإنسان في الطرائق الجديدة والمغامرة في مكان آخر ستظل موجودة دومًا في قرارة عقله. إن العقل البشري الفضولي لا يرضى أبدًا بالسرد البسيط للحقائق. بمجرد أن يلحظ مجموعة من البيانات يقفز على الفور إلى نطاق النظرية ويطرح تفسيرات، لكن الطريقة التي يرى بها الإنسان مجموعة من الحقائق، وطريقة تلاعبه بها لوضعها في نظرية ما يحددها تحيزه وأحكامه المسبقة بدرجة كبيرة.

دعني أكون أول من يعترف بأنني تأثرت بذاتيتي- subjectivities. حتى الكلمات التي نستخدمها محملة بالدلالات والإيحاءات. وكلمة «انعكاس- reflex» مثلًا، وهي بالغة الأهمية وفق نظرية "بافلوف"، مثال ممتاز على هذا. فقد استخدمها للمرة الأولى في القرن السابع عشر الفيلسوف «ديكارت- Descartes»، وبها أجرى مقارنة في نظامه الفلسفي بين أفعال جسد الإنسان وأفعال الآلة. على سبيل المثل، إن التفاعل التلقائي للجسد، حسب الرؤية الديكارتية، تجاه بعض المحفزات المؤلمة (مثل سحب اليد بعد أن تلمس نارًا)، تقارن بالانعكاس الفيزيائي التلقائي للنور من على مرآة. ووفقًا لـ «ديكارت» فإن الجهاز العصبي يعكس استجابته كما تفعل المرآة بالضبط. وهذا التفسير البسيط للسلوك، والكلمات المحددة التي استخدمت لوصفه، تنكر على الفور الكائن الكامل الذي يشارك في هذه الاستجابة.

إلا أن الإنسان ليس مجرد مرآة، لكنه مرآة مفكرة. وفقًا للرؤية الآلية القديمة، فإن الأفعال ترتبط فقط بذلك الجزء من الجسد الذي يؤديها، وليس لها علاقة من أي نوع مع السلوك الهادف للكائن ككل. لكن الإنسان ليس آلة تتكون من أجزاء

تعمل باستقلالية؛ إنه كُلٌّ. يتفاعل عقله وجسده؛ إنه يؤثر في العالم الخارجي والعالم الخارجي يؤثر فيه. والانعكاسات الفطرية، التي يعتبر سحب اليد هذا أحد الأمثلة عليها، جزء من نظام كامل من استجابات التأقلم التي تعمل على مساعدة الفرد بوصفه كيانًا ليتأقلم وفقًا لتغير الظروف. يمكن وصف هذه الاستجابات بأنها نتيجة ميل فطري للتأقلم. إن الاختلاف الحقيقي الوحيد بين الانعكاس الداخلي والانعكاس الشرطي، أن الأول يفترض أنه تطور في الجنس كله على مدار ملايين السنين من عملية التطور، بينما تطور الآخر خلال دورة حياة الفرد نتيجة للآلية التدريجية للاستجابات المكتسبة.

إذا حللت أي تصرف من التصرفات المعقدة التي قد تؤديها على مدار يوم واحد (قيادة السيارة مثلًا)، فسوف ترى أنه يحدث خارج نطاق المعالجة الواعية. ومع ذلك، قبل أن تصبح هذه العملية آلية، فإن الأفعال التي من المفترض أن توجه لتلبية هدف ما، يجب تعلمها ومعالجتها بوعي. إنك لم تولد بانعكاس داخلي تضغط به على الفرامل لتوقف السيارة سريعًا في حالة الطوارئ، بل تعلمت كيف تفعل ذلك، وفي عملية التعلم والقيادة صارت هذه الاستجابة تلقائية. فلو أنك بعد أن تعلمت القيادة رأيت طفلًا يركض قاطعًا عليك مسار سيارتك، فسوف تضغط على المكابح فورًا بسبب الانعكاس، ودون تفكير.

توليد ارتباط شرطي في الإنسان

علمتنا أبحاث «بافلوف» عن آلية العقل كيف أن كل الحيوانات - بما فيها الإنسان - تتعلم التكيف مع الحدود الموجودة من خلال ربط علامات وإشارات الحياة بردود فعل الجسد. إن الدماغ ينشئ علاقة بين الأحداث المتزامنة المتكررة، ويتفاعل الجسد تجاه الروابط التي ينشئها الدماغ. كلما قرع الجرس في أثناء إطعام الكلب، تصبح تلك إشارة للحيوان كي يستعد للهضم، ويبدأ لعاب الكلب في السيلان.

إن التجارب الحديثة التي أجراها د. "جريجوري رزران"[26] من كلية كوينز أظهرت أن الإنسان ربما يطور استجابات من النوع نفسه؛ إذ أخضع للتجربة مجموعة من عشرين طالبًا جامعيًا، بحيث يتناولون الطعام في سلسلة من مآدب الغداء المجاني تعزف خلالها الموسيقى أو تعرض فيه صور. وبعد مأدبة الغداء الأخيرة، جُمع هؤلاء الطلبة العشرون معًا مع مجموعة أخرى لم يكونوا ضيوفًا على مآدِب الغداء تلك. وفي ذلك الاجتماع، تمامًا كما كان يحدث في مآدب الغداء، عزفت الموسيقى وعرضت الصور، وسئل الطلبة عما جعلتهم الموسيقى والصور يفكرون فيه. كانت الموسيقى والصور عمومًا تذكران المجموعة الأولى بشيء يتعلق بالأكل، لكن لم يكن لهما الارتباط نفسه لدى المجموعة الثانية. من الواضح أنه كان يوجد ارتباط مؤقت في أدمغة ضيوف مآدب الغداء بين الموسيقى والصور من ناحية، والأكل من ناحية أخرى.

وقد أجرى الصينيون عملية الارتباط الشرطي الجماعي بطريقة أكثر بساطة، بعد أن علَّموا المعتقلين لأيام كتابة كل الهراء والكذب السياسي المحتمل – في أجواء من الارتباك والضغط المطلق – كانوا مستعدين جميعًا للتوقيع على كذبة اشتراكهم في حرب جرثومية (وينوكور)[27].

كافة الانعكاسات الشرطية تكيفات مؤقتة لا إرادية للضغوط التي ينشأ عنها تواصل واضح بين محفزات ربما لا يكون لها في الواقع أية علاقة ببعضها. ولهذا السبب، فإن الانعكاس الشرطي لا ينطبع بالضرورة في الفرد على الدوام، لكن يمكن أن يختفي بالتدريج. فإذا ما تطور الانعكاس الشرطي للكلب وفقًا للجرس؛ بحيث يرن الجرس مرارًا وتكرارًا بدون أن يقدم الطعام للحيوان، يمكن أن يختفي

---

26 - جريجوري رزران Gregory Razran (1901 - 1973): عالم أمريكي من أصول روسية، يعتبر مرجعًا رائدًا في علم النفس الروسي، انتقل إلى كلية كوينز في جامعة مدينة نيويورك، وكان رئيس قسم علم النفس فيها من 1945 إلى 1966. (المراجع)

27 - ج. وينوكور G. Winokur (1925 - 1996): طبيب نفسي أمريكي، معروف بالمساهمات المؤثرة في معايير التشخيص والتصنيف والانتقال الوراثي لاضطراب المزاج. (المراجع)

انعكاس سيل اللعاب. وبدون شك، لن يفكر طلاب د. «رزران» دومًا في الطعام عندما يستمعون إلى موسيقى.

ويمكن أن نصف الانعكاس الشرطي بطريقة أخرى: **إنه استجابة انتقائية لوحدة الدماغ والجسد تجاه محفز معين.** والطرائق التي يترابط بها المحفز والاستجابة تتنوع تنوعًا كبيرًا – ربما يرتبطان بالوقت أو المكان أو الصدفة أو الغرض الشائع – ولذلك ربما يشكلان مركَّبًا شرطيًّا خاصًّا في سلوكياتنا العقلية والجسدية. وتكون بعض هذه الاستجابات، أو الأنماط المركبة، آلية أكثر من غيرها، وسوف تعمل مثل الأنماط الفطرية، ويكون البعض الآخر مرنًا ويتغير باستمرار. والتحليل الذي جرى على بعض الأمراض الجسدية النفسية- Psychosomatic مثلًا، أظهر لنا أنه يمكن زيادة حدة الاستجابة الشرطية أو حتى تغييرها؛ وقرحة المعدة مثال لهذا المرض الجسدي النفسي، وقد تصيب المرء حين يفرز الجسم كميات كبيرة جدًّا من حامض الهيدروكلوريك اللازم لهضم الطعام. إن مريض قرحة المعدة شخص يتفاعل مع الانفعالات القوية، خاصة العداء المكبوت، بإفراز مفرط لحامض الهيدروكلوريك. إن انعكاس الإفراز الفطري الذي يكون مفضلًا في حالة الجوع، ينمو ليصبح حالة انعكاس شرطي عندما يزيد الجوع والعدوان بالتبادل من إفراز حامض الهيدروكلوريك. وتنتج بالتدريج المزيد والمزيد من السوائل الحمضية إلى أن يجد المريض نفسه في النهاية مصابًا بقرحة. تستهلك المعدة بهذه الطريقة أنسجتها. وقد نرى هذه المفارقة نفسها في العديد من العمليات التعليمية. إن الأم التي تُخضع ابنها لجدول إطعام صارم ربما تغير من ردة فعل الطفل المفضلة تجاه الجوع، لتصبح ردة فعل عنيدة ضد تناول الطعام.

ولغرض دراستنا، يجب علينا إدراك أن الارتباط الشرطي يحدث طوال حياتنا بأكثر الطرائق براعة وأكثرها وضوحًا. لقد اكتشفنا أن قولبة الشخصيات يمكن أن يحدث بآلاف الطرائق من خلال أمور من قبيل: التدريب على تناول الوجبات في

الطفولة المبكرة، وقسوة أو نبرة الكلمات التي تقال لنا، والإحساس بالتسرع فيما يحيط بنا، وثبات العادات العائلية أو فوضى الآباء العصابيين، وضوضاء آلاتنا، وتحفظ أصدقائنا، وانضباط مدارسنا، وتنافس نوادينا. ويمكن حتى أن يحدث ارتباط شرطي لدينا من أشياء مثل هشاشة لعبنا، والراحة في منازلنا، وثبات تقاليدنا، أو الفوضى الناتجة عن ثورة. إن الفنان والمهندس والمعلم والصديق والعم والعمة والخادم – يساهمون جميعًا في تشكيل سلوكنا.

العزلة والعوامل الأخرى المساهمة في الارتباط الشرطي

توصل «بافلوف» إلى اكتشاف آخر مهم: يمكن تطوير الانعكاس الشرطي بسهولة كبيرة في معمل هادئ بأقل قدر من المحفزات المزعجة. كل مدرب للحيوانات يعرف هذا من خبرته؛ إن العزلة وتكرار المحفزات بصبر مطلوبان لترويض الحيوانات البرية. صاغ «بافلوف» النتائج التي توصل إليها في قاعدة عامة ترتبط بموجبها سرعة التعلم ارتباطًا إيجابيًّا بالهدوء والعزلة. وقد اتبع الشموليون هذه القاعدة. إنهم يعرفون أن بإمكانهم تدريب ضحاياهم السياسيين على الارتباط الشرطي بأسرع وسيلة إذا ما أبقوهم في عزلة. في التقنية الشمولية التي تستخدم السيطرة على الأفكار، تطبق طريقة العزلة نفسها المطبقة على الفرد على مجموعات البشر أيضًا. وهذا هو السبب الذي جعل السكان المدنيين في الدول الشمولية لا يسمح لهم بالسفر بحرية ويبقون بمعزل عن التلوث العقلي والسياسي. إنه السبب نفسه أيضًا وراء إنشاء الحبس الانفرادي ومعسكرات الاعتقال.

كانت إحدى النتائج الأخرى التي توصل إليها بافلوف أيضًا أن بعض الحيوانات تتعلم أسرع بالمكافأة (بالحُنو، أو بالطعام، أو بالتربيت) ، وفي كل مرة تبدي الاستجابة الصحيحة، بينما تعلمت الحيوانات الأخرى أسرع عندما كان العقاب على عدم التعلم محفزًا مؤلمًا. وباستخدام مصطلحات الإنسان، يمكن وصف الحيوانات الأخيرة بأنها تعلمت لتفادي العقاب. وقد نجد ردود الفعل

المختلفة للحيوانات هذه في عملية ارتباط شرطي قديمة بواسطة الآباء، ولها ما يناظرها بين البشر. وبالنسبة إلى بعض الأشخاص فإن إستراتيجية المكافأة والمديح هي المحفز للتعلم، بينما يستنهض الألم بداخلهم كل مقاومتهم وتمردهم، في حين يمكن اعتبار القصاص والعقاب على الفشل للبعض الآخر وسائل لتدريبهم على الوصول إلى النمط المرغوب. وقبل أن يتمكن من أداء مهمته بفاعلية، ينبغي على من يقوم بغسيل الدماغ أن يستكشف أي صنف من البشر ينتمي إليه ضحيته. إن هناك أشخاصًا أكثر قابلية لغسيل الدماغ عن آخرين، وقد يكون جزء من الاستجابة فطريًّا أو له علاقة بارتباط شرطي للانقياد.

ويميز «بافلوف» أيضًا بين النوع الأضعف من التعلم اللاإرادي، الذي تُنسى فيه الاستجابة المتعلمة فور حدوث تشتت، وبين النوع الأقوى، الذي يُحفظ فيه التدريب عبر كل أنواع الظروف المتغيرة. وفي الواقع، وصف «بافلوف» أنواع تعلم أكثر، لكن من أجل غرضنا البحثي من المهم فقط أن نعرف أن هناك بعض أنواع البشر الذين ينسون بسهولة تعلمهم الشرطي، بينما يحفظه الآخرون ممن يطلق عليهم الأنواع «الأقوى». وهذا بالمناسبة مثال آخر للكيفية التي يعكس بها اختيارنا للكلمات تحيزنا. يعتمد كل من الوصفين «قوي» و«ضعيف» تمامًا على هدف صاحب التجربة. فبالنسبة إلى الشموليين، يعتبر أسير الحرب «الضعيف» هو الشخص الذي يرفض بعناد قبول الارتباط الشرطي الجديد الذي يفرضونه عليه. وربما يكون «ضعفه» في واقع الأمر مقاومة، وقد جاءت نتيجة ارتباط شرطي قوي مسبق على الإخلاص للمبادئ المناهضة للشمولية. ولن نعرف أبدًا كيف يؤثر الارتباط الشرطي القوي والتعليم الأوَّلي على الشخصية. إن السلوك العقائدي المتزمت له أصوله في الارتباطات الشرطية المبكرة؛ وبالتالي يمكن أن يكون الخضوع مبنيا على الجهل بدلًا من المعرفة.

وقد أوضح «بافلوف» أيضًا كيف أن العوامل الداخلية والخارجية تتفاعل في عملية الارتباط الشرطي. على سبيل المثال، إذا جاء مساعد جديد للعمل في المختبر

مع الحيوانات، فإن كل الأنماط المكتسبة حديثًا يمكن أن تثبطها ردود الأفعال الانفعالية للحيوانات تجاه الوافد الجديد. وقد فسر «بافلوف» ذلك بأنه رد فعل مضطرب بسبب الانعكاسات الاستقصائية- Investigatory Reflexes في الحيوانات، التي جعلتها تحوم حول الشخص الغريب لتشمه. أما علم النفس الحالي فيميل إلى تفسير هذا الأمر على أنه نتيجة علاقة انفعالية بين الحيوان ومدربيه. يمكننا بسهولة أن نوسع نطاق آثار هذه الرؤية الحديثة في مجال العلاقات الإنسانية؛ إنها تشير إلى حقيقة أن هناك بعض الأشخاص الذين يمكنهم تكوين مثل هذه العلاقة الفورية مع الآخرين؛ بحيث يتخلص الآخرون بسرعة من كثير من العادات وطرائق الحياة لتتوافق مع المتطلبات الجديدة. هناك محققون وباحثون تؤثر شخصياتهم بعمق على ضحاياهم، إلى درجة أن الضحايا يكشفون أسرارهم سريعًا ويقبلون تمامًا طرائق التفكير الجديدة.

يمكننا رؤية الشيء نفسه في العلاج النفسي؛ حيث يكون أهم عامل مؤدي إلى الشفاء هو نشأة علاقة انفعالية بين الطبيب والمريض. وفي بعض الحالات يمكن لهذه العلاقة أن تنشأ على الفور، وفي حالات أخرى لا يمكن إنشاء هذه العلاقة على الإطلاق، وفي معظم الحالات تتطور تدريجيًا خلال مسار العلاج. وليس من الصعب على الأخصّائي النفسي أن يختبر «ليونة» الإنسان وإرادته للارتباط الشرطي، بل في واقع الأمر طور أتباع «بافلوف» استبيانات يمكن من خلالها أن يحددوا بسهولة عدم استقرار الفرد وقدرته على التكيف مع الإيحاءات وغسيل الدماغ.

اكتشف «بافلوف» أن كل ارتباط شرطي، مهما كانت قوته، يمكن تثبيطه من خلال الملل أو تكرار إشارات ضعيفة للغاية. فالجرس في تجربة الكلاب لم يعد في قدرته أن يسيل لعابها إذا كان التكرار كثير جدًّا، أو كان صوته ضعيفًا للغاية. في تلك الحالة تحدث عملية نسيان لما تم تعلمه. والنوم هو نتيجة هذا التثبيط الداخلي للارتباط الشرطي ونسيان الانعكاس الشرطي. إن التثبيط ينتشر على كل نشاط

القشرة الدماغية، ويدخل هذا الكائن في حالة من التنويم. وهذا التفسير لعملية التثبيط كان من إحدى أوائل النظريات المقبولة عن النوم. وهناك سؤال نفسي مثير للاهتمام عما إذا كان الكثير من الارتباطات الشرطية الرسمية يسبب الملل والتثبيط، وما إن كان هذا هو السبب الذي جعل حركة **ستاخانوف**[28] في روسيا السوفياتية ضرورية من أجل مجابهة نقص إنتاجية الناس.

يمكننا عقد مقارنة مع ما حدث لأسرانا في الحرب في كوريا، تحت تأثير الإشارات اليومية للأسئلة الروتينية المملة – حيث يمكن لكل كلمة أن تكون بمثابة إشارة بافلوفية – التي تُدخِل عقولَهم في حالة من التثبيط وضعف اليقظة. وهذا بدوره سهل عليهم أن يتغاضوا مؤقتًا عن ارتباطاتهم الشرطية وتدريبهم السابق على الديمقراطية. وعندما نسوا الطريقة الديمقراطية وكبحت بداخلهم، صار بإمكان محققيهم البدء في تعليمهم الفلسفة الشمولية. فأولًا يجب تحطيم الأنماط القديمة من أجل بناء انعكاسات شرطية جديدة، بإمكاننا تخيل أن الملل والتكرار يدفعان للحاجة إلى الاستسلام والخضوع للكلمات التحريضية من العدو. سوف أعود لاحقًا إلى نظام التحفيزات السلبية المستخدمة في الارتباطات الشرطية وغسيل الدماغ.

الارتباط الشرطي الجماعي من خلال الخطاب

وفقًا للفلسفة البافلوفية الرسمية، فإن الخطاب speech البشري هو الآخر نشاط انعكاس شرطي. ويميز "بافلوف" بين محفزات الرتبة order الأولى، التي تخلق ارتباطات شرطية مباشرة في البشر والحيوانات، ومحفزات الرتبة الثانية، التي تكون فيها خصائص الارتباط الشرطي أضعف وأعقد. وفي هذا النظام الذي

---

28 - حركة ستاخانوف Stakhanovite movement: نشأ المصطلح في الاتحاد السوفياتي، وأشار إلى العمال الذين عملوا على غرار عامل المناجم الروسي "أليكسي ستاخانوف" (1906 - 1977). وكان هؤلاء العمال يفخرون بقدرتهم على إنتاج أكثر مما هو مطلوب، من خلال العمل بجد وبكفاءة أكبر، وبالتالي تقوية الدولة الشيوعية. (المراجع)

يسمى نظام الإشارة الثانية، تحل الإشارات الصوتية محل محفزات الصوت المادي الأصلي. لم يهتم «بافلوف» نفسه كثيرًا بنظام الإشارة الثانية. بدأ علماء النفس الروس في العمل على هذا المجال تحديدًا بعد منشور «ستالين» في عام 1950 عن أهمية اللغويات في التلقين الشامل (كما اقتبس «دوبروجيف»). وفي خطابه، تبع «ستالين» **نظرية إنجل** «Engel» حول أن اللغة هي الجزء الإنساني المميز لآلية التكيف. إن النبرة والصوت في الخطاب فيه خاصية شرطية، شيء يمكننا تأكيده من خبرتنا الخاصة في الاستماع للأوامر أو إعطائها، أو في التعامل مع حيواتنا الأليفة. حتى المعنى الرمزي المتعلق بدلالات الألفاظ يمكن اكتسابه بالارتباط الشرطي. فكلمة "خائن" مثلًا، تستثير مشاعر وردود فعل مباشرة في عقول من سمعوها، حتى وإن كانت تلك الوصمة العنصرية قد قيلت بشكل يفتقر إلى الأمانة.

من خلال دراسة تفصيلية عن انعكاسات الخطاب كتبها واحد من رواد علماء النفس الروسي، «دوبروجيف»، صارت لدينا فكرة جيدة حول الطرائق التي تستخدم بها أنماط الخطاب وإشارات الكلمات في خدمة الارتباطات الشرطية الجماعية، من خلال وسائل الدعاية والتلقين. إن المشاكل الأساسية لمروض الإنسان بسيطة نوعًا ما: هل يمكن للإنسان مقاومة حكومة تنوي إخضاعه لارتباطات شرطية؟ ماذا يمكن للمرء أن يفعل لحماية سلامته العقلية أمام سلطة قوة جماعية؟ هل من الممكن التخلص من كل أثر للمقاومة الداخلية؟

وضح «بافلوف» بالفعل أن علاقة الإنسان بالعالم الخارجي وبأقرانه من البشر، تهيمن عليها محفزات ثانوية تتمثل في رموز الخطاب. يتعلم الإنسان التفكير بالكلمات وبلاغة الخطاب التي يتعلمها، وبالتدريج تنشأ عنها ارتباطات شرطية لمجمل نظرته عن الحياة وعن العالم. أو كما قال «دوبروجيف»: «إن اللغة وسيلة تأقلم الإنسان مع بيئته». ويمكننا إعادة صياغة هذا التصريح بالطريقة التالية: إن حاجة الإنسان إلى التواصل مع أقرانه من البشر تتداخل مع علاقته بالعالم الخارجي، لأن اللغة والخطاب نفسه – الأدوات الصوتية التي نستخدمها – متنوعة

وغير موضوعية. ويواصل «دوبروجيف» قائلًا: «تمثل تجليات الخطاب وظائف الانعكاسات الشرطية للعقل البشري». بطريقة أبسط يمكن أن نقول: إن من يملي علينا الكلمات التي نستخدمها ويشكلها، ومن يتحكم في الصحافة والإذاعة، يكون سيد عقلنا.

وحسب الاستراتيجية البافلوفية، يمكن أن تستبدل قوة الإرهاب في النهاية بتنظيم جديد لوسائل التواصل. ويمكن توزيع خيارات مقولبة يومًا بيوم عبر الصحافة والإذاعة وهلم جرا، إلى أن تصل إلى الخلية العصبية وتغرس نمطًا ثابتًا من التفكير في العقل. بالتالي، تكون النتيجة رأيًا عامًا موجهًا، وفقًا للمنظرين البافلوفيين، بسبب وسائل الدعاية الجيدة، والاستفتاءات هي تأكيد على الإجراء الناجح المؤقت للميكنة البافلوفية للعقل. إلا أن الاستفتاءات ربما تحصي فقط ما يتظاهر الناس بأنهم يفكرون فيه ويؤمنون به، لأن من الخطر عليهم أن يقولوا عكس ذلك.

تلك هي الوسيلة البافلوفية: التكرار الآلي لافتراضاتك وإيحاءاتك، وتقليل فرصة توصيل الممانعة والمعارضة. إنها معادلة بسيطة للارتباط الشرطي السياسي للجماعات. وتلك أيضًا هي الفكرة الحقيقية لبعض آلات علاقاتنا العامة، التي تأمل أن تتلاعب بالعامة لشراء صابون معين أو التصويت لحزب معين.

إن الاستراتيجية البافلوفية في العلاقات العامة جعلت الناس مرتبطين ارتباطات شرطية أكثر وأكثر، إلى درجة أنهم يسألون أنفسهم: «فيم يفكر الآخرون؟» ونتيجة لذلك حدث وهم عام: دُفع الناس للتفكير فيما يفكر فيه الآخرون، وعليه ربما يتفاقم الرأي العام ليصبح انحيازًا جماعيًّا.

بالتعبير عن هذا بمصطلحات التحليل النفسي، من خلال الضجة الدعائية المدعومة بإشارات لفظية شديدة، يمكن إجبار الناس شيئًا فشيئًا على أن يتماهوا أكثر مع صانع هذه الضجة القوي؛ حيث يتردد صدى صوت **الأخ الأكبر** في كل إخوته الصغار.

تقول الأخبار الواردة من الصين الشيوعية، طبقًا لتقارير صحفيين هنود محايدين، إن القادة الصينيين يستخدمون هذا الارتباط الشرطي الصوتي مع العامة لتوطيد أركان نظامهم. [جريدة نيويورك تايمز، 27 نوفمبر 1954] وفي أنحاء البلاد، يبث الراديو ومكبرات الصوت «الحقائق» الرسمية، وتستحوذ على الناس الأصوات المستدرة للعواطف، فيخلب الطغيان الثقافي آذانهم بمكبرات الصوت، ويقول لهم ما يمكن أن يفعلوه وما لا يمكنهم فعله. هذا النظام الصارم القائم على الميكروفونات تنبأ به الفيلسوف الفرنسي «لاروشفوكو»،[29] الذي قال في القرن الثامن عشر: «إن الإنسان مثل الأرنب، يمكنك اصطياده من أذنيه.»

خلال الحرب العالمية الثانية، أظهر النازيون أنهم أيضًا كانوا على دراية تامة بتلك القوة الشرطية للكلمة، وقد رأيت طريقة عمل إستراتيجيتهم في هولندا. كان الراديو يبث على الدوام إيحاءات ودعاية سياسية، وكان الناس مجبرين على الاستماع؛ لأن إغلاق الراديو في حد ذاته، ومع بساطته، كان مثيراً للشكوك. أتذكر أحد الأيام خلال الاحتلال عندما كنت أتجول بدراجتي مع بعض الأصدقاء، توقفنا للاستراحة في مقهى أدركنا لاحقًا أنها في الحقيقة أحد أوكار النازيين. وحين أعلن الراديو، الذي كان مفتوحًا منذ أن وصلنا، عن خطاب سيلقيه "هتلر"، وقف الكل في رهبة، وكان من المحتم تلقي ذلك الارتباط الشرطي الصوتي من الفوهرر. وكان عليَّ أنا وأصدقائي أن نقف أيضًا، وأجبرنا على الاستماع لذلك الصوت الأجش الذي يدوي في آذاننا، واستدعاء كل مقاومتنا ضد تلك الهجمات الطويلة والمملة والمكررة على طبال آذاننا وعقولنا.

وخلال فترة الاحتلال، طبع النازيون أطنانًا من الدعاية، أكاذيب كبرى وتحريفات. بل إنهم حتى تمادوا حيث رسموا شعارات على مداخل المنازل وفي

---

29 - فرانسوا دو لاروشفوكو La Rochefoucauld (1613 - 1680): كاتب فرنسي، مؤلّف أقوال وكاتب مذكّرات؛ والإشارة في الأصل إلى القرن الثامن عشر، والصواب بالطبع **القرن السابع عشر**. (المراجع)

الشوارع. وفي كل أسبوع كانت توجد أنماط ملفقة جديدة تطل علينا، وكأنها تقنعنا بنعيم الرايخ الثالث. لكن لم يكن النازيون على دراية بالإستراتيجية البافلوفية الصحيحة، كانوا فقط يشبعون احتياجاتهم الخاصة لمناقشة حجتهم والتنويع من أسانيدها لجعلها تبدو أكثر منطقية، وكانوا يقللون بهذا من مقاومة الشعب الدنماركي فحسب. وما عزز من هذه المقاومة أيضًا إذاعة لندن، التي كان بإمكان الدنماركيين أن يسمعوا من خلالها الصوت المتعقل لحكومتهم الشرعية. لو لم يكن النازيون قد جادلوا وبرروا كثيرًا، ولو استطاعوا منع كل وسائل التواصل المكتوبة أو المطبوعة أو المسموعة، لأدت تلك الفترة الطويلة من الملل إلى تثبيط ارتباطنا الشرطي الديمقراطي، وربما أغرانا كثيرًا ذلك التبسيط الشديد وتلك الشعارات النازية.

الارتباط الشرطي السياسي

لا يجب الخلط بين الارتباط الشرطي السياسي والتدريب أو الإقناع أو حتى التلقين، بل هو أكثر من ذلك، إنه ترويض. إنه استحواذ على أبسط الأنماط العصبية وأعقدها لدى الإنسان. إنه معركة الاستحواذ على الخلايا العصبية. إنه تغيير بالإكراه والقوة للمعتقدات. وبدلًا من الارتباط الشرطي للإنسان لمواجهة الحقيقة غير المتحيزة، يقوم الشخص المغري بخلق ارتباطات شرطية للمقولات البراقة والأنماط الصوتية والشعارات والمعادلات والرموز. إن الإستراتيجية البافلوفية بالمعنى الشمولي تعني ترسيخ انعكاسات محددة مسبقًا في عقل جرى تحطيمه بالفعل. يريد الشخص الشمولي في البداية الاستجابة المطلوبة من الخلايا العصبية، ثم التحكم في الفرد، وفي النهاية التحكم في الجماهير. ويبدأ هذا النظام بالارتباط الشرطي الصوتي والتدريب من خلال جمع الأنماط المطلوبة مع المحفز السلبي أو الإيجابي: الألم أو المكافأة. في معسكرات أسرى الحرب في كوريا، التي كان يجري فيها غسيل الدماغ على المستوى الفردي والجماعي، عادة ما كانت المحفزات السلبية والإيجابية هي الجوع والطعام. وفي اللحظة التي كان الجندي فيها يتماهى مع الخط

السياسي للحزب كانت حصته من الطعام تتحسن: قل نعم، لأعطيك قطعة من الحلوى!

وتشكلت سلسلة المحفزات السلبية بأكملها كما شاهدنا في قضية «شوابل»، من الضغط المادي، والضغط المعنوي، والإنهاك، والتجويع، والتكرار الممل، والارتباك نتيجة ما بدا وكأنه قياس منطقي. إلا أن العديد من ضحايا الشمولية قالوا لي في مقابلاتي معهم إن أكثر تجربة مزعجة واجهوها في معسكرات الاعتقال كانت الشعور بفقدان المنطق، تلك الحالة من الارتباك التي أوصلوهم لها – الحالة التي لا تبقى عندها مصداقية لأي شيء. لقد وصلوا إلى حالة التثبيط البافلوفية التي يطلق عليها الأطباء النفسيون التفكك العقلي، أو تبدد الشخصية[30]. بدا الأمر وكأنهم نسوا كل استجاباتهم السابقة ولم يتبنوا استجابات جديدة. لكنهم ببساطة، في الواقع، لم يعرفوا ماهية الأشياء.

إن **النظرية البافلوفية** التي ترجمت إلى وسيلة سياسية، طريقة لتسوية- leveling العقول (أطلق عليها النازيون **التناغم**)[31]، بمثابة مخزون الدول الشمولية. إنها اللازِمَةُ المتكررة في الدول الشمولية. إن بعض نقاط الطب النفسي مثيرة للاهتمام؛ لأنه يتبين لنا أن التدريب البافلوفي يمكن استخدامه بنجاح فقط عندما تسود ظروف عقلية خاصة. ومن أجل ترويض الناس ليكونوا على القالب المرغوب فيه، يجب أن يصل الضحايا إلى النقطة التي يفقدون فيها وعيهم اليقظ وإدراكهم العقلي. إن حرية النقاش والتبادل الفكري الحر يعيقان الارتباطات الشرطية. يجب أن يغرس في نفس المرء الشعور بالرعب، والشعور بالخوف، وفقدان الأمل، والوحدانية، وأن يقف وظهره إلى الحائط. إن معاملة أسرى الحرب الأمريكان في معسكرات أسرى الحرب الكورية كانت تتبع هذا النمط تحديدًا؛ حيث كانوا

---

30 - تبدد الشخصية depersonalization: هو ببساطة عرض يشعر فيه المرء بأنه لم يعد نفسه، ويرتبط أحيانًا بعرض يعرف باسم تبدد الواقع derealization؛ حيث يشعر المرء بأن الواقع لم يعد واقعًا. (المراجع)

31 - التناغم Gleichschaltung: أو التزامن، بالألمانية في الأصل. (المراجع)

يجبرون على الاستماع إلى محاضرات ووابل من أشكال الكلمات الأخرى يوميًّا. والحقيقة أنهم لم يفهموا المحاضرات وكان يصيبهم الملل من الحصص الطويلة التي تثبط تدريبهم الديمقراطي، وفرض ارتباطات شرطية عليهم ليتلقنوا بسلبية تلك الوجبة العقائدية المرة؛ إذ لم يكن المعتقلون يخضعون لمجرد برنامج تدريب سياسي، لكن أيضًا لبرامج ترويض لا إرادية. وإلى حد ما، كانت خطب الدعاية الشيوعية توجه لإعادة تدريب عقول المعتقلين. كان من الممكن أن يرفض جنودنا هذا التدريب، لكن التكرار اللانهائي، والتحويل المستمر لكل شيء إلى شعارات، إلى جانب المعاناة الجسدية والحرمان الذي يعاني منه المعتقلون تسبب في ترويض لا شعوري، وخلق ارتباطات شرطية، وكان العون الوحيد يأتي من القوة والإدراك اللذين ترسبا في النفس قبل ذلك.

كما أنه يوجد أيضًا سبب آخر يجعل جنودنا يحاصرون في بعض الأحيان بالارتباط الشرطي الشيوعي؛ حيث علمتنا التجارب على الحيوانات، والتجارب على البشر أن التهديد والتوتر والقلق عمومًا، ربما تسرع من وتيرة ترسيخ الاستجابات الشرطية، خاصة عندما تعمل هذه الاستجابات عادة على التخفيف من وطأة الخوف والهلع (**سبينس وفاربر**)[32]. توفر حالة الطوارئ المتعلقة بالحياة في معسكرات السجن والتعذيب النفسي ظروفًا مثالية لمثل هذا الارتباط الشرطي. يمكن أن تتطور هذه الاستجابات حتى عندما لا يدرك الضحية تمامًا بأنه يجري التأثير عليه. وبناءً عليه، تتطور لدى معظم جنودنا استجابات آلية تجعلهم في حالة فقدان وعي تام (سيجال- Segal). لكن ذلك أحد وجهي العملة؛ لأن التجربة أظهرت أيضًا أن الناس الذين يعرفون ما يمكن توقعه تحت ظروف الضغط العقلي يمكن أن يطوروا ما يطلق عليه الدفاع الإدراكي، الذي ينأى بهم عن التأثير عليهم. وهذا يعني أنه كلما كان الناس على معرفة بمفاهيم السيطرة على الأفكار والإبادة

---

32 - كينيث سبينس Spaence (1907 - 1967): عالم نفس أمريكي. إيزابيل إ. فاربر Farber: عالمة نفس أمريكية. (المراجع)

العقلية، زادت قدرتهم على فهم طبيعة القصف الدعائي الموجه إليهم، وبالتالي تزيد المقاومة الداخلية التي يمكنهم تحملها، مع أن من المحتم أن بعض إيحاءات المحققين سوف تتسلل عبر حاجز الدفاع العقلي الواعي.

إن فهمنا لعملية الارتباط الشرطي تؤدي بنا أيضًا إلى فهم بعض ردود الفعل المتناقضة الموجودة بين ضحايا معسكرات الاعتقال والمعتقلين الآخرين. وحتى من كانت عندهم معتقدات متزمتة وبسيطة كانوا قادرين على تحمل ذلك القصف المستمر الذي تعرضت له عقلوهم أكثر مما كان عليه أصحاب المعتقدات المرنة والمتطورة، ممن ملأهم الشك والصراعات الداخلية. يمكن للإنسان البسيط ذي الجذور العميقة الذي استوعب الإيمان الديني بحرية أن يبذل مقاومة داخلية أعظم بكثير مما في استطاعة المفكر المتمرس، الذي يحقق معه، أن يتغلب عليها. فيصبح تكرار الأفكار عديم الجدوى بسبب الإيجابيات والسلبيات الداخلية.

في الدول الشمولية؛ حيث افترضت الإستراتيجية البافلوفية نسبًا غريبة، اختفى الإنسان الذاتي الذي يفكر في ذاته. وهناك رفض تام لأية محاولة للإقناع أو المناقشة؛ فتعبير الفرد عن ذاته أمر محرم، والمشاعر الخاصة محرمة.

كما أن التبادل السلمي للأفكار في محادثة حرة يشوش على الانعكاسات الشرطية؛ وبالتالي يعد محرمًا. فلا تبقى هناك أية عقول، وإنما أنماط شرطية وعضلات بارعة. وفي ظل هذا النظام المروض، ينظر إلى الدافع العصبي على أنه قيمة إيجابية، بدلًا من اعتباره شيئًا مَرضيًا، ويصبح ذهن الإنسان الآلي مثالا أعلى للتعليم.

ومع ذلك لا يدرك المنظرون السوفيات أنفسهم هذا غالبًا، ولا يدرك كثير منهم العواقب الوخيمة لإخضاع الإنسان لارتباط شرطي آلي تام. إنهم عادة خائفون مثلنا تمامًا من تصور روبوت إنساني يعمل بكفاءة تامة. ذلك ما قاله واحد من علماء النفس عندهم: «إن الطبيعة الرجعية تمامًا لهذه المقاربة للإنسان واضحة للغاية. الإنسان كائن آلي يمكن جعله يتصرف وفق إرادة المرء! وتلك أعلى درجات

الرأسمالية! انظر إلى حلم الرأسمالية في كل أنحاء العالم – طبقة عاملة دون وعي، لا يمكنها التفكير لنفسها، ويمكن تدريب أفعالها وفقًا لنزوة مستغليها! وذلك هو السبب في أنه في أمريكا، أهم معقل للرأسمالية في عصرنا، تطورت نظرية الإنسان باعتباره روبوت بقوة وتم التمسك بها بإصرار». (بوير)[33]

إن علم النفس والطب النفسي الغربيين، وإن كانا يعترفان بفضل «بافلوف» بصفته رائدًا عظيمًا له إسهامات مهمة في فهمنا للسلوك، إلا أنهما يتبنيان نظرة إلى الإنسان أقل آلية بكثير من نظرة البافلوفيين السوفيات. ومن الواضح لنا أن تفسيرهم البسيط للتدريب يتجاهل ويرفض مفاهيم التكيف الهادف، ومسألة الأهداف التي يُوجَّه إليها هذا التدريب. ويميل المتخصصون في علم النفس التجريبي الغربي إلى رؤية الانعكاس الشرطي باعتباره لا يتطور بالكامل إلا عند تلبية الاحتياجات الغريزية الأساسية أو تلافي الألم؛ وذلك فقط عندما يكون الكائن كله منخرطًا في النشاط. وفي هذه العملية المعقدة من الاستجابة للعالم والوعي وعدم الوعي الخاص، تلعب الدوافع والحوافز دورًا كما علمنا «فرويد».

إن كل التدريب، الذي تمثل الاستجابة الشرطية مجرد مثال له، «أتمتة- automatization» للأفعال التي كان يتم تعلمها والتفكير فيها بوعي في الأصل. إن الوضع المثالي لعلم النفس الديمقراطي الغربي هو تدريب الإنسان على الاستقلال والنضج؛ وذلك بإدراج مساعدة وعيهم وإدراكهم ومشيئتهم في عملية التعليم. في حين أن الوضع المثالي لعلم النفس الشمولي على الجانب الآخر هو ترويض البشر وجعلهم أدوات طيعة في أيدي قادتهم. ومثلما هو حال التدريب، فإن الغرض من الترويض جعل الحركات آلية، لكنه على عكس التدريب، لا يتطلب المشاركة الواعية من المتعلم. والتدريب والترويض كلاهما عبارة عن

---

33 - ريموند أوجستين بوير Bauer (1916 - 1977): كاتب أمريكي، أستاذ في إدارة الأعمال في كلية هارفرد للأعمال من عام 1974 حتى وفاته. مؤلف كتاب **الإنسان الجديد في علم النفس السوفياتي** *The New Man in Soviet Psychology* (1952). (المراجع)

وسائل لتوفير الطاقة والوقت، وفي كليهما يختبئ سر النفس في قصدية الاستجابات. إن أتمتة الوظائف في الإنسان تنقذه من تبديد طاقته، لكنها يمكن أن تجعله أضعف في مواجهة التحديات الجديدة غير المتوقعة.

إن تحويل الثقافة إلى نمط واحد، وتشكيل العادات بالقواعد المحلية والأساطير يجعل كل شخص إنسانًا آليًا بشكل جزئي. إن الانحياز القومي والعرقي يلعب دورًا غير متعمد، وعادة ما تنفجر كراهية المجموعات تلقائيًا عندما تشعل فتيلها الشعارات والكلمات اللافتة. وفي العالم الشمولي، عادة ما يتم هذا الارتباط الشرطي التأديبي الضيق بشكل أكثر «اكتمالا» وأكثر عبثية- ad absurdum.

الحاجة الملحة إلى الارتباط الشرطي

أحد الإيحاءات التي لا يرمي هذا الفصل إلى نقلها هي أن الارتباط الشرطي البافلوفي بهذه الصورة خطأ. إن هذا النوع من الارتباط الشرطي يحدث عندما يكون الناس معًا في تفاعل عام؛ حيث يؤثر المتحدث على المستمع، لكن المستمع يؤثر أيضًا على المتحدث. يتعلم الناس عادة عبر عملية الارتباط الشرطي أن يحبوا ويفعلوا ما يسمح لهم بحبه وفعله. وكلما كانت الجماعة منعزلة، كان الارتباط الشرطي الواقع على المنتمين للجماعة أكثر صرامة. وفي بعض الجماعات يجد المرء أن هناك أشخاصًا لديهم قدرات تفوق الآخرين في نقل الإيحاءات وتمهيد السبيل للارتباط الشرطي. وبالتدريج يمكن للمرء أن يميز الأشخاص الأقوى والأفضل تكيفًا أفضل، وأصحاب الخبرات الأكثر، ومن قدرتهم على فرض الارتباط الشرطي على الآخرين أقوى ما يكون. لكل فئة من الناس، ولكل نادٍ، ولكل مجتمع جرس «بافلوف» الذي يقودهم؛ ذلك النوع من الأشخاص الذي يرسخ رنين جرسه الداخلي في الآخرين، ويمكنه حتى أن يطور نظامًا يرن فيه جرسًا واحدًا: بحيث لا يسمح لأي جرس مؤثر آخر أن ينافسه.

هناك سؤال دقيق آخر يتعلق بهذه المشاكل: لماذا يوجد بداخلنا ذلك الدافع الهائل

للارتباط الشرطي، الدافع للتعلم والتقليد والامتثال واتباع نمط العائلة أو الجماعة؟ ذلك الدافع للارتباط الشرطي، للإذعان للنمط الجماعي والنمط العائلي يتعلق على الأرجح باعتماد الإنسان على أخيه الإنسان. إن الحيوانات لا تعتمد على بعضها البعض بالدرجة نفسها. في المملكة الحيوانية كلها، يعتبر الإنسان أكثر الكائنات عجزًا وعريًا. لقد ظل مثل جنين القرد، ولم يصل إلى حالة النضوج المشعرة المغطاة بالكامل. وفي تلك الحالة الجنينية، يظل معتمدًا على الرعاية العقلية والتعليم النمطي والارتباط الشرطي. لكن من بين كل الحيوانات، لدى الإنسان نسبيًا أطول فترة شباب وأطول فترة للتعلم؛ على الأقل مثلما تخبرنا نظرية الأجنة لـ «لويس بولك»[34] عن حالة تخلف الإنسان واعتماده الاجتماعي الذي لا ينتهي أبدًا.

إن الحيرة والشك الناجمين حتمًا خلال عملية التدريب هما بدايات التحرر العقلي. وبالطبع فإن الحيرة والشك الابتدائيين ليسا كافيين. يجب أن يدعمهما إيمان بحريتنا الديمقراطية وقدرتنا على الكفاح من أجلها. آمل أن أعاود الحديث عن تلك المشكلة المركزية عن الإيمان بالحرية المعنوية باعتبارها فكرة مختلفة عن الولاء والخدمة الناتجين عن الارتباط الشرطي في الفصل الأخير. مع ذلك فإن الحيرة والشك جريمتان في الدولة الشمولية، لأن العقل المنفتح على التساؤل منفتح على المعارضة. وفي النظام الشمولي يجب قمع العقل الشكاك والمتسائل والمبدع. ويسمح للعبد الشمولي فقط بأن يتذكر ويسيل لعابه عندما يرن الجرس.

ليست مهمتي هنا أن أوضح موضوع الاستخدام المتحيز لقواعد «بافلوف» بواسطة الشموليين، لكن دون شك تحدد طرائق تفكيرنا في إخوتنا من البشر، ومكانة الإنسان في الطبيعة جزءًا كبيرًا من تفسير أي مدرسة من مدارس علم نفس. إذا كان الهدف الأسمى لنا هو تحويل شعبنا إلى مسوخ، فإن سوء الاستخدام

---

34 - لويس بولك Louis Bolk (1866 - 1930): عالم تشريح هولندي وضع نظرية الأجنة fetalization theory أو الطبيعة غير الناضجة لجسم الإنسان، مما يستدعي الحاجة إلى الدعم باستمرار. (المراجع)

الحالي يخدم هذا الغرض. لكن ما إن نصبح على دراية، ولو مبهمة، بأن السمة البشرية تنعدم في الصورة الشمولية للإنسان، وعندما نرى أن الإنسان في مثل هذا المخطط يضحي برغباته الغريزية ومتعه وأهدافه ومراده وإبداعه ونزعته إلى الحرية وتناقضه، فإننا ننقلب على الفور ضد هذا التشويه المسيس للعلم. إن مثل هذا الاستخدام للأسلوب البافلوفي يهدف فقط إلى تطوير الإنسان الآلي في الإنسان، وليس عقله اليقظ الحر الذي يدرك الأهداف والمقاصد الأخلاقية في الحياة.

حتى بالنسبة إلى حيوانات المختبر، وجدنا أن توجيه الهدف الانفعالي يمكن أن يفسد التجربة البافلوفية. ففي أحد تدريبات الجرس والطعام، دخل السيد المحبوب لهذا الكلب إلى الغرفة، وفقد الكلب كافة ارتباطاته الشرطية السابقة وبدأ بالنباح بحماس. وهناك حقيقة قديمة: لدى الحب والضحك القدرة على اختراق الشرطية الصارمة، فلا يمكن لذلك التحويل الصارم إلى الآلية أن يتواجد دون تغبير عفوي عن النفس. ويبدو أن حقيقة أن العاطفة العفوية للكلب تجاه سيده يمكنها أن تفسد كافة الحسابات الآلية والتلاعب، لم تخطر ببال طلاب "بافلوف" الشموليين قط.

الفصل الثالث

استخدام العقاقير في الإخضاع

ليس الضغط السياسي والبافلوفي فقط، كما شاهدنا بالفعل في الفصلين السابقين، هما اللذان يمكنهما سحب عقل الإنسان إلى الخضوع الخانع. فهناك العديد من الخصال والأفعال الإنسانية التي يمكن أن يكون لها تأثير قهري.

راجت كل أنواع الشائعات التي تصف كيف أن مغسولي الدماغ قبل استسلامهم لمحققيهم، كان يتم تسميمهم بعقاقير غامضة. وهذا الفصل يهدف إلى وصف ما يمكن للتقنيات الطبية فعله – وليس العقاقير فحسب – لتصل إلى ما وراء الأسرار الداخلية للإنسان. في الحقيقة، لم تعد شركة السيطرة على الأفكار بحاجة إلى عقاقير، وإن كانت تستخدم من حين لآخر.

سوف أتناول أيضًا جانبًا آخر من جوانب هذه المشكلة، وهي اعتمادنا الاجتماعي الخطير على العديد من العقاقير، ومشكلة الإدمان التي تجعلنا ننزلق بسهولة أكبر في نمط الخضوع. لا يبقى لمدمن الكحول عزيمة عقلية عندما تعطيه شرابه. ويصح الأمر نفسه على مستخدم المهدئات أو حبوب أخرى بشكل مزمن. ربما ينتج عن استخدام الكحول أو العقاقير حالة اعتماد كيميائي، ما يضعف من قدرتنا على التحمل في ظل الظروف الاستثنائية.

وفي مجال ممارسة الطب، مازالت أفكار السحر متفشية. مع أننا نمدح أنفسنا بأننا عقلانيون ومنطقيون في اختيار علاجنا، فإننا نعرف بشكل ما أن المشاعر الخفية

والدوافع غير الواعية توجه اليد التي تكتب الوصفة الطبية. وبالرغم من الانتصارات العلاجية على مدار السنوات الخمسين الماضية، عصر العلاج الكيماوي والمضادات الحيوية، فدعنا لا ننسى أن وسائل الانتصار الطبي النفسي يمكن استخدامها لهزيمة أهدافنا. لا يمر يوم بدون أن ينهال البريد على عيادة الطبيب مقترحًا ما ينبغي استخدامه في ممارساته الإكلينيكية. ومكتبي مطمور بالمعدات والحبوب متعددة الألوان التي تخبرني أنه بدونها لا يمكننا إسعاد البشر. إن الحملات الدعائية التي تصل إلى أعيننا وآذاننا الطبية مثقلة عادة بالاقتراحات، إلى درجة أنه من الممكن إقناعنا بأن نوزع المهدئات والمنشطات عندما يمنعنا التفكير النقدي السليم، وسوف نعرف الأسباب الأعمق للمشكلات. ولا يصح هذا الأمر على العلاج الدوائي الحديث فقط؛ فمن الممكن أيضًا أن تظهر الميول نفسها في أساليب العلاج النفسي.

يهدف هذا الفصل إلى مقاربة مشكلة القهر العقلي بالسؤال: كيف أصبح استخدام العقاقير الطبية والوسائل الطبية والنفسية قهريًّا؟ في الفصول السابقة حول إبادة العقل، كان بإمكاني وصف المحاولات السياسية التي تجعل عقل الإنسان ينحدر إلى الخضوع والخنوع. وبالمثل، فإن العقاقير والوسائل النفسية المكافئة لها يمكنها أيضًا استعباد الناس.

الاعتماد على مقدم العقاقير

منذ فترة قصيرة طُلب مني إسداء نصيحة إلى زوجين كانا يمران بمشاكل في حياتهما الزوجية لفترة طويلة. ومع أن الزوج والزوجة كانا في حب عميق حين تزوجا، فقد أفسد كل منهما مغامرتهما السعيدة بالاستثمار الانفعالي الخاطئ؛ فقد كانت تتوقع منه أن يكون مثل أحد أبطال هوليود، وأحد البواسل الخالدين، ويكرس كل وقته لها. أما هو فتأثر باعتمادها عليه مثل الأطفال، لكنه كان يأمل أن

تصبح أمًّا له وممرضة ورفيقة. وكما هو متوقع، لم يرقَ أي من الطرفين إلى توقعات الطرف الآخر. وأصيبا كلاهما بخيبة أمل شديدة – ولم يدرك أي منهما موضع الخطأ. بعد حين صارت الزوجة تشكو وتتذمر، وتواترت الأحداث اليومية والجدال وتبادل الاتهامات، وبدأ الزوج يسعى ليجد ما يواسيه بعيدًا عن البيت، مع نسوة كان يعرفهن قبل زواجه. وسرعان ما وجدت الزوجة نفسها غير قادرة على النوم، وبدأت في تناول الباربيتورات ليخلصها من الأرق. بعدها صارت تعتمد عليه تمامًا، وتدهورت إلى كافة أنواع الشكاوى الجسدية الغامضة التي يمكن التخفيف عنها مؤقتًا بالمزيد من العقاقير. وعندما اكتشف الزوج الأمر أول مرة، انتابه الفزع، لكنه لاحظ تدريجيًّا أن العقاقير بدا وكأنها تعدل وتخفف من حدة الخلاف في علاقتهما. فتحت التأثير المستمر للمهدئ تقريبًا، لم تعد زوجته متسلطة، بل في الواقع لم تعد حتى تهتم به. واكتشف أن لديه حرية أكبر، ويمكنه إمضاء أمسياته وإجازاته وفق اختياره، طالما أنه يوفر لها سبل هذه الحبوب السحرية التي تُعيد السلام إلى بيتهما. لكن الزوجة تناولت، في إحدى الليالي، جرعة زائدة من الباربيتورات، وبدا الأمر وكأنها حاولت الانتحار[35]. وقد أثارت هذه الواقعة شبه المميتة الشعور بالذنب لدى الزوج، وسعى إلى المساعدة الطبية والنفسية، في محاول لاكتشاف الخطأ الذي حدث في زواج بين اثنين شعرا بالكثير من الحب والمودة في البداية.

تلك مجرد واحدة من بين حالات عدة تُغَطِّي فيها الحبوب المنومة وعادة تناول العقاقير على التعاسة القابعة والمستقرة بداخلنا. إن الاعتماد المتزايد على الهروب السهل إلى حالة التخدير الرقيق الذي يبدو لطيفًا وعلى النسيان شر علينا أن نتعرف عليه. إن الزيادة العامة في استخدام العقاقير المنومة تنذر بالخطر، وعدد حالات الانتحار الناتجة عن الباربيتورات في تنامٍ كل عام. ولا يمكننا النظر إلى هذه

35 - الفارق بين الجرعة العلاجية والجرعة السامة من عقاقير الباربيتورات ضئيل؛ وبالتالي يمكن أن تؤدي أية زيادة في الجرعة إلى الوفاة. (المراجع)

الظاهرة على أنها مشكلة طبية ببساطة. إن الاعتماد على الكحول أو الباربيتورات أو العقاقير أو المخدرات الأخرى يشير إلى خوف وقلق اجتماعي كامن وظاهر. وقد تبدو العقاقير في أعين مستخدميها وكأنها أقراص سحرية توفر حلًّا سلبيًّا وسحريًّا لكل المشكلات، وتجعلهم يتخطون حدود العالم الواقعي. ومن المؤكد أن زعيم العصابة الذي يوفر مثل هذه العقاقير لأفراد عصابته يضمن خنوعهم.

البحث عن النشوة من خلال العقاقير

بين مدمني العقاقير من كل نوع، نواجه بشكل متكرر الاشتياق إلى حالة مزاجية من النشوة الخاصة والابتهاج، شعور بحياة تتخطى المشاكل اليومية. يقول «**توماس دي كوينسي**» في كتابه **اعترافات متعاطي أفيون إنجليزي**[36]: «لديك مفاتيح الجنة، أيها الأفيون المبجل والبارع والعظيم!». ومع أن الشعور بالنشوة يختلف بالنسبة إلى كل شخص يجربه، فإن المدمن يقول لنا دائمًا إن العقار يأخذه إلى الجنة المفقودة التي يبحث عنها؛ إنه يبحث بداخله عن الشعور بالنشوة الأبدية والابتهاج الحر الذي يأخذه فيها وراء قيود الحياة والزمن.

وفي تلك الحالة من النشوة، يعيد الإنسان ترتيب الكون وفقًا لرغباته، وفي الوقت نفسه يسعى إلى التواصل مع أشياء في **مراتب عليا**. لكن حالة النشوة لها جوانبها السلبية، بالإضافة إلى الجوانب الإيجابية. ربما تماثل تنسك ممارسي اليوجا التي يشعرون فيها بالتوحد مع الكون، لكن ربما تعتقد أيضًا أنها نفسها حالة السكر حتى الثمالة لشارب الخمر أو بعض حالات ذهان الهوس. ربما يعبر هذا الشعور عن التجربة الروحية الشديدة لمجموعة دراسية متفانية، لكنه على الجانب الآخر ربما يتصادم مع حشود الغوغاء والمشاغبين. هناك عدة أنواع من النشوة – النشوة

---

36 - توماس دي كوينسي Thomas De Quincey (1785 - 1859): كاتب إنجليزي اشتهر بكتاب **اعترافات متعاطي أفيون إنجليزي** *Confessions of an English Opium-Eater*، والكتاب سيرة ذاتية وقد صدرت طبعته الأولى في عام 1821 (المراجع).

الجمالية، ونشوة الناسك، والنشوة المرضية المسمومة.

إن البحث عن خبرة النشوة ليس مجرد بحث فردي، لكنه يشمل عادة مجموعات بأكملها. وعندما يصبح التحكم المعنوي عبئًا كبيرًا، ربما تستسلم حضارات بأكملها لعربدة غير منضبطة، كما شهدنا في عيد باخوس اليوناني، والرقص الصاخب المعدي في العصور الوسطى. ففي حفلات العربدة الجماعية تلك، لا يلزم استخدام مثيرات اصطناعية؛ فالتأثير التنويمي الناتج عن كون المرء جزءًا من حشد جماعي يمكن أن ينجم عنه نفس فقدان السيطرة وحس التماهي مع العالم الخارجي الذي نربطه بالعقاقير. في حفلات العربدة الجماعية، يفقد الشخص إرادته وتحكمه في ذاته. وربما تختفي الكوابح الجنسية؛ فهو يتخلص مؤقتًا من إحباطاته العميقة وعبء الذنب اللاشعوري. إنه يبذل قصارى جهده ليعيد تجربة نعمة الأحاسيس الطفولية؛ ذلك الخضوع التام لاحتياجات الجسد ورغباته.

إن مشاركة النشوة وسط حالة من الفرح الجماعي أقدم أشكال الدراما النفسية في العالم. كما أن الإسهام في بعض الأفعال العامة ينتج عنه ارتياح انفعالي شديد، وسعادة وتنفيس لكل فرد في المجموعة. وهذا الشعور بالمشاركة مع مجموعة سحرية مهيمنة، في لمِّ الشمل والتواصل مع كل القوى الشاملة في العالم ينتج عنه إحساس بالنشوة عند الشخص الطبيعي، وشعور بالقوة الزائفة عند الضعيف. أما زعيم الدهماء الذي في وسعه توفير مثل هذا التنفيس بالنشوة للحشود، فيمكنه ضمان خضوعهم لتأثيره ونفوذه. ولهذا يحب الطغاة تنظيم مثل هذه الطقوس الجماعية لخدمة أهدافهم الاستبدادية.

منذ أن كان الإنسان كائنًا واعيًا، حاول من حين إلى آخر أن يكسر حاجز التوتر الحتمي بين نفسه والعالم الخارجي. وحين لا يكون من الممكن تهدئة اليقظة العقلية من وقت إلى آخر، حين يكون العالم باستمرار مصدرًا للضغط الشديد والمستمر عليه، ربما يحاول أن يلقي بنفسه في مياه النسيان العميقة. إن النشوة والنوم بالعقاقير والخيالات والانتشاء إلى حد الاغماء نتيجة حالة الانسجام العقلي، تتعدى به مؤقتًا

أعباء جهد المحافظة على يقظة حواسه وأناه وسلامتهما. يمكن للعقاقير أن تصل به إلى تلك الحالة، ويمكن تفسير أي إدمان بأنه حاجة مستمرة للهروب. يتعاون الجسد مع الدماغ في هذا البحث عن الفرار من الحياة، وتصبح العقاقير بالتدريج أحد احتياجات الجسد بالإضافة إلى أنها احتياج انفعالي.

وفي الأوساط الإجرامية، يعطى أفراد العصابات عادة جرعات لإدمان الكوكايين أو الهيروين لجعلهم أكثر خضوعًا لزعيم العصابة الذي يوزعها عليهم. ويغدو الرجل الذي يوزع العقاقير المخدرة بمثابة إله لأفراد العصابة، ويكونون على استعداد لأن يخوضوا الجحيم من أجله ومن أجل الحصول على العقاقير التي هم في حاجة ماسة إليها.

وفي يد ديكتاتور قوي، يمكن لأداة العقاقير التي تحول المرء إلى الاعتماد أن تصبح خطرًا شديدًا. وليس من المتعذر أن يريد هذا الديكتاتور الشيطاني استخدام الإدمان وسيلةً لإخضاع المتمردين. في مايو من عام 1954، خلال مناقشة دارت في منظمة الصحة العالمية، كشفت الحقائق أنه في حين أن الصين الشيوعية كانت تمنع استخدام الأفيون في بلادها، إلا أنها كانت تهربه وتصدره بكميات مهولة إلى جيرانها، الذين أجبروا نتيجة لهذا على الكفاح المستمر ضد إدمان الأفيون بين شعوبهم وضد حالة السلبية الناتجة عن استخدام المخدرات. وفي الوقت نفسه، وفقًا للمسؤولين في تايلاند الذين وجهوا التهمة وطلبوا مساعدة الأمم المتحدة، كانت الصين الشيوعية ترسل كافة أنواع دعاة التخريب إلى تايلاند. اتهمت تايلاند الصين بأنها كانت تستخدم كل وسيلة تعرفها لتفسد الشعب السيامي بمعتقداتها الفكرية: إدمان الأفيون الموهن للعقل، والمنشورات، والإذاعة، وحملات لنشر الشائعات وما إلى ذلك.

اتبع النازيون مخططًا مماثلًا. في أثناء احتلال أوروبا الغربية، تسببوا في نقص مفتعل للأدوية الطبيعية بوقف التصدير المعتاد للعقاقير الدوائية إلى الدول «المتدنية». ومع ذلك استثنوا الباربيتورات. وفي هولندا مثلًا، صارت هذه العقاقير

متاحة على الفور في العديد من الصيدليات بدون وصفات طبية؛ وهو موقف يتعارض مع قانون الجمارك الهولندية. وعلى الرغم من أن العقاقير العلاجية المناسبة لم تكن متاحة للعمل الطبي، كانت العقاقير التي ينتج عنها الخمول والاعتماد وتبلد الحس توزع في كل مكان.

يعرف الديكتاتور الشمولي أن العقاقير يمكن أن تكون وسائل مساعدة له. وكان «هتلر»، فيما يدعى الحرب البيولوجية، ينوي إضعاف الدول المحيطة بالرايخ الثالث وإخضاعها وتحطيم عزيمتها إلى الأبد. وكان التجويع والإدمان من بين أكثر أدواته الإستراتيجية قيمة.

ما علاقة كل هذا بزيادة الإدمان وتناول الكحوليات في بلداننا؟ ذكرت بالفعل الزيادات المنذرة بالخطر في معدل الوفيات الناتجة عن الباربيتورات. لكني أود التأكيد أكثر حتى على العواقب النفسية والسياسية. إن نهاية الديمقراطية تكون مع بداية العبودية والخضوع للعقاقير المخدرة والكحول. إن الديمقراطية تتضمن نشاطًا وفهمًا حرين ونابعين من اختيار ذاتي؛ وتعني التحكم في النفس بنضج واستقلال. إن أي شخص يهرب من الحقيقة باستخدام الكحول أو المخدرات لم يعد عنصرًا حرًّا؛ لأنه لم يعد قادرًا على ممارسة أي تحكم إرادي على عقله وتصرفاته. ولم يعد شخصًا مسؤولًا عن نفسه. فإدمان الخمور والعقاقير يمهد لنمط الخضوع العقلي الذي يحبه كثيرًا الشموليون الذين يغسلون الأدمغة.

التنويم المغناطيسي والقهر العقلي

منذ زمن سحيق كان الذي يريد معرفة ما يدور في عقل رفيقه لممارسة الضغوط عليه، يستخدم وسائل مصطنعة للعثور على الدروب الخفية في أكثر أفكاره خصوصية. وحاول المعاصرون الذين يمارسون غسل الأدمغة أيضًا تجربة كافة أنواع العقاقير المخدرة للوصول إلى أغراضهم الملتوية. كما كان لدى الطبيب البدائي عدة وسائل ليجبر ضحاياه على فقدان قدرتهم على التحكم في أنفسهم

وعلى تكتمهم. وكانت شعوب المايا، مثلًا، تستخدم المشروبات الكحولية، أو المراهم المسممة، أو إطلاق الدخان المقدس الذي كان له تأثير مخدر وقد اعتادت أن تجعل الناس يدخلون في تلك الحالة من النشوة حتى يفقدوا إدراكهم الذاتي وضبط النفس. ثم يبدأ الضحية في التفوه بكلمات متكتم عليها، تكشف عادة فانتازيا اتهامهم لأنفسهم أو حتى أعمق أسرارهم. وفي العصور الوسطى، كان يستخدم ما سُمِّي مرهم الساحرات طوعًا أو كرهًا. ومن المفترض أن هذه المراهم كانت تجعل من يُدْهَن بها يتواصل مع الشيطان. وحيث إنها كانت تحتوي على كميات كبيرة من مشتقات الأفيون ونبات ست الحسن التي يمكن للجسم امتصاصها، يمكن للعلم أن يفسر تلك الرؤى الانتشائية التي كانوا يرونها باعتبارها تأثيرًا طبيعيًّا لهذه العقاقير المسببة للهلوسة.

إحدى أولى التقنيات المفيدة التي سلمها الطب إلى أيدي من يتوغلون في الأرواح هو معرفة التنويم المغناطيسي، التي كانت تزيد من الإيحاء العقلي الذي يجعل الناس يستسلمون بإرادتهم وتجعلهم في حالة اعتماد غريبة على الشخص المنوِّم. وقد عرف الأطباء المصريون منذ ثلاثة آلاف عام تقنية التنويم المغناطيسي، وتخبرنا السجلات القديمة عن ممارستهم له.

يمكن أن يكون التنويم المغناطيسي، في يد معالج أمين، مفيدًا إلى أقصى درجة. وعند التعامل مع الأمراض الجسدية النفسية والألم البدني على وجه الخصوص - الذي يعتبر ابن زنا للفنتازيا والواقع - يكون التنويم المغناطيسي سامريًّا طيبًا[37]. لكن هناك العديد من الدجالين الذين يمارسون التنويم المغناطيسي، ليس بغرض شفاء الضحايا، لكن لإجبارهم على الخضوع، باستخدام الروابط اللاشعورية والاحتياجات الاعتمادية لدى الضحية بطريقة إجرامية ومربحة. توجد جذور جنسية لا شعورية في التنويم المغناطيسي، تتعلق بالخضوع السلبي للمعتدي، الذي

37 - السامري الطيب: شخص خير ومتعاون طبقًا لإنجيل لوقا 10: 33. (المراجع)

يستخدمه الدجال لينفس عن عواطفه الخاصة. في إحدى المرات كنت أعالج فتاة بعد أن ذهبت إلى أحد هؤلاء «المعالجين»، وفي آخر لحظة فقط تمكنت من الخروج من تلك الحالة الخاملة الخاضعة، ودافعت عن نفسها ضد اعتداءاته.

ومنذ فترة ليست ببعيدة، عالجتُ بعض المراهقين الذين حاول كل منهم تنويم الآخر مغناطيسيًّا. أرادوا أن يتعلموا تعقيدات هذه التقنية من أجل زيادة قدرتهم العقلية أكثر من الآخرين. بإلهام من بعض القصص المصورة، تخيلوا أنهم باستخدام التنويم المغناطيسي يمكنهم التأثير على الفتيات ليخضعن لهم استجابة لمبادرتهم الجنسية. وتوقعوا أن يصبحوا أبطالاً خارقين يمكنهم جعل الآخرين أدوات لإشباع شهوتهم والتصرف وفق إرادتهم.

إن أحد أكثر الجوانب التي تستحوذ على الاهتمام فيما يتعلق بمشاكل التنويم المغناطيسي ككل هو السؤال المتعلق بما إن كان في المستطاع إجبار الناس على ارتكاب جرائم مثل القتل أو الخيانة تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ربما ينكر العديد من علماء النفس إمكانية حدوث مثل هذا الأمر، ويصرون على أنه لا يمكن إجبار المرء على أن يقترف تحت تأثير التنويم المغناطيسي ما كان ليرفضه في حالة الوعي اليقظ، لكن إمكانية إجبار المرء على فعله يعتمد في الحقيقة على درجة الاعتماد الناجمة عن التنويم، ومعدل تكرار ما يسمى إيحاءات ما بعد التنويم. يخبرنا التحليل النفسي الحقيقي أنه توجد عدة وسائل أخرى ليعيش المرء حياة أناس آخرين. نعم، صحيح أنه ليس بمقدور أي منوِّم أن يغتصب الوعي والمقاومة الداخلية للإنسان على الفور، لكن بإمكانه أن يثير أماني القتل الكامنة التي يمكن أن تنشط في اللاوعي عند ضحيته، من خلال الإيحاء المستمر واللعب المستمر على تلك الرغبات المكبوتة في أعماقه. إن المعرفة الحقيقية بالوسائل المستخدمة في عملية غسيل الدماغ وإبادة العقل تثبت إمكانية فعل هذا كله. فإذا ما واصل المنوِم بإصرار في المدة الكافية وبالمهارة الكافية، يمكنه أن ينجح في تحقيق مآربه. تقبع في أعماق كل الناس العديد من الرغبات المعادية للمجتمع، ويمكن لأساليب التنويم المغناطيسي

إن كانت على الدرجة المطلوبة من المهارة أن تجعل هذه الرغبات تظهر وتجد سبيلها إلى الحياة. وتلك الوحشية الجماعية لحراس معسكرات الاعتقال تفسر جزئيًا بتأثير التنويم المغناطيسي للدولة الشمولية والديكتاتور المجرم الحاكم لها. وقد أوضحت الدراسة النفسية للمجرمين أن أول مرة خرقوا فيها الأعراف الأخلاقية والقانونية كانت تحدث عادة تحت تأثير وإيحاء شديد من مجرمين آخرين. وربما يُنظر إلى هذا كأنه نوع أوَّلي من التنويم المغناطيسي، الذي يعد أحد أكبر أشكال الإيحاء.

نعم، صحيح أن التحريض على الجريمة في حالة التنويم يتطلب ظروفًا خاصة ملائمة، لكن للأسف يمكن أن تتوفر هذه الظروف في العالم الواقعي الحقيقي.

ومؤخرًا، طرح العديد من المناقشات القضائية حول مشكلة الطبيب النفسي الذي يستخدم معرفته الخاصة عن الإيحاء ليجبر الشخص المدان على الاعتراف بجريمته. إن هذا الطبيب النفسي يتعدى المفاهيم المقبولة عرفيًا فيما يخص حدود الطب النفسي، ويتعدى أخلاقيات الطب النفسي. إنه يسيء استغلال ثقة المريض في المؤتمن طبيًا والمعالج للحصول على اعتراف، يستخدم بعد ذلك ضد المريض بعد العناية به مؤقتًا. وبهذا الفعل لا يحنث الطبيب فقط بقسم أبقراط، الذي وعد فيه بأن يعمل لصالح مرضاه فحسب ولا يفصح عن أسراره المهنية، لكنه أيضًا ينتهك الضمانات الدستورية المكفولة للمدان بنص التعديل الخامس في الدستور الأمريكي، الذي يحمي الإنسان من تجريم النفس.

ما يفصح عنه المدان تحت تأثير التنويم المغناطيسي يعتمد على تصرفاته الشعورية واللاشعورية تجاه مسألة التأثير السحري، والتدخل الذهني كله من شخص آخر. تقل احتمالية أن يتمسك الناس بحقوقهم القانونية عند التعامل مع الأطباء أكثر من تعاملهم مع المحامين أو ضباط الشرطة. إنهم يتخذون هذا الموقف الخاضع لأنهم يتوقعون مساعدة سحرية.

وهناك مثال مهم حول هذا الأمر يمكننا ملاحظته في القضية التي بتت فيها المحكمة العليا مؤخرًا. في عام 1950، ألقي القبض على «كاميليو ويستون ليرا»[38]، في الخمسينيات من العمر، أدين من الشرطة بالقتل الوحشي لوالديه المسنين باستخدام مطرقة في شقتهما في بروكلين (عرفت باسم قضية «الناس ضد ليرا»). في البداية، أنكر «ليرا»، في ظل الاستجواب المطول من الشرطة، أية معرفة له بالجريمة، وأقر أنه لم يكن حتى في منزل والديه يوم وقوع الجريمة. ولاحقًا، بعد أن أجرت الشرطة مزيدًا من التحقيقات، قال إنه كان في منزله في ذلك اليوم، لكنه ظل ينكر ارتكاب الجريمة. حبس في السجن وتم إحضار طبيب نفسي للحديث معه، وسجلت محادثتهما على شريط. أخبر الطبيب النفسي «ليرا» أنه«طبيبه»، مع أنه لم يكن كذلك في الواقع. وتحت تأثير القليل من التنويم المغناطيسي بعد الإيحاءات المستمرة بأن «ليرا» سيكون أفضل إذا ما اعترف بأنه ارتكب جريمة القتل بعد مر بنوبة انفعالية، وافق «ليرا» على الاعتراف بالجريمة، ثم استدعيت الشرطة بعد ذلك، وانتزع الاعتراف.

وخلال المحاكمة ظل «ليرا» ينكر الاعتراف، وأصر أنه كان تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ غير أنه أدين، لكن الإدانة نحيت جانبًا على أساس أن الاعتراف انتزع منه لا إراديًا، وأنه حرم من حقوقه الدستورية. وفي وقت لاحق، قُدم «ليرا» إلى المحاكمة وأدين للمرة الثانية، وفي النهاية استأنفت قضيته لدى المحكمة العليا، التي نقضت الإدانة في يونيو من العام 1954، على أساس أن الضغط العقلي، وأساليب القهر النفسي استخدمت في انتزاع الاعتراف. وبأسلوب غير مباشر، أعطت المحكمة العليا رأيها هنا بشأن مسؤولية أسرى الحرب الذين خضعوا

38 - كاميليو ويستون ليرا Camilio Weston Leyra: أدين خطأً في عام 1950 بتهمتي قتل من الدرجة الأولى تتعلقان بقتل والديه في شقتهم في مقاطعة كينجز، نيويورك في 10 يناير 1950. استندت محاكمة "ليرا" إلى اعترافه إلى طبيب نفسي يعمل في الشرطة، اسمه ماكس هيلفاند، واستجوابات الشرطة المتقطعة والمكثفة لأيام وليال، وبعد ذلك بوقت قصير ،كرر "ليرا" اعترافه إلى نقيب شرطة واثنين من مساعدي المدعي العام؛ حكم عليه بالإعدام، وفي النهاية بعد ست سنوات في السجن تمت تبرئته وإطلاق سراحه. (المراجع)

لغسيل الدماغ.

بالنسبة إلينا فإن السؤال بشأن ذنب «ليرا» أو براءته أقل أهمية من حقيقة أنه تحت تأثير الضغط العقلي تم حثه على فعل ما كان ليفعله عادة، وأن ثقته في الطبيب جعلته يضعف دفاعاته التي كان يستخدمها مع المحققين الآخرين؛ وهي الثقة التي استخدمت في تحطيمه.

يمكن للإيحاء والتنويم المغناطيسي أن يكونا نعمة نفسية، يمكن من خلالهما أن يحل المرضى مشاكلهم الانفعالية التي تقاوم الإرادة الواعية، لكن يمكن أن يكونا أيضًا بداية للإرهاب. مثال ذلك، يمكن أن يكون للتنويم المغناطيسي تأثيرات خطيرة على الفرد. وجد الأطباء النفسيون عدة مرات أن العروض العامة للتنويم المغناطيسي الجماعي يمكن أن تؤدي إلى زيادة الاعتماد التنويمي، والخضوع لدى العديد من أفراد الجمهور، ويمكن أن يدوم لسنوات. ولهذا السبب سنت بريطانيا العظمى قانونًا يجرم جلسات تحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي الجماعي. ربما يعمل التنويم المغناطيسي بمثابة محفز لآلية للاحتياج الطفولي المكبوت إلى الاعتماد في الضحية، ويحوله مؤقتًا إلى شكل من أشكال السائر أثناء النوم، وعبدًا من الناحية العقلية. إن الأمر التنويمي يريحه من مسؤوليته الشخصية، ويسلم إرادته إلى المنوِم. وكما ذكرنا من قبل، فإن عصرنا الحالي أمدنا بأمثلة كثيرة حول الكيفية التي يمكن بها للتنويم السياسي، وتنويم الدهماء، وحتى التنويم في الحروب أن يحول البشر المتحضرين إلى مجرمين.

بعض الشخصيات أكثر قابلية للتنويم عن الأخرى. فأصحاب الأنا القوية يمكنهم الدفاع عن أنفسهم لفترة طويلة ضد التدخل العقلي، لكن ربما تكون لديهم أيضًا نقطة ضعف. وهناك أشخاص حساسون بشكل واضح، ولديهم حساسية للإيحاء من الخارج أقل بكثير من الصور الذهنية من داخل أنفسهم. يمكننا التفريق بين الشخصيات التي تتأثر بإيحاء الآخرين، والتي تتأثر بالإيحاء الذاتي، على الرغم من إمكانية التمييز بين مجموعة كبيرة منوعة من ردود الفعل للتنويم المغناطيسي

والإيحاء. لكن حتى هذه الأنواع ذاتية الإيحاء، لو خضعت للضغط الكافي فسوف تشكل بالتدريج تبريرًا داخليًّا للاستسلام للقهر العقلي.

إن تلك الشخصيات «الفاتنة» التي يمكنها التأثير على الآخرين بسهولة يكونون غالبًا عرضة للإيحاء إلى حد بعيد. وبعض الشخصيات التي لديها موهبة فذة في التعاطف والتماهي تستثير في الآخرين الرغبة في الإفصاح عن كل أسرارهم؛ إنهم يبدون نوعًا ما مثل **أب الاعتراف** ببركة **الرب**. وبعض الأنواع المتعاطفة الأخرى يمكنها، من خلال عكس عالم داخلي مخادع، أن يستثيروا بسهولة الكذب الخفي والفانتازيا في ضحاياهم. ويبقى أن هناك شخصيات أخرى تجعلنا ننغلق على أنفسنا تمامًا. إن السبب الذي يجعل شخصًا ما يبعث في داخلنا الرغبة في الاستسلام، وآخر يبعث فينا الرغبة في المقاومة هو أحد الألغاز الغامضة في العلاقات والتواصل الإنساني. لماذا تميل بعض الشخصيات إلى أن تكمل وتشد من أزر بعضها، في حين تتصارع أخرى وتدمر بعضها؟ قدم المحللون النفسيون فكرة جديدة حول هذه العلاقات، والارتباطات البشرية الغريبة.

الحقن من أجل الحقيقة

خلال الحرب العالمية الثانية كانت هناك تقنية تدعى مصل الحقيقة (الاسم الشهير للتحليل بالمخدرات)[39]، التي تم تطويرها لمساعدة الجنود الذين انهاروا نفسيًّا تحت وطأة المعركة. من خلال التحليل بالمخدرات باستخدام الحقن بالمهدئات، يمكن جعلهم يتذكرون ويكشفون عن انفعالاتهم الشديدة واللحظات الصادمة في خبراتهم في الحرب التي جعلتهم يصابون بعصاب القلق الحاد. وبالتدريج، تم تطوير أساليب إسعافات أولية عقلية مفيدة ساعدت اللاوعي على

39 - التحليل بالمخدرات narco-analysis: مصطلح يستخدم لوصف أسلوب تشخيصي وعلاج نفسي يستخدم العقاقير، وخاصة الباربيتورات، لإحداث ذهول تظهر فيه العناصر الذهنية ذات الارتباطات القوية على السطح؛ حيث يمكن للمعالج أن يستغلها في العلاج. (المراجع)

الكشف عن أسراره والمريض تحت تأثير المواد المخدرة.

كيف يعمل مصل الحقيقة؟ المبدأ بسيط: بعد الحقن يدخل العقل في حالة تشبه النوم، ويصبح غير قادر على التحكم في أسراره، وربما يجعل هذه لأسرار تنزلق من المستودعات السرية من الإحباط والكبت، لتصل إلى العقل شبه الواعي. وفي حالات معينة من القلق الحاد، ربما يخفف مثل هذا الحث القسري من القلق والضغط الذي يؤدي إلى الانهيار. لكن التحليل بالمخدرات لا يفيد غالبًا. يستاء عقل المريض أحيانًا من هذا التطفل الكيميائي والتدخل الإجباري، ومثل هذا الموقف يعوق غالبًا الطريق أمام العلاج النفسي الأكثر عمقًا وفائدة.

إن الخوف من التدخل والقهر العقلي غير المتوقع ربما يكون مَرضيًا في الشخصية. حين نشرتُ للمرة الأولى مفهومي عن إبادة العقل وغسيل الدماغ، وصلتني عشرات الرسائل والمكالمات الهاتفية من أشخاص كانوا مقتنعين أن شخصًا غريبًا يحاول التأثير عليهم وتوجيه أفكارهم. وهذا النوع من وهم التدخل العقلي ربما يكون مرحلة مبكرة من الذهان الخطير الذي ينتكس فيه الضحية بالفعل إلى مشاعر سحرية بدائية. في تلك الحالة يُرَى العالم الخارجي ويُحس بأنه يساهم فيما يجول بعقل الضحية. وإذا جاز التعبير، لا يوجد أي إدراك حقيقي للحدود بيني أنا، الشخص، وبين العالم. وهؤلاء الأشخاص الذين أصابهم الخوف يشعرون بمعاناة مستمرة لأنهم يعتبرون أنفسهم ضحايا للعديد من التأثيرات الغامضة التي لا يمكنهم ردعها أو مجاراتها؛ إنهم يشعرون بأنهم عرضة للخطر باستمرار. ومن الناحية النفسية، يمكن بشكل جزئي تفسير خوفهم من التدخل من العالم الخارجي بأنه خوف من الفانتازيا الداخلية، من اللاشعور. إنهم خائفون من أفكارهم الخفية واللاشعورية التي لم يعد في استطاعتهم التحقق منها.

قد يكون تبسيطًا مخلًّا إلى حد بعيد إذا وضعنا اسمًا سهلًا في الطب النفسي لكل ذلك الإحساس بالاضطهاد الذهني، لأن هناك العديد من الضغوط العقلية الخارجية الحقيقية في عالمنا، وهناك العديد من الأشخاص الأسوياء إلى أقصى حد

يدركون باستمرار وابل المثيرات الموجهة إلى عقولهم عبر الدعاية، والإعلان، والراديو، والتليفزيون، والأفلام، والجرائد وينزعجون منها – من كل أولئك المهووسين الذين يثرثرون ولا تنقطع أصواتهم أبدًا. ويعاني هؤلاء لأن ثمة عالمًا باردًا وآليًّا وصارخًا يقرع باستمرار على أبواب عقولهم، ويربك إحساسهم بالخصوصية وسلامتهم الشخصية.

ثمة سؤال آخر عما إذا كانت العقاقير المستخدمة في مصل الحقيقة ينتج عنها دومًا التأثير المرغوب فيه، الذي يجبر المريض على الإفصاح عن الحقيقة الكامنة بداخله. إن التجارب التي أجريت في جامعة ييل عام 1951 (جي إم ماكدونالد) على تسعة أشخاص خضعوا للحقن الوريدي بعقار أميتال الصوديوم[40] – ما يطلق عليه مصل الحقيقة – أظهرت نتائج مثيرة للاهتمام تجعلنا نميل إلى فقد الثقة في هذا العقار. جرى سرد قصة زائفة على كل واحدٍ من المرضى، قبل أن يحقن، تتعلق بفترة تاريخية سيسأل عنها. وكان المشرفون على التجربة على دراية بالقصة الحقيقية والقصة الزائفة، دعني أقتبس لك من التقرير: «من المثير أن الثلاثة الخاضعين للتجربة الذين شُخصوا بأنهم حالات طبيعية حفظوا القصص [التي سردت عليهم]. ومن بين الخاضعين للتجربة الست الذين صنفوا بأنهم مصابون بالعصاب، كشف اثنان منهم على الفور عن القصة الحقيقية؛ وأقر اثنان آخران باعترافات جزئية تتألف من نمط معقد بين الفانتازيا والحقيقة؛ وكان أحد الأفراد مصابًا بالوسواس القهري وقد حفظ القصة المختلقة باستثناء زلة واحدة [تصرف خاطئ أو متخبط]».

في عدة حالات رفضت المحاكم الأمريكية الاعتراف بقطعية نتائج اختبارات مصل الحقيقة، وذلك عمومًا على أساس اعتقاد الطب النفسي بأن علاج مصل

40 - جي إم ماكدونالد J.M. MacDonald (1920 - 2007): طبيب نفسي نيوزيلندي، توفي في الولايات المتحدة، اشتهر باكتشاف ثلاثي ماكدونالد للشخصية المعادية للمجتمع ووصفه للسفاحين؛ أميتال الصوديوم sodium amytal: من مشتقات الباربيتورات. (المراجع)

الحقيقة يحمل اسمًا خطأ، وأن التحليل بالمخدرات في الواقع لا يضمن الحصول على الحقيقة. بل يمكن استخدامه بمثابة تهديد قهري في القضايا التي لا يدرك فيها الضحايا تأثيره المحدود.

وهناك خطر آخر يتعلق بشدة بموضوعنا، وهو أن المحقق الجنائي يمكن أن يدس أفكاره ومشاعره الخاصة ويبثها في الضحية. وبناءً عليه، فإن مصل الحقيقة ربما يضعف الأنا بداخل الضحية حتى يخضع للأفكار والتفسيرات التي يحقن بها صناعيًّا من المتدخل، تمامًا بالطريقة نفسها التي يستحوذ بها الإيحاء الذي يغرسه المنوِّم في الضحية المنوَّم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن طريقة التحقيق هذه باستخدام العقاقير تحتوي على بعض الخطر البدني؛ فقد رأيت حالات من تجلط الدم نتيجة استخدام عقاقير الباربيتورات في الوريد.

أما التجارب باستخدام المسكالين التي بدأت منذ ثلاثين عام، فقد أصبحت رائجة فجأة. في كتابه الأخير **أبواب الإدراك**، وصف "ألدوس هكسلي"[41] تلك الحالة الكيميائية الاصطناعية التي جربها بعد أن تناول هذا العقار (المعروف أيضًا باسم بيوتي- peyote). بإمكانه أن يبعث كافة أنواع السرور وأعراضا من الخضوع، لكن له مع ذلك سمة مخادعة. ولا أريد أن أبدأ بجدال طبي مع مؤلف أحمل له كل التقدير، مع ذلك فإن ردود فعله الانتشائية والسارة تجاه المسكالين ليست مماثلة بالضرورة لخبرة الآخرين. منذ خمسة وعشرين عامًا، جربت المسكالين لأتعرف بنفسي على الأفكار المرضية الجوهرية. ونتيجة لهذا كدت أنهار، ولم يصل إلى تلك الحالة الانتشائية التي وصفها «هكسلي» إلا القليلون. يعتبر المسكالين من المواد الخطرة إذا لم يستخدم تحت الإشراف الطبي. وعلى أي حال، لماذا يريد د.

41 - ألدوس هكسلي Aldous Huxley (1894 - 1963): كاتب إنجليزي، له اهتمامات بالباراسيكولوجيا والتصوف الفلسفي، صدر كتابه أبواب الإدراك *The Doors of Perception* في عام 1954. (المراجع)

«هكسلي» أن يروج لجَنَّات اصطناعية؟

يوجد خطر اجتماعي شديد على العقل في كافة وسائل التدخل الكيميائي. صحيح أنه من الممكن استخدامها وسيلة مساعدة في العلاج النفسي بحذر، لكن يمكنها أن تصبح أيضًا أدوات تحكم مخيفة في أيدي الذين لديهم دوافع شديدة للسلطة. بالإضافة إلى ذلك فإنها تعزز أكثر من أي وقت مضى في عصر الأسبيرين الذي نعيشه هذا، من خرافة أنه ينبغي علينا استخدام عقار معجزة لنصبح عناصر تتصرف بحرية. إن تلك الدعاية للانتشاء الكيميائي، وللانتشاء الاصطناعي، وتجربة السَكينة الزائفة تتضمن دعوة الإنسان إلى الاعتماد على المواد الكيميائية، في حين أن الأشخاص المعتمدين على المواد الكيميائية ضعفاء ويمكن استغلالهم من أي صاحب سلطة سياسية مستبد. إن الدعاية الفعلية التي تسري بين الممارسين العامين التي تحث على علاج كافة أنواع القلق والاضطرابات النفسية بعقاقير جديدة، لها التأثيرات الخطرة نفسها.

جهاز كشف الكذب

إن التنويم المغناطيسي والتحليل بالمخدرات ليسا إلا أداتين من الأدوات الحالية التي يمكن إساءة استخدامهما باعتبارها أدوات للاقتحام القسري للعقل. وجهاز كشف الكذب، الذي استخدم مؤخرًا أداة للترهيب العقلي، أداة أخرى. يمكن لهذا الجهاز المفيد في التجارب النفسية البيولوجية الإشارة – بتسجيل التغيرات الدقيقة التي تطرأ على «الانعكاس الجلفاني النفسي- psychogalvanic» إلى أن فأر التجارب البشري الخاضع للفحص يتفاعل بانفعال أكبر تجاه أسئلة معينة، ولا يتفاعل تجاه غيرها. صحيح يمكن للتفاعل المبالغ فيه أن تكون رد فعل للتفوه بكذبة، لكن ربما يكون أيضًا ردة فعل من شخص بريء لموقف مفعم بالانفعالات، أو حتى الخوف الزائد من الاتهام ظلمًا. إن إجراءات التفاعل الشخصي بين المحقق والخاضع للاختبار لها القدر نفسه من التأثير على ردود الفعل الانفعالية والتغيرات في الانعكاس الجلفاني، مثل تأثير الشعور بالذنب الداخلي والارتباك. وتشير هذه

التجربة فقط إلى الاضطراب الداخل، والمشاعر المكبوتة، وكافة أشكال الشكوك والغموض. في الحقيقة إنه ليس جهازًا لكشف الكذب، مع أنه يستخدم لهذا الغرض (د. ماكدونالد)[42]. في الواقع، ربما يظهر من يكذب بشكل مرضي، والسيكوباتي، والشخصية معدومة الضمير ردود فعل أقل في هذه التجربة أكثر من الأشخاص العاديين. ومن المحتمل أكثر أن يكون جهاز كشف الكذب أداة للقهر في يد الأشخاص الذين يستميتون في بحثهم في كل الأجهزة عن سحر قوي، أكثر من أن يكون وسيلة للحصول على الحقيقة. والنتيجة، يمكن خداع حتى الشخص البريء ليدلي باعترافات زائفة.

المعالج بصفته أداة قهر

إن العلاج الطبي والعلاج النفسي علمان بارعان لتوجيه الإنسان في فترات الضغط البدني والانفعالي. وكما أن التدريب يتطلب يقظة ومشاركة يتم التخطيط لهما جيدًا من الطالب والمدرس كليهما، فكذلك يتطلب العلاج النفسي الناجح يقظة ومشاركة يتم التخطيط لهما جيداً من المريض والطبيب كليهما. وكما أن التدريب التربوي، في ظل ظروف خاصة، يمكن أن ينحدر ليصبح ترويضًا بالقهر، فكذلك يمكن للعلاج أن ينحدر بفرض الطبيب إرادته على المريض. وليس من الضروري أن يكون الطبيب نفسه مدركًا حدوث ذلك؛ فسوء استخدام العلاج هذا ربما يظهر في خضوع المريض لوجهة نظر الطبيب، أو تطور اعتماده بشكل مفرط على طبيبه. ومثل هذه الاعتمادية أو حتى الحاجة المتزايدة للاعتمادية، ربما تمتد لتتجاوز الحدود الطبيعية وتستمر حتى بعد فترة العلاج.

شاهدت دجالين كانت معرفتهم الوحيدة من أين يشترون أريكتهم. وحين يطلقون على أنفسهم لقب محلل نفسي يصبح بمقدورهم إشباع حاجتهم الخاصة في

42 - د. ماكدونالد D. MacDonald (1916 - 1986): كاتب وروائي أمريكي. (المراجع)

أن يعيشوا حيوات الآخرين. وعليه، يجب أن تصدر قوانين في نهاية المطاف ترسخ معايير يمكنها إيقاف خطر هؤلاء المتطفلين عن ممارسة العلاج النفسي. لكن حتى المعالج الأمين الذي يراعي ضميره لديه مشاكل أخلاقية عويصة ينبغي عليه مواجهتها. إن مهنته في حد ذاتها تشجعه باستمرار، بل وحتى تجبره على جعل مرضاه يعتمدون عليه مؤقتًا، وربما يشبع هذا حاجته بالشعور بالأهمية والسلطة. من هنا عليه أن يدرك على الدوام التأثير الذي تخلفه تصريحاته واستنتاجاته على المرضى الذين يستمعون عادة برهبة للطبيب الذي يمثل بالنسبة إليهم ساحرًا مهيمنًا بقدرته. وعلى الطبيب المعالج ألا يشجع موقف الخضوع هذا في مرضاه – مع أنه يساعد في بعض مراحل العلاج على الاستشفاء – لأن الهدف السامي للعلاج النفسي يتمثل في تعليم الإنسان حريته ونضوجه، وليس الإذعان لحالة الخضوع.

إن ممارسي علم النفس والطب النفسي أكثر دراية هذه الأيام بالمسؤولية التي تفرضها عليهم مهنتهم عما كانوا عليه من قبل. إن أدوات علم النفس خطيرة في أيدي الأشرار. من الممكن للوسائل التعليمية الحديثة أن تطبق في العلاج على عقل الرجل العادي، وتغير آراءه بحيث يتوافق تفكيره مع أنظمة فكرية معينة. ربما تنخرط العقاقير والعلاج النفسي أكثر فأكثر في المخططات السياسية كما عاينا في استراتيجية غسيل الدماغ، ولهذا على علماء النفس والأطباء النفسيين أن يكونوا أكثر دراية بطبيعة الأدوات العلمية التي يستخدمونها.

إن التأكيد على الأساليب العلاجية، وعلى الطلاب الذين يعرفون كافة الحقائق والخدع، والتركيز الزائد على دبلومات العلاج النفسي والتصنيفات، يقود العلاج الفعلي صوب الانسجام وإضفاء المنطق على المبادئ المخالفة للحساسية الشخصية اللازمة. ويمكن لخاصيتنا النقدية والعقلانية أن تكون مدمرة، فهي تدمر أو تستتر وراء شكوكنا الأساسية ومشاعرنا المختلطة التي تولدت في خضم اليأس المفجع، الذي ينشأ عنه حساسية البشر. إن الخطر وراء العلاج النفسي الحديث (وعلم

النفس) هو الميل إلى قولبة الحدس والتعاطف البشري، وإلى تحويل العواطف والتلقائية إلى أشياء مجردة، ومن التناقض محاولة تحويل الحب والجمال إلى الآلية. لو كان هذا ممكنًا، لوجدنا أنفسنا في عالم لا يوجد فيه أي إلهام أو سرور، بل حالة من الفهم البارد فقط.

كل علاقة إنسانية يمكن استخدامها من أجل الأهداف الخطأ أو الصواب، وهذا الأمر يصح تمامًا فيما يتعلق بالعلاقات التي فيها روابط لاشعورية معقدة قائمة بين المعالج النفسي والمريض. وهذا التصريح صحيح بالمثل فيما يتعلق بالطب ككل؛ فالجراح أيضًا يعمل في أحسن حال بناءً على الروابط القوية مع مريضه وخضوعه الإرادي لتقنياته الجراحية. من هنا أعطانا «فرويد» أول تفسير واضح لما يحدث في العقول خلال التواصل العقلي الممتد مع الإنسان. وقد أظهر أن في كل علاقة إنسانية متينة يتفاعل كل طرف على الأقل جزئيًّا من ناحية التوقعات والأوهام التي نشأت في فترة الطفولة. ونتيجة لهذا فإن العلاج الممتد – بناءً على مبادئ حرية التعبير المطلقة – يوفر فرصة كبيرة لإحالة المشاعر الخاصة للطبيب وللمريض أيضًا. وإذا لم يكن المريض حريصًا، أو لم يفهم هذا الانتقال المتبادل للانفعالات المستترة، أو إذا كان، في خضم حماسته، كل شيء قاهرًا جدًّا، ربما أجبر المريض على تقبل وجهة نظره، بدل أن يساعد المريض على الوصول إلى وجهة نظره. ويمكن أن يصبح هذا تدخلًا عقليًّا من نوع خطير. وقد علمتنا الخبرات العلاجية أن الأساليب الخاطئة يمكن أن تجعل المريض يشعر بأنه يُعرقَل. وفي بعض الأحيان يشعر المرضى وكأنهم يجب أن يعيشوا في خضوع وخنوع للطبيب. لقد شاهدت بنفسي عائلات وطوائف بأكملها تحلف بمثل هؤلاء الأطباء الأشبه بالسحرة العصريين.

ولا عجب في أن هذه التعليمات التحليلية النفسية السليمة تتطلب من المعالج أن يخضع هو نفسه للتقنية التي على وشك أن يطبقها على الآخرين، وبالتالي يحاول، مسلحًا بمعرفة احتياجاته اللاشعورية غير السوية، أن يستخدم مهنته في توجيه

حيوات الآخرين.

والكثير من الوكالات العلمية النفسية، بمفاهيمها وتقنياتها المختلفة، مثل الاستشارة العائلية، والإرشاد الديني، والاستشارة الإدارية وما إلى ذلك، يمكن إساءة استخدامها بسهولة بصفتها أدوات سلطة. إن النية الحسنة التي يضعها الناس في قادتهم وأطبائهم ومدرائهم هائلة، ويمكن استخدامها سلاحًا ضدهم. حتى إن جراحة الدماغ الحديثة لمعالجة العقل يمكن إساءة استخدامها من المستبدين المعاصرين لتشويه منافسيهم. إن علم النفس ذاته ربما يميل إلى وضع معايير للعقل، وهذا الميل بين مختلف مدارس علم النفس للتأكيد على الأسلوب المعروف يزيد بغير حصافة من فرصة القهر العقلي. «إذا لم تتفوه بهذه الرطانة السحرية ورائي، فسوف ينبغي علي أن أفرض عليك ارتباطات شرطية لكي تتبعها». إن التلاعب بعقول الآخرين أسهل من تجنب التلاعب بها.

إن المجتمع الديمقراطي يعطي لمواطنيه حق التصرف بصفتهم عناصر حرة، وفي الوقت نفسه يفرض عليهم مسؤولية الحفاظ على حريتهم، سواء من الناحية العقلية أو السياسية. وإذا ما قللنا قدرة الإنسان على التصرف وفقًا لمبادرة منه باستخدام التقنيات الطبية والكيميائية والآلية الحديثة، فإننا نحطم معتقداتنا ونظامنا الديمقراطي. وكما أن هناك غسيل دماغ متعمد سياسيًّا، يمكن أن يوجد تدخل إيحائي متنكر تحت اسم العدالة أو العلاج. وربما يبدو هذا أقل تطفلًا من الهجمة الشمولية المتعمدة، لكنه ليس أقل خطورة.

إن العقاقير المسببة للخضوع واقع قائم. يمكن للإنسان استخدام معرفته بعقل أخيه الإنسان ليس لمساعدته، بل لإيذائه وتوريطه. ويمكن للساحر أن يزيد من سطوته بزيادة قلق ضحيته وخوفه، وباستغلال احتياجاته الاعتمادية، وباستثارة إحساسه بالذنب والدونية.

ويمكن استخدام العقاقير والتقنيات الطبية لجعل الإنسان كائنًا خاضعًا وخانعًا؛ وعلينا أن نأخذ هذا بعين الاعتبار حتى نجعله يتمتع بالصحة والحرية.

الفصل الرابع

لماذا يخضعون؟

الديناميكية النفسية وراء الاعتراف الزائف

هل يوجد جسر من مفهوم الارتباط الشرطي البافلوفي إلى فهم نفسي أعمق؟ هناك صراع فقط بين المفاهيم داخل هؤلاء المنظرين البافلوفيين الذين ينكرون علم النفس العميق المعاصر. لقد أقر «بافلوف» نفسه بوجود دوافع عميقة وخفية في الإنسان، وبمحدودية دراسته للسلوك الحيواني.

ومهمتنا هي العودة إلى مغسول الدماغ ونسأل أنفسنا: كيف يمكننا أن نفهم ما حدث له على أفضل وجه؟ ما الذي كانت عليه الظروف البافلوفية، وماذا كانت الدوافع الداخلية للخضوع للتلاعب السياسي الإجباري بالعقل؟ هل كان ذلك جبنًا، هل كان سجن الذهان، هل كان فقدان القدرة العقلية على تحمل عالمنا عمومًا؟

آمل من خلال الملاحظات والتجارب التالية أن أستغل الأفكار الطبية المتوفرة أيضًا من خلال علم النفس العميق المعاصر.

الفيلسوف القلق

في أحد الأيام من عام 1672، كان على فيلسوف العقل الوحيد «سبينوزا» أن يحتجزه أصدقاؤه وجيرانه بالقوة؛ إذ أراد أن ينطلق إلى الشوارع ويصب جمام غضبه

على الغوغاء الذين قتلوا صديقه الحميم «يوهان دي ويت»[43] أحد رجال الدولة النبلاء في الجمهورية الهولندية، والذي اتهم زورًا بالخيانة. لكنه عاد إلى صوابه مؤقتًا وانزوى في غرفته؛ حيث كان يصنع العدسات البصرية كالمعتاد وفقًا لعمل يومي اعتيادي لا ينقطع منه إلى حينه. وبينما كان يعمل استغرق في التفكير بشأن سلوكه، الذي لم يعد عقلانيًا أو منطقيًا ولم يتعدَّ أن يكون سلوكًا أشبه بسلوك حشود المشاغبين الذين قتلوا «دي ويت». عندئذ، أدرك «سبينوزا» وجود ذلك الوحش الانفعالي القابع أسفل العقل البشري، الذي يبطش ويدمر إذا ما استيقظ، ويمكنه بعدها أن يستحضر آلاف التبريرات والحجج على تصرفه.

وكما استشعر «سبينوزا»، وأوضحه بعد ذلك عالم النفس العظيم «سيجموند فرويد»، أن الناس ليسوا كائنات عقلانية كما يعتقدون. في اللاوعي، ذلك المستودع الهائل الذي يحتوي على ذكريات ومشاعر ومساعي مدفونة في الأعماق، وتقبع فيه العديد من الأشواق الطفولية وغير العقلانية، التي تؤثر باستمرار على التصرفات الواعية، وجميعنا محكومون بدرجة ما بهذا الديكتاتور المتخفي، وبالنزاع بين عقلنا وعواطفنا.

إننا إلى هذا الحد ضحايا للدوافع اللاشعورية غير المراقبة، وإلى هذا الحد ربما نكون عرضة للتلاعب الذهني. وبالرغم من هول فكرة أن مقاومتنا العقلية ضعيفة نسبيًا، فإن الخاصية التي تميز إنسانًا عن آخر – أنا الفرد – يمكن أن تستبدل جذريًا بالضغط النفسي، ومثل هذه التحولات ما هي إلا مجرد طرفي نقيض لعملية نشاهدها وهي تأخذ مجراها في الحياة العادية. ومن خلال الإيحاء الممنهج، والدعاية المعقدة، ومزيد من التنويم الجماعي العلني تتغير تعبيرات العقل البشري يوميًا في أي مجتمع. تغري الإعلانات المواطن الديمقراطي باستخدام الدجل، أو علامة

---

43 - يوهان دي ويت Jan De Witt (1625 - 1672): رجل دولة هولندي، وشخصية سياسية رئيسة في الجمهورية الهولندية في منتصف القرن السابع عشر. (المراجع)

تجارية معينة من الصابون بدلًا من أخرى، وعليه تصبح رغبتنا في شراء الأشياء متحفزة على الدوام. ويسعى السياسيون المرشحون في الانتخابات إلى التأثير علينا بجاذبيتهم، بالإضافة إلى برامجهم. كما ينومنا خبراء الموضة مستخدمين التغير الدوري الذي ينتاب معايير الجمال والذوق الرفيع عندنا.

إلا إنه وفي حالة إبادة العقل، فإن هذا الهجوم على سلامة العقل البشري يكون موجهًا أكثر ومدبرًا بأناةٍ. وباللعب على ذلك الوتر الطفولي الطائش القابع مستترًا في اللاوعي، وبتأجيج الصراع الداخلي بين العقل والانفعال، يمكن للمحقق أن يجعل ضحاياه يستسلمون.

إن كافة ضحايا الإبادة العقلية المتعمدة – أسرى الحرب في كوريا، و"الخونة" المساجين لدى الأنظمة القمعية في دول الستار الحديدي، وضحايا الإرهاب النازي خلال الحرب العالمية الثانية – أشخاص تبدلت طرائق حياتهم فجأة وبطريقة درامية. لقد انتزعوا من أوطانهم وعائلاتهم وأصدقائهم وألقى بهم في أجواء مخيفة وغير طبيعية. وهذا الوضع غير الطبيعي للأشياء المحيطة بهم يجعلهم عرضة أكثر لأية هجمة على قيمهم وسلوكياتهم. وحينما يستغل الديكتاتور الاحتياجات النفسية لضحيته في عالم تهديدي وعدائي وغير مألوف، يتبع ذلك بكل تأكيد انهيار الضحية.

مرض الأسلاك الشائكة

في خضم الحرب العالمية الأولى، كان من الممكن بالفعل ملاحظة ردود فعل عقلية معينة، هي خليط من الشفقة والغضب في أسرى الحرب، وكانت بمثابة تكيف دفاعي في مواجهة صعاب الحياة والملل والجوع والافتقار للخصوصية وعدم الأمان المستمر. أما الحرب الكورية فقد أضفت على هذا الموقف الشراسة الكبيرة للعدو، والخوف الدائم من الموت، وسوء التغذية، والأمراض، والهجمات المنهجة على عقل المعتقل، وانعدام الأدوات الصحية، وانعدام كل الكرامة

الإنسانية.

عادة ما كانت تتحسن معيشتهم بقبول الفكر الشمولي. إن الضغط النفسي لا يؤدي فقط إلى الانخراط مع العدو لكنه يسبب أيضًا شكوكًا متبادلة بين المعتقلين.

وكما وصفت بالفعل، فإن مرض الأسلاك الشائكة يبدأ بالفتور واليأس المبدئي لكافة المعتقلين، فتنشأ حالة من الاستسلام السلبي للقدر. في الوقع، يمكن أن يموت الناس جراء هذا اليأس؛ يبدو الأمر وكأن كل القوى قد خارت. [انظر الفصل التاسع فيما يتعلق بانعكاس الخوف.] حتى حين يكون المرء منعزلًا ومتبلدًا خطر في معسكر الاعتقال، الذي يريد العدو فيه مناظرتك ومجادلتك لتبديد مقاومتك العقلية. وبالتالي بدأت تُحكَم بالتدريج حلقة مفرغة من جمود الحس وعدم التفكير وعدم المبالاة – استسلامًا لحالة أشبه بالزومبي تتمثل في الاعتمادية الآلية على الظروف. كما يمكن للعدو أن يعاقب بكل عنف أية شاردة أو واردة من الغضب أو اليقظة؛ ولهذا لم نلحظ تلك النوبات الفجائية من الغضب التي لاحظناها على أسرى الحرب في المعتقلات خلال الحربين العالمية الأولى والثانية. وكانت نتائج الاختبار النفسي على الجنود المحررين من معسكرات اعتقال أسرى الحرب في كوريا تشير إلى هذا الفتور الدفاعي، والانتكاسة إلى اعتمادية طفولية متقوقعة، وكانت صفة عامة مشتركة بينهم جميعًا تقريبًا. إلا أنه بعد العودة إلى الأجواء الاعتيادية، تبدأ اليقظة والنشاط في العودة إلى طبيعتها، أحيانا خلال يومين أو ثلاثة أيام. أما من يظلوا على تلك الحالة من الهم والفتور وجمود الحس، فينتمون إلى ذلك النوع الذي أمضى ردحًا طويلًا من الحرب وأصيبوا بعصاب المعركة (ستراسمان- Strassman).

ما بعض العوامل التي يمكن أن تحول الإنسان إلى خائن لمعتقداته، أو واشٍ، أو معترف بجرائم شنعاء، أو متواطئ بوضوح؟

لحظة الاستسلام المفاجئ

قال لي كثير من ضحايا التحقيقات النازية إن لحظة الاستسلام تقع بغتة ضد إرادتهم. واجهوا لأيام سخط محققيهم، ثم انهاروا فجأة. «حسنًا، حسنًا، يمكنك الحصول على أي شيء تريده.»

ثم تأتي أوقات من الندم والصمود والأماني اليائسة للعودة إلى وضعيتهم السابقة من المقاومة الباسلة. أرادوا أن يصرخوا: «لا تسألني عن أي شيء آخر، لن أجيب.» ومع ذلك كان يتحرك بداخلهم شيء من الانصياع، ذلك الكائن المتجاوب القابع في أعماقنا جميعًا.

وكان هذا الاستلام المفاجئ يحدث عادة بعد اتهام غير متوقع أو صدمة أو إذلال مهين على نحو معين، أو عقاب موجع أو منطق مفاجئ في سؤال المحقق لا يمكن دحضه. أتذكر تجربة مررت بها بنفسي أوضحت لي وقع مثل هذه المفاجأة.

بعد أن لذت بالفرار من أحد المعتقلات النازية في هولندا المحتلة، كان بإمكاني الوصول إلى سويسرا المحايدة عبر **فيشي فرنسا**[44]. لكن بعد ثلاثة أيام، حرمت من حقي بصفتي ضابطًا في اللجوء السياسي، وقيل لي إنه سيتم ترحيلي مرة أخرى إلى فيشي فرنسا. وأضاف سُجاني بسخرية على هذه المعلومة تعليقًا بأنه ينبغي لي الشعور بالسعادة لأني لن أرحل إلى ألمانيا. وعندما غادرت لأرحل إلى الحدود، طُلب مني توقيع إقرار بأن كافة ممتلكاتي (التي سلبت مني خلال فترة حبسي) قد أعيدت لي.

رفضت التوقيع لأن عدة أشياء منها – ليست مهمة في حد ذاتها لكنها تحمل قيمة عاطفية كبيرة لي – لم تكن في الحقيبة التي سلمني إياها السجانون. نظر إليَّ أحد الحراس بازدراء، بينما أخذ الحارس الآخر ينقر الأرض بقدمه وطلب مني مرارًا

44 - فيشي فرنسا Vichy France: مدينة فرنسية تقع في إقليم ألبي في محافظة أوفرن في وسط فرنسا. كانت عاصمة الدولة الفرنسية في فترة الحرب العالمية الثانية من 1940 إلى 1944. (المراجع)

توقيع الورقة بنفاد صبر، بينما وبخني الثالث ورطن بفرنسية لم أفهمها على الإطلاق، فواصلت رفضي بثبات، لكن فجأة بدأ أحد الضباط في صفعي على وجهي، وانهال علي بالضرب. وحيث إن الدهشة انتابتني لأنهم أبدوا هذا الغضب الشديد بسبب شيء تافه، استسلمت ووقعْتُ الورقة. (ومن معتقل فيشي حيث زجوا بي، سمح لي أن أكتب خطاب احتجاج للحكومة السويسرية؛ وما زلت أحتفظ بالاعتذار الرسمي الذي تلقيته.)

ذلك التغير المفاجئ من مزاج المقاومة المستميتة إلى الخضوع يمكن تفسيره بأنه نتيجة التصرف اللاشعوري للمشاعر المتضاربة. إننا نخبر أنفسنا بوعي بالتحلي بالقوة، لكن في قرارة أنفسنا تكمن الرغبة في الاستسلام والإذعان في التشويش علينا والتأثير على سلوكنا. وفي علم النفس يوصف هذا بأنه التناقض الفطري في كل المشاعر.

الحاجة إلى الانهيار

يحتوي معجم علم «الأمراض النفسية- psychopathology» على العديد من المصطلحات المعقدة التي تعبر عن الرغبة في الخضوع للضغط العقلي، مثل «الرغبة في النكوص»، و«الحاجة إلى التبعية»، و«المازوشية العقلية»، و«الرغبة اللاشعورية في الموت»، وعدة مصطلحات أخرى. ولغرض هذا الكتاب على أي حال، يكفي الإقرار بأن كل شخص لديه احتياجان متناقضان يعملان بالتزامن: الحاجة إلى أن يصبح مستقلاً ويكون نفسه؛ والحاجة إلى ألا يصبح نفسه أو أي شخص آخر على الإطلاق وألا يقاوم الضغط العقلي. الحاجة لأن يكون المرء غير واضح وأن يختفي وأن ينزوي في المجتمع حاجة شائعة. بإمكاننا جميعًا رؤية هذا الميل التكيف حولنا في أبسط صورها. وفي ظل الظروف العادية فإن الحاجة إلى إخفاء الهوية تتوازن بالحاجة إلى الفردية، والشخص الذي يتمتع بالسلامة العقلية هو الذي يستطيع المشي على الخط الرفيع بينهما. لكن في مواقف الوحدة المرعبة، التي يجد فيها ضحايا الهلع المبيد للعقل أنفسهم – المواقف التي تشبه الكوابيس، والمحفوفة بمخاطر

هائلة إلى درجة أنه لا يمكن استيعابها أو فهمها لأنه ليس هناك من يفسرها أو يطمئن الضحايا – تصبح غالبًا الرغبة في الانهيار والانصراف والتلاشي رغبة لا تقاوم.

حكى عن هذه التجربة العديد من ضحايا معسكرات الاعتقال؛ حيث كانوا يدخلون إلى المعتقل وسؤال واحد يشغل عقلهم: «لماذا حدث كل هذا لي؟» ولم يكن هناك ما يشبع حاجة لمعرفة الوجهة أو الشعور بوجود غرض ومعنى، ولهذا لم يكن في استطاعتهم الحفاظ على شخصياتهم، وقد استسلموا لما يطلق عليه علم النفس متلازمة تبدد الشخصية؛ وهو شعور عام بفقدان السيطرة تمامًا على أنفسهم وعلى وجودهم. ما يمكن للارتباط الشرطي البافلوفي أن يقوم به في توظيف الارتباك المصطنع، يمكن فعله أيضًا بخبرة صادمة. سألوا أنفسهم: «لماذا؟» «ما معنى كل هذه المعاناة؟» وبالتدريج كانوا يغرقون ببلادة في تلك الحالة المشلولة من شبه النسيان التي نطلق عليها الاكتئاب: تستحوذ عليهم الحاجة إلى تدمير الذات.

كان النازيون بارعين وبلا ضمير في استغلالهم لتلك الحاجة للانهيار. من هنا كان الإذلال جراء حياة معسكرات الاعتقال، والإيحاء المتكرر بأن الحلفاء هزموا هزيمة ماحقة لهما أكبر الأثر في إقناع المعتقلين بأنه لن يوضع حد لهذه المعاناة التي لا جدوى منها، ولن تكون هناك أية خاتمة بالانتصار في الحرب، ولا يوجد مستقبل لحياتهم. وهنا تضحى الرغبة في الانهيار والاستسلام لا تطاق تقريبًا عندما يشعر الإنسان أن وجوده الهامشي المريع هذا أمر دائم، وأنه لا يمكنه التطلع إلى هدف شخصي أكثر، وأن عليه التكيف مع هذه الحياة الرتيبة والمنحطة إلى الأبد.

وفي اللحظة التي يتلاشى فيها الإيمان والأمل، ينهار الإنسان. وهناك قصص مأساوية لضحايا معسكرات الاعتقال الذين علقوا كل توقعاتهم على فكرة أن التحرير سيحدث في الكريسماس عام 1944، وعلقوا وجودهم بأكمله على هذا التاريخ. وعندما فات وكانوا لا يزالون في الأسر، انهار كثير منهم ببساطة وماتوا.

إن هذا الميل إلى الانهيار يعمل أيضًا بمثابة آلية وقائية ضد الخطر. يبدو أن

الضحية يفكر: «إذا لم يلاحظني جلادي، فسيدعني وشأني.» مع ذلك فإن هذا الشعور بإخفاء الهوية وهذا الإحساس بفقدان هوية المرء، بأن المرء عديم النفع وغير ملاحظ وغير مرغوب فيه، ينتج عنه أيضًا اكتئاب وتبلد. إن حاجة الإنسان لأن يكون فرداً لا يمكن القضاء عليها تمامًا.

الحاجة إلى الصحبة

لم تحظَ سيكولوجيا الوحدة بالاهتمام الكافي، خاصة تأثيرات العزلة المفروضة على المعتقلين. وعند استبعاد المحفزات الحسية للحياة اليومية ربما تتغير شخصية الإنسان بأكملها. إن معاملاتنا الاجتماعية، وتواصلنا المستمر مع زملائنا وعملنا والصحف والأصوات والمرور ومن نحب، وحتى من نكره - جميعها تغذي يوميًّا حواسنا وعقولنا. إننا نختار ما نجده مثيرًا للاهتمام، ونرفض ما لا نريد استيعابه. وكل يوم يعيش كل مواطن في عدة عوالم صغيرة من الرضا، والقليل من البغضاء والخبرات السارة والانزعاج والسرور. وهو بحاجة إلى هذه المحفزات ليظل يقظًا. على ذلك، نجد أن الحقيقة بالتعاون مع ذاكرتنا تدمج ساعة بساعة ملايين الوقائع في حياتنا بتكرارها مرة بعد مرة.

بمجرد أن يكون الإنسان وحيدًا، ومنعزلًا عن العالم وعن أخبار ما يجول حوله، يستبدل بنشاطه العقلي عمليات مختلفة تمامًا. وهنا يظهر على السطح القلق المنسي منذ أمد بعيد، وتقرع عقله من الداخل الذكريات المكبوتة لفترة طويلة، وتبدأ فانتازيا حياته في النمو ويتصور أبعادًا هائلة، ولا يعود في استطاعته تقييم الفانتازيا أو كبحها في مقابل أحداث أيامه العادية، وسرعان ما تستحوذ عليه.

أتذكر بوضوح تام ما كان يدور في مخيلتي خلال ذلك الوقت الذي كنت معتقلًا فيه في سجن نازي. كان من المحال تقريبًا أن أتحكم في أفكاري الكئيبة عن اليأس، وكان علي أن أقول لنفسي مرارًا وتكرارًا: «فكر، فكر. اجعل حواسك يقظة؛ لا تستسلم.» حاولت استغلال كل معرفتي النفسية لإبقاء عقلي في حالة حركة مريحة،

وفي كثير من الأيام شعرت بأنني كنت أخسر المعركة.

أظهرت بعض التجارب أن من يحرمون، ولو حتى لوهلة صغيرة، من المحفزات الحسية (بدون لمس أو سمع أو شم أو إبصار) سريعًا ما يصابون بحالة تنويم مصحوبة بهلوسات. فالانعزال عن الانفعالات المتعددة التي عادة ما تنهال علينا من العالم الخارجي، ينتج عنها أعراض غريبة ومرعبة. ويقول«هيرون» Heron، الذي أجرى تجابًا على مجموعة من الطلاب في «جامعة مكجيل- McGill University» بوضع كل طالب في غرفته المعتمة تمامًا، والتي لا يصلها الضوء، وتهوى بهواء مرشح، بينما يلبس قفازًا من الجلد السميك وينتعل في قدميه حذاء طويلًا وسميكًا: «شيئًا فشيئًا بدأت عقولهم تحتضر أو تخرج عن سيطرتهم». بل إنه في ظرف أربعة وعشرين ساعة من تلك العزلة الحسية الشديدة، استيقظت بداخلهم كل أوهام الرعب منذ الطفولة، وظهرت عليهم شتى الأعراض المَرضية. إن غريزة الفضول لدينا تتطلب تغذيتها باستمرار؛ وإذا لم تشبع تتصاعد أصوات الجحيم الداخلي.

إن المعتقل الذي يوضع في عزلة، حتى وإن لم تكن عزلته بالدرجة التي كان عليها الاختبار المعملي، يمر هو الآخر بتغير عقلي حاد، ويصبح حراسه والمحققون معه مصدر اتصاله الوحيد بالواقع بالتدريج، بتلك المحفزات التي يحتاج إليها أكثر حتى من الخبز. ولا عجب من أنه بالتدريج ينمي بداخله علاقة خضوع معينة تجاههم. إنه لا يتأثر وفقط بعزلته عن التواصل الاجتماعي، لكن أيضًا بالحرمان الجنسي. فتجعله تلك الاحتياجات الاعتمادية والميول الشاذة الكامنة والقابعة داخل كل البشر، مستعدًّا لتقبل حراسه باعتبارهم بديلًا لشخصية الأب. إذ ربما يكون المحقق قاسيًا ووحشيًا، لكن مجرد حقيقة تقبله لوجود ضحيته يعطي للمعتقل شعورًا بأنه نال القليل من التعاطف. يا له من صراع ربما ينشب بين ولاء الإنسان التقليدي وذلك الولاء الجديد! هناك القليل من الشخصيات فقط لديها اكتفاء ذاتي إلى درجة تجعلها تقاوم الحاجة إلى الخضوع، والبحث عن صحبة

إنسانية، والتغلب على الوحدة التي لا يمكن تحملها.

خلال الحربين العالميتين، كان المعتقلون في البداية يتحرقون شوقًا إلى أوطانهم على نحو خاص يطلق عليه فعليًا مرض الأسلاك الشائكة. فذكريات الأم والمنزل والعائلة جعلت الجنود يتماهون مع فترة الطفولة مرة أخرى، لكن بينما يبدأون في الاعتياد أكثر على حياة معسكر الاعتقال، خلقت أفكار الوطن والعائلة لديهم أيضًا قيمًا إيجابية، وساعدتهم على جعل حياة المعتقل أقل فظاعة.

حتى المعتقل الذي لا يترك في عزلة يمكنه الشعور بالوحدة وسط الزحام غير المنظم للمعتقلين؛ ذلك أنه من السهل أن يكون أقرانه في المعتقل أعداءً له مثلما يمكن أن يكونوا أصدقاء له. ويمكن أن يستبدل بكرهه لحراسه كرهه للمعتقلين معه. وبدلًا من الشك في العدو، ربما يشك الضحية نفسه في أقرانه في البؤس.

وفي معسكرات الاعتقال النازية، ومعسكرات أسرى الحرب الكورية عادة ما ينشأ نوع من جنون الارتياب الجماعي؛ حيث زادت الوحدة لأن المعتقلين تباعدوا عن بعضهم بفعل الريبة والكراهية. وكان الحراس يشجعون انعدام الثقة، عبر الإيحاء على الدوام لضحاياهم أنه لا يوجد من يهتم بهم ولا من يهتم بما يجرى لهم. «أنت وحدك، وأصدقاؤك في الخارج لا يعلمون إن كنت حيًا أم ميتًا، وأقرانك المعتقلون حتى لا يهمهم هذا». ومن ثم كانت كل التوقعات عن المستقبل تُقْتَل وتصبح حالة عدم اليقين واليأس لا تطاق. ثم يلقي الحراس بذور الشك وينشرون شائعات مروعة: «أنت هنا لأن هؤلاء الذين تدعوهم أصدقاءك خانوك». «وشى بك رفاقك هنا». «تخلى عنك أصدقاؤك في الخارج». إن اللعب على ولاء الإنسان القديم يجعله يشعر بالتحطم والوحدة، ويجبره على الخضوع والانهيار.

أما الأوقات التي ترنحت فيها شخصيًا وتلاعبت بي أفكار عن الالتحاق بالقوى المضادة، دائمًا ما كانت تحدث لي بعد فترات من الوحدة الشديدة والحنين المتأصل عندي لوجود رفقة. [سأصف ظاهرة خيانة الذات هذه في الفصل الرابع عشر.] في تلك اللحظات، ربما يصبح السجان أو العدو بديلًا عن الصديق.

الابتزاز من خلال إثارة الشعور بالذنب

بداخل كل منا تقبع مشاعر خفية بالذنب والذنب اللاواعي التي يمكن أن تطفو على السطح تحت وقع الضغط الشديد. إن إستراتيجية إثارة الشعور بالذنب أقدم أدوات الأم للهيمنة على أرواح أطفالها. إن تحذيراتها وأصابعها التي تلوح بالاتهام، أو عينيها اللتين تتوعدانهم كلها أشياء تعطيها قوة سحرية عليهم وتساعد على توليد شعور بالذنب العميق ربما يستمر في حياة رشدهم. عندما كنا أطفالًا اعتمدنا على آبائنا واستأنا منهم لهذا السبب. ربما نخفي بداخلنا رغبات مدمرة ضد هؤلاء القريبين منا، وشعورًا بالذنب تجاه هذه الرغبات. ولا شك أن معظم البشر لديهم ولاء شديد لعائلاتهم، لكن الغريزة بداخله تكره من يحبهم، وهذه الكراهية تجعله يشعر بالذنب. وفي أعماق اللاوعي دفنت معرفته بأنه في خيالاته العدائية شعر بأنه قادر على ارتكاب جرائم كثيرة. لفت «تيودور رايك» انتباهنا إلى ذلك القاتل الغريزي المجهول القابع في كل منا، الذي يمكن بسهولة استثارة دافعه القهري لأن يعترف وأن يعاقب في ظل ظروف من الرعب والاكتئاب. ومفهوم العداء والدمار الطفولي المخبوء هذا عادة ما يصعب على الشخص العادي تقبله. لكن فكرْ للحظة في شعبية القصص البوليسية؛ ربما نقول لأنفسنا إننا نستمتع بقراءة هذه الحكايات لأننا نتماهى مع فطنة المخبر السري وذكائه، لكن المجرم المكبوت في داخلنا جميعًا، كما هو واضح من خبرة التحليل النفسي، في حالة نشاط، ونحن نتماهى أيضًا مع القاتل عديم الضمير. في الواقع، إن حقيقة عداوتنا المكبوتة تجذبنا إلى القراءة عن العداوة.

إن وسيلة استغلال الذنب اللاواعي لتحقيق الخضوع ليست وسيلة مشهورة، لكن ربما يكون من الأفضل فهمها في ضوء دراستنا عن الإكراه على الاعتراف اللاواعي والحاجة للعقاب. ربما ترسب الذنب في وقت باكر من الحياة عندما كان الآباء يحثون الطفل كثيرًا جدًّا ومبكرًا جدًّا للاعتذار عن عصيانه، أو يستخدمون وسائل أخرى ليضعوا على عاتق الطفل إحساسًا بالذنب عندما لا يفهم ما هو غير

أخلاقي أو ما هو خاطئ فيما يتعلق بتصرف معين. إن تعليم الطفل معرفة الصواب والخطأ لا يقتضي بالضرورة أن نربطه شرطيا بالتوقع الخاضع والقلق للعقاب لكي يطيع. في إحدى الحالات التي كنت أتابعها، كانت والدة المريض تصرخ عقب كل خطأ صغير يقترفه الطفل، «انظر ماذا فعلت بي!» تطلب الأمر علاجًا ممتدًا للتخفيف من دوافع القتل المستترة لديه ضد والدته وعبء الذنب الناتج عنها.

على الصعيد السياسي، تكرر بانتظام بشكل رمزي العديد من هذه الوسائل في رعاية الأطفال. إن عمليات التطهير والاعترافات المستمرة هذه التي تقابلنا في الدول الشمولية، تثير شعورًا عميقًا بالذنب المستتر. يجب الاعتراف بأقل قدر من خطيئة التمرد أو التخريب لتشمل أفكارًا شخصية عن الجريمة التي تكون مغمورة في أعماق النفس. إن ردود الفعل الشخصية لمن يحققون ويتحرون على الدوام تعطينا إشارة لما يحدث. إن طبيعة التحقيق المطول ذاتها يمكن أن تعيد إثارة ذلك الذنب الخفي واللاواعي داخل الضحية. وفي وقت الانفعال الشديد، وبعد الاتهامات المستمرة والتحقيق طوال اليوم، وعندما يحرم من النوم ويضمحل ليصل إلى حالة من الاكتئاب التام، ربما يفقد الضحية قدرته على التمييز بين التصرف الإجرامي الحقيقي الذي اتهم به وكل ذنبه اللاواعي المتخيل. إذا ما كانت تنشئته تثقل كاهله بشعور بالذنب يكاد يكون مَرضيا في ظل الظروف الطبيعية، سوف يكون الآن غير قادر تمامًا على مقاومة هجمة الإبادة العقلية. ويمكن حتى أن يستسلم الأشخاص الطبيعيون في ظل مثل هذه الظروف البائسة، وليس فقط من خلال التحقيق، لكن أيضًا بسبب كافة عوامل الوهن الأخرى. يمكن أن ينشأ عن الحرمان من النوم والجوع والمرض ارتباك تام، ويصبح الإنسان عرضة للتأثيرات المنومة، مع أننا جربنا جميعًا نوعًا من التشوش العقلي الذي يأتي نتيجة الإرهاق الشديد. إن ضحايا معسكرات الاعتقال يدركون كيف أن الجوع ينتج عنه على وجه الخصوص فقدان السيطرة العقلية. في عالم الفانتازيا في السجن أو المعتقل الشمولي العجيب، تزيد وطأة هذه التأثيرات وتتفاقم. [عادة ما تدور المحادثات في

معسكرات الاعتقال حول الطعام وذكريات الشراهة المجيدة. لا يعود باستطاعة العقل أن يعمل؛ حيث ينصب تفكيره على الأكل والفانتازيا حول الطعام. وهناك تعبير انتشر للتعبير عن الاستحواذ المستمر لفكرة الأكل الجيد مرة أخرى: استمناء المعدة.[45] عادة ما كان هذا النوع من الكلام يحل محل كافة الأحاديث الفكرية.]

وكان النازيون، من خلال الاستغلال الذكي للذنب اللاواعي بداخل ضحاياهم بعد أن يتسللوا إلى أركان عقولهم الخلفية، يستطيعون عادة تحويل المقاتلين البواسل والشجعان إلى متواطئين وُدَعَاء. ويمكن إرجاع سبب توافقهم في عدم النجاح إلى عاملين: الأول هو أن معظم أفراد المقاومة تحت الأرض كانوا من الداخل مستعدين للطريقة التي عوملوا بها، والثاني هو أنه بالرغم من مدى مهارة التقنيات النازية إلا أنها لم تكن على نفس قدر الخدع المنهجية التي لا تقاوم من غاسلي الأدمغة الشيوعيين. عندما كان ينهار ضحايا الوحشية النازية لم يكن السبب هو التعذيب، لكن عادة نتيجة للتهديد بالانتقام من عائلاتهم مما جعلهم يستسلمون. إن المواجهة الحادة والمفاجئة مع مشاكل الطفولة تحدث ارتباكًا وشكًّا، وفجأة يطرح العدو أمامك صراعًا بين ولاءاتك: أبوك أم أصدقاؤك، أخوك أم موطنك، زوجتك أم شرفك؛ وهذا خيار قاسٍ ينبغي اتخاذه، وعندما يستغل المحقق صراعاتك الداخلية الإضافية، يمكنه بسهولة أن يجبرك على الاستسلام. فصراع الولاء يجعل من كلا الخيارين خيانة، ويثير هذا شكوكًا تسبب حالة من الشلل. إن تلك الهجمات المحسوبة والمعقدة في الوقت نفسه على أضعف المَواطِن في عقل الإنسان، وعلى ضميره، وعلى النظام الأخلاقي الذي تعلمه من الأخلاق اليهودية والمسيحية، تشل العقل وتدفع الضحية بسهولة أكبر إلى الخيانة. إن المحقق يختبر ببراعة مشاعر الذنب المهجورة لدى الضحية تجاه الرموز الأبوية، وتجاه أصدقائه وأبنائه، ويستغل ببراعة الروابط المتناقضة وجدانيًّا لدى الضحية مع والديه. إن

45 - استمناء المعدة: المصطلح بالإنجليزية stomach masturbation ثم بالألمانية بين قوسين (Magen-onante). (المراجع)

ذلك الجيشان المفاجئ للإحساس بالذنب والعيوب الأخلاقية الخفية، يمكن أن يمزق الإنسان ويجعله يتحطم تمامًا؛ فينتكس إلى اعتمادية الطفل الرضيع وخضوعه.

أحد الأبطال السابقين الأشداء في المقاومة الهولندية، والمعروف باسم كينج كونج بسبب حجمه وقوته، أصبح أداة من أدوات الغدر في أيدي النازيين بعد أن قبض على أخيه الشاب معه وهدده النازيون بقتله. في النهاية استسلم كينج كونج للعدو وأصبح تحوله إلى أداة خيانة يعرف نفسيًا بأنه آلية دفاع ضد ذنبه العميق، النابع من المشاعر الخفية بعدائه لأخيه (بويري- Boeree).

ثمة مثال آخر على الانهيار نجده في قصة أحد مقاتلي المقاومة الذي انفجر باكيًا كالأطفال، بعد أن هدده النازيون بتعذيب والده الذي اعتقل معه، ووعد بأن يخبرهم بكل ما يريدون معرفته. وبعد ذلك رحلوه مرة أخرى إلى زنزانته حتى يلين مرة أخرى استعدادًا لليوم التالي. كان ذلك روتين المحقق معه. لقد فهم المحققون جيدًا فاعلية الملاحقة الدؤوبة في أوقات متكررة، مع التدخل في مشاعر الذنب لدى الإنسان بالتوازي. ومع أن السجينين تم تحريرهما في تلك الليلة نتيجة اجتياح الحلفاء لبلجيكا والأجزاء الجنوبية الغربية من هولندا، إلا أن الفتى ظل في حالة الاكتئاب هذه لفترة طويلة، معذبًا بمعرفته أنه كاد يخون أعز أصدقائه من المقاومين تحت الأرض من أجل إنقاذ والده، بالرغم من معرفته في الوقت نفسه أن وعود أعدائه ما كانت لتحمي أباه. وأثناء الفحص النفسي اللاحق لانهيار الفتى واكتئابه، أعطتنا أحلامه إشارة للفانتازيا العدائية المدفونة منذ زمن بعيد ضد والده، الذي قتله رمزيًا في أحلامه. كان للشعور بالذنب حيال عدائيته الطفولية اللاشعورية وطأة كبيرة على ضميره أكثر من احتمال أن يكون مذنبًا تجاه أقرانه المحاربين. وكان لفهمه الواعي للصعوبات التي مر بها، بالإضافة إلى نشاطه العسكري المتجدد، أكبر الأثر في مساعدته على التأقلم مع الصراعات التي عذبته، لكن الخونة الآخرين غير الراغبين كانوا أتعس حظًا. حين أدركوا في النهاية الحجم المهول لخيانتهم، أحبط

العديد منهم نفسيًا، بل إن بعضهم انتحر.

قانون النجاة مقابل قانون الولاء

إن أسرى الحرب في كوريا الذي استسلموا تدريجيًا للضغط العقلي من العدو، وتواطؤوا لكتابة مواد يمكن استخدامها للدعاية الشيوعية – وإن كانوا مترددين وما داموا فقط تحت جناح العدو – اتبعوا قانونًا نفسيًّا معينًا من الدفاع الداخلي السلبي والخداع الداخلي، والذي يقول إنه إذا لم يستطيع المرء أن يكافح ويهزم العدو، فعليه أن يلتحق به (آنا فرويد). ولاحقًا استحوذت الدعاية الشمولية على القليل منهم، إلى درجة أنهم اختاروا البقاء في الصين يدورون في فلك النظام الشمولي، وبعضهم فعل ذلك للفرار من العقاب لأنهم خانوا رفاقهم.

لا يمكن للإنسان أن ينشقَّ بدون تبرير أفعاله لنفسه. عندما استسلمت هولندا للجيش الألماني عام 1940، شاهدت آلية الاستسلام العقلي العامة هذه وهي تعتمل في عدة أشخاص كانوا معادين للنازية بشدة. «ربما يكون في النازية شيء جيد»، هذا ما كانوا يقولونه لأنفسهم وهم يشاهدون العرض العظيم للقوة الألمانية. أما من كانوا ضحايا استسلامهم العقلي المبدئي، واحتاجوا أن يبرروا الأشياء، ومن لم يستطيعوا التوقف ليقولوا لأنفسهم «توقف هنا؛ فكر في هذا الأمر»، فقد أصبحوا خونة ومتواطئين. لقد استحوذ عليهم تمامًا عرض قوة العدو. وعملية التبرير الذاتي نفسها والتبرير للعدو بدأ في معسكرات اعتقال أسرى الحرب.

إن الخبرات من معسكرات الاعتقال تعطينا بعض الدلالات عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا الخضوع السلبي للعدو. وبسبب الحاجة الكامنة في أعماق البشر للعاطفة، عاش كثير من المعتقلين لشيء واحد فقط: كلمة مودة من حراسهم. كلما جاءت هذه الكلمة كانت تعزز من وهم المباركة والقبول. وما إن يقبل الحراس هؤلاء المعتقلين الذين كان معظمهم في معسكرات الاعتقال تلك لفترات طويلة، حتى يصبحوا بسهولة الأدوات الموثوق بها للنازيين، ويبدأون في

التصرف مثل سجانيهم القساة، ويصبحون جلادين لأصحابهم المعتقلين. ويطلق على هؤلاء المعتقلين المتواطئين «كابو»، الذين كانوا حتى أكثر وحشية وانتقامًا من مشرفي السجن الرسميين. وبسبب سوء فهم الاحتياجات الداخلية، فإن غاسل الدماغ وقائد المعتقل السادي في حاجة ماسة إلى المتواطئين. إنهم لا يعملون بوصفهم آلات دعائية فحسب، لكنهم أيضًا يخلصون سجانيهم من الذنب.

حين يكون على الإنسان الاختيار بين الجوع والمواكب الجنائزية والتعذيب، أو الخضوع مؤقتًا لأوهام العدو، فإن آلية الحفاظ على النفس لديه تعمل بعدة طرائق مثل الانعكاسات. إنها تساعده على إيجاد آلاف التبريرات والحجج للاستسلام للضغط النفسي. من ذلك مثول أحد الضباط أمام المحكمة العسكرية للتعاون مع العدو في معسكر أسرى الحرب الكوري، وقد برر تصرفه بقوله إنه سلك هذا المسار من أجل الحفاظ على حياته وحياة رجاله. أو ليست تلك حجة صحيحة تمامًا حتى وإن لم تكن حقيقية بالضرورة؟ إن استخدامها يعمل على الإشارة إلى حقيقة أن آليات وقاية الذات عادة ما تكون أقوى من الولاء الفكري. لا يوجد شخص لم يواجه هذه المشكلة العويصة نفسها يمكنه أن يدلي برأي موضوعي عما كان هو نفسه سيفعله في ظل هذه الظروف. وبصفتي طبيبًا نفسيًّا، أقترح أن "معظم" الناس سوف يخضعون ويساومون عندما يصبح الضغط العقلي بالقوة الكافية.

من ضمن أفراد المقاومة ضد النازية تحت الأرض في الحرب العالمية الثانية، كان هناك فتيان أشداء البنية ممن اعتقدوا أن باستطاعتهم مقاومة كافة الضغوط، وأنهم لن يخونوا رفاقهم أبدًا. ومع ذلك لم يكن باستطاعتهم حتى البدء في تخيل أسلوب إبادة العقل الغادر هذا. فالمضايقات المستمرة نفسها تكون مدمرة أكثر من التعذيب البدني. إن ألم التعذيب البدني كما أسلفنا، يتسبب في فقدان مؤقت للوعي، وبالتالي النسيان، لكن عندما يفيق الضحية، تبدأ لعبة التوقع. «هل يحدث مرة أخرى؟ هل يمكنني تحمل هذا بعد الآن؟» إن التوقع يشل الإرادة. كما أن الأفكار الانتحارية والتماهي مع الموت لا تجدي. لن يتركك العدو تموت، لكنه يجرك مرة أخرى من

على حافة النسيان. ويزيد توقع إعادة التعذيب من القلق الداخلي. «من أنا لأطيق كل هذا؟» «لماذا يجب أن أكون بطلًا؟» وتنهار المقاومة تدريجيًّا.

إن استسلام العقل لسيده الجديد لا يحدث على الفور تحت تأثير الإكراه والإجهاد. يعرف المحقق أنه يتم الإعداد للاستسلام النهائي في فترة الاسترخاء المؤقت من الضغط، والتي يكرر فيها الضحية ويعيد التفكير في تجربة التعذيب مع نفسه. وخلال تلك الفترة من اجترار الأفكار والترقب، تنمو عميقًا تلك الرغبة الخفية في الاستسلام. إن هذا التكرار للأسئلة الغبية يومًا بعد يوم، يرهق العقل حتى يدلي بالإجابة التي يريد المحقق الحصول عليها. إنه يلعب، بالإضافة إلى سلاح الإجهاد العقلي، على الإجهاد البدني للحواس. ربما يستخدم الضوضاء التي تخترق الحواس وتؤلمها، أو كشاف قويًّا مسلطًا باستمرار ويعمي العينين. عندئذ تتسبب الحاجة إلى إغلاق العينين أو الهروب من الضوضاء في إرباك التوجه العقلي للضحية. ويفقد اتزانه وشعور الثقة بالنفس لديه، ويحن إلى النوم ولا يكون في وسعه فعل أي شيء سوى الاستسلام. وهنا تنتصر الرغبة الطفولية في أن يكون جزءًا من الآلة الضخمة المهددة وينضم للقوى الأقوى بكثير مما ربحه الأسير.

إنه استسلام لا لبس فيه: «افعل بي ما يحلو لك، من الآن فصاعدًا أنا لك.»

إن ذلك الحرمان من النوم وحده كفيل بإحداث شتى ردود الفعل العقلية غير الطبيعية؛ وهذا ما أكد عليه «تايلر– Tyler» في تجربة أجراها على 350 رجلًا متطوعًا؛ حيث حرمهم من النوم لمدة 102 ساعة، انسحب أربعة وأربعون رجلًا فجأة لأنهم شعروا بالتوتر والاهتياج، وبعد أربعين ساعد بدون نوم، انتاب 70 في المائة من الخاضعين للتجربة بالفعل خيالات وأوهام وهلوسة وأحاسيس مشابهة. وقد تم استبعاد من عانوا من هلوسة حقيقية من التجربة. وبعد الليلة الثانية، أصبح اضطراب التفكير المتقطع شائعًا بين كافة الخاضعين للتجربة. وشعر المشاركون بالحرج بعد ذلك عندما أُخطِروا لاحقًا بتصرفاتهم.

إن التغيرات في الاستجابات العاطفية كانت من أكثر الأشياء الملحوظة – نشوة

يتبعها اكتئاب؛ كآبة وتوتر؛ لامبالاة للسلوكيات غير المعتادة التي يظهرها المشتبه بهم الآخرون. أعطت هذه التجربة انطباعًا بأن اليقظة المطولة تتسبب في جعل بعض المواد المسممة تؤثر على الدماغ والعقل.

القليل فقط من الشخصيات القوية المستقلة التي لديها اكتفاء ذاتي واستطاعوا قهر الحاجات الاعتيادية، يستطيعون مقاومة مثل هذا الضغط، أو لديهم استعداد للموت تحت وطأته.

إن طقوس اتهام الذات وضرب الصدر والاستسلام غير المشروط لقواعد كبار السن جزء من الشعائر الدينية العتيقة. وكانت مبنية على أساس الإيمان اللاواعي على نحو أو آخر بقوة عليا ومهيمنة. هذه القوة ربما تكون دولة الحزب المتآلف أو معبود غامض. وهي تتبع النصيحة الداخلية الأقدم «أؤمن لأنه أمر عبثي»[46]، والتي تتعلق بالخضوع التام لعالم خارق أقوى من الواقع الذي يجابه حواسنا.

لماذا يلتزم الشموليون والعقائد الفكرية المتزمتة المتبعة بمثل هذا السلوك الصارم، مع تحريم فحص الفرضيات الفكرية الأساسية؟ سؤال سيكولوجي معقد. يرجع السبب نوعًا ما إلى الخوف من التغيير، الخوف من خطر تغيير العادات، الخوف من الحرية الذي يمكن أن تكون له علاقة نفسية بالخوف من النهاية بالموت.

إن إنكار حرية الإنسان ومساواته تجعل الشخص السلطوي يتجاوز فوق أقرانه الفانين. إن سلطته وهيمنته المؤقتة تعطيانه وهمًا بالخلود. ونتيجة شموليته، ينكر الموت والوجود العابر ويستقي قوة من المستقبل. وعليه أن يبتكر ويشكل حقيقة مطلقة وعقيدة وقائية ليبرر معركته ضد الفَناء والوجود المؤقت. وعلى هذا الأساس، يجب صياغة حالة جديدة من اليقين الجوهري في عقول الأتباع والعبيد.

---

46 - "أؤمن لأنه أمر عبثي": الاقتباس في الأصل باللاتينية Credo quia absurdum، ثم بالإنجليزية بين قوسين. (المراجع)

أوضحت «آنا فرويد» في كتابها حول الدفاعات العقلية العامة المتاحة للإنسان ما يحدث داخل النفس البشرية في ظل الظروف العقلية الشديدة والاعتداء البدني. وفي وقت سابق، حاولت أنا نفسي في عدة منشورات أن أحلل شتى الطرائق التي يدافع بها الناس عن أنفسهم ضد الخوف والضغط.

في المرحلة الأخيرة من غسيل الدماغ وإبادة العقل، يعمل خضوع الضحايا المهين للنفس بمثابة وسيلة دفاع داخلية تقضي على محقق الادعاء بطريقة سحرية. فكلما اتهموا أنفسهم، كلما ضعف السبب المنطقي على وجوده. أن يستسلم المرء وأن يكون حتى أكثر قسوة تجاه نفسه يجعل المحقق والقاضي، إذا جاز التعبير، عاجزين، ويظهر عقم النظام المتَّهِم إذا جاز التعبير.

ربما نقول إن غسيل الدماغ وإبادة العقل يستثيران نفس آلية الدفاع الداخلية التي نلاحظها في المرضى المصابين بالسوداوية. ومع انهزاماتهم الذاتية العقلية يحاولون التخلص من الخوف، وتجنب ذنب قابع في أعماقهم أكثر. إنهم يعاقبون أنفسهم مقدمًا من أجل تخطي فكرة العقاب النهائي على جريمة خفية ومجهولة وأكثر سوءًا. يهاجم ضحية الإبادة العقلية جلاده بأن يصبح أكثر قسوة على نفسه حتى من المحقق. وبهذه الطريقة السلبية يقضي على عدوه.

الميثاق المازوشي الغامض

يصف «**آرثر كيستلر**» في روايته الرائعة **ظلام في الظهيرة**[47] كافة التعقيدات الدقيقة والحجج والمنطق بين المحقق وضحيته؛ حيث يعترف البولشفي العجوز روباشوف، الذي ارتبط شرطيًّا من قبل بالتزامه الحزبي السابق، بالتآمر ضد الحزب والخط العام للحزب. إنه متحفز جزئيًا بأمنية تقديم خدمة أخيرة؛ حيث يكون

---

47 - آرثر كيستلر Arthur Koestler (1905 - 1983): كاتب وصحفي مجري بريطاني. **ظلام في الظهيرة** *Darkness At Noon*: رواية صدرت في عام 1940 حول قصة روباشوف، وهو بلشفي عجوز تم اعتقاله وسجنه ومحاكمته بتهمة خيانة الحكومة التي ساعد في تشكيلها. (المراجع)

اعترافه بمثابة خدمة أخيرة للحزب. قد أفسر الاعتراف على أنه إلى حد ما جزء من ميثاق مازوشي غامض بين المحقق وضحيته؛ وهو ما يقابلنا أيضًا في عمليات غسيل دماغ أخرى. [يشير مصطلح «المازوشية» في الأساس إلى حالة الإشباع الجنسي التي تنتج عن الألم والعقاب، ولاحقًا أصبح يشير إلى كل إشباع يأتي من خلال الألم والإذلال.] إنها آخر منحة وخدعة يعطيها الضحية لجلاده. وكأنه يصرخ قائلًا: «تعامل معي بلطف، اعترف، استستلم، كن لطيفًا معي وأحبني». فبعد معاناته من كافة أشكال الوحشية والتنويم واليأس والرعب، يبقى هناك بحث نهائي عن رفقة إنسانية، لكن الأمر محير متباين، ومشوب بالاحتقار والكراهية والمرارة في أعماق النفس.

بالتدريج يشكل الضحية والجلاد رابطة مشتركة يؤثر فيها كل منهما على الآخر. وكما في الجلسات العلاجية التي يتماهى فيها المريض مع الطبيب النفسي، تؤدي جلسات التحقيق والمحادثات اليومية إلى تحول لاشعوري في المشاعر؛ حيث يتماهى السجين مع المحققين، ويتماهى المحققون معه. إن المعتقل الذي يُأسر في عالم غريب وقاسٍ وغير مألوف، يتماهى مع العدو أكثر مما يتماهى العدو معه. وعن غير قصد ربما يقتدي بأعراف العدو وقيمه وسلوكياته في الحياة. وهذا الاستسلام السلبي لفكر العدو تحدده عمليات لاشعورية. إن خطر مشاركة من هذا النوع يتمثل في النهاية في اختفاء كل التقييمات الأخلاقية. وهذا ما رأيناه في ألمانيا؛ حيث كان أكثر المتضررين من ضحايا النازية هم من قبلوا فكرة معسكرات الاعتقال.

بالنسبة إلى إبادة العقل تواجهنا طقوس أشبه بتلك المستخدمة في مطاردة الساحرات في العصور الوسطى، بالرغم من أن هذه الطقوس أخذت شكلاً محسنًا أكثر هذه الأيام؛ حيث يتحمل كل من المتهِم والمتهَم مساعدة الآخر، وينتمي الاثنان معًا بوصفهما عضوين متعاونين في طقس الاعتراف واحتقار الذات. ومن خلال هذه المشاركة يهاجمان عقول المتفرجين الذين يتماهون معهم، ويشعرون بالتالي بالذنب والضعف والخضوع. تسببت محاكمات التطهير في موسكو في جعل

العديد من الروسيين يشعرون بالذنب، وبمجرد استماعهم للاعترافات، من المؤكد أنهم قالوا لأنفسهم: «كان من الممكن أن أفعل الشيء نفسه. كان يمكنني أن أكون محل هذا الرجل». وعندما يصبح أبطالهم خائنين، تجعلهم رغباتهم الدفينة في الخيانة يشعرون بالضعف والخوف أكثر.

ربما يبدو هذا التفسير بالغ التعقيد وينطوي حتى على تناقض ذاتي، لكنه في الواقع يساعدنا على فهم ما يحدث في حالات الإبادة العقلية. إن المعذَّب والجلاد كليهما ضحيتان لذنبهما اللاشعوري. يسقط الجلاد ذنبه على كبش فداء خارجي، ويحاول التكفير عنه بمهاجمة ضحيته. والضحية أيضًا لديه شعور بالذنب نابع من أعمال عدائية طفولية مكبوتة. في ظل الظروف العادية، يبقى هذا الشعور تحت السيطرة، لكن في أجواء إبادة العقول بالتحقيق والتحري الذي لا هوادة فيه، تنبع عداوته وتلوح في الأفق كأوهام مخيفة من ماضٍ سحيق، وهو ما يشعر به الضحية، لكنه لا يتمكن من استيعابه أو فهمه. من الأسهل الاعتراف بتهمة الخيانة والتخريب عن قبول الشعور المخيف بالإجرام الذي تثقل كاهله تلك الدوافع العدوانية التي طواها الزمان. واتهام الذات العلني هذا بمثابة خدعة لتدمير المتهم الداخلي والمحقق المضطهِد. فكلما اتهمت نفسي، كلما تدنى سبب وجود المحقق. إن ذهاب الضحية إلى حبل المشنقة سوف يقتل، إذا جاز التعبير، المحقق أيضًا، لأنه يوجد تماهٍ متبادل: يصبح المتهِم عاجزًا في اللحظة التي يبدأ فيها الضحية أن يتهم نفسه، وغداً ربما يُتهم المتهِم نفس ويرسل إلى حبل المشنقة.

بناءً على فهمنا هذا لذلك الميثاق المازوشي الغريب بين المتهِم والمتهَم، تأتينا إجابة أبسط بكثير على السؤالين: لماذا يريد الناس التحكم في عقول الآخرين؟ ولماذا يعترف الآخرون ويخضعون ؟ السبب أنه لا يوجد اختلاف بين الضحية والمحقق؛ إنهما متماثلان. ليس لأي منهما في تلك الظروف أي تحكم على أفكاره ومشاعره الإجرامية الخفية.

من الواضح أنه من الأسهل أن تكون المحقق عن أن تكون الضحية، ليس فقط

لأن المحقق ربما يكون بمأمن مؤقتًا من الدمار العقلي والبدني، لكن لأن من الأبسط معاقبة الآخرين عما نشعر بأنه جريمة في أنفسنا أكثر من مواجهة الشعور بالذنب الخفي في أعماقنا. إن ارتكاب الإبادة العقلية أقل جرائم العدوانية، والتي تغطي على الجريمة الأعمق التي تتعلق بالكره والدمار الخفي الذي لم يحل بعد.

دراسة للعمليات النفسية في غسيل الدماغ وإبادة العقل

في نهاية هذا الفصل الذي يصف مختلف التأثيرات التي تؤدي إلى الخضوع والاستسلام لاستراتيجية العدو، من المفيد تقديم دراسة مقتضبة عن العمليات النفسية المتضمنة.

المرحلة الأولى: الانهيار الاصطناعي وإزالة الارتباط الشرطي

يحاول المحقق إضعاف أنا المعتقل. ومع أنه في الأصل يمكن استخدام التعذيب البدني – ما زال الجوع والبرد مؤثران للغاية – إلا أن التعذيب البدني يمكنه أن يزيد في العادة من عناد الشخص. لكن الغرض الأكبر من التعذيب هو أن يمتد ليهدد خيال المتفرجين (الناس). إن توقعهم الجامح للتعذيب يجعلهم عرضة أكثر للانهيار حين يكون العدو في حاجة إلى ضعفهم. (بالطبع، في بعض الأحيان، ربما يجد عدو سادي لذة فردية في التعذيب.)

تتضمن الوسائل العديدة التي يستغلها العدو: الترهيب، والإيحاء، والإقناع الدرامي، والإيحاء الجماعي، والإذلال، والإحراج، والوحدة، والعزلة، والتحقيق المستمر، وزيادة الحمل على العقل غير المستقر، وإثارة المزيد والمزيد من الإشفاق على الذات. إن الصبر والوقت يساعدان المحقق على تليين الروح العنيدة.

وكما هو الحال في العديد من الأديان القديمة، كان الضحايا يهانون ويذلون لتهيئتهم للدين الجديد، وبالتالي، في تلك الحالة، يهيئون لقبول أفكار شمولية. في تلك المرحلة ربما يستسلم الضحية عن وعي بدافع من الانتهازية العقلانية المحضة.

المرحلة الثانية: الخضوع والتماهي الإيجابي مع العدو

كما ذكرنا بالفعل، ربما تأتي لحظة الاستسلام بغتة في الغالب، وكأن قابلية الإيحاء السلبية العنيدة تغيرت جذريًّا إلى استسلام وشهادة. ما يطلق عليه المحقق التجلي والتحول الداخلي هو تحول كامل في الإستراتيجية الداخلية داخل الضحية. ومن هذا الوقت فصاعدًا يمكننا القول، بمصطلحات التحليل النفسي، إن أنا عليا متطفلة تعيش في وعي الإنسان، وسوف يتحدث بصوت سيده الجديد. في اعتقادي، عادة ما يحدث هذا الاستسلام المفاجئ، إلى جانب انفجارات بالبكاء أو الضحك تصل إلى درجة هستيرية، مثل الطفل الذي يستسلم بعد نوبات غضب عنيفة. يمكن للمحقق الوصول إلى هذه المرحلة بسهولة أكبر بتقلد السلوك الأبوي. في واقع الأمر، تم التودد لكثير من أسرى الحرب على شكل حنان أبوي – هدايا، وحلوى في أعياد الميلاد، والوعد بالمزيد من الأشياء المبهجة مستقبلًا.

يقارن «مولوني» Moloney هذا الخضوع المفاجئ مع التجلي الإلهي، أو حلول إرادة الرب محل إرادة الإنسان (التحول الداخلي) حسب وصف بعض الشعائر اللاهوتية. وحسب فهمنا، من المهم التأكيد على أن الخضوع هو عملية لاشعورية وانفعالية تمامًا، وليست تحت السيطرة العقلانية الشعورية لمغسول الدماغ. يمكن أيضًا أن نطلق على هذه المرحلة التنويم الذاتي.

المرحلة الثالثة: إعادة الارتباط الشرطي بالنظام الجديد

من خلال التدريب والترويض المستمر، ينبغي أن يترسخ تسجيل الفونوجراف الجديد. ربما نقارن هذه العملية مع تنويم نشط من أجل التحويل؛ حيث يجب تصحيح عمليات استبدال عارضة لأشكال التفكير القديمة كما الحال في المرحلة الأولى. يساعَد المريض يوميًا على تبرير معتقده الفكري الجديد وتسويغه، ويقدم له المحقق حجة ومنطقًا جديدين.

يشكل هذا التلقين الممنهج، لمن تجنبوا لفترات طويلة التلقين المكثف، الجانب

السياسي الفعلي لغسيل الدماغ، ويرمز إلى الحرب الباردة الفكرية المستعرة في تلك اللحظات تحديدًا.

المرحلة الرابعة: التحرر من السحر الشمولي

بمجرد عودة مغسول الدماغ إلى المناخ الديمقراطي الحر، يتحطم السحر الشمولي. تبدأ التداعيات المؤقتة في الحدوث، مثل نوبات البكاء، والشعور بالذنب والاكتئاب. وربما تعزز ردة فعله توقعه لأن يقابل بالمعاداة في موطنه على ضوء خضوعه لسحر العدو. تصبح فترة غسيل الدماغ كابوسًا. ومن كانوا من عتاة الشيوعية مسبقًا هم فقط من يلتزمون بها، لكن في تلك الحالة أيضًا، شاهدت العدو يفرض ضغطه العقلي فرضًا تامًّا ويحول رفاقه السابقين إلى كارهين دائمين للنظام.

الجزء الثاني

أساليب إخضاع الجماهير

الغرض من **الجزء الثاني** من هذا الكتاب إظهار شتى جوانب الإستراتيجيات السياسية وغير السياسية المستخدمة لتغيير مشاعر الجماهير وأفكارهم، التي تبدأ بإعلان ودعاية بسيطة، ثم دراسة الحرب النفسية والحرب الباردة الفعلية، والمضي قدمًا لفحص الوسائل المستخدمة لتوجيه أفكار الإنسان وسلوك. يُختتم الجزء الثاني بفحص معقد وتفصيلي حول كيف يمكن استخدام أحد أدوات الفتنة الانفعالية والهجوم – سلاح الخوف – وردود الأفعال التي تثيرها في الإنسان.

الفصل الخامس

الحرب الباردة على العقل

إن تفكير التمني الأعمى وحده يمكن أن يسمح لنا بأن نعتقد بأن مجتمعنا بمنأى عن تلك التأثيرات الخبيثة المذكورة في الفصل الأول. الحقيقة أنها موجودة في كل مكان حولنا، على كل من المستويين السياسي وغير السياسي، ويغدو تأثيرها خطرًا على طريقة الحياة الحرة، تمامًا مثل تأثير الحكومات الشمولية العدوانية نفسها.

كل ثقافة تضفي الطابع المؤسسي على أشكال معينة من السلوك الذي يوصل ويشجع أشكالًا معينة من التفكير والتصرف؛ وبالتالي قولبة أفكار مواطنيها، إلى درجة أن الفرد يضحى هدفًا للتلاعب العقلي المستمر، وإلى درجة أن المعاهد الثقافية ربما تميل إلى إضعاف القوة الفكرية والروحية، وإلى درجة أن معرفة العقل تستخدم لترويض الناس وخلق ارتباطات شرطية لديهم بدلًا من تعليمهم، وإلى درجة أن الثقافة نفسها تنتج رجالًا ونساءً عرضة لقبول طريقة حياة سلطوية. إن الإنسان الذي لا يُعمِل عقله يمكن بسهولة أن يصبح مثل بيدق الشطرنج عند مستبد مرتقب.

ومن المزعج غالبًا رؤية كيف أن الأشخاص الأذكياء نفسهم لا يتمتعون بعقول تفكر سويًّا. فنمط العقل، سواء كان ميالاً إلى الامتثال والانصياع أو غير ذلك، يتم إخضاعه لارتباطات شرطية في وقت باكر من الحياة.

وجد «آش»[48]، في تجاربه النفسية الاجتماعية المهمة مع الطلاب في اختبارات بسيطة، أنه يوجد انصياع لرأي الغالبية الخاطئ بين أكثر من ثلث الأشخاص الذين اختبرهم، بينما 75 في المائة من الخاضعين للتجربة الذين تم اختبارهم اتفقوا مع الغالبية بنسب متفاوتة. وبالنسبة إلى العديد من الأشخاص، كان ثقل السلطة أكثر أهمية من طبيعة السلطة. [في الفصل العاشر، **الابن هو أبو الإنسان**، أعود للحديث عن هذا الدافع الداخلي تجاه الامتثال.]

إذا كان لنا أن نتعلم حماية سلامتنا العقلية على كافة المستويات، علينا ألا ندرس فقط تلك الجوانب الخاصة بالثقافة المعاصرة التي لها علاقة مباشرة بالصراع على السلطة، لكن أيضًا تلك التطورات في ثقافتنا التي يمكنها، من خلال التشويش على حدود إدراكنا العقلي أو انتهاز فرصة قابليتنا للإيحاء، أن تؤدي بنا إلى الموت العقلي – أو الملل – المتعلق بالشمولية. إن الإيحاء المستمر والتنويم البطيء في أعقاب التواصل الآلي مع الجماهير يعزز من التجانس العقلي، وربما يغري العامة «بالعهد السعيد» الذي يمتاز بالتعديل والاندماج والمساواة؛ حيث يكون الرأي الفردي نمطيًّا تمامًا.

عندما أستيقظ صباحًا أفتح الراديو لأسمع أخبار الطقس، ثم يتوارد ذلك الصوت الأجش الذي يخبرني بتناول الأسبرين من أجل الصداع. أصاب «بالصداع» من حين لآخر (هذا ما يفعله العالم)، ويأتيني الصداع مثلما الحال بالنسبة إلى كثيرين من عدة صراعات تفرضها الحياة عليَّ. يقول لي الراديو ألا أفكر في الصراعات أو الصداع، لكنه يقترح عوضًا عن هذا أن عليَّ الانتكاس إلى ذلك الفعل السحري القديم وأبتلع حَبَّة. ومع أني أضحك في أثناء استماعي إلى هذا الوصف من على بعد من ذلك المذيع الذي لا يعرف أي شيء عني أو عن صداعي، ومع أني كنت أتأمل لحظة خنوع هذا الشخص للكيمياء السحرية، إلا أن يدي

48 - س. إ. آش Asch (1907 - 1996): طبيب نفسي أمريكي من أصول بولندية. يعتبر رائدًا في علم النفس الاجتماعي في الولايات المتحدة، ويعرف بتجاربه عن الامتثال لرأي الأغلبية. (المراجع)

بدأت في النهاية تمتد إلى عبوة الأسبيرين؛ ففي النهاية أنا مصاب بالصداع.

من الصعب جدًّا الهروب من الإيحاءات المتكررة آليًا في الحياة اليومية. حتى عندما يرفضها عقلنا النقدي، تغرينا للقيام بما يخبرنا عقلنا بأنه أمر غبي.

لقد أثرت ميكنة الحياة العصرية بالفعل على الإنسان ليصبح أكثر سلبية ويضبط نفسه على امتثال جاهز بالفعل. لم يعد الإنسان يفكر في قيمه الشخصية، ويتبع وعيه وتقديراته الأخلاقية الخاصة؛ إنه يفكر أكثر وأكثر في القيم التي تعرضها عليه وسائل الإعلام. تقدم له عناوين الأخبار في صحف الصباح نظرة عامة سياسية مؤقتة، وينهال الراديو بوابل من الإيحاءات على أذنيه، ويبقيه التليفزيون في حالة رهبة دائمة وثبات سلبي. وربما يعترض بوعي على هذه الأصوات المجهولة، لكن إيحاءاتها مع هذا تتسلل إلى نظامه.

لكن أكثر ما يسبب صدمة على الأرجح في هذه التأثيرات أن الكثير منها لم يتطور بدافع من تدمير الإنسان فقط، بل نتيجة أمله في تحسين عالمه وجعل حياته أثرى وأعمق. إن المؤسسات نفسها التي أنشأها الإنسان لمساعدته، والأدوات نفسها التي اخترعها لتحسين حياته، والتقدم نفسه الذي حققه للسيطرة على نفسه وبيئته – يمكن أن تصبح جميعها أسلحة دمار.

مهندسو الرأي العام

يتنامى باستمرار في بلدنا اعتقاد بأن الحملة الدعائية المطولة، سواء لفكرة سياسية أو ديب فريزر، يمكنها أن تنجح في بيع أية فكرة أو أي شيء تريد بيعه للعامة، وأي رمز سياسي يريد المرء أن ينتخبه. ومؤخراً، أدار تخطيط بعض الحملات الانتخابية من يطلق عليهم مهندسو الرأي العام، الذين استخدموا كل وسائل التواصل الحديثة مع الجماهير، والمعرفة المعاصرة بعقل الإنسان لإقناع الأمريكان بالتصويت للمرشح الذي يدفع رواتب رجال العلاقات العامة. إن خطورة هذه الإعلانات المكثفة تكمن في أن الشخص أو الحزب الذي يمكنه أن يدفع أكثر يمكنه أن يصبح

ولو مؤقتًا على الأقل الشخص الذي يمكنه السيطرة على الناس لشراء السلع أو للتصويت للشخص الذي يمكن أن يكون في صالحه الفعلي.

ربما يحاول المتخصصون في فن الإقناع وصياغة المشاعر العامة أن يعجنوا العجين العقلي للإنسان بكل أدوات التواصل المتاحة لهم: الكتيبات، والخطابات، والمنشورات، ولوحات الإعلان، وبرامج الراديو، والفقرات التليفزيونية. وربما باستخدام الأفكار العفوية والإبداعية يرققون من الأفكار المبتذلة غير المثمرة والبسيطة التي توجه أفكارنا، مع أنه يبقى لدينا الشعور بوهم بأصالتنا واستقلالنا الفردي.

ما نطلق عليه إرادة الناس أو إرادة الجماهير نبدأ في معرفته فقط بعد أن يبدأ هذا الإجراء الجماعي في الحراك، بعد التعبير عن إرادة الناس، سواء في استطلاعات الرأي أو نوبات الغضب والتمرد. وهذا يشير مرة أخرى إلى مدى أهمية من يتحكم في أدوات الرأي العام وآلياته.

عقب صياغة مثل هذا الإعلان وهندسة الموافقة، ربما تهتز ثقة المواطن في قادته، وربما تعتاد الجماهير أكثر فأكثر بالتدريج على الخداع الرسمي. في النهاية، عندما لا يعود باستطاعة الناس أن يثقوا في أي برنامج وأي منصب، وعندما لا يكون في استطاعتهم تشكيل أحكام ذكية بعد الآن، يمكن حينئذ التأثير عليهم بسهولة من خلال أي غوغائي أو ديكتاتور محتمل، الذي تنال قوته استحسانهم نظرًا لحالة الارتباك والشعور بالسخط المتزايد لديهم. ربما أسوأ جانب في هذا الترويج الماهر للأفكار أنه في أحيان كثيرة جدًّا، حتى بالنسبة إلى من يشترون الخبراء، وحتى خبراء الرأي أنفسهم لا يكونون على دراية بما يفعلونه. كما أنهم يميلون أيضًا إلى تصديق شعار «إدارة الرأي العام» ولا يعود في إمكانهم الحكم على الأدوات التي استأجروها.

إن الغاية لا تبرر الوسيلة أبدًا؛ وإذا ما قطعنا خطوات كافية في هذا الطريق فسوف يؤدي بنا هذا الأمر تدريجيًّا إلى الشمولية.

في تلك اللحظة في دولتنا، يتم إجراء دراسة تفصيلية تهدف إلى معرفة السبب الذي يجعل المشتري يحب شيئًا ما وما الذي يشتريه. ما الذي يحفزه؟ الهدف هو اجتياز حواجز المقاومة للعامة المشترين. هل ذلك جزء من فلسفة ثقافتنا المتناقضة لإثارة احتياجات الإنسان وإثارة رغبات الناس. إن الفهم السيكولوجي الذي اكتسب صبغة تجارية يريد أن يبيع للعامة أو للمشتري المحتمل، منتجات أكثر مما يريد شراءه بحق. ومن أجل فعل هذا يجب إيقاظ دوافع طفولية لديه، مثل تنافس الأشقاء وحسد الجيران، الحاجة لأن يكون لديك المزيد والمزيد من الحلوى والألوان الزاهية والحاجة إلى المزيد والمزيد من الرفاهيات. من هنا نجد عالم النفس التجاري يعلم البائع كيفية تجنب الروابط غير السارة في إعلانه، وكيف يحفز بطريقة غير ملحوظة الروابط الجنسية، وكيف يجعل كل شيء يبدو بسيطًا وسعيدًا وناجحًا وآمنًا! فهو يُعلِّم التجار كيف يزيدون من غرور المشتري، وكيف يتملقون العميل. واكتشف مهندسو التسويق أن العامة في بلداننا يريدون الإيحاء بالقوة والفحولة في منتجاتهم. وعليه، يجب أن تتمتع السيارة بقوة حصانية أكبر من أجل موازنة الشعور بالضعف الداخلي لدى مالكها. يجب أن تمثل السيارة حالة المرء الاجتماعية وسمعته، لأنه بدون مثل هذه الراية يشعر الإنسان بالخواء. تحلم وكالات الإعلان بالإعلان الكوني، عالم لامع بالأفكار المقلدة، تمجيداً للعبارة اللاتينية «العالم يريد أن يُخدع»[49]، وتركيزاً على القابلية للتكبر، والتعبير عن البساطة المبتذلة؛ وهذا كله من أجل الدفع بالمزيد من المبيعات في أفواه المشترين الطفوليين. في عالمنا المليء بالإعلانات، ابتكرت الاحتياجات المصطنعة هذه من مواظبة الباعة والمشترين؛ وهنا تكمن خطورة بناء عالم مقلِد يمكن أن يكون تأثيره خطيرًا على عالمنا الفكري.

يؤكد هذا الموقف على الجشع العُصابي لدى العامة، تلك الحاجة للترفيه عن الخيالات الخاصة على حساب إدراك القيم الحقيقية، فيصبح العامة مرتبطين شرطيًا

49 - التعبير في الأصل باللاتينية mundus vult decipi، ثم بالإنجليزية. (المراجع)

بالقيم ذات البريق الزائف. بالطبع يجد العامة الأحرار تدريجيًا دفاعاتهم ضد الشعارات، لكن خيانة الأمانة وانعدام الثقة انزلقا عبر حواجز وعينا، وتركا شعورًا مزعجًا بعدم الرضا. وفي النهاية، يرمز الإعلان إلى فن جعل الناس غير راضين عما في أيديهم. وفي الوقت الحالي، من الواضح أن الإنسان مستمر في الهجوم خلسة على أحكامه الأفضل.

في عهدنا هذا الذي يعج بالكثير من الصخب والكثير من الإحباطات، تخلى العديد من أصحاب الفكر «الحر» عن الكفاح من أجل الآداب والفردية. لقد استسلموا لروح العصر، بدون دراية بهذا في أغلب الأوقات. إن الرأي العام يشكل أفكارنا المهمة كل يوم. ودون دراية ربما نصبح روبوتات متعنتة. ذلك الإكراه البطيء على النفاق، وعلى تلك العادات في ثقافتنا التي لها تأثير هدام – تلك الأشياء التي غيرتنا. إننا نتوق بشدة إلى الإثارة، وإلى القصص التي يشيب لها الشعر، وإلى الانفعالات. نحن نبحث عن مواقف تخلق لدينا خوفًا سطحيًا لنغطي على قلقنا الداخلي. إننا نحب الهروب إلى اللاعقلانية لأننا لا نحب تحدي الدراسة الذاتية والتفكير الذاتي. وينشغل وقت فراغنا تدريجيًا بالأنشطة الآلية التي ليس لنا فيها دور: الاستماع إلى الكلمات التي ترد إليهم جاهزة ومشاهدة شاشات التليفزيون. إننا نسرع باستخدام السيارات ونأوي إلى الفراش بالحبوب المنومة. هذا النمط المعيشي بدوره ربما يفتح الطريق لهجمات جديدة خفية على عقولنا. يمكن للملل الذي نشعر به أن يرحب بأية إيحاءات تغريه.

الحرب النفسية بوصفها سلاحًا للإرهاب

كل تواصل بشري يمكن أن يكون تقريرًا عن حقائق مباشرة أو محاولة للإيحاء بأشياء ومواقف ليس لها وجود. ومثل هذا التشويه والتحريف للحقائق يضرب جوهر التواصل البشري. إن المعركة اللفظية ضد مفهوم الإنسان عن الحقيقة وضد عقله تبدو وكأنها لا تنقطع. على سبيل المثال، لو كان بإمكاني أن أغرس في أعدائي اللدودين المستقبليين خوفًا وفزعًا والإيحاء بالهزيمة الوشيكة، قبل حتى أن يكونوا

مستعدين للحرب، أكون قد انتصرت في نصف المعركة بالفعل.

إن استراتيجية استخدام الإنسان لأقنعة مخيفة وأصوات عالية للتفوه بأكاذيب للتلاعب بالأصدقاء والأعداء إستراتيجية قديمة قِدم البشرية. واستخدمت الشعوب البدائية أقنعة تثير الفزع، أو الخيال السحري، أو خداع النفس مثلما ننطق الكلمات بصوت عال لإقناع الآخرين أو أنفسنا. كانوا يستخدمون رسومهم السحرية ونحن نستخدم عقائدنا الفكرية. في حقيقة الأمر، إننا نعيش في عصر الإعلانات والدعاية والشهرة، لكن وحدها الأنظمة المستبدة والشمولية هي التي لديها هذا التشكيل للعادات البشرية التي تنتشر سريعًا على هيئة هجمة نفسية منظمة على البشرية.

إن الأسلحة التي يستخدمها المستبد ضد شعبه يمكنه استخدامها ضد العالم الخارجي أيضًا. على سبيل المثال، الاعترافات الزائفة التي تجعل عقول الخاضعين للمستبد تنحرف عن مشاكلهم الحقيقية، يبقى أن لها تأثيرًا آخر: إنها تهدف (وفي بعض الأحيان تنجح في هدفها) إلى إرهاب شعوب العالم. وبتعزيز الخرافة القائلة بهيمنة المستبد، فإن مثل هذه الاعترافات تضعف إرادة الإنسان على مقاومته. إذا ما أمكن استخدام فترة سلام لتُلين من العدو المستقبلي، ربما تكون الجيوش الشمولية قادرة في وقت الحرب على أن تحقق نصرًا رخيصًا وسهلًا. إن الحرب النفسية الشمولية موجهة على نطاق واسع تجاه هذا الهدف. إنه مجهود للدعاية إلى العالم وتنويمه ليخضع.

في أوائل القرن التاسع عشر، شكل «نابليون» مكتب الرأي العام للتأثير على تفكير الشعب الفرنسي، لكنه خضع للألمان كي يتلاعبوا بالرأي العام من خلال آلة ضخمة وشديدة التنظيم، وأصبحت حربهم النفسية إستراتيجية عدوانية في وقت السلم، أو ما يسمى الحرب بين الحروب. كانت نتيجة هجمات النازية على الروح المعنوية الأوروبية وحرب الأعصاب النازية ضد جيرانهم أن بدأت الأمم الأخرى في العالم في تنظيم قواها النفسية، لكن في النصف الثاني من الحرب فقط كان

بمقدورهم تحقيق بعض معايير النجاح؛ فقد سبق الألمان بخطوات كبيرة.

كانت الترسانة النفسية لـ «هتلر» تتكون في الأساس من سلاح الخوف، وكان لديه مثلًا شبكة من الطابور الخامس مهمتهم الأساسية غرس بذور الشائعات والشك بين مواطني الدول التي كان يخطط لمحاربتها في النهاية. لم يكن الناس منزعجين فقط من نظام التجسس نفسه، لكن تحديدًا من شائعات الجواسيس. وقد نشر الطابور الخامس هذا شعارات الهزيمة والارتباك السياسي: «لماذا يجب أن تموت فرنسا من أجل إنجلترا؟»؛ فبدأ الخوف يتسلل لتوجيه أفعال الناس. بدلًا من مواجهة تهديد غزو ألمانيا، وبدلًا من الاستعداد له ارتجفت أوروبا بأكملها من قصص الجواسيس، وناقشت قصصًا غير ذات صلة، وتجادلت بلا نهاية حول كباش الفداء والأقليات. ولهذا استخدم «هتلر» المخاوف الغامضة المتفشية للتغطية على المواضيع الحقيقية، وبمهاجمة إرادة الكفاح لدى أعدائه، وإضعافهم.

ونظرًا لعدم قناعة «هتلر» بهذه الهجمة الإستراتيجية على الإرادة لهزيمة النفس، فقد حاول أن يشل أوروبا مهددًا إياها بالإرهاب، ليس فقط التهديد بالقنابل والتدمير والاحتلال، لكن أيضًا التهديد النفسي المفهوم ضمنًا من تشجيعه للقسوة. إن الخوف من عدو عنيد يجعل المرء أكثر استعدادًا للاستسلام قبل حتى أن يبدأ في الكفاح. كانت أفعال «هتلر» الإجرامية في وطنه – معسكرات الاعتقال، وغرف الغاز، والمجازر الجماعية، وأجواء الرعب في أرجاء أوروبا – مفيدة في خدمة آلاته الدعائية التي تغرس الخوف؛ لأنها كانت جزءًا من هذاءاته.

يوجد أيضًا سلاح مهم يستخدمه الشموليون في حملاتهم لترهيب العالم حتى يخضع، وهو سلاح الصدمة النفسية. كان «هتلر» يبقي أعداءه في حالة من الارتباك المستمر والفوضى الدبلوماسية؛ لم يعرفوا قط الخطوة التالية التي سيقدم عليها هذا المجنون. لم يكن «هتلر» منطقيًا قط، لأنه عرف أن هذا ما كان يُتوقع أن يكون عليه. إن المنطق يمكن مقابلته بالمنطق، وهذا غير ممكن مع عدم المنطق – هذا الأمر يضر من يفكرون تفكيرًا سويًا. إن **للكذبة الكبيرة** والهراء المتكرر جاذبية في الحرب

الباردة أكثر من المنطق والرشد. بينما يبحث العدو عن حجج مضادة معقولة للكذبة الأولى، يمكن للشموليين مهاجمته بحجة أخرى.

إن الصدمات العقلية الإستراتيجية كانت هي الأدوات التي استخدمها النازيون عندما دخلوا راينلاند[50] عام 1936، وعندما أبرموا اتفاقية عدم الاعتداء مع روسيا عام 1939. كما استخدم «ستالين» الإستراتيجية نفسها وقت الغزو الكوري عام 1950 (التي أشرف عليها)؛ وهو ما فعله الصينيون والكوريون الشماليون عندما اتهموا الولايات المتحدة بالحرب البكتيرية. وعند التصرف بتلك الطريقة اللاعقلانية، كان الشموليون يتسببون في إثارة الاضطراب في عقول أعدائهم المليئة بالمنطق. يشعر العدو برغبة في إنكار الأكاذيب الدعائية أو في تفسير حقيقة الأشياء، وهذه التصرفات تضعه على الفور في موقف دفاعي أضعف؛ حيث يشعر العدو أنه مجبر على أن ينكر الأكاذيب الدعائية أو يشرح حقيقة الأشياء، وهذه التصرفات تضعه على الفور في موقف دفاعي أضعف. إن الكذبة التي تتفشى سريعًا لا يمكن السيطرة عليها أبدًا؛ يمكن تدميرها فقط.

إن أسلوب الصدمة النفسية هذا له أيضًا تأثير آخر؛ فقد يربك عقل المواطن بحيث يتوقف عن إبداء تقييماته الخاصة، ويبدأ في الاعتماد بسلبية على آراء الآخرين. كان لوقع تدمير «هتلر» لمدينتي وارسو وروتردام – بعد الهدنة عام 1940، وهو انتهاك تام للقانون الدولي – أكبر الأثر في شل فرنسا وصدمة الأمم الديمقراطية. ولأنهم كانوا في حالة شلل نتيجة السخط الأخلاقي، صار تجهيزهم ضعيفًا من الناحية النفسية في التعامل مع الرعب النازي.

وكما أن التقدم التقني للعالم المعاصر حسَّن أسلحة الحرب المادية وطورها، كذلك مكن تقدم فهم الإنسان في التلاعب بالرأي العام من تحسين أسلحة الحرب النفسية وتطويرها.

---

50 - راينلاند Rhineland: منطقة تاريخية حول نهر الراين، كانت تشكل ما كان يعرف بألمانيا الغربية. (المراجع)

إن هذا الاقتحام المستمر في عقولنا بتلك الضوضاء الصاخبة للجدال والدعاية يمكن أن يؤدي بنا إلى أحد نوعين من ردود الفعل: ربما يؤدي إلى الفتور واللامبالاة، رد فعل مفاده أنني لا أهتم، أو إلى رغبة أشد في الدراسة والفهم. لكن لسوء الحظ فإن رد الفعل الأول هو الأكثر انتشارًا. إن الهروب من الدراسة والوعي شائع أكثر في عالم يلقي بكثير من الصور المربكة على الفرد. كما ينبغي علينا لصالح ديمقراطيتنا التي أساسها حرية الفرد، أن نعاود الدراسة مرارًا وتكرارًا، وإلا أصبحنا ضحايا سائغة لهجمة لفظية مُحكمة التخطيط على عقولنا ووعينا.

لا يمكن أن نصبح على دراية كافية بالقهر المستمر لحواسنا وعقولنا، تلك الهجمات الإيحائية المستمرة التي ربما تمر عبر حواجز الفكر الثقافية. فالتكرار والارتباط الشرطي البافلوفي يمكن أن ينهكا الفرد، وقد يغريانه في النهاية بقبول الحقيقة التي تحداها واحتقرها في البداية.

إن الشموليين بارعون للغاية في إثارة الذنب الخفي بداخلنا بتكرارهم مرة تلو الأخرى لمدى الوحشية التي تصرف بها العالم الغربي تجاه أناس أبرياء مسالمين. ربما يهاجم الشمولي تماهينا مع قادتنا بالتقليل من شأنهم، مستغلًّا في ذلك السمة النقدية الخفية بداخل كل إنسان تجاه كافة القادة. وفي بعض الأحيان يستخدمون إستراتيجية الملل لإغراء الناس بالنوم. قد يرغبون في جعل كل العالم الغربي يدخل في حالة تنويم تحت تأثير وهم التعايش السلمي. وباستخدام إستراتيجية أخرى، سوف يرغبون في أن نقطع كل روابط إخلاصنا للماضي؛ بحيث نبتعد عن الأقارب والشركاء. كلما تخليت عنهم وعما يدعى مفاهيمهم الباطلة، تعاونت بشكل أفضل مع من يريدون الاستحواذ عليك عقليًّا. إن كل استراتيجية سياسية تهدف إلى إثارة الخوف والشك تميل إلى عزل الشخص غير الآمن إلى أن يستسلم لتلك القوى التي تبدو له أقوى من أصدقائه السابقين.

وأخيرًا وليس آخرًا، دعنا لا ننسى أن من يمتلكون أفضل الاستراتيجيات

اللفظية وأقواها في خضم معارك الجدال يميلون إلى الفوز. ينظم الشموليون تدريبات جدلية لئلا يجعلوا شكوك الخاضعين لهم تخرِج أفضل ما فيهم، كما يحاولون فعل الشيء نفسه مع بقية العالم بطريقة أقل تطفلًا.

علينا أن نتعلم مواجهة وابل الكلمات المنهكة التي يستخدمها الشموليون بتدريب أفضل وفهم أفضل. إذا ما حاولنا الهروب من مشاكل الدفاع الذهني، أو أنكرنا مضاعفتها سوف نخسر الحرب الباردة تدريجيًّا أمام الزحف البطيء للكلمات – والمزيد من الكلمات.

لغز التعايش

هل من الممكن التعايش مع أنظمة شمولية لا تتوقف أبدًا عن استخدام مدفعيتها النفسية؟ هل يمكن لنظام ديمقراطي حر أن يكون قويًّا بما فيه الكفاية للتسامح مع الاقتحام المتطفل للشمولية في حقوقه وحرياته؟ يقول لنا التاريخ إن العديد من الأفكار العقائدية المعارضة والمتصادمة كانت قادرة على التعايش في ظل قانون عام يضمن التسامح والعدالة. لم تعد الكنيسة مثلًا تحرق المرتدين عنها.

قبل أن يصبح بالإمكان تعايش طرفي النقيض، الشمولية والديمقراطية الحرة، تحت مظلة قانون يشرف عليهما ونية حسنة متبادلة، يجب أولًا ترسيخ قدر كبير من التفاهم المتبادل. إن الحرب الباردة الفعلية والحرب النفسية لا يفضيان إلى تلك النتيجة.

إن لكلمة «التعايش»، بالنسبة إلى الشموليين، معنى مختلفا عما تعنيه لنا. ربما يستخدمها الشمولي شعارًا أو مهدئًا. والخطر هو أن مفهوم التعايش السلمي ربما يكون سترًا؛ حيث يبلد إدراك التفاعلات الحتمية، ومن ثم يفيد الحزب الأقوى نفسيًّا. تحدث «لينين» عن سحر التقاط الأنفاس[51] الإستراتيجية الذي يجب أن

---

51 - التقاط الأنفاس: في الأصل بالإنجليزية، ثم بالروسية بين قوسين (peredyshka). (المراجع)

يضعف العدو. إن حركة سلام حماسية للغاية ربما تعني تهدئة سطحية للمشكلات. وهذه المطالبة يجب دراستها وإعادة دراستها، لئلا ينتج عنها فتور للدفاعات التي يجب أن تبقى متحركة لمواجهة العدو الشرس.

ربما يعني التعايش تبعية خانقة مثلما يتعايش السجناء مع سجانيهم. وفي أفضل صوره ربما يحاكي العلاقات التكافلية المكثفة، أو علاقات تطفلية يمكننا رؤيتها بين الحيوانات التي تحتاج إلى بعضها، أو كما نراها في الرضيع في سنوات الاعتماد على والدته.

وبالنسبة إلى مَن يعيشون بحرية في نظام ديمقراطي، يجب أن يتضمن التعايش الحرية والتبادل. إن مفهوم عدم الحرية عند الشمولي لا يمكن أن يمتزج بالحرية. هناك مفاهيم وأفكار لا يمكنها التعايش ولا تتسامح مع بعضها.

من أجل التعايش والتعاون، على المرء أن تكون لديه أفكار وصور ذهنية عن التكامل يمكن مقارنتها، وعن تشابه الأفكار، وعن الانتماء إلى الآخرين، وعن استقلال الجنس البشري ككل، بالرغم وجود الاختلافات العرقية والثقافية، وإلا فإن الفكر العقائدي المدعوم من أكبر قوة عسكرية سوف يقيد حريات الفكر الأضعف.

إن التعايش السلمي يتطلب ضمنًا، على الجانبين كليهما، فهمًا ثاقبًا لمشكلات التعايش البسيط وتعقيداته، وللاتفاقات المتبادلة، والحدود، ولتنوع الشخصيات، وخاصة تعايش الأفكار والمشاعر المتناقضة غير القابلة للتوفيق في كل فرد، وللتناقض الفطري عند الإنسان. يتطلب الأمر فهمًا لحقوق كل من الفرد والجماعة. إذا ما استخدمنا التعايش شعارًا، ربما نشوش على المشاكل المتضمنة، وربما نجد أننا نستخدم الكلمات إشارة للتغطية على الاستسلام التدريجي لصاحب التخطيط الأقوى.

الفصل السادس

توتاليتاريا[52] وحكمها المستبد

هناك بالفعل شيء يدعى **تقنية غسيل الدماغ** على نطاق واسع؛ وهذه التقنية يمكن أن ترسخ في بلد ما إذا ما كان المحقق قويًّا وداهية بما فيه الكفاية. يمكن أن يجعل معظمنا ضحاياه حتى ولو مؤقتًا.

ما الشيء الموجود في بنية المجتمع الذي جعل الإنسان عرضة لهذا التلاعب الشامل بالعقل؟ إنها مشكلة لها آثار هائلة، تمامًا مثل غسيل الدماغ. في السنوات الأخيرة، صرنا على دراية أكثر فأكثر باستقلال الإنسان بكل صعوبات هذا الاستقلال وتعقيداته.

أنا على دراية بحقيقة أن دراسة موضوع القهر العقلي والسيطرة على الأفكار يصبح أقل استساغة مع مرور الوقت؛ وهذا لأنه ربما يشكل تهديدًا أكبر لنا هنا والآن، كما يجب أن يكون اهتمامنا بالصين وكوريا رهنًا باحتياجاتنا الحالية على أعتاب أبوابنا. هل يمكن للميول الشمولية أن تسيطر هنا، وما الأعراض

---

52 - توتاليتاريا Totalitaria: اسم لدولة افتراضية يتخيلها المؤلف؛ وهو الاشتقاق الذي أخذت منه كلمة الشمولية (المراجع).

الاجتماعية التي يمكن أن تؤدي إلى مثل هذه الظاهرة؟ إن الحقيقة المؤلمة تواجهنا بالمعركة الذهنية الكونية بين السيطرة على الأفكار (والمتحكمين فيها) ، ومعاييرنا الأدبية، وقوتنا الشخصية، وأفكارنا الشخصية، ووعينا الشخصي بالحكم الذاتي والكرامة.

وبالإضافة إلى ذلك، سيكون علماء الاجتماع قادرين أكثر على وصف أسباب تقدم شمولية التفكير والفعل في الإنسان. إننا نعرف أن هذا التدهور العقلي يجد، بعد الحروب والثورات، فرصة سانحة أكثر للنمو، ويساعده في ذلك شخصيات معتلة نفسيًّا لا تزدهر إلا على بؤس الإنسان وارتباكه. ومن الحقيقي أيضًا أن الجيل القادم يبدأ بعفوية في تصحيح الأعمال المشينة للجيل السابق لأن النظام القاسي أصبح يشكل تهديدًا كبيرًا عليهم.

ومع ذلك فإن مهمتي هي وصف بعض أعراض العملية الشمولية (التي تتضمن تدهور التفكير والتصرف) كما لاحظتها في عصرنا الحالي، مع الوضع في الاعتبار أن هذا النظام واحد من أكثر التشوهات العنيفة للنمو العقلي المتسق للإنسان. إن غسيل الدماغ لا يكون ممكنًا بدون تفكير شمولي.

إن الحقائق المأساوية للخبرات السياسية في عصرنا توضح تمامًا أن التقنيات النفسية التطبيقية يمكن أن تغسل دماغ أمة بأكملها وتتسبب في تدهور مواطنيها ليصبحوا نوعًا من الآلات منزوعة العقل التي تصبح بالنسبة إليهم طريقة حياة طبيعية. وربما يمكننا أن نفهم أكثر كيف يمكن لهذا الشيء المفزع أن يحدث بدراسة دولة خيالية، والتي سوف ندعوها في هذا السياق دولة توتاليتاريا "شمولية".

تحويل الإنسان إلى روبوت

أولًا دعني أقل كلمة تحذيرية؛ علينا ألا نرتكب خطأ التفكير في أن هنا أمة معينة يمكن أن تتطابق تمامًا مع هذا الوطن الافتراضي. وتلك السمات التي سوف نناقشها يمكن أن تظهر إلى الوجود هنا. بالطبع كانت بعض السمات الشمولية

موجودة في ألمانيا النازية، ويمكن أن تتواجد اليوم خلف دول الستار الحديدي، لكنها متواجدة إلى حد ما في أجزاء أخرى من العالم أيضًا. توتاليتاريا هي أية دولة تنحدر فيها الأفكار السياسية إلى معادلات فارغة صنعت خصيصًا لأغراض دعائية. إنها أية دولة تتولى فيها أية مجموعة واحدة – يسار أو يمين – مقاليد السلطة المطلقة، وتصبح قاهرة ومهيمنة. إنها أية دولة تعتبر فيها المعارضة واختلاف الآراء جرائم، ويعتبر فيها الامتثال المطلق ثمن الحياة.

توتاليتاريا – تلك الدولة الضخمة الرهيبة[53] – موطن لنظام سياسي نطلق عليه مجازًا الشمولية، ويلعب فيها الطغيان الممنهج دورًا. وهذا النظام ليس مشتقًا من فلسفة سياسية شريفة، سواء اشتراكية أو رأسمالية. ربما يتفوه القادة الشموليون بالعقائد الفكرية، لكنها في الواقع شعارات مستخدمة لتبرير النظام. وإذا لزم الأمر، يمكن أن تغير الشمولية شعاراتها وتصرفاتها بين عشية وضحاها. إن الشمولية بالنسبة إليّ تمثل السعي إلى السلطة المطلقة وسعي المستبد ليحكم العالم. ربما توظَّف كلمات ومفاهيم مثل «الاشتراكية» و«الشيوعية»، مثل كلمة «الديمقراطية»، بوصفها غطاء لنية الديكتاتور المصاب بجنون العظمة.

وحيث إن الشمولية في جوهرها تجلٍّ اجتماعي لظاهرة سيكولوجية تنتمي إليها كل شخصية، يمكن إذًا فهمها بأفضل شكل من خلال القوى البشرية التي تنشئها وترعاها وتجعلها مستدامة. للإنسان وجهان؛ إنه يريد أن ينمو لينضج ويصبح حرًّا، ومع ذلك فإن الطفل البدائي في لاشعوره يشتاق إلى الحماية التامة وعدم المسؤولية. تتعلم نفسه الناضجة كيف يجاري قيود الحياة اليومية وإحباطاتها، لكن في الوقت نفسه يتطلع الطفل بداخله إلى التمرد عليها وهزيمتها وتدميرها – سواء أكانت أشياءً أم أشخاصًا. والشمولية تغري هذا الطفل المشوش بداخلنا جميعًا؛ فتبدو وكأنها تعرض حلًّا لكل المشكلات التي تنتج من حالة الاشتياق الكبير لدى

---

53 - الضخمة الرهيبة: في الأصل لوياثان Leviathan؛ وهو وحش بحري ورد اسمه في الكتاب المقدس. (المراجع)

لإنسان. إن دولة توتاليتاريا الخيالية التي نضرب بها مثالًا هنا دولة متجانسة ومطلقة، لا يسمح فيها بإظهار الشك والارتباك والصراع؛ لأن الديكتاتور يزعم أنه يحل مشاكل كل الخاضعين له. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن توفر توتاليتاريا رادعًا رسميًّا ضد التعبير عن أكثر الدوافع المعادية للمجتمع بداخل الإنسان. وربما يرحب الطفل الهمجي والمختبئ داخلنا بهذا التحرر من الإحباط الأخلاقي.

وعلى الجانب الآخر، لا يمكن أن تسعد شخصياتنا الحرة والناضجة والاجتماعية في دولة توتاليتاريا؛ فهي تثور ضد القيود على الدوافع الفردية.

عادة ما تكون الجذور النفسية للشمولية غير عقلانية ومدمرة وبدائية، وإن كانت متنكرة خلف بعض العقائد الفكرية، ولهذا السبب هناك شيء مذهل لا يصدق وكابوسي حتى في هذا النظام نفسه. وبالطبع يوجد اختلاف في التجربة النفسية للنخبة الذين يمكنهم تحقيق حلم احتياجهم إلى السلطة، والجماهير التي يجب عليها الخضوع. ومع هذا فإن المجموعتين تؤثران على بعضهما. حينما تعمل الاحتياجات العصابية للسلطة المتغلغلة لدى الديكتاتور على إشباع بعض الاحتياجات الانفعالية أيضًا في سكان الدولة، خاصة في وقت البؤس أو بعد ثورة، تسهل قدرته على تقلد السلطة التي يتطلع إليها. وإذا عانت أمة ما من هزيمة في حرب، مثلاً، يشعر مواطنوها بالخزي والاستياء. وفقدان ماء الوجه ليس ببساطة فكرة سياسية مجردة، إنه أمر حقيقي وشخصي للغاية بالنسبة إلى الشعب الذي تعرض للغزو؛ إن كل شخص، سواء عن وعي أو بدون وعي، يتماهى مع أرض وطنه. وإذا كانت هناك دولة تعاني من مجاعة لفترة طويلة أو كساد اقتصادي حاد، يصبح أهلها في حالة امتعاض وإحباط واستياء، ويقبلون أكثر بإرادتهم الرؤى والوعود التي يعدهم بها الديكتاتور الطموح. وإذا كان تعقيد الأجهزة السياسية والاقتصادية للدولة يجعل المواطن يشعر بقلة الحيلة والارتباك وعدم الجدوى، وإذا لم يكن لديه أي شعور بالمشاركة في القوى التي تحكم حياته اليومية، أو إذا ما شعر بأن هذه القوى هائلة ومربكة للغاية إلى درجة أنه لم يعد في استطاعته فهمها، فسوف يتشبث

بفرصة الانتماء للشمولية من أجل المشاركة، ومن أجل معادلة أسهل تشرح وتضفي منطقًا على ما لا يمكنه استيعابه. وحينما يهيمن الديكتاتور في النهاية، فإنه يحول خيالاته الغريبة وسخطه وغضبه بسهولة على الخاضعين له. يغذي استياؤهم استياءه، وقوته الزائفة تشجعهم. إنه وضع من التعزيز المتبادل للأوهام.

إن الشمولية بوصفها ظاهرة اجتماعية مرض في العلاقات بين البشر، ومثل أي مرض آخر يمكن للإنسان مقاومة تأثيراته المستنزفة إذا ما جرى تحصينه جيدا ضده بالمعرفة والتدريب. ومع ذلك، إذا كان سيء الحظ بما فيه الكفاية ولم يستطع استيعاب آفة الشمولية، عليه أن يستجمع كافة القوى الإيجابية في عقله لهزيمتها. إن هذا الصراع الداخلي المستعر بين الطفل غير المسؤول والبالغ الناضج بداخله يستمر إلى أن يدمر أحدهما الآخر تمامًا. وطالما أن هناك شرارة واحدة متبقية لأي من الاثنين تستمر المعركة، وطالما أن الإنسان حي يستمر سعيه للنضوج.

الوقاية الثقافية من الشمولية

في هذه المعركة ضد ذلك المرض الشنيع، تلعب العوامل الاجتماعية بالإضافة إلى العوامل الشخصية دورًا مهمًا. ويمكننا رؤية هذا بوضوح أكبر إذا ما حللنا الطرائق التي تؤثر بها المثل العليا لثقافة ما إجمالًا على قابلية مواطنيها للشمولية. إن أخلاقيات حضارتنا الغربية نفسها هي أقوى دفاعاتنا ضد المرض؛ حيث إن المثل العليا لهذه الأخلاق هي إخراج نسل من الرجال والنساء الذين يؤمنون بالفردية بشدة، ويقيمون المواقف في الأساس بناءً على ضمائرهم. إننا نميل إلى تنمية حس من المسؤولية الشخصية بداخل مواطنينا؛ بحيث يكون لديهم استعداد لمواجهة العالم كما هو، وقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ بمشاعرهم وأفكارهم الخاصة. إن ما يدفع مثل هؤلاء الرجال والنساء إلى العمل هو معاييرهم الأخلاقية الشخصية، بدلًا مما تقره لهم جماعة خارجية بأنه الصواب. إنهم غير مستعدين لقبول مجموعة من القيم على الفور ما لم تتوافق مع قناعاتهم الشخصية، أو ما لم يكونوا قادرين على مناقشتها بطريقة ديمقراطية. ومثل هؤلاء الأشخاص

مسؤولون عن مجتمعاتهم؛ لأنهم مسؤولون عن أنفسهم في بادئ الأمر. وإذا ما اختلفوا سوف يشكلون أقلية مخلصة، مستخدمين حقوقهم في إقناع الناس في الأوقات المناسبة.

هناك ثقافات أخرى تؤكد على السلوكيات والقيم المختلفة عن هذه الثقافة. إن المثل الشرقية لدى الإنسان، كما نجدها في الصين وبعض البلدان الشرقية الأخرى، تعتمد في المقام الأول على التماثل؛ أن تكون متماثلًا مع العائلة ومتماثلًا مع الوطن، ومتماثلًا مع الكون – النيرفانا. إن النفس الشرقية تتطلع إلى تواصل جمالي مباشر مع الحقيقة، من خلال التعاطف والحدس الغامض، وحيث تكمن الحقيقة الخالدة وراء الواقع ووراء حجب المايا[54]. الإنسان جزء من الكون، ومثله العليا هي العبودية السلبية وعدم الانفعال. وتكمن مثله العليا عن السلام في الراحة والاسترخاء، وفي التأمل وفي ألا يكدح بدنيًّا وعقليًّا. كما تكمن سعادة النفس الشرقية في نشوة الشعور بالوحدة مع الكون. إن الزهد والتضحية بالنفس والبؤس مُثل معروفة في الثقافة الشرقية أفضل من معرفتنا بها في مجتمعنا الغربي. ويمكن وصف نمط الثقافة الشرقية التراثية على أفضل حال بوصفه نمط مشاركة؛ حيث يعتبر فيها الفرد جزءًا لا يتجزأ من الجماعة والعائلة والعشيرة والأمة. إنه ليس كيانًا منفصلًا ومستقلًّا. في هذه الثقافة، تكمن أعظم المثل العليا في اتباع القواعد الشاملة وتقبلها. وربما يدرب الطفل الشرقي منذ الرضاعة على نمط الخضوع للسلطة وعلى قواعد الجماعة. إن العالم الشمولي القائم على الأعمال الشاملة والأفكار الشاملة، يمكن استيعابه أكثر من أفراد الثقافة القائمة على نمط المشاركة والتفكير الفردي الأقل عما هي عليه بالنسبة إلى المؤمنين بالفردانية في الثقافة الغربية. فما يعتبر بالنسبة إلينا نظامًا صارمًا وسلطويًّا، ربما يعتبر بالنسبة إليهم نظامًا وترتيبًا مريحًا.

أحد الأمثلة على النمط المكثف للمشاركة والسيطرة على الأفكار والتجسس

54 - المايا Maya: القوة الخارقة للطبيعة التي تمارسها الآلهة والشياطين لإنتاج الأوهام. (المراجع)

المتبادل ضربها الأنثروبولوجي «إ. ب. دوزير» [نيويورك تايمز، 11 ديسمبر 1955؛ النشرة العلمية، 3 ديسمبر 1955]، من خلال إبراز أن شعب هنود بويبلو في منطقة ريو جراندي[55] يعتقدون أن الآثام والتفكير الخاطئ لأحد أفراد القبيلة يؤثر على كل أفرادها. وربما يختل كل التوازن الكوني إذا كانت لديه مشاعر سلبية تجاه أي أحد من أقرانه. إن القانون الأخلاقي للقرية يتمركز حول الجماعة. والفرد الذي يتجاوز هذا يخاطر بمصلحة الجميع. بالإضافة إلى ذلك، تفسر الأوبئة وتلف المحاصيل والجفاف على أنها نتيجة «انحراف» أحد أعضاء الجماعة. تتم مراقبة أبناء القرية عن كثب، ويجري التجسس عليهم لاكتشاف الآثم أو «الساحرة». كما تتفشى الوشاية والاتهام بأعمال السحر، وعلى الدوام يراجع المنتمون لهنود بويبلو في ضمائرهم بحثًا عن الأفكار والطباع المؤذية. إن الأمر أشبه بمشاهدتنا لطقوس التطهير في الدولة الشمولية. *[انظر الفصل السابع]*

يمكننا رؤية هذه الأشكال من الجماعية والمشاركة المتشابكة في تشكيل الجماعات التي لا وجود فيها للتسامح مع عدم الامتثال. أينما هيمن التحزب العقائدي، يتم قهر العقل. وربما نرصد كذلك مثل هذه الميول المتجاوزة في بعض الدوائر العلمية التي يوجد فيها تأكيد مبالغ فيه على بحث الجماعة، والعمل الجماعي، وبطاقات العضوية، وازدراء رأي الفرد.

إن الثقافة التي يولد فيها الإنسان ويتفاعل فيها تكوينه النفسي لينتج شخصيته، تشبه كثيرًا الطريقة نفسها التي يتفاعل بها جسده وعقله لإنتاج سلوكه. ربما تقدم لنا ثقافة الحرية الفردية مناعة جزئية ضد مرض الشمولية، لكن، في الوقت نفسه، ربما يجعلنا عدم النضج الشخصي والوحشية المكبوتة عرضة له. إن نوع المشاركة في

---

55 - إدوارد ب. دوزير E. P. Dozier (1916 - 1971): أنثروبولوجي أمريكي.

- هنود بويبلو Pueblo Indians: من شعوب أمريكا الشمالية، يعيشون في مستوطنات دائمة تُعرف باسم بويبلو. يعيش معظمهم في شمال شرق ولاية أريزونا وشمال غرب نيو مكسيكو.

- ريو جراندي Rio Grande: منطقة اجتماعية ثقافية عابرة للحدود، تقع في سهل فيضان يصب في نهر ريو جراندي قرب مصبه. تضم أقصى الطرف الجنوبي لتكساس، وجزءا من شمال المكسيك. (المراجع)

الثقافة ربما يجعل الناس عمومًا عرضة أكثر للشمولية، مع أن المحاولات الشخصية للوصول إلى النضج والفردانية يمكن أن تعرض عليهم أيضًا بعض المعايير للحماية منها.

ونظراً للتفاعل بين هذه القوى الاجتماعية والشخصية، لا توجد ثقافة آمنة تمامًا من الهجمة الداخلية للشمولية ومن الإبادة العقلية التي قد تنشأ بسببها. وكما قلت من قبل، إن توتاليتاريا دولة خيالية، لكن الحقيقة المؤلمة أن أي دولة يمكنها أن تتحول إلى توتاليتاريا.

تتشكل أهداف حكام دولتنا الخيالية هذه ببساطة: الجبروت، والهيمنة الكاملة على الإنسان والبشرية، ووحدة العالم أجمع في ظل نظام سلطوي مستبد. من الوهلة الأولى، ربما تبدو فكرة الوحدة هذه شديدة الجاذبية – وهذه الفكرة تبسيط مخل لوحدة أخوية للأمم في ظل حكم إدارة قوية مركزية. وحينما يصبح العالم واحدًا سوف يبدو الأمر وكأنه لم يعد هناك المزيد من الحروب، وستستبعد التوترات التي تواجهنا، وتصبح الأرض جنة، لكن هذا المفهوم البسيط للمستبد العالمي مفهوم زائف يعكس الخطر الموروث في الهدف الشمولي: كافة البشر مختلفون، وهذا الاختلاف بينهم هو الذي يخلق العظمة والتنوع والطموحات المبدعة في الحياة، بالإضافة إلى توتر العلاقات الاجتماعية. إن مفهوم المساواة الشمولية يمكن استيعابه في الموت فقط، عندما تهيمن القوانين الكيميائية والفيزيائية التي تحكمنا جميعًا. إنه الموت المساوي العظيم.

إننا جميعًا مختلفون في هذه الحياة؛ إذ تتفاعل أجسادنا وعقولنا مع بعضها ومع العالم الخارجي بطرائق مختلفة، فلكل إنسان شخصية فريدة. وحقيقي أن كلا منا يتشارك في خصال بشرية أساسية مع كافة أفراد السلالة البشرية، لكن الاختلافات في الشخصية كثيرة للغاية ومتنوعة جدًّا إلى درجة أنه لا يوجد أي شخصين في أي مكان في العالم أو حتى في التاريخ الإنساني يمكن القول بتشابهها التام. وهذا التفرد حقيقي بالنسبة إلى مواطن توتاليتاريا مثلما هو الحال بالنسبة إلى أي شخص آخر.

إنه لا يختلف عنا لأنه إنسان فحسب، لكنه يختلف عن أبناء بلده. على أية حال، إن صناعة إنسان على الصورة الشمولية من خلال المساواة والتكافؤ يعني كبح ما هو شخصي وإنساني في صميم هذا الإنسان، ذلك التفرد والتنوع، وصناعة مجتمع روبوتات وليس مجتمعا من البشر. وقد عبر عالم الاجتماع المرموق «ج. س. برونر»[56]، في تقديمه لكتاب بوير حول **علم النفس السوفياتي**، عن هذه الفكرة بطريقة مختلفة: «إن تصور الإنسان لطبيعة الإنسان ليست مسألة تساؤل موضوعي فقط؛ لكنها كانت وستظل دومًا أداة رئيسة للسيطرة الاجتماعية والسياسية. إن من يصوغ هذه الصورة يفعل هذا مع عواقب هائلة على المجتمع الذي يعيش فيه».

تعزز توتاليتاريا وهم أن كل إنسان جزء من الحكومة، بوصفه **ناخبًا**؛ لا أحد يمكنه ألا يكون ناخبًا أو ضد الناخبين. إن إيجابياته وسلبياته وشكوكه الداخلية لم تعد مشاكل الفرد نفسه؛ إن أفكاره تنتمي إلى الدولة وإلى الديكتاتور وإلى دوائر الحكم وإلى الحزب، وأفكاره الداخلية يجب التحكم فيها. يعرف من في السلطة وحدهم ما يكمن بحق خلف السياسة القومية. وعليه، يصير المواطن العادي معتمدًا ومطيعًا مثل طفل. ومقابل التخلي عن فرديته، يحصل على بعض الإشباع الخاص: الإحساس بالانتماء والحماية، والشعور بالراحة لأنه أزاح من على كاهله الحدود والمسؤوليات الشخصية، ونشوة أنك مندمج ومستوعب في مشاعر شاملة طَلَقة وجامحة، وأمان أنك غير متميز، وأنك مجرد ترس في عجلة الدولة الجبارة.

إن هذا الحكم المطلق لدولة توتاليتاريا المعاصرة يختلف تمامًا عن المستبد الشهواني غريب الأطوار في العصور القديمة. إنها قوة متقشفة وباردة وآلية، تهدف إلى ما تدعوه **«حنة آرنت»**[57] **«التحول في طبيعة الإنسان نفسه»**. في دولتنا النظرية،

---

56 - جيروم س. برونر J. S. Brunner (1915 - 2016): عالم نفس أمريكي ساهم في تطوير علم النفس المعرفي ونظرية التعليم المعرفية في مجال علم النفس التربوي والفلسفة التربوية.

- بوير Bauer والكتاب المشار إليه: انظر هامشا سابقا. (المراجع)

57 - حنة آرنت Hanna Ahrendt (1906 - 1975): فيلسوفة أمريكية من أصول ألمانية. (المراجع)

لم يعد للإنسان أنا فردية، ولا شخصية ولا ذات. إنه نظام فعال يساوي بين الجميع، وأي شيء يعلو على المستوى العام يسحق ويهمل.

القائد الشمولي

إن قادة توتاليتاريا هم أكثر الناس غرابة في الدولة. إن هؤلاء الناس، مثل كل الناس، متفردين في تركيبتهم العقلية، وبالتالي لا يمكننا عمل أي تشخيص نفسي جامع للمرض النفسي الذي يحفز سلوكهم. لكن يمكننا عمل بعض التعميمات التي تساعدنا على الوصول إلى فهمٍ جزئي للقائد الشمولي. على سبيل المثال، من الواضح أنه يعاني من حاجة ماسة للتحكم في الأشخاص الآخرين، وفرض قوة بلا حدود؛ وهذا في حد ذاته انحراف نفسي، عادة ما يكون مرجعه إلى مشاعر راسخة بالقلق والإذلال وعقدة النقص. ومثل هذه العقائد الفكرية التي يقترحها أمثال هؤلاء ليست سوى وسائل نظامية وتخطيطية يأملون في الوصول من خلالها إلى هدفهم النهائي في الهيمنة التامة على الآخرين. وهذه الهيمنة تساعدهم على التعويض عن مخاوفهم المرضية والشعور بعدم الجدارة، حسب ما يمكننا استنتاجه من دراسة نفسية عن بعض الطغاة المعاصرين.

لحسن الحظ، لا يتعين علينا الاعتماد على صورة افتراضية كلية عن المرض النفسي لهذا الديكتاتور الشمولي. وقد أعطانا الدكتور «ج. م. جيلبرت»[58]، الذي درس بعض قادة النازية خلال محاكمات نورنبرج، فكرة مفيدة عن عقولهم الملتوية، وهي مفيدة خاصة لأنها تعكس لنا شيئًا ما عن التفاعل المتبادل بين القائد الشمولي ومن يريدون الانقياد تحت إمرته.

استحال علينا عمل كشف طبي على بنية شخصية «هتلر» بسبب انتحاره، لكن

---

58 - جوستاف مارك جيلبرت G. M. Gilbert (1911 - 1977): عالم نفس أمريكي اشتهرت بكتاباته التي تحتوي على ملاحظات عن بعض كبار القادة النازيين. (المراجع)

«د. جيلبرت» سمع عدة تقارير من شهود عيان عن سلوك «هتلر» من أصدقائه والمتعاونين معه، وهي تمثل صورة مذهلة عن المحرك الرئيس للنازية. كان «هتلر» معروفًا وسط المقربين منه بأنه كان يعض على يديه من الغيظ، وكان يلقي بنفسه على الأرض عادة، ثم يركل بأقدامه ويصرخ بغضب عارم. ومن مثل هذه التقارير، استطاع «د. جيلبرت» أن يستنتج شيئًا عن جذور السلوك المَرضي الذي كان يبديه هذا «العبقري» المعتل. إن عدائية «هتلر» المتسمة بجنون الارتياب تجاه اليهود كانت لها علاقة جزئية بصراعاته الأبوية التي لم تحل؛ فعلى الأرجح كان اليهود يمثلون بالنسبة إليه الأب السكير المكروه الذي أساء معاملته، ووالدته عندما كان الأب المستقبلي لا يزال في مرحلة الطفولة. إن تفكير «هتلر» المهووس، وتطرفه الشديد، وإصراره على الحفاظ على «**العرق الآري**»، وهوسه المطلق بتدمير نفسه والعالم كان من الواضح أنه نتيجة نفس مريضة. كان «هتلر» منذ عام 1923؛ أي قبل عشر سنوات تقريبًا من توليه السلطة، مقتنعًا بأنه سوف يحكم العالم يومًا ما، وأمضى وقتًا يصمم نُصُبًا تذكارية لانتصار يخلد مجده، حتى تشيد في كل أنحاء القارة الأوروبية عندما يحل يوم النصر. وقد استمر في هذا الانشغال الوهمي حتى نهاية حياته. وفي خضم الحرب التي نشبت بسببه، وأودت به إلى الهزيمة والموت، استمر «هتلر» في مراجعة مخططاته المعمارية وتحسينها.

وكانت البنية النفسية للديكتاتور النازي رقم اثنين، «**هيرمان جورينج**»[59]، الذي انتحر للهرب من حبل المشنقة، مختلفة. إن دوافعه العدوانية المرضية كانت تؤججها التقاليد العسكرية القديمة لطبقة الألمان اليونكر[60] التي تنتمي إليها عائلته. فمنذ نعومة أظافره كان عدوانيًّا بشكل قهري وصريح، وكان استبداديًّا متهكمًا فاسدًا، وانتهز الفرصة التي سنحت له بسبب النازية ليحقق مكسبا شخصيا

---

59 - هيرمان جورينج Hermann Goering (1893 - 1946): قائد عسكري نازي، ومؤسس الجهاز السري، وقائد قوات الطيران الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. (المراجع)

60 - اليونكر Junker: لقب كان يطلق على الإقطاعيين الأثرياء في بروسيا. (المراجع)

محضا. من هنا نجد أن ازدراءه «**لعوام الناس**» بلا حدود؛ هذا هو الرجل الذي لم يكن لديه حرفيًّا أي إحساس بالقيم الأخلاقية.

ويختلف عنهما قليلًا أيضًا «رودلف هس»[61]؛ ذلك الرجل الذي بالرغم من سلبيته إلا أنه كان لديه وفاء كلب متعصب، ويعيش إذا جاز التعبير بالوكالة من خلال عقل الفوهرر الحاكم له؛ حيث إن ضعفه العقلي الداخلي جعل من الأسهل عليه العيش من خلال وسائل الوكالة عوضًا عن العيش بشخصيته، مما دفعه ليصبح ظلًّا لشخص قوي ظاهريًّا، يمكنه استلهام القوة منه. لقد أعطت العقيدة الفكرية النازية لهذا الفتى المحبط وهم التماهي الدموي مع العرق الألماني المجيد. وبعد حربه الضارية في إنجلترا، ظهرت على «هس» أعراض ذهانية واضحة؛ هذاءات الاضطهاد، وهجماته الهستيرية، وفترات فقدانه للذاكرة من بين الأعراض الطبية المعروفة جيدًا في الفصام.

كما يوجد نوع آخر وهو «هانز فرانك»[62] محامي الشيطان، ذلك النموذج الأولي من الشخص المثلي الكامن والطموح، مما أغراه بسهولة المغامرة السياسية، حتى عندما كان هذا يتعارض مع ما تبقى لديه من ضمير. وعلى عكس «جورينج»، كان بمقدور «فرانك» أن يميز بين الخطأ والصواب.

يخبرنا «د. جيلبرت» بشيء أيضًا عن الجنرال «فيلهلم كيتل»[63]، رئيس أركان «هتلر»، والذي أصبح الناطق الآلي والخاضع للفوهرر؛ بحيث إنه خلط الشرف العسكري والطموح الشخصي لخدمة شعوره بعدم الأهمية.

---

61 - رودلف هس Rudolf Hess (1894 - 1987): كان سياسيًا ألمانيًا وعضوًا بارزًا في الحزب النازي في ألمانيا النازية. (المراجع)

62 - هانز فرانك Hans Frank (1900 - 1946): محامي ألماني عمل في الحزب النازي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وأصبح فيما بعد المحامي الشخصي لهتلر، وبعد وصول "هتلر" إلى السلطة أصبح "فرانك" الحاكم العام لإقليم في بولندا المحتلة، وقد أدين في محكمة نورنبرج بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، ونفذ فيه حكم الإعدام شنقًا. (المراجع).

63 - فيلهلم كيتل Wilhelm Keitel (1882 - 1946): مارشال ألماني ارتبط اسمه بألمانيا النازية والحرب العالمية الثانية. أعدم شنقًا. (المراجع)

وثمة شخص ذو طبيعة مختلفة وهو كولونيل سرب الحماية «رودولف هوس»[64]، والذي قتل الملايين في معسكر اعتقال **أوشفيتز** – Auschwitz. والبنية المرضية للشخصية واضحة في هذه الحالة. كان«هوس» طوال حياته شخصًا وحيدًا وانطوائيًّا وفصاميًّا، ليس لديه أي ضمير، ويتمرغ في خيالاته العدائية والمدمرة. ولأنه كان وحيدًا ومحرومًا من الروابط الإنسانية، أسند إليه «هيملر»[65] بحدسه أكثر أعمال النازية وحشية؛ كان أداة طيعة لارتكاب أكثر الأفعال وحشيةً.

لسوء الحظ ليست لدينا صورة نفسية واضحة بعد عن الديكتاتور الروسي ستالين. كانت هناك عدة تقارير خلال آخر سنوات حياته، وكان لديه هلع فظيع من الاضطهاد، وعاش في رعب دائم بأنه قد يصبح ضحية عمليات التطهير التي يقوم بها.

إن التحليل السيكولوجي لهؤلاء الرجال يظهر بوضوح أن الثقافة المرضية – عالم مجنون – يمكن بناؤها من خلال أنواع عصابية معينة مثيرة. إن الرموز السياسية القابلة للرشوة ليست بحاجة حتى إلى استيعاب العواقب الاجتماعية والسياسية لتصرفاتهم. إنهم ليسوا مجبرين بعقيدة فكرية مهما كانت مسوغاتهم لإقناع أنفسهم بأنهم كذلك، لكن ما يجبرهم هو تشوهات شخصياتهم. إنهم غير مدفوعين بحثهم المعلن لخدمة أوطانهم أو البشرية، لكنهم على الأحرى مدفوعين بالحاجة الماسة والقهرية لإشباع الحنين داخل بنى شخصياتهم المريضة. إن العقيدة الفكرية التي تنبثق منهم ليست لأهدافٍ حقيقية؛ لكنها وسائل تهكمية يأمل هؤلاء الرجال المرضى أن يحققوا من خلالها شعورًا شخصيًّا بالجدارة والقوة. إن الأكاذيب الداخلية المعقدة تغريهم للانتقال من سيء إلى أسوأ. خداع الذات الدفاعي،

---

64 - رودولف هوس Rudolf Hoess (1900 - 1947): أعدم شنقا بتاريخ 16 أبريل سنة 1947 على يد القوات الأمريكية في معسكر أوشفيتز بتهمة ما يسمى "جرائم حرب ضد الإنسانية" حسب المحكمة العسكرية الأمريكية. (المراجع)

65 - هاينريش هيملر Himmler (1900 - 1945): قائد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري المعروف بالجيستابو، أشرف على عمليات إبادة المدنيين في معسكرات الموت الألمانية. (المراجع)

وتوقف الاستبصار، والتملص من التماهي الانفعالي مع الآخرين، وتدهور التعاطف - إن العقل مليء بالعديد من آليات الدفاع التي تعمي الضمير. ويمكن رؤية مثال واضح في الطريقة التي دافع بها القادة النازيون عن أنفسهم من خلال التبرير الذاتي والتبرؤ المستمرين عندما وضعوا خلف القضبان في محاكمات نورنبورغ. وقد شعر هؤلاء القتلة بأنهم مضطهَدون ومتضررون نتيجة الاتهامات التي ألقيت عليهم؛ لقد كانوا بالضبط صورة للبراءة المجروحة.

إن أي شكل من أشكال القيادة إذا لم تخضع للتحكم والسيطرة، ربما تتحول تدريجيًّا إلى ديكتاتورية. أن يكون المرء قائدًا عظيمًا، يتحمل سلطة ومسؤولية عظيمة عن حياة الآخرين، اختبار عظيم للنفس البشرية. والقائد الضعيف هو الرجل الذي لا يمكنه النجاح في هذا الاختبار، الذي يتخلى ببساطة عن مسؤوليته. والديكتاتور هو ذلك الشخص الذي يستعيض عن معايير العدالة والأخلاق الحالية بالمزيد والمزيد من الهيبة الشخصية، وبالمزيد والمزيد من السلطة، وفي النهاية يعزل نفسه أكثر فأكثر عن باقي البشر. وتنمو شكوكه وتزداد عزلته، وتبدأ حلقة مفرغة من التصرفات المرتابة في الاتساع.

إن الديكتاتور ليس مجرد رجل مريض، لكنه أيضًا انتهازي شرس؛ فهو لا يري أية قيمة في أي شخص آخر، ولا يشعر بالامتنان للمساعدة التي ربما يحصل عليها. إنه مرتاب وغير أمين، ويعتقد أن غاياته الشخصية تبرر أي وسيلة ربما يستخدمها ليحقق هذه الغايات. لكن الغريب على وجه التحديد أن كل ديكتاتور ما زال يبحث عن بعض التبرير الذاتي؛ فبدون هذه الوسيلة الملطفة لضميره لا يمكنه العيش. إن سلوكه تجاه الأشخاص الآخرين متلاعب، وبالنسبة إليه هم مجرد أدوات لتقدم مصالحه الشخصية. إنه يرفض مفهوم الشك، والتناقضات الداخلية، والتناقض الفطري لدى الإنسان. وينكر الحقيقة النفسية القائلة بأن الإنسان ينمو إلى مرحلة النضج من خلال تلمُس الطريق، ومن خلال التجربة والخطأ، ومن خلال تفاعل المشاعر المتناقضة. ولأنه لن يسمح لنفسه بتلمس الطريق والتعلم من

خلال التجربة والخطأ، لا يمكن للديكتاتور أبدًا أن يصبح شخصًا ناضجًا. لكنه لديه، سواء اعترف بهذا أم لا، صراعات داخلية؛ إنه يعاني من ارتباك داخلي في مكان ما. إن «**مواطن الضعف**» الداخلية، التي يحاول كبحها بصرامة، إذا ما بدت ربما تتعارض مع تحقيق أهدافه. ومع ذلك، عند نوبات الغضب تصبح مواطن ضعفه هذه جلية.

ولأن الديكتاتور خائف، وإن كان بشكل لاشعوري، من تناقضاته الداخلية، إلى درجة أنه خائف من التناقضات الداخلية نفسها في رفاقه من البشر، عليه بالتطهير ثم التطهير، والإرهاب ثم الإرهاب لتهدأ دوافعه الداخلية الغاضبة. عليه أي يقتل كل بادرة شك، ويدمر كل شخص يقترف خطأً، ويسجن كل فرد لا يمكن إثبات أنه أحادي العقل تمامًا. في دولة توتاليتاريا، يستغل العدوان والوحشية الكامنة في الإنسان من الديكتاتور، إلى الدرجة التي يمكن بها أن تنفجر فيه لتصبح الأعمال الإجرامية الوحشية الجماعية التي ظهرت في اضطهاد "هتلر" للجماعات. في النهاية، يظهر في الدولة مرض حقيقي وهيمنة كاملة للميول التدميرية وتدمير الذات.

الاستسلام النهائي للإنسان الروبوت

ماذا يحدث للرجل العادي في مثل هذه الثقافة؟ كيف يمكننا وصف المواطن في توتاليتاريا؟ لعل أبسط إجابة على هذا السؤال تكمن في التصريح بأنه يتدهور إلى حالة الدقة الآلية الأشبه بحشرة؛ فلا يمكنه تطوير أية صداقات، أو إخلاص، أو ولاءات وطيدة لأنها ربما تكون بالغة الخطورة عليه. وفي النهاية ربما يصبح صديق اليوم عدو الغد. إنه يخشى، وهو يعيش في جو من الشك الدائم – ليس من الغرباء فحسب، لكن حتى من عائلته – من التعبير عن نفسه، وإلا زُجَّ به في غياهب السجون أو معسكرات الاعتقال. إن مواطني توتاليتاريا ربما يجاورون بعضهم فعليًّا. وعندما يتكلمون يتهامسون، وينظرون خلسة وراءهم أولاً بحثًا عن

جاسوس حتمي. وصمتهم الداخلي على النقيض تمامًا من القصف الشفهي الرسمي. ربما تصدر ضجة عن مواطني توتاليتاريا أو تفاهات بأدب شديد، أو قد يكررون شعارات على مسامع بعضهم، لكنهم لا يقولون أي شيء. إن الأدب المعاصر يكشف لنا أن المؤلفين الحاليين، ومن بينهم «هـ. ج. ويلز»، و«هكسلي»، و«أورويل»[66] ازداد لديهم القلق أكثر فأكثر من المستقبل المرعب الذي يتحول فيه الإنسان إلى الآلية؛ إذ يدرب كما الآلة على معايير من الامتثال. إنهم يفسرون لنا الخوف الشائع من الحضارة التي تحولت إلى الآلية.

في توتاليتاريا، لم يعد في وسع المواطن معرفة جوهر عقله الحقيقي، ولم يعد يشعر بنفسه بصفته ذاتًا أو أنا أو شخصًا، لكنه مجرد هدف لهذا الوابل الرسمي والقهر العقلي. ليست لديه شخصية مستقلة، وليس لديه ضمير فردي، وليست لديه أخلاق شخصية، وليست لديه قدرة على التفكير بوضوح وأمانة. إنه يتعلم بالحفظ عن ظهر قلب، يتعلم آلاف الحقائق التي يُلقَّنها، ويتشبع بالعقائد والشعارات مع استنشاق كل نفس، ويصبح شخصًا متحذلقًا ومطيعًا. والتحذلق يجعل الناس أشبه بأواني مليئة بالمعلومات، بدل أن يكونوا أفرادًا أحرارًا وشخصيات نامية. أن يصبح المرء أكثر حكمة وحرية فهذا ينطوي على نسيان اختياري وتغيير للعقل؛ وهذا أمر نقبله ونخلفه وراءنا. إن تعديل اليقظة يتطلب تغييرًا للأنماط، والقدرة على حل الارتباط الشرطي، وأن يمحو ما تم وينسى المرء ما تعلمه ليصبح جاهزًا للأنماط الجديدة. إن مواطن توتاليتاريا ليست أمامه أية فرصة للتعلم من خلال النسيان هكذا، وللنمو عبر التجربة الفردية. إن التبسيط المبالغ فيه والرسمي يحض الجمهور الأسير على التقبل والتلقين. وتستبدل النشوة الجماعية والتطرف الجماعي بفكرة وتدبر فردي هادئ. علم «هتلر» شعبه عمل المسيرات والمعارك، وفي النهاية لم يعرفوا مبرر مسيرتهم ومعاركهم. يصبح الناس قطعانًا – قطعانًا ملقنة ومهووسة –

---

66 - هربرت جورج ويلز H. G. Wells (1866 - 1946): روائي إنجليزي وكاتب قصص قصيرة. ألدوس هكسلي Huxley (1894 - 1963): كاتب إنجليزي. جورج أورويل Orwell (1903 - 1950): روائي إنجليزي. (المراجع)

فتسمم في البداية بالحماس والتوقعات السعيدة، ثم تسمم بالترهيب والرعب. لا يمكن للشخصية الفردية النمو في توتاليتاريا؛ حيث تروض القطاعات الكبيرة من الجماهير لتصبح مثل السائرين نيامًا على الصعيدين الشخصي والسياسي.

ربما يكون الأمر موضع تساؤل علمي إذا قارنا الخبرة المكتسبة من خلال الحالات المرضية الفردية مع الظهارة الاجتماعية، وتحليل انهيار الأنا انهيارًا جزئيًّا تحت وطأة الشمولية، مع تشبيه هذا بحالات الجنون الفعلية. لكن يوجد الكثير في الواقع مما يمكن مقارنته بين ردود الفعل الغريبة لمواطني توتاليتاريا وثقافتهم إجمالا من ناحية، وردود الفعل الفصامية الانطوائية المرضية على الجانب الآخر. مع أن مشكلة السلوك الفصامي في الأفراد والجماعات معقدة جدًّا ولا يمكن التعامل معها بالكامل في نطاق هذا الكتاب، يمكن أن تكون المقارنة مفيدة في بحثنا عن فهم طبيعة الشمولية وتأثيراتها.

التراجع العام عن الواقع

هذه الجولة في عالم الأمراض ليست وصفًا لمجرد تماثل بالصدفة بين مرض ونظام سياسي، بل يجب الاستفادة منها للإشارة إلى حقيقة أن الانسحاب الشمولي الذي يتعدى التبريرات الرسمية والخيال الفردي شيء يمكن حدوثه في الحياة الاجتماعية أو داخل عقل الفرد. ويعتقد العديد من المثقفين في العلاقة بين التدهور الثقافي والانسحاب الفصامي.

لنشرح بإيجاز ردة الفعل الفصامية للفرد بشأن الآلية الداخلية التامة، والانسحاب العقلي باعتباره إخفاقًا شخصيًّا في تعديل عالم استشعر أنه غير آمن وخطير. وكثيرًا ما تؤدي الأحداث الانفعالية البسيطة إلى مثل هذا التراجع الفصامي – على سبيل المثال، إقحام البرامج والعادات التي تفرض على العقل خلال فترة الطفولة، أو فرط الحساسية الخفي لثقافتنا النشطة للغاية والمستفيضة. إن العديد من الأطفال يجبرون على الانسحاب الفصامي من والد يقهرهم بشدة.

في بعض الأحيان ربما يدفع انعدام التواصل الخارجي الإنسان إلى حالة من الوحدة والعزلة التامة، وفي بعض الأحيان يفضل الانزواء. وهناك ميل معين إلى ما يدعى انسحابا فصاميا، وقد ثبت أنه غريزي في الإنسان، ومع ذلك يمكن أن يستثار في كل شخص. وبصرف النظر عن السبب، يصبح مريض الفصام كائنًا غير اجتماعي، ضائعًا في الوحدة. وتبدأ خيالات الحياة الشعورية واللاشعورية في الهيمنة على المواجهة اليقظة للواقع. في النهاية تصبح خيالاته الغريبة حقيقية من الناحية الفصامية أكثر من العالم الحقيقي، ويختبئ أكثر فأكثر خلف ستاره الحديدي، وفي أرض أحلامه الخيالية والتراجع الذي بناه لنفسه. تلك حالة النيرفانا التي تتحقق فيها كل رغبات أحلامه. يتناوب الخمول والتعصب، وينتكس المريض إلى أحد أشكال السلوك الطفولي المغيب؛ حيث يرفض كل ما تعلمه من المجتمع. في خيالاته يعيش في عالم يطيع أوامره على الدوام، إنه مهيمن، وينقلب العالم رأسًا على عقب وفقًا لرغباته الإلهية. تتطلب الحقيقة، مهما تكن، تعديلًا وتأكيدًا مستمرين ومتجددين، فتصبح اضطهادية تهاجم هذاءات قدراته الإلهية. من هنا، يواجه أي تدخل مزعج في العالم الهذائي للفصامي بعدوان شديد، أو بتكوين هذاء ثانوي يحمي الهذاء الأول، أو بخليط من كليهما. يبدي الفصامي عدائية هائلة تجاه العالم الحقيقي ومن يمثلونه؛ إن الحقيقة تسلبه هذاءات الهيمنة وهلوسة شعوره بالوجود الذي يحميه تمامًا، مثلما كان حاله داخل الرحم.

أظهرت الخبرة الإكلينيكية أن مرض الفصام يبدأ غالبًا بالسلبية – الدفاع ضد تأثير الآخرين، والكفاح المستمر ضد الإقحام العقلي، ضد ما يبدو وكأنه اغتصاب لهذا العقل مفرط الحساسية. وبالتدريج، يصبح هذا الموقف الدفاعي ضد العالم موقفًا عدائيًّا تجاه كل شيء، ليس فقط تجاه التأثيرات الخارجية، ولكن أيضًا تجاه الأفكار والمشاعر من الداخل. وفي النهاية، يصبح الضحية مشلولًا نتيجة عدائيته وسلبيته. ثم يتصرف حرفيًّا وكأنه ميت. فيجلس ساكنًا دون حراك لساعات. وربما يجبر على تناول الطعام ويجبر على لبس الثياب. يتحرك الفصامي مثل دمية مربوطة

بحبال، لا تتحرك إلا إذا أجبرت. ونحن نطلق على هذا إكلينيكيًّا اسم **التخشب** catatonia – موقف الموت.

التراجع إلى الآلية

يفضل مرضى الفصام الانطوائيون نمط الحياة الاعتيادي في المصحة عن الحياة في العالم الخارجي، بشرط أن يسمح لهم بالاستمتاع بخيالاتهم الخاصة. إنهم يستسلمون تمامًا للانهزام النفسي، ولا يتجمعون في مجموعات، ونادرًا ما يتحدثون إلى بعضهم؛ وحتى عندما يفعلون ذلك، لا يكون بينهم أي تواصل متبادل فعلي. يعيش كل واحد في ملاذه.

في الخرافة الشمولية – فكر مثلًا في الرايخ الثالث[67] – في الفلكلور السيكولوجي لدولتنا الأسطورية، نجد أن الفانتازيا الغامضة عن الرحم المثالي بشكل تقني، والنيرفانا تلعب دورًا كبيرًا. وفي عالم مليء بالمخاوف، عالم يتطلب تعديلًا دائمًا لليقظة وإعادة تعديلها، تخلق دولة توتاليتاريا وهم الدولة المهيمنة الإعجازية والمثالية – دولة عندما تكتمل في شكلها النهائي، تشبع فيها كل الحاجات المادية. فكل شيء مظلم فيها كما كان الحال بالنسبة إلى الجنين في الرحم، إنها أرض النعمة والاتزان، تمامًا مثل حال مريض الفصام في مستشفى الصحة النفسية. ليس هناك أي صراع اجتماعي أو صراع عقلي؛ يتحرك العالم مثل الساعة. لا يصبح هناك تفاعل حقيقي بين الناس أو صراع بين الآراء والمعتقدات، ولا توجد أية علاقة انفعالية بين رفاق الرحم هؤلاء؛ كل منهم عبارة عن كيان له رقم محدد في نفس نظام حفظ الوثائق. في دولة توتاليتاريا، لا يوجد أي إيمان بالرفيق في الإنسانية ولا حب للجميع، لا حب لأن العلاقات الحقيقية بين البشر غير موجودة، تمامًا كما أنها منعدمة بين مرضى الفصام. ثمة فقط إيمان بالنظام الذي يطعمهم وخضوع له، ويقبع داخل كل مواطن إحساس هائل بالخوف من أن يطرد

67 - الرايخ الثالث das Dritte Reich: بالألمانية في الأصل. (المراجع)

من النظام، خوف من ضياعه الشامل، مقارنة بالشعور بالرفض والخوف من الحقيقة لدى مرضى الفصام. وفي وسط الوحدة والعزلة الروحية، هناك الخوف من وحدة أعظم بكثير، من عزلة أكثر إيلامًا. فبدون الأحكام الوقائية من الخارج، ربما تفتح أبواب الجحيم الداخلي. يجب استخدام أمر خارجي آلي للتغطية على الفوضى الداخلية ومعالجة الانهيار.

لقد مررنا بتجربة في سنوات ما بعد الحرب مع العديد من اللاجئين من العالم الشمولي، الذين انهاروا عندما كان عليهم مواكبة عالم الحرية المطلوبة فيه المبادرة الشخصية. جعلهم الخوف من الحرية يصلون إلى مرحلة الهلع؛ إذ لم تعد الأنا قوية بما يكفي لبناء دفاعاتهم وصيانتها ضد المتطلبات التنافسية في الواقع الديمقراطي الحر. ومثلما هو الحال في الفصام، لا يمكن السماح بوجود الأنا المرنة والفردية في توتاليتاريا. في الفصام تتضاءل الأنا نتيجة الانسحاب، وفي توتاليتاريا نتيجة الاندماج المستمر في المشاعر العامة للناس. وإذا وجب نمو هذه الأنا المتضائلة، بهذا السلوك الحرج فيها، فإنها تكون في حاجة إلى تأكيد الحقائق من أجل الفهم، عندئذ سوف تنهار لأنها خائنة وغير متوائمة.

تطلب دولة توتاليتاريا من مواطنيها الخضوع التام للقائد والتماهي معه. إنه ذلك القائد المهيمن الذي يجعل الناس تقريبًا بلا أنا، مثلما هو الحال في مرض الفصام. وربما ينتج عن هذا فقدان للسيطرة على الدوافع العدائية المدمرة. لقد رأى علماء النفس في هذا الزمان، وفي زمان آخر، ما يمكن أن نطلق عليه نفسية معسكر الاعتقال. عندما أتى الضحايا للمرة الأولى للمعسكر – المخصص لإفنائهم بالتدريج – أبدى معظمهم حالة من الضياع تمامًا، واضطراب تبدد الشخصية المصحوب بالتبلد وعدم الإدراك. ظهرت الملاحظات نفسها بين أسرانا الحربيين في كوريا. أصبح بعض ضحايا معسكرات الاعتقال في حال أفضل على الفور بعد عودتهم إلى المجتمع الطبيعي، لكن ظلت ردة الفعل الفصامية هذه وفقدان الأنا ملازمة لآخرين، بل إن بعضهم كما ذكرنا من قبل أصيب في بعض الأحيان بذهان

حقيقي.

دولة الرحم

إن توتاليتاريا مهرب الإنسان من الحقائق المرعبة للحياة إلى الرحم الافتراضي للقائد. توجه تصرفات الفرد من هذا الرحم – من هذا الشيء المقدس الداخلي. المركز المبهم المتحكم في كل شيء؛ لم يعد الإنسان في حاجة إلى تحمل مسؤوليات في حياته الخاصة. إنه نظام ما قبل الولادة ومنطقه؛ حيث السلام والصمت، سلام الخضوع التام. إن أبناء دولة الرحم لا يتواصلون بحق؛ فثمة صمت بينهم، صمت الخيانة المحتملة، وليس الصمت الناضج النابع من الحذر والتحفظ. تزيد توتاليتاريا من الهوة بين الأشياء التي يظهرها ويوصلها شخص ما، وبين الأشياء التي يحلم بها المرء بسرية ويفكر فيها في أعماق نفسه. إنها تطور العقلية المنفصلة المصطنعة للصمت السياسي. ومهما كانت ضآلة الشعور والرأي الفردي، فإنه يبقى محفوظًا بحرص طي الكتمان. في عالم توتاليتاريا الفصامي، لا يوجد أي تبادل حر للآراء ولا محادثات ولا استفسارات ولا أي تنفيس عن حالة التوتر الانفعالي. إنه عالم من المتآمرين الصامتين. في واقع الأمر، إن أجواء الشك أكبر المهاجمين للحرية العقلية؛ لأنها تجعل الناس يلتصقون ببعض، ويتآمرون ضد أعداء وهميين – أولًا من الخارج ثم بينهم.

في توتاليتاريا يخضع كل مواطن للمراقبة على الدوام. تلك الدولة الخيالية تشكل ضمير الفرد، وبالكاد يكون لديه أي ضمير. إن جيرانه يراقبونه، وساعي البريد يراقبه، وأطفاله يراقبونه؛ وكلهم يمثلون الدولة المعاقبة مثلما يمثل هو نفسه الدولة ويراقب الآخرين. إن عدم خيانتهم جريمة.

إن الحاجة إلى العثور على مؤامرات واكتشاف المضطهدين والمجرمين أحد مظاهر الفصام الأخرى. إنها تتعلق نفسيًا بالحاجة الطفولية للشعور بالهيمنة. إن مشاعر جنون العظمة تنمو أكثر في أجواء السرية الغامضة.

وتزيد السرية والمؤامرة من هذاء القوة. ولهذا السبب يحب الكثير من الناس التنقيب في حياة الآخرين ولعب دور الجاسوس.

كما يكمن هذا الشعور بالمؤامرة خلف الصراع النفسي مع المضطهدين الخياليين، وهو صراع نجده في الأفراد المصابين بمرض عقلي، وفي دولتنا الخيالية توتاليتاريا. «إنه هنا!» «إنه يطاردنا!» تتفاقم كل المخاوف الداخلية من فقدان نيرفانا وهم الرحم. تطارد الناسَ أشباحٌ ونسور خفية لتخرجهم من هذه النيرفانا والجنة.

في هذه الفانتازيا يصبح البطريرك، والديكتاتور، والمعبود، الخطر الكوني والمنقذ القدير في نفس الوقت. لا يحب مواطنو توتاليتاريا بحق هذا العملاق المتوحش. إن الشك من الثدي الذي يطعم، واليد التي ترشد، وتمنع عادة ما نجده في فانتازيا الأطفال الفصاميين الذين يشعرزن بأن المغذي عدو، ذلك الغول المهيمن الذي يرشو العقل النامي كي يخضع.

إن الكراهية العميقة التي يشعر بها الفرد المريض تجاه الشخصية الأبوية لا يمكن التعبير عنها مباشرة، ولهذا تتحول إلى الذات أو إلى كباش فداء. وخلق كباش الفداء جزء من استراتيجية الدولة الشمولية. وكما أشرنا من قبل، يمتص كبش الفداء مؤقتًا كل الغضب والسخط الداخلي لدى الفرد. يمكن لأي من الكولاك[68]، والزنوج، واليهود، والشيوعيين، والرأسماليين، والمستفيدين والمتحمسين للحرب لعب هذا الدور. ربما أعظم المخاطر على العقل الشمولي هو استخدام الفكر والوعي ومطالب "المثقف" بالحرية، والتفكير المتدبر. يختار مواطن دولة توتاليتاريا الشذوذ عن المألوف والانحراف، مثلما هو حال نزلاء المصحات النفسية، بدلًا من اختيار الاجتهاد والسيطرة الفكرية.

في قلب المخاوف والفانتازيا الشمولية ينتصب الإله والمعبود الذي يلتهم الإنسان، ولا يُقهر، كما يستخدم موهبة البشر العظيمة على التأقلم لتحويلهم إلى العبودية. يجب أن يكون الانتماء إلى القائد من صميم وجدان كل إنسان وأفكاره.

---

68 - الكولاك Kulaks: فلاحون في روسيا، أثرياء بما يكفي لامتلاك مزارع وتشغيل العمالة. وقد ظهروا بعد تحرير الأقنان في القرن التاسع عشر، وقاوموا إجبار "ستالين" على العمل الجماعي، لكن تم اعتقال الملايين منهم، أو نفيهم، أو قتلهم. (المراجع)

هل مواطن توتاليتاريا يعي هذا؟ على الأرجح لا. وقد تعلمنا من علم النفس الحديث كيف تعمل الآلية العقلية بقوة على إنكار الحقيقة. تتجاوز العين الأحداث الخارجية حين لا يرغب العقل في حدوثها. وتتشكل التبريرات والفانتازيا الثانوية لدعم هذا الإنكار وتفسيره. في توتاليتاريا نجد ازدراءً للوقائع الحقيقية الذي نجده في الفصام؛ وإلا كيف يمكن أن نفسر حقيقة استمرار «هتلر» في تحريك جيوشه على الورق عقب هزيمتهم بالفعل؟

تغطي إستراتيجية توتاليتاريا الفوضى والصراع الداخلي، من خلال النظام الصارم للدولة البوليسية؛ وهذا ما يفعله مريض الفصام بشكل قهري، من خلال عمله الاعتيادي ونظامه الداخليين. هذا العمل الاعتيادي والنظام دفاع ضد الأحداث المؤلمة في العالم الخارجي. وهذا التحول للآلية داخليًّا ربما يؤدي إلى إنكار الحقائق الداخلية والحاجات الداخلية أيضًا. إن مواطن توتاليتاريا يكبح ويرفض حاجته الداخلية للحرية، وربما حتى يستشعر أن العبودية هي التحرير، وربما حتى يذهب إلى أبعد من هذا بخطوة إضافية – يحن إلى الهروب من الحياة نفسها؛ وهو هذاء يمكن أن يصبح مطلق القوة عبر الدمار التام. أطلق جنود القوات الخاصة على هذا الإجراء السحري معجون الدم؛ رابطة الجريمة الدموية التي تربطهم معًا وتعدهم لفالهالا.[69] وبهذه الوحدة السحرية، يمكنهم الموت في شجاعة ورصانة. هذا اليأس الفوضوي والحاجة إلى العظمة تبدلا بداخلهم مثلما يفعلان في مريض الذهان. وبالطريقة نفسها، يبحث مواطنو توتاليتاريا عن مكان "بطولي" في التاريخ، حتى لو كان الثمن هو الهلاك والدمار.

يتذكر الكثير من الجنود – بسبب تعبهم من صرامة الحياة العادية – اللحظات العنيفة في خبراتهم في الحرب، بغض النظر عن الجوع والرعب، على أنها ذروة الخبرات التي تتوج حياتهم. هناك، في أخوة[70] المقاتلين، شعروا بالسعادة للمرات الأولى

---

69 - معجون الدم Blutkitt: بالألمانية في الأصل. فالهالا Valhalla: في الأساطير الإسكندنافية قاعة المحاربين القتلى الذين يعيشون بسعادة تحت قيادة الإله أودين. تُصوَّر على أنها قصر رائع، مسقوف بالدروع. (المراجع)

70 - أخوة Bruderbund: بالألمانية في الأصل. (المراجع)

والوحيدة في حياتهم (دكس).[71]

يبدو هذا الأمر كله وكأنه كوميديا سوداء، ولكننا تعلمنا من فنتازيا مرضى الفصام كيف أن العقل يتراجع إلى الهذاء عندما يكون هناك خوف من الوجود اليومي. في ظل هذه الظروف، يسود الخيال على الواقع، وسرعان ما يصبح له مفعول لم يوجد في الواقع قط. إن العقل الشمولي مثل عقل مريض الفصام؛ يكنُّ ازدراء للواقع. فكر للحظات في نظرية ليسينكو[72] وإنكارها لتأثير الوراثة. العقل الشمولي لا يلاحظ ويتحقق من انطباعاته عن الحقيقة؛ بل يملي على الحقيقة الطريقة التي ينبغي أن تتصرف بها، إنه يرغم الحقيقة على الامتثال لفانتازياه.

إن المقارنة بين الشمولية والذهان ليست محض صدفة. إن التفكير الهذائي يتسلل حتمًا إلى كل شكل من أشكال الطغيان والاستبداد. إنها قوى متخلفة غير واعية تدخل حيز التنفيذ. عودة لقوى شريرة من ماضٍ فوضوي. نمو الإجبار التلقائي على اللجوء إلى تدمير الذات، لتبرير خطأ المرء بارتكاب خطأ جديد؛ لتزيد وتوسع من الحلقة المرضية المفرغة وتصبح النهاية المسيطرة على الحياة. ومن هنا يتراجع هذا الرجل الخائف الذي احترق من ثقافة لا يفهمها إلى فنتازيا الوحش عن القوة اللامحدودة للتغطية على الفراغ بداخله. وتبدأ هذه الفانتازيا مع القادة، ثم يستحوذ عليه لاحقًا الجماهير الذين يقمعونهم.

ماذا في وسع الإنسان أن يفعل عندما يعلق في هذه الآلة الهائلة التي تدعى توتاليتاريا؟ أصبح التفكير – والعقل نفسه – ترفًا، يُحتفظ به للصفوة فقط. على الإنسان أن ينبذ تفرده، شخصيته الفردية، وعليه الاستلام إلى الأنماط المتساوية والمتجانسة لما يدعى التكامل والتوحيد القياسي. وهذا يبعث فيه ذلك الخواء الداخلي العظيم للطفل المتوحش، وخواء الإنسان الآلي الذي يشتاق بلا وعي إلى الدمار العظيم.

---

71 - هنري فيكتور دكس Dicks (1900 - 1977): طبيب نفسي بريطاني، استند إلى خبراته في زمن الحرب لتطوير وجهات نظر حول الشخصية الاستبدادية وعلم الأمراض النفسية الجماعية للأنظمة الاستبدادية. (المراجع)

72 - نظرية ليسينكو Lysenko: حملة سياسية قادها العالم الروسي "تروفيم ليسينكو" (1898 - 1976) ضد علم الوراثة والزراعة القائمة على العلم في منتصف القرن العشرين. (المراجع)

الفصل السابع

الاقتحام بالتفكير الشمولي

من أجل التحري عن القوى الاجتماعية الفعالة التي تحد من النمو الفردي الحر لعقل الإنسان، علينا النظر في شتى جوانب الحياة السياسية. وبصفتي طبيبًا ومعنيًّا بشؤون الغير، لا أريد أن أحصر نفسي في دولة أو تيار سياسي معين، لكنني أريد أن أصف ما يمكن اختباره في الحياة الاجتماعية في كل مكان. وحيث يكون التفكير الإنساني والعادات الإنسانية في طور إعادة التشكل، يكون ذلك تحت تأثير اضطراب سياسي هائل. في إحدى الدول ربما يحدث هذا بين عشية وضحاها، وفي دول أخرى ربما يحدث ببطء أكبر. إن مهمة علماء النفس ملاحظة تأثير هذه العمليات على عقل الإنسان ووصفهم لهذا التأثير.

بمجرد أن تكون أمة تحت نير الشمولية، وبمجرد أن يستسلم شعب إلى التبسيط المفرط والمداهنات مع الديكتاتور المرتقب، كيف يمكن للقائد الحفاظ على سلطته؟ ما الأساليب التي يستخدمها لجعل مواطنيه أتباعًا منصاعين لنظامه الدموي؟

ولأن الذات الناضجة للإنسان تقاوم الشمولية، يجب على الديكتاتور أن يعمل ويخطط على الدوام للحفاظ على الخاضعين له في صف واحد ويشل حاجتهم للنمو الفردي والتمرد ونموهم الصحي. وأثناء دراستنا لأساليبه، سوف نصل إلى فهم

أفضل للشمولية والتفاعل بين وسائل الديكتاتور وشخصيات الخاضعين له. إننا في حاجة ماسة إلى هذا الفهم؛ لأن علينا استيعاب أن القوى الشمولية التي تحول بني البشر إلى روبوتات تفتقر إلى روح الدعابة يمكن أن تتطور أيضًا، وإن كان بدون وعي، فيما يدعى بالمجتمعات الديمقراطية الحرة.

استراتيجية الإرهاب

استخدم الطغاة سلاح الإرهاب من قديم الأزل لتحويل البشر إلى أدوات طيعة. في دولة توتاليتاريا يُحسن هذا السلاح ليصبح علمًا يمكنه أن يمحو كل المعارضة والمخالفة. يحكم قادة توتاليتاريا بقانون الترهيب؛ فهم يفضلون الولاء بدافع الخوف على الولاء بدافع الإيمان؛ حيث يجمد التخويف والإرهاب العقل والإرادة، وربما ينتج عنهما شلل نفسي عام. وبفضل الألم الذي يسببه الإرهاب الشمولي، يشعر الناس بأنهم منفصلون عن بعضهم كما لو كان بفراغ لا يمكن تجاوزه، ويصبح كل شخص روحًا وحيدة وخائفة. حتى المذعورون الذين يحومون معًا يمكن الشك فيهم على أنهم يتآمرون ضد الدولة. ويغدو المواطن في توتاليتاريا بدافع الانفصال عن أي تواصل انفعالي حقيقي مع أقرانه من بني البشر نتيجة عزلته الداخلية الخاصة، غير قادر بالتدريج على مكافحة تأثيراتها التي تجرده من إنسانيته.

إن توتاليتاريا متأهبة دومًا لرصد المخطئين الاجتماعيين، منتقدي النظام، والاتهام بالمخالفة موازٍ للإدانة في أعين العامة. إن التلميح والغيبة والنميمة هي الركائز الأساسية للاستراتيجية الشمولية. وكل الأمة تفترض بأن كل إنسان هو عدو للنظام؛ فليس هناك أحد مستثنى من الإرهاب، وربما يكون أي إنسان عرضة له مهما بلغت مكانته.

يخلق البوليس السري الفزع والهلع داخل الدولة، في حين يعمل الجيش على إثارة الفزع والهلع خارجها. إن مجرد نشر الإرهاب – حتى ولو كان إرهابا مستقبليًا

محتملًا – يجعل الإنسان غير قادر على التعبير عن آرائه والكشف عنها. إن مواطني توتاليتاريا ومواطني الدول المجاورة لها يتأثرون بهذا الخوف العام. ومثال واضح على كيفية عمل هذا الخوف المسبب للشلل في الحقيقة، والذي يمكن رؤيته في حقيقة أنه منذ عام 1948 اعتقد مواطنو أوروبا الغربية، الذين شعروا بظلال الاحتلال الشمولي المرتقب، أن انتقاد أصدقائهم الأمريكان ومهاجمتهم أكثر أمنًا لهم من العثور على عيوب في العدو الشمولي الذي ربما يجتاحهم فجأة وبدون إنذار.

في توتاليتاريا، تبنى أعداد كبيرة من السجون ومعسكرات الاعتقال لإثارة الخوف والرعب بين السكان. ربما يطلق عليها معسكرات «العقاب» أو «الإصلاح»، لكن هذا فقط مجرد تبرير رخيص للحقيقة. في مراكز الخوف هذه، لا أحد يجري إصلاحه فعليًّا؛ بل إنه إذا جاز التعبير يطرد من الإنسانية ويهدر ويقتل – لكن ليس بسرعة كبيرة، وإلا سينحسر تأثير الإرهاب. في واقع الأمر إن هذه السجون لم تشيد للمجرمين الحقيقيين، لكن بالأحرى لتأثيرها المثير للرعب على المتفرجين ومواطني توتاليتاريا. تمثل السجون ترهيبًا دائمًا، وتهديدًا مستمرًّا. إنها تفرض توترًا لا يحتمل على تعاطف أولئك المواطنين وخيالهم الذين يقفون ولو مؤقتًا على الجانب الخارجي من السلك الشائك. بالإضافة إلى الخوف من المرور بنفس المعاملة الوحشية والخوف من التحقير والإهانة والموت، يبعث مفهوم معسكر الاعتقال نفسه الخوف القابع داخل كل إنسان من أن يلفظ هو نفسه من المجتمع، ويصبح وحيدًا وهائمًا في الصحراء، مكروهًا ومنبوذًا.

هناك أشكال أخف من إرهاب الجماهير، على سبيل المثال، إستراتيجية لا راحة سياسية. في توتاليتاريا يطال الإنسان دائمًا بعض أشكال التخطيط الرسمي. إنه على وعي دائمًا بالسيطرة والمراقبة، وبالتجسس، وبالقوى الخبيثة التي تتربص في انتظار مطاردته ومعاقبته. حتى وقت الفراغ والإجازات يشغلها بعض البرامج الرسمية، وبعض الحقائق الواجب تعلمها، وبعض اللقاءات السياسية، وبعض عروض الجند. لم يعد هناك وجود للهدوء والوحدة. وليس هناك وقت للتأمل والتفكر

وتذكر أحداث الماضي؛ حيث يقع العقل فريسة في شبكة التفكير والتخطيط الرسميين. بل تمنع حتى بهجة الصمت النابع من اختيار ذاتي. على كل مواطن في توتاليتاريا أن يلحق بركب الغناء والهتاف بالشعارات. ويصبح محاصرًا بشدة في ذلك النشاط المستمر إلى درجة أنه يفقد القدرة على استيعاب ما يحدث له.

إن التأكيد على المزيد من إنتاج الأفراد والمصانع والمؤسسات الزراعية يمكن أن يصبح أيضًا سلاحًا لزيادة السيطرة والإرهاب. من هنا شكلت خطرا على الكثيرين حركة ستاخانوف في روسيا التي حثت على الزيادة المستمرة في معايير الإنتاج؛ حيث كان على العمال زيادة العمل والإنتاج، وإلا سوف يعاقبون بشدة. إن التأكيد على الوتيرة والسرعة تحول الإنسان شيئًا فشيئًا إلى ترس بلا روح في عجلة الإنتاج الشمولية.

غالبًا لا يمكن أن نقول إن الرعب لا يمكنه أن يتوقف؛ إنه يزدهر مع الامتثال وينمو في فراغ. إن الرعب بوصفه أداةً يعني التحول التدريجي إلى الرعب بوصفه هدفًا – لكن الرعب في الواقع إستراتيجية للانهزام النفسي. إن الإنسان يثور في النهاية حتى في ظل طغيان مطلق. عندما تحول توتاليتاريا البشر إلى دُمى، يصبحون محصنين في النهاية ضد كافة التهديدات. وفي آخر الأمر تفقد التعويذة السحرية للفزع قوتها؛ حيث يتحول مواطنو توتاليتاريا في النهاية إلى حالة من جمود الحس تجاه الإرهاب، ولا يعودون يخشون الموت حتى كمصدر للخطر. وفي نهاية المطاف، يشعل القليل منهم ثورة نهائية؛ لأن حكومة توتاليتاريا تعزز من التمرد الداخلي باستخدام التخويف، والرعب بداخل القلة الذين لا يمكن أن ينهاروا. وحتى في ظل تناغم[73] ألمانيا النازية، كانت توجد حركة مقاومة نشطة.

73 - تناغم gleichgeschaltet: أو تزامن، أو تجانس، بالألمانية في الأصل. (المراجع)

طقوس التطهير

تطهير الحكومة على أعلى المستويات عادة تاريخية قديمة. مثلاً، الصراع بين الآباء والأبناء، وبين الجيل الكبير والصغير، الذي تحول إلى طقوس في عصور ما قبل التاريخ. أخبرنا «جيمس فريزر»[74] في كتابه الكلاسيكي **الغصن الذهبي** عن جانب كبير من هذا الموضوع. اكتسب الكاهن الوثني القديم مكانته العالية بقتل أسلافه. وبمرور الزمن، كان الملك الذي توج للتو يقدم المجرمين بديلًا قرابين للآلهة في يوم صدور المرسوم المقدس.

في توتاليتاريا تعتبر طقوس القتل والتطهير جزءًا من آلية الحكومة، وهي لا تعمل رمزيًّا فقط، ولكن أيضًا باعتبارها وظيفة حقيقية للغاية للديكتاتور. عليه أن يستبعد كل من تجاوزهم وخدعهم في سعيه للوصول بشراسة إلى السلطة، وإلا اندلعت شرارة حنقهم وغضبهم الناتج عن خيبة الأمل، مما يعرض منصبه أو حتى حياته للخطر.

ويعكس التطهير سمة أخرى من الحياة في توتاليتاريا. إنه يضفي طابعًا مسرحيًّا على قصة أن الحزب متيقظ دائمًا ليبقي طاهرًا ونقيًّا. أوضح الطب النفسي أن التطهير القهري في الأفراد العصابيين هو في حقيقته دفاع بالإزاحة ضد غضبهم وعدائهم الداخلي. وهو يلعب الدور نفسه في المجتمعات، وعندما يصل إلى مستوى الطقس المعترف به رسميًا، فإنه يقلص المواطَنة إلى مرحلة الطفولة. ويجعل سكان توتاليتاريا يشعرون وكأنهم أطفال – مازالوا يتعسرون لتعلم أول عادات التدرب على استخدام المراحيض، ومازالوا يستمعون إلى أوامر آبائهم المتكررة بتنظيف أنفسهم، نظفوا أنفسكم، نظفوا أنفسكم، كونوا طيعين، كونوا طيعين، كونوا طيعين، كونوا أوفياء، كونوا أوفياء، كونوا أوفياء. هذا التكرار الدائم لتلك الأوامر يرسخ لدى كل مواطن الشعور بالذنب، وبالطفولة، وبالخجل.

---

74 - جيمس فريزر James Frazer (1854 - 1941): عالم أنثروبولوجيا إسكوتلندي؛ صدر كتابه **الغصن الذهبي** *The Golden Bough* في عام 1890. (المراجع)

يصاحب هذا التطهير الشمولي دومًا طقوس اعتراف تفصيلي، يتوب فيه المدان عن خطاياه علانية، مثلما فعلت كثيرات من ساحرات العصور الوسطى (س. ه. لي Lea). تلك هي المعادلة العامة: «أعترف بشكوكي. وبفضل انتقادات الرفاق، صار باستطاعتي أن أطهر تفكيري. وأنا أركع منكسرًا أمام رأي رفاقي والحزب، وأنا شاكر لهذه الفرصة لتصحيح أخطائي. لقد مكنتموني من التنصل من تساؤلاتي المنحرفة. وأقر أنني أدين للقائد المنكر لذاته ولحكومة الشعب».

لإستراتيجية التعبير عن العار علانية تأثيران: إنها تعمل مثل الطقوس التطهيرية نفسها، وتستثير أحاسيس الخضوع الطفولي بين الناس، وفي الوقت نفسه تقدم لكل مواطن دفاعًا ضد مشاكله النفسية المستقرة بداخله وأحاسيسه بالذنب وعدم الأهلية. في مكان ما بداخله، يعرف مواطن توتاليتاريا أنه تخلى عن نضجه ومسؤوليته؛ والتطهير العلني يخفف عنه الإحساس بالعار. يعتقد أن «الآخرين مذنبون وأقذار، وليس أنا. إنهم يتآمرون ويتواطؤون». لكن تلك الأشياء نفسها التي يشك في وجودها عند الآخرين تمثل حقيقته. إنه يخاف من خيانة الآخرين له؛ لأنه لا يمكنه التأكد في قرارة عقله من عدم خيانته لهم. ولهذا تزداد شكوكه الداخلية، ويوفر التطهير دماءً بشكل دوري لخوفه ولإله التهديد.

تلك الحقيقة ذاتها بأن هذا الطقس من الاعتراف الإجباري والتطهير يجب تكراره مرة تلو الأخرى تشير إلى أن الإنسان تنمو بداخله آلية دفاع نفسي ضد هذا الطقس، وأنه كلما استُخدم قلت فاعليته في أن يصبح وسيلة لإثارة الإحساس بالذنب والرعب. تمامًا كما يشعر مواطن توتاليتاريا بالتصلب أو التبلد من رعب الاقتحام الرسمي المستمر لحياته الخاصة؛ ولذلك يصبح محصنًا تقريبًا من صيحات اتهامه بالخيانة والتخريب.

وعلى المنوال نفسه، بينما يصبح التطهير أداة ترويض أقل فاعلية، يستخدمه الديكتاتور بتكرار أكثر للتقليل من مخاوفه. إن التاريخ يمدنا بالعديد من نماذج الثورات التي غرقت في النهاية في عهد من الرعب والتطهير، حتى إن بعض أكثر

أبطال الثورة الفرنسية المخلصين لها لاقوا حتفهم على مقصلة الجمهورية التي ساعدوا في إنشائها.

القذف بالباطل والسحر الأسود

القذف بالتهم والسحر الأسود، مثل أدوات الترويض الأخرى في توتاليتاريا، ليس بالشيء الجديد، لكن حرفة السحر الأسود في الحضارات البدائية وعصور ما قبل التاريخ كانت أكثر بساطة. كل ما كان على الدجال فعله فقط أن يدمر أو يشوه دمية صغيرة تشبه المجرم المدان، أو أن يشير أو يلكز الرجل نفسه بعصا خاصة، أو أن يلعنه ويوبخه بكلمات غاضبة وإيماءات ليجعل ضحيته ينهار ويموت. وفي ظل قبوله الأعمى هذا للطقوس السحرية، يستحوذ الخوف على الضحية، وعادة ما يستسلم للتعويذة ويموت (مالينوفسكي).

إن هذا الذبح السحري للعدو له آثار نفسية متعددة؛ حيث كان ينظر إلى ضحية التعويذة السحرية على أنه يمثل إله القَبيلة، السلطة الداخلية والأب، الذي يجب قتله لأن وجوده في حد ذاته يبعث الشعور بالذنب والندم بين الناس. وربما يخرس موته الأصوات الداخلية في كل إنسان، والتي تحذر من السقوط الوشيك. في بعض الأحيان يأتي الضحية من قبيلة مختلفة عن قبيلة من يتهمونه. وفي هذا الموقف، يكون الغريب كبش الفداء السهل، ومعاقبته تهدئ من صراع المشاعر المتناقضة في أفراد القبيلة القاتلة. إن كره الغريب يردع ويصد الكراهية والعدوان الذي يشعر به كل إنسان تجاه جماعته وتجاه نفسه. وكلما زاد الخوف في مجتمع ما، وزاد الإحساس بالذنب داخل كل عضو في المجتمع، زادت الحاجة لوجود كبش فداء داخلي وأعداء خارجيين. إن الارتباك الداخلي يبحث عن متنفس له في الحروب الخارجية.

في توتاليتاريا، يمتلئ الجو بالنميمة والاغتياب والشائعات، وأي اتهام حتى ولو كان زائفًا له عظيم الأثر على المواطنين أكثر من أي تسويغ له بعد ذلك. إن فواتير التفاصيل، المحاكاة ضد الأبرياء، خاصة ضد القادة السابقين الذين كانت لديهم

القدرة على زيادة بعض التقدير الشخصي والولاء بين أصدقائهم وأتباعهم. والتهم الملفقة ضدنا جعلتنا نُحيي دون وعي أحاسيس بالذنب وحثتنا على الارتعاش. وفي أثناء تحليلنا للقوى النفسية التي تؤدي بأسرى الحرب والضحايا السياسيين إلى الاعتراف والخيانة، شاهدنا إلى أي مدى كان الشعور بالذنب والشك الخفيين في كل إنسان يدفعانه تحت الضغط للاستسلام لمطالب العدو ومعتقداته الفكرية. وهذه الآلية نفسها تعمل دومًا بين مواطني توتاليتاريا. والاتهامات ضد الآخرين تذكر المواطن بتمرده وبأسه الداخلي، التي لا يجرؤ على الإفصاح عنه؛ وهذا حال المدان حتى حينما يكون بريئًا، يصبح كبش فداء بسبب شعوره الخاص بالذنب. وهذا الجبن يجعل المواطنين الآخرين في دولتنا الوهمية ينأون بأنفسهم عن الضحية، وإلا وضعوا أنفسهم موضع شبهة.

تكشف لنا حقيقة احتمال اغتيال الشخصية مدى هشاشة التعاطف والمشاركة الوجدانية لدى الإنسان وحساسيتهما. حتى في المجتمعات الديمقراطية الحرة، عادة ما تشن الحملات الشرطية في أجواء من الاتهامات الجزافية، وحتى اتهامات مضادة بالباطل. في اللحظة التي يبدأ فيها القذف بالباطل، بكل الضوضاء البغيضة الناتجة عن الذم والتشنيع، ننسى النية الإستراتيجية التي تقع خلف الكلمات، ونجد أنفسنا واقعين تحت رزح الصراخ والتنابز بالألقاب، فنقول لأنفسنا: «ربما في هذه القصة شيء ما». وهذا بالطبع كل ما يريده الواشي. في عقل السياسيين مازال مترسخًا وهم أن الغاية تبرر الوسيلة. لكن حملات الواشين تؤدي إلى نتائج متناقضة بسبب حقيقة أن الاتهامات التي ليس لها أي أساس من الصحة أضعفت الحس الأخلاقي لدى كل من المنصت والمتهِم.

هوس التجسس

في توتاليتاريا تصل هذه الحلقة المفرغة من الاغتياب إلى ذروتها. ومواطن توتاليتاريا الغارق في عهد الشكوك يعاني من هذاء فظيع بالاضطهاد – «**هوس التجسس**». إنه في حذر دائم، يراقب أقرانه. وربما يصبح جاره الطيب في أية لحظة

مخربا أو خائنا. قلما ينظر مواطن توتاليتاريا إلى الاضطراب أو العيوب في نفسه، لكنه يسقطها على كباش فداء – إلى أن يصبح هو نفسه في النهاية ضحية لهوس التجسس لدى شخص آخر. ويحاول كل مواطن على الدوام أن يبحث عن أعمق الأفكار داخل كل شخص آخر. لأن الأفكار الخفية للمرء تنعكس على جيرانه، ويصبح التفكير في حد ذاته هو العدو. وهذا الخوف العظيم من الأفكار الداخلية لإخوتنا في البشرية له علاقة بعملية إعادة تقييم عامة ومرتابة للعالم نتيجة الخوف والتفكير الشمولي. وفي إنكار الولاء البشري، وفي الهذاء الدائم بالخيانة والتخريب يتم التعبير عن كل طفولة أسطورة توتاليتاريا وإنكارها للعلاقات البشرية الناضجة.

من خلال التحقيق، واغتيال الشخصية، والإذلال، والإرهاب العقلي، والتثبيط – كما يحدث في غسيل الدماغ الفردي والجماعي – يمكن تثبيط الإنسان تمامًا إلى درجة قبوله بأي نظام سياسي. لم يعد سوى نكرة؛ لماذا ينبغي عليه معارضة الأمور؟ في توتاليتاريا لا توجد سياسة مفتوحة، ولا مناقشة حرة، ولا اختلاف نزيه في الآراء؛ لا توجد إلا الدسيسة والنميمة، وتأثيرهما المرعب على الجماهير.

لا تستخدم إستراتيجية القذف بالباطل فقط ضد المواطن الشمولي، لكن أيضًا ضد العالم أجمع. إن توتاليتاريا في حاجة إلى صور ذهنية لأعداء خارجيين – وحوش ضارية متخيلة تنشر الوباء والأمراض – لتبرير مشاكلها الداخلية. يتم تهدئة بقايا الوعي لدي المواطن، وتوضع تحت السيطرة بفعل هجمة جنونية ضد بقية العالم. «العدو يسمم طعامنا، ويلقي بالخنافس والبكتريا في محاصيلنا». هذه الأسطورة عن مؤامرة عالمية خيالية تهدف إلى جعل مواطني توتاليتاريا الخائفين يدافعون بإيقاع واحد ضد أخطار ليس لها وجود. وهي تخفي في الوقت نفسه المخاوف الداخلية التي تؤدي إلى تقلص إنتاجية المحصول ونقصان الطعام. من هنا يعزز إلقاء اللوم على الآخرين هذا من حس المشاركة داخل كل مواطن في المجتمع الشمولي، ويهدئ من الأصوات الداخلية المتذمرة التي تطلب منه التصرف كفرد

تقع على عاتقه مسؤولية شخصية. وأسطورة التآمر الخارجي تزيد أيضًا من شعور المواطن بالاعتمادية وعدم النضج. والآن يمكن لقائده الديكتاتور وحده حمايته من العالم الخارجي الشرير – عالم يوصف له بأنه حديقة حيوان شاسعة، تقطنها تنانين ذرية ووحوش هيدروجينية.

استراتيجية التجريم

كما قلنا من قبل، يجب أن يكون مواطن توتاليتاريا قادرًا على تحقيق بعض احتياجاته غير العقلانية والغريزية، مقابل خضوعه للعبودية الشمولية. علمتنا ألمانيا في عهد «هتلر» النمط المقبول. يشجع المواطن (وعضو الحزب) على خيانة أصدقائه وآبائه، وهو شيء دائمًا ما أراده الطفل الغاضب والمحبط بداخله. ربما يتخلى عن عدائه المكبوتة في أعماقه ورغبته في الانتقام. لم يعد مفروضًا عليه أن يكبح أو يرفض بعض دوافعه الفطرية. إن النظام يحمل على عاتقه عبء ذنبه كاملًا، ويسلمه قائمة بآلاف التبريرات والحجج لينفس بها عن دوافعه السادية. إن الشعارات الزاهية مثل «**الضرورة التاريخية**»، تساعد الفرد على تبرير انعدام الأخلاق والشر وتحويلهما إلى أخلاق وخير. ونحن نرى هنا الفساد العظيم في المعايير المتحضرة.

في إستراتيجية التجريم، يدمر الديكتاتور الشمولي ضمير أتباعه، مثلما دمر ضميره. فكر في الأطباء النازيين ذوي التعليم الرفيع والمرموقين الذين بدأوا حياتهم المهنية بقسم أبقراط، واعدين بأن يكونوا الشافي المساعد للإنسان، لكنهم بعد ذلك يسومون ضحايا معسكرات الاعتقال سوء العذاب بدم بارد (ميتشرلك)[75]. كانوا يذبحون الأبرياء بالآلاف من أجل اكتشاف الحدود الإحصائية لقدرة البشر على التحمل. لقد ألحقوا الأذى بآلاف الأشخاص الآخرين وكأنهم فئران تجارب لأن الفوهرر أراد ذلك. كما فقدوا تمامًا معاييرهم

75 - أليكسندر ميتشرلك Mitscherlich (1908 - 1982): محلل نفسي ألماني. (المراجع)

الشخصية وأخلاقهم، وبرروا كافة جرائمهم من خلال إرادة الفوهرر. وشجعتهم الشعارات السياسية على إخضاع ضمائرهم تمامًا للديكتاتور. إن عملية التجريم المنهج تتطلب محو ثقافة الناس، أو كما قال أحد أفراد عصابة «هتلر»: «**عندما أسمع كلمة 'حضارة'، أتحسس مسدسي**». وهذا يحدث حتى تبعث على الدوام غريزة الوحشية. يقولون للناس ألا يؤمنوا بالفكر والحقيقة الموضوعية، لكن أن يستمعوا فقط للإملاءات الذاتية من دولة مولك[76]، إلى «هتلر»، إلى «موسوليني»، إلى «ستالين».

التجريم يربط الناس شرطيًّا للتمرد ضد الإحباطات الحضارية، ويعرض لهم الدماء وكباش الفداء الدموية، وهنا تفلت منهم آلاف السنوات من التثقيف. وهذا يقتضي إشباع الناس بالهيستريا، تهييج الجماهير، وجعل المشاعر متجانسة. وكل هذا يهدف إلى إيقاظ النفس البشرية الوحشية البدائية داخل الإنسان. وتبرر الجرائم تحت ذريعة التفوق العرقي البراق، ثم التأكد من أن الناس سوف يتبعونك.

كان «هتلر» يعرف جيدًا ما يفعله حينما حول معسكرات الاعتقال النازية لتلبي النزوات الجامحة لقواته العاصفة. «دعهم يقتلون ويزهقون الأرواح»، كانت تلك هي الوسيلة. «ما إن يتعدوا حدودهم معي، يجب أن يصلوا إلى النهاية». إن إستراتيجية التجريم ليست موجهة فقط لتحطيم ضحية النظام الشمولي، لكن أيضًا لجعل الصفوة من الجلادين – عصابة الحكومة – يشعرون بذلك الإحساس بالقوة الذي يسحبهم أبعد شيئًا فشيئًا عن كل المشاعر الإنسانية؛ فيصبح ضحاياهم أناسًا دون هوية بشرية، مجرد قناعات ناطقة وروبوتات بدون أنا. إن إستراتيجية التجريم هي التنظيم المنهج للأهواء الدنيا لدى الإنسان، خاصة في هؤلاء الذين ينبغي على الديكتاتور أن يثق في أنهم أعوانه المباشرون.

تحت ضغط التفكير الشمولي، يتماهى كل المواطنين تقريبًا مع العصابة الحاكمة،

---

76 - مولك Moloch: الاسم التوراتي للإله الكنعاني المرتبط بتضحية الأطفال خلال النار أو الحرب. (المراجع)

ويجب أن يثبت العديد منهم ولاءهم بالقتل، أو على الأقل إبداء موافقتهم عليه. إن الملل الناتج عن النمط التلقائي للحياة في توتاليتاريا يؤدي بالمواطن المصاب بالهذاء إلى الترحيب بمغامرة الحرب والجريمة وتدمير الذات. فكل فعل جديد من أفعال التعذيب والجريمة يصنع روابط جديدة من الإخلاص والطاعة بلا ضمير، خاصة داخل العصابة الحاكمة. وفي النهاية ينبغي على الأعضاء الحاكمين المدفوعين بالجريمة والذنب أن يؤيدوا كل أفعال هذا النظام؛ لأن سقوطه يعني سقوط كل العصابة، القادة والأتباع. ويصح الشيء نفسه في عالم الإجرام. بمجرد أن يأخذ شخص ما الخطوة الأولى ويرفض قوانين المجتمع ويلتحق بعصابة إجرامية، يدخل في حرب مع العالم الخارجي وتقييماته الأخلاقية. ومن تلك النقطة يمكن أن تبتزه العصابة وتخضعه. مكتبة سُر مَن قرأ

في توتاليتاريا، تنمو دائرة تجريم المواطن المفرغة التي تكون فيها الوسائل غايات في حد ذاتها، لتصبح مؤامرة ساخرة تغطيها الراية الساخرة للمثالية الموقرة. يستخدم قادة الدولة كلمات بسيطة مثل «الحملة العالمية للسلام»، ويبتهج المواطنون ويفتخرون بهذه الكلمات. يعرف القليل منهم فقط الأفعال الخادعة التي تكمن وراء تلك العبارات البراقة.

هذه الانحرافات تدمج أيضًا في أسطورة قومية عظيمة – الرايخ الثالث والإمبراطورية الجديدة وجمهورية الشعب – إذ تقترن رغبة المواطن في فعل شيء بطولي بالعنف والجريمة. ويكون الدم سائلًا سحريًا وتصير إراقة دم شخص آخر عملًا فاضلًا يهب الحياة.

إن القتل بلا حدود الذي يمارس في الأنظمة الشمولية يتعلق بالمخاوف الراسخة اللاشعورية. في أي مجتمع يقتل الضعيف والمعتل انفعاليًا بدافع الخوف من أجل أن يستعير بطريقة سحرية قوة ضحاياه الأموات وسعادتهم – بالإضافة إلى ممتلكاتهم المادية بالطبع. إن قتل الملايين في أفران الغاز النازية كان جزءًا من هذه الأسطورة القديمة عن القتل. ربما اعتقد أفراد هذا العرق الرئيسي أن ذبح اليهود سوف

يضمن أن يتحمل الألمان الألم لعدة قرون مثلما تحمل ضحاياهم! إنه جزء من أسطورة بدائية قديمة بأن قتل شخص يقوي ويطيل أمد حياة القاتل نفسه. دعنا لا ننسى أن قوى العقل والفهم لدى الإنسان ضعيفة نوعًا ما. ومن الصعب التحكم في حريق الدوافع المتفجرة بمجرد أن تشتعل.

ينبغي على الشمولية أن تقتل وتذبح وتشن حربًا. من هنا تنشر توتاليتاريا الكراهية، ويعيش المتحدث باسم توتاليتاريا وحيدًا ومصابا بالهذاء و"رجلًا خارقًا" فظًّا، يدعو إلى الكراهية والظلم، ويثير النعرات المتطرفة، ولا يردعه أي شعور أخلاقي أو ندم. وصيحة الحرب التي يطلقها تعزز من قبضة الديكتاتور على الخاضعين له، لأن كل مواطن يتعلم من خلال ذنوبه أن يكره الضحية الذي تتسبب معاناته نفسها في تأجيج الإحساس بالذنب العميق لدى المجرم.

اللفظية والغموض الدلالي – إخضاع الناس بالكلام

بعد الحرب العالمية الأولى، أصبحنا على وعي أكثر فأكثر بسلوكنا تجاه الكلمات. وهذا السلوك كان يتغير تدريجيًّا. وتضعف ثقتنا بالشعارات والكلمات المعلبة وبالعناوين المثالية. أصبحنا على دراية أكثر فأكثر بحقيقة أن الأسئلة المهمة كانت عن ماهية الجماعات والقوى التي تقف خلف الكلمات، وحقيقة نواياهم السرية. لكن بطريقتنا السلسة عادة ما ننسى أن نطرح هذه الأسئلة، ونحن أكثر عرضة بشكل أو بآخر إلى الكلمات المزعجة والمكررة.

إن تشكيل الأكاذيب الدعائية الكبيرة والشعارات الاحتيالية له غرض محدد جدًّا في توتاليتاريا، وقد اكتسبت الكلمات نفسها وظيفة خاصة في خدمة السلطة، ويمكننا أن نطلق عليها اللفظية- verbocracy. إن الكذبة الكبيرة والشعارات الرنانة تربك في البداية مستمعيها ثم تغويهم، وتجعلهم مستعدين لقبول كل أسطورة مقترحة عن السعادة. إن مهمة الداعي الشمولي هي بناء صور خاصة في ذهن المواطنين حتى لا يصير بإمكانهم الإبصار بأعينهم والسماع بآذانهم لكنهم

سينظرون إلى العالم عبر ضباب الشعارات الرسمية، وستتطور لديهم استجابات تلقائية مناسبة للأسطورة الشمولية.

إن الاستخدام متعدد الأشكال للكلام المراوغ بمثابة هجمة على منطقنا؛ أي هجمة على فهمنا لحقيقة الديكتاتور الأوحد بحق. استمع واستمع إلى الهراء: "السلام حرب والحرب سلام! الديمقراطية طغيان والحرية عبودية. الجهل قوة! الفضيلة رذيلة والحقيقة كذب." هكذا قال وزير الحقيقة في الرواية **1984** الكئيبة لـ «جورج أورويل». وقد رأينا كيف تحول هذا الكابوس الخيالي إلى حقيقة عندما عاد إلى الوطن جنودنا الذين أمضوا سنوات طويلة في معسكرات اعتقال كوريا الشمالية، وكانوا يتحدثون عن الصين الشمولية بالشعار المبتذل «ديمقراطية الشعب». إن الارتباط الشرطي البافلوفي بكلمات خاصة يجبر الناس على التفكير المرتبط بهذه الكلمات. الكلمات التي نستخدمها تؤثر على سلوكنا في الحياة اليومية؛ إنها تحدد أفكارنا.

في توتاليتاريا يحل الخيال والتشوش محل الحقائق؛ حيث يتم تعليم الناس الكذب بمنهجية وعن عمد (وينوكور). يعاد تشكيل التاريخ، وتحاك أساطير جديدة لها غرضان: أن تقوي وتمدح القائد الشمولي، وأن تربك مواطن الدولة عديم الحظ. فكل المرادفات تملي مجموعة من الشعارات التي تنوم ببطء. وفي ضباب دلالات الألفاظ التي تتخلل هذه الأجواء، تفقد الكلمات وظيفتها في التواصل المباشر، وتصبح مجرد إشارات آمرة، وتطلق ردود فعل مليئة بالخوف والرعب. إنها صيحات حرب وإشارات بافلوفية، ولا تمثل التفكير الحر. تحولت الكلمة التي اعتبرت يومًا ما أول المكتسبات التي أبدعها الإنسان الحر، إلى أداة ميكانيكية. في توتاليتاريا ربما يكون للكلمات تأثير إغوائي، فتخفف على مستمعيها أو تسحرهم، لكن لا يسمح بأن يكون لها معنى جوهري. إنها ارتباط شرطي ومثيرة للمشاعر، وتعمل على ترسيخ أنماط ردود الفعل المرغوبة في مستمعيها.

إن الكسل العقلي لدى الإنسان، ومقاومته للمشقة التي تنطوي على التفكير

تسهل نسبيًّا على الديكتاتور في توتاليتاريا أن يسوغ الكذبة الكبرى للخاضعين له وأن يقبلوها. ربما يقول المواطن لنفسه في البداية: «كل هذا مجرد هراء – كلام مراوغ تمامًا»، لكن مع محاولة عدم المبالاة بهذا الأمر تحديدًا، يصبح خاضعًا لقوة الإيحاء الكامن؛ وهذه هي خدعة الكلام المراوغ، فما أن يتجاهل الإنسان تحليله وتحقيقه، يصبح تائهًا فيه ولا يعود بإمكانه رؤية الاختلاف بين الأساس المنطقي والتبرير. في النهاية، لم يعد يؤمن بأي شيء، ويتراجع إلى حالة من البلادة الكئيبة. وما أن يقبل مواطن توتاليتاريا «منطق» قادته، حتى لا يعود منفتحًا على المناقشة أو الجدال. للأسف، في عالمنا الغربي عادة ما يقابلنا هذا الزيغ عن الوضوح الدلالي. دعنا لا ننسى أن معركة الكلمات جزء من إستراتيجية الحرب الباردة في عالمنا.

ثمة شيء تسلل إلى نظام تواصلنا الآلي وتسبب في تدهور طرائق تفكيرنا. يكتسب الناس أفكارًا ومفاهيم بشكل عرضي. إنهم لا يداومون على الاجتهاد من أجل الفهم الواضح. وتحل الصورة الشعبية محل معركة إيجابيات المفاهيم وسلبياتها. وبدلًا من السعي إلى فهم حقيقي، يستمع الناس إلى تكرار يخلو من الأفكار، يمنحهم هذاء الفهم.

بل إن للتواصل كذلك سمة أكثر طفولية وسحرية على مواطن توتاليتاريا. لم تعد الكلمات تمثل معاني أو أفكارًا مفهومة، بل تربط مواطن توتاليتاريا بالاعتماد التام على قائده، مثلما يرتبط الطفل بصور الكلمات لوالديه.

إبادة الكلمة

يشير «بايفيلد- Byfield» في كتيبه عن **إبادة الكلمة** إلى أن الكلمات تستخدم عمومًا كأداة للثورة الاجتماعية. على السياسيين الذين يسعون إلى السلطة أن يصكوا مسميات جديدة وكلمات جديدة لها جاذبية انفعالية، «بينما تسمح باستمرار نفس الممارسات والمؤسسات القديمة كما كانت من قبل... تكون الخدعة استبدال صورة غير مرغوب فيها وإن بقت المادة كما هي. على الشموليين بالتالي أن ينسجوا

لغة كراهية لتقليب مشاعر الجماهير. لقد اختبرنا جميعًا كيف أن سلام الكلمة لم يعد يعني سلامًا، بل أصبح وسيلة دعائية لاسترضاء الجماهير وإخفاء العداء».

إن تأثير الألفاظ في التفكير الشمولي، وإبادة الكلمة الرسمي من الديماغوجيين يعمل على إزعاج عقل المواطن الحر وخنقه. ويمكننا القول إن إبادة الكلمة يمكن أن يحول المواطنين إلى ما يدعوه علم النفس جهلاء الرموز؛ إذ يكون الناس قادرين فقط على المحاكاة، وغير قادرين على الإحساس بالموضوعية والمنظور الذي يؤدي إلى الاستفسار والفهم وتشكيل أفكار الأفراد ومُثلهم. أو بتعبير آخر، يصبح المواطن الفرد ببغاء، يكرر الشعارات المعلبة والكلمات الدعائية بدون فهم لما تعنيه حقًا أو حقيقة القوى التي تقف وراءها.

إلا أن هذه الببغاوية ربما تعطي مواطن توتاليتاريا متعة انفعالية طفولية معينة. هيل، هيل! - ديوس، ديوس! - هذه الترانيم المتناغمة تقدم له نفس نوع المتعة الصوتية التي يحققها الطفل من خلال الثرثرة والصياح والصراخ.

كما نجد أن إساءة استعمال الكلمة وإثراء الدعاية أوضح في توتاليتاريا عن الأجزاء الأخرى في العالم. لكن هذا الشر موجود في كل الأنحاء. يمكن أن نجد الكثير من الأمثلة عليها في المحادثات الحقيقية؛ حيث يستخدم العديد من المتحدثين الاستعراض اللفظي للتغطية على خواء الفكرة، لتقليب العواطف وخلق حالة إعجاب وافتتان بما هو في جوهره خاوٍ وعديم القيمة. نحن مهددون بأن يصبح الصخب المسموع هو المثل العليا في عصرنا.

يتكثف غموض الدلالة في توتاليتاريا من خلال تنظيم المعلومات. إن مواطني هذه الدولة الخرافية ليس لديهم قدرة على الوصول إلى أي مصادر للحقائق والآراء، وهم ليسوا أحرارًا في التثبت مما يسمعونه أو يقرؤونه؛ إنهم ضحايا «هوس التصنيف» لدى قادتهم - إذ تحدد ماهيتهم وفقًا للتصنيف الرسمي الذي يطال كل شيء وكل شخص.

هذا الهوس بإضفاء الكثير من المعاني على التصنيف الخاص بشيء أو تكوين ما، والتطرق قليلًا إلى قيمته الجوهرية هو سمة عصرنا، ويبدو أنه يتنامى. أدعو هذه الحالة «هوس المسميات- labelomania»؛ إنه التقدير المبالغ فيه للأسماء التي يضفى عليها صفة علمية – المسمى والمدرسة والدرجة العلمية والدبلوم – مع عدم الاهتمام إلى حد مذهل بقيمتها الباطنية. نشاهد كلنا تقريبًا أشخاصًا يطاردون الشكليات والامتيازات والدرجات والمناصب وتصنيفات ثابتة؛ لأنهم يعتقدون أنه لنيل الهيبة والعرفان فإن هذه الدرجات المميزة تكون ضرورية. ومن أجل نيل القبول، فإن معظم الناس لديهم استعداد ليخوضوا أكثر التدريبات والشروط غير العملية والمهيئة على نسق معين – ناهيك عن النفقة – من مدرسة أو معهد خاص يروج لأسماء ودبلومات وواجهات متطورة معنية.

منذ أمد ليس ببعيد كان يوجد طبيب نفسي زميل يعمل في عيادة استخدمت فيها مصطلحات مختلفة، وكان يعبر عن أفكار مدرسيه السابقين بمصطلحات غير تلك التي تستخدم في العيادة؛ فكانت عُرضة للنقد، بل وتذم أيضا. كان زميلي معالجا عمليا جيدا؛ إلا أنه أصبح هو نفسه في حاجة إلى العلاج النفسي لمجابهة الارتباك التام الناتج عن تواصله اليومي مع خبراء عدوانيين يستخدمون مصطلحات مختلفة، بنفس قدر العلاج الذي احتاج إليه بعض جنودنا الذين أطلق سراحهم من معسكرات الاعتقال الكورية.

ثمة شيء كريه على وجه الخصوص في الحاجة إلى التعبير عن كافة الآراء والتقييمات والحكم عليها في الشعارات والتصنيفات المتعارف عليها. إنها تتضمن بخسًا للعمل أو الفكرة المتضمنة، ولا تعترف بالاختلافات البشرية المعقدة بين الناس والظاهرة التي تصفها كلماتهم. في توتاليتاريا، نجد أن الإنسان الذي ينتابه القلق، يخشى أي انحراف عن الآراء وطرائق التفكير الموصوفة، حتى إنه لا يسمح لنفسه إلا بالتعبير عن ذاته بالمصطلحات التي اعتمدها الديكتاتور. بالنسبة إلى

مواطن توتاليتاريا، يصبح المسمى المعترف به أكثر أهمية من الاختلاف الأبدي الذي هو سنة الحياة.

ومع فقدان الكلمات لوظيفتها التواصلية فإنها تكتسب وظيفة مخيفة وتنظيمية ومرتبطة شرطيًّا أكثر فأكثر؛ إذ يجب تصديق الكلمات الرسمية وإطاعتها، ويغدو التنافر والخلاف رفاهية بدنية وانفعالية، فيصبح التشنيع، والقوى التي تقف وراءه، هو المنطق الوحيد الجائز. أما الحقائق المناقضة للخط الرسمي فتشوه وتقمع؛ أي شكل من المرونة العقلية هو بمثابة خيانة. في توتاليتاريا ليس هناك بحث عن الحقيقة، لا يوجد إلا القبول الإجباري للعقائد والشعارات الشمولية. وأكثر هذه الأمور إثارة للخوف أنه بالتوازي مع زيادة وسائل التواصل، انخفض التفاهم المتبادل بيننا؛ فقد استحوذت حالة من الارتباك الأشبه بالضجة على العقول المسيسة وغير المسيسة نتيجة تشوش الألفاظ الدلالية والضجيج اللفظي.

جريمة المروق في توتاليتاريا

تُحوِّل توتاليتاريا الإنسان المفكر إلى مجرم؛ لأنه في دولتنا الخيالية هذه يمكن معاقبة المواطن على التفكير الخاطئ تمامًا كما يمكن معاقبته على الفعل الخاطئ. ولأن أعين البوليس السري المتربصة منتشرة في كل مكان، فإن انتقاد النظام يكون مدفوعًا بأساليب تآمرية إذا ما أراد المواطن مجرد إجراء مناقشة آمنة مع من يريد أن يثق فيهم. ما اعتدنا أن نطلق عليه «الإيماء النازي»؛ أي النظر بحرص حولك في كل الأرجاء قبل البدء في الحديث مع صديق.

يمكن للمجرم في توتاليتاريا أن يصبح كبش فداء بالصدفة، ويستخدم للتنفيس عن العدائية الرسمية؛ فهناك حاجة دائمًا لوجود كبش فداء. بين عشية وضحاها يمكن أن يغدو المواطن بطلًا أو شريرًا، حسب الاحتياجات الإستراتيجية للحزب.

إن كل المثل الناضجة للإنسانية جريمة في توتاليتاريا. الحرية، والاستقلال، والمرونة، والموضوعية – جميعها خيانات. في توتاليتاريا توجد جريمة جديدة؛

جريمة المروق التي ربما توصف بأنها الرفض العنيد للإقرار بالذنب المنسوب إلى الشخص. على الجانب الآخر، البطل في توتاليتاريا هو المذنب المتحول، النادم، الخائن المرتد، المجرم المعترف بذنبه، الواشي، الجاسوس.

أما المواطن العادي الملتزم بالقانون في توتاليتاريا، الذي لا يمكن أن يرقى لأن يكون بطلًا، يحتمل أن يكون مذنبًا في مئات الجرائم. إنه مجرم لو دافع بعناد عن وجهة نظره الشخصية، ويكون مجرمًا إذا رفض أن يصبح مشوشًا، ويكون مجرمًا لو لم يشارك بصوت عالٍ وبعنفوان في كافة الأعمال الرسمية؛ أما التحفظ والسكوت والانسحاب العقائدي فكلها خيانة. إنه مجرم لو لم يبدُ سعيدًا، لأنه حينئذ يكون مذنبًا بما أطلق عليه النازيون التمرد بملامح الوجه. ويمكن أن يكون مجرمًا بالمشاركة أو الانفصال، وبأسلوب كبش الفداء أو الإسقاط، وبقصد أو عن طريق الترقب. إنه مجرم لو رفض أن يصبح واشيًا. ويمكن أن يحاكم ويدان بمجرد احتمالية اتباعه لأي مذهب – الكوزموبوليتانية، أو عصبية ثقافية محلية؛ الانحراف أو الآلية؛ الإمبريالية أو القومية؛ المسالمة أو العسكرة؛ الموضوعية أو الذاتية؛ الشوفينية أو المساواة؛ العملية أو المثالية. إنه مذنب في أي وقت يكون فيه شيء ما.

وأسلم تصرف يجوز لمواطن توتاليتاريا أن يفعله يكمن في تنازله التام عن سلامته العقلية.

الفصل الثامن

المحاكمة بالمحاكمة

بالنسبة إلى محكمة التحقيق الخاصة لمشاة البحرية في واشنطن، التي كان عليها البت في إحدى قضايا غسيل الدماغ، طرح عليَّ سؤال بصفتي شاهدًا خبيرًا، إذا ما كان باستطاعتي شرح السبب الذي يجعل بعض الضباط الأمريكيين يخضعون بسهولة نوعًا ما للضغط العقلي الذي مارسه عليهم العدو.

كان ذلك في نفس الأيام التي كانت تحقيقات الكونجرس في بلدنا تجري فيها على قدم وساق. وبكل أمانة كان عليَّ الإجابة بأنه في بعض الأحيان يمكن للإيحاء بالإكراه، الذي تنطوي عليه مثل هذه التحقيقات، أن ينتج عنه ضغط مماثل على العقول الحساسة. يمكن ربط الناس شرطيًّا بالعديد من العمليات النفسية في الأجواء السياسية اليومية التي نعيشها.

ومع أننا حُذِّرنا من قبل بما يمكن للأساليب الشمولية فعله بالعقل، إلا أن هناك سببًا يجعلنا نحترس من إمكانية زعزعة قيمنا بفعل بعض مشاكلنا الخاصة.

نجح الديكتاتور الشمولي في تحويل أجهزة «العدل» لديه إلى أدوات للتهديد والهيمنة. وبينما اعتبر الاحساس المتزن بالعدالة يومًا ما أنبل أفكار الإنسان

المتحضر، إلا أن هذه المثل أصبحت تُزدرى بتهكم – مثل «هتلر» و«جوبلز»[77] – ويطلق عليها مشاعر اصطناعية تصلح فقط للضغط على الناس أو استرضائهم. ومن ثم تصبح العدالة في أيدي المحققين والقضاة الشموليين مهزلة، مجرد دعاية لإراحة ضمير الناس. ويساء استخدام قوى التحقيق لإثارة التحيزات والعداوات بين المتفرجين الذين تنتابهم حالة من التشوش الهائل في التفريق بين الصواب والخطأ.

لقد تعلمنا من الشموليين أن المحاكم والقضاة يمكن استخدامها أدوات للتحكم في الأفكار؛ ولهذا السبب ينبغي علينا دراسة كيف يمكن استخدام مؤسساتنا، سواء عن عمد أو بطريقة خفية، لتشويش مفهومنا عن الديمقراطية.

سقوط العدالة

بالنسبة إلى عالم النفس، ربما يكون أكثر الجوانب المثيرة للاهتمام في محاكمات التطهير بموسكو بين عامي 1936 و1938 هو الحس العميق بالصدمة الأخلاقية التي شعر بها الناس في جميع أنحاء العالم، الذي اهتزت ثقته في أساس العملية القضائية بسبب هذه التحريفات للعدالة. دائمًا ما كانت المناقشات حول هذه المحاكمات لا تهتم كثيرًا بسؤال الإدانة والبراءة للمتهم، أكثر من اهتمامها بالمحاكمات الصورية المروعة. في قرارة أعماق البشر يكمن الاعتقاد بأن القاضي هو مثال لرجل الحق المنصف، وأن اللجوء إلى المحكمة هو طريق الحقيقة، وأن القانون يسمو على الفساد والتدهور والانحراف. بالطبع ندرك أن القضاة ما هم إلا بشر مثلنا، وأنه يمكنهم اقتراف أخطاء تمامًا مثلنا، حتى إننا مستعدين لقبول الظلم المؤقت لأننا نعتقد أنه ستكون هناك تبرئة في النهاية، وأن حكم القانون سيبقى منتصرًا. وفي اللحظة التي تصبح فيها العملية القضائية ترهة، وعرضًا لترهيب

77 - جوزيف جوبلز Goebbels (1897 - 1945): سياسي نازي ألماني ووزير الدعاية في ألمانيا النازية من عام 1933 إلى عام 1945. كان معروفًا بمهاراته في التحدث أمام الجمهور، وبمعاداته الصريحة لليهود. (المراجع)

الناس، يتأثر شيء ما بعمق في روح الإنسان. عندما لا تكون العدالة عمياء، لكنها تضع عينها على الفرصة الرئيسة، نصبح خائفين ومتيقظين. إلى من يلجأ الإنسان إذا لم يجد العدل في قاعات المحاكم؟

خلال مسار العلاج النفسي، استدعي أحد مرضاي أمام هيئة المحلفين. وهذه التجربة زعزعته كثيرًا، لأن الادعاء في هذه القضية - على ما يبدو - كان أكثر اهتمامًا بالحصول على اعتراف من معرفة الحقيقة. إلا أن هيئة المحلفين كانت لها الكلمة النهائية، وبموجب حكمها أدانت إستراتيجية الادعاء؛ وقد كان قاضينا مستاءً للغاية. سألني: «ماذا حدث في القضايا الأخرى؟ لنفرض أن هيئة المحلفين لا يمكنها إدراك حقيقة سفسطة المحامي؟ لنفرض أنهم تأثروا بإيحاءاته وإصراره المستمرين؟»

في الواقع يمكن استخدام أي محاكمة سلاحًا للترهيب، ويمكنها أن ترهب هيئة المحلفين والشهود وكل العامة بطريقة معقدة. في توتاليتاريا، بعض المحاكم العليا موجودة فقط لتنفيذ وظيفة الترهيب هذه، وغرضهم أن يثبتوا لمواطنيهم، وللعالم أجمع، أن هناك قوةُ معاقبةٍ وتهديدٍ تتحكم في الحكومة، وأن هذه القوة يمكنها أن تستخدم السلطة القضائية لأغراضها الخاصة.

ربما يصبح التحقيق الرسمي الموضوعي سلاحًا للتحكم السياسي، ببساطة من خلال الإيحاءات التي ترافقه لا محالة. والرجل الذي يخضع للتحقيق يوصم بالعار ويلام تلقائيًا تقريبًا لأن شكوكنا تطعنه؛ فحقيقة أنه تحت التحري الدقيق تجعله مشبوهًا. ومن ثم، حتى ما يدعى «السلطة الديمقراطية للتحقيق» ربما يصبح سلطة تدمرية. علينا الاحتراس من هذا الخطر! إن طريقة القبول أو عدم القبول في التحقيق تغير بالفعل من تفكير الإنسان عن الحقائق.

أي إجراء قضائي، سواء أكان قانونيًّا أم تحقيقًا، يذاع صيته بين العامة، ويتسبب في بعض الضغط العقلي بين كل العوام. لا يقتصر نتاجه النهائي على المشاركين في الإجراء فقط، بل ربما يصبح المواطنون كافة متورطين عاطفيًا في الإجراءات. أي

تحقيق رسمي يمكن أن يكون مجرد استعراض للقوى أو إجراء للوصول للحقيقة. إن استعراض القوى، سواء من حكومة شمولية أو ديماغوجية عديمة الضمير، يمكن أن تكون له عواقب وخيمة. ففي قضية النيران بالرايخستاغ الألماني، ومحاكمات التطهير في موسكو، وإجراءات المحكمة ضد أسرى الحرب في الصين نجد أمثلة رئيسة للإجراء «القانوني» الذي يعمل على توحيد القوى السياسية للأشخاص عديمي الرحمة، والغرض منه إرباك المواطنين عديمي الحيلة. وهناك نية أخرى تتمثل في صدمة الرأي العام العالمي.

إذا ما نظرنا إلى الاستفسار القانوني من وجهة نظر كل من المشاركين فيه، سوف نرى بوضوح أكثر الأخطار التي علينا التحرز منها.

الديماغوجي مضطهِدًا ومنوِّمًا

تشير الأحداث الأخيرة في دولتنا بوضوح إلى أن الوسائل المستخدمة لتلبي رغبة السعي إلى السلطة سمة عالمية. وربما استبدل بالأقنعة السحرية القديمة التي كانت تستخدم لإخافة الناس استعراض للثقة المفرطة للقوى، من القوى الجسمانية "للبطل" المشكل اصطناعيًا على الشكل والهيئة التي تنال إعجاب العقول الطفولية، لكن ضجيج الدعاية الصاخبة مازال يرافقنا، وقد تضاعف آلاف المرات عبر الراديو والتليفزيون، ويعمل على ترهيب وتنويم المعاصرين لنا ممن هم أقل يقظة. ثمة قطاع عريض من الجمهور في كل أنحاء العالم، يشاهدون ويستمعون للديماغوجي وهو يلعب أدواره المختلفة – ملقي الاتهام الوفي، والضحية الشهيد، وصوت الضمير – وهذا الجمهور يلقى به مؤقتًا في حالة من الرعب، ويكون الأمر أشبه بالغفوة الناتجة عن غفلة الإنهاك عبر التكرار الرتيب للتهديدات والاتهامات والعبارات المبتذلة.

إن الديماغوجي، مثل الديكتاتور الشمولي، يعرف تمامًا كيف يلقي بتعويذته العقلية على الناس، وكيف يخلق نوعًا من الإيحاء الشامل والتنويم الشامل. ولا

يوجد أي اختلاف جوهري بين التنويم الفردي والشامل. يصبح الفرد أثناء التنويم – أشد أنواع الإيحاء – في حالة آلية مؤقتة على المستويين الجسدي والعقلي. تلك الحالة الطبية من الخضوع العقلي التي يمكن أن تنتاب الأطفال والبدائيين بسهولة، لكن يمكن إثارتها بداخل الراشدين أيضًا. وكان بعض أسرى الحرب في معسكرات الاعتقال الكورية يتدهورون إلى تلك الحالة تحديدًا.

كلما شعر الفرد بأنه جزء من المجموعة، كان من الأسهل أن يصبح ضحية للإيحاء الشامل. ولهذا السبب تكون المجتمعات البدائية، التي تكون على درجة عالية من التكامل والامتثال الاجتماعي، حساسة جدًّا تجاه الإيحاء؛ إذ يمكن للمشعوذين والسحرة أن يجعلوا قبيلة بأكملها تقع تحت تأثير تعويذاتهم.

معظم الجموع البشرية يمكن التأثير عليها بسهولة وتنويمها؛ لأن التوق والشوق العام يزيد من قابلية كل فرد في الجماعة للإيحاء. كل فرد لديه ميل للتماهي مع باقي المجموعة ومع القائد أيضًا، وهذا يسهل على القائد السيطرة على الناس في قبضته. أو كما قال «هتلر» في كتابه **كفاحي**[78]: «يمكن للقائد أن يعتمد على ازدياد خضوع الجماهير».

كان الترهيب والتخويف والإرهاب الوسائل القديمة المستخدمة للتنويم، ومازالت تستخدم من الطغاة والديماغوجيين. فالتهديدات والتهم غير المتوقعة، وحتى الخطابات المطولة والملل، ربما تستحوذ على العقل وتجعله يتدهور إلى حالة من التنويم. كما يوجد أسلوب سهل آخر، وهو استخدام كلمات لها إيحاءات خاصة، وتكرارها برتابة. أتريد أن تثير الشفقة على النفس! قل للناس إنه «تمت خيانتهم» وأن قادتهم هجروهم. ومن حين للآخر، يجب أن يضفي الديماغوجي على حديثه بعض المزاح؛ فالناس يحبون الضحك. كما يحبون أيضًا أن يتم إرهابهم وتجذبهم رقصة الموت تحديدًا. احكِ لهم قصصًا دموية واجعلهم يتجمعون معًا في

---

78 - **كفاحي** *Mein Kampf*: بالألمانية في الأصل. (المراجع)

توتر مثير؛ حيث يتوقع أن ينمو بداخلهم على الأرجح رهبة هائلة تجاه الرجل الذي يخيفهم، وسيكونون مستعدين لإعطائه فرصة ليخلصهم من هذا الهلع الانفعالي. وبدافع شوقهم للتحرر من خوفٍ، يكون لديهم استعداد للاستسلام تمامًا لخوف آخر.

حسَّن الراديو والتليفزيون من قوى تنويم الأصوات والصور والكلمات. يتذكر معظم الأمريكيين تمامًا ذلك اليوم المخيف عام 1938 عندما بث «أورسن ويلز»[79] خبرًا عن غزو قادم من المريخ، مما جعل مئات الأشخاص يهرولون إلى مأوى، فارين من منازلهم مثل الحيوانات المذعورة التي تحاول الهروب من حريق بغابة. كانت نشرة «ويلز» واحدة من أوضح الأمثلة لقوى التنويم الإيحائي الهائلة لمختلف وسائل الاتصال الإعلامي بالجماهير، ولمدى التأثير الهائل للنشرات الإذاعية السلطوية التي تبث هراءً على الأشخاص العاديين والأذكياء.

لا يتعلق الأمر فقط بتلك القوى الإيحائية لوسائل الإعلام التي تعطيها تأثيرها التنويمي، إن وسائل التواصل التقنية لدينا تجعل من الناس كتلة واحدة عظيمة مشاركة. حتى عندما أكون بمفردي مع الراديو، أكون متحدًا تقنيًّا مع الكتلة الجماهيرية الكبيرة للمستمعين الآخرين؛ أراهم في عقلي، وأتماهى معهم دون وعي، وبينما أنصت أكون متوحدًا معهم. ومع ذلك ليس لدي أي تواصل انفعالي مباشر معهم. ولهذا السبب جزئيًا، من سمات الراديو والتليفزيون أن يسلبا العلاقات الحيوية الحنونة بين بني البشر، وأن يدمرا القدرة على التفكير الشخصي والتقييم والتأمل. إنهما يخلبان العقل مباشرة ولا يعطيان وقتًا للناس حتى يجروا محادثات هادئة وجدلية داخل عقولهم، ومع أصدقائهم، أو مع كتبهم. إن الأصوات القادمة عبر الأثير لا تتيح تبادل الأحاديث والنقاش الحر الباعث على الحرية، ومن ثم ينتج

79 - أورسن ويلز Orson Welles (1915 - 1985): مخرج أفلام ومؤلف وممثل ومنتج أمريكي، عمل في مجال السينما والمسرح والتلفزيون والراديو. (المراجع)

عنها قبول سلبي أكبر – كما هو الحال في التنويم.

معظم الناس يحبون التنويم، ويتلهفون لأحلام اليقظة والتنويم المغناطيسي طوال فترة حياتهم؛ يمكن لهؤلاء الناس أن يقعوا بسهولة فريسة للإيحاء الشامل. يضعف الخطاب المطول أو الموعظة المملة المستمع ويجعلانه أكثر جاهزية للتعويذة الشاملة، أو أكثر سخطًا وتمردًا. كما أن الخطابات المطولة قوام التلقين الشمولي؛ لأن حالة الملل تخترق دفاعاتنا في النهاية، ونستسلم. من هنا استخدم «هتلر» أسلوب التنويم الشامل هذا برتابة إلى أقصى درجة لصالحه. وتحدث بإسهاب؛ بحيث يجعل خطاباته تتضمن سردًا مطولًا ومملًّا للإحصاءات.

إن الجلبة الناتجة عن الترهيب اللفظي المستمر للعامة أداة معروفة من أدوات الاستراتيجية الشمولية. ويستخدم الديماغوجي هذا الأسلوب الإيحائي أيضًا، بالإضافة إلى مناورة مخادعة أكثر، لمهاجمة الخصوم الذين يعتبرون عادة فوق مستوى الشبهات. وهذه المناورة عادة ما تقترن بدعوى متجددة للشفقة على النفس. «أربعة عشرة عاما من الخزي والعار»، كان ذلك الشعار الذي استخدمه «هتلر» ليقدح في الفترة شديدة الإبداع بين الهدنة عام 1918 والعام الذي استولى فيه على دفة القيادة. «عشرون عامًا من الخيانة»، كان ذلك هو الشعار المستخدم في دولتنا منذ وقت ليس ببعيد، ويبدو مماثلًا له إلى حد بعيد مثير للشكوك؛ وهو مماثل جداً لأي شخص راقب صعود «هتلر» وسقوطه.

إن أسطورة الطعن في الظهر هذه تجعل كل من يتأثرون بها يتضاءلون إلى درجة الشك الطفولي. وهذه الخطبة الملتهبة تهدف إلى إثارة ردود الفعل الفوضوية والعدوانية بداخل الآخرين. ولا يبالي الديماغوجي بالهجمات اللفظية المؤقتة على نفسه – حتى الذم يمكن أن يبهجه – لأن هذه الهجمات تجعله يتصدر العناوين الرئيسة، ويكون أمام أعين العامة دومًا، وربما تساعده على زيادة خوف الناس منه. من الأفضل له أن يكون مكروهًا ومرهوبًا عن أن يكون منسيًا! يزداد تأثير الديماغوجي بفعل المناقشات المطولة والمشوشة عن تصرفاته؛ فهي تعمل على شل

عقول الناس، وتحجب كلية المواضيع الحقيقية القابعة خلف هرائه المنطقي الذي يضللهم به. إذا ما استمر هذا الأمر لوقت كافٍ، يصير الناس في حالة باهتة ويستسلمون؛ إنهم يريدون النوم، ولديهم استعداد أن يفسحوا المجال "للبطل" الكبير كي يستحوذ. ويمكن أن تكون العاقبة هي الشمولية. في الواقع، راهنت النازية والفاشية على الخوف من الشيوعية باعتباره وسيلة للسيطرة على السلطة.

ما عايناه مؤخرًا في هذه البلد على الرغم من أنه بغير تخطيط، إلا إنه بلا شك مشابه بدرجة مخيفة للمرحلة الأولى من الهجمة الشمولية المتعمدة على العقل باستخدام الشعارات والشكوك. إن الجلبة العنيفة وذات الصوت الأجش تثير ردود فعل انفعالية عنيفة وتدمر السيطرة العقلية. عندما يبدأ الديماغوجي في الصراخ والهذيان، والتفسير الأقرب لنوبات الغضب لديه أنها برهان على إخلاصه ووفائه. لكن الأغلب أن هذه الإعلانات إثبات للعكس فحسب ومجرد جزء من إستراتيجية الديماغوجي الذي يسعى إلى السلطة.

هناك "وثيقة إرهاب" شمولية تناقش تفصيليًّا استخدام موجات الإرهاب المخطط لها جيدًا والمتتابعة لتجبر الناس على الخضوع. فكل موجة من الحرب الباردة المروعة تحدث تأثيرًا أكثر سهولة – بعد فترة راحة – عن الموجة التي سبقتها؛ لأن الناس مازالوا منزعجين من خبرتهم السابقة. تصبح الروح المعنوية متدنية أكثر فأكثر، وتشتد قوة التأثير النفسي لكل حملة دعائية جديدة؛ فتصل إلى العوام الذين أصبحوا لينين بالفعل. فنجد أن كل منشق خائف أكثر فأكثر عما هو في المعتاد. ولا يعود الناس مستعدين بالتدريج للمشاركة في أي نوع من المناقشة السياسية أو التعبير عن آرائهم؛ لأنهم استسلموا بالفعل من الداخل لقوى الطغيان المروعة.

علينا أن نتعلم معاملة الديماغوجي والديكتاتور الطموح في عقليتنا مثلما ينبغي علينا معاملة الأعداء الخارجيين في حرب باردة – بسلاح التهكم. الديماغوجي نفسه غير قادر تقريبًا على المزاح من أي نوع، وإذا عاملناه بسخرية، يبدأ في الانهيار.

إن السخرية في نهاية الأمر تتعلق بمنظور له حس ما. إذا كان بإمكاننا رؤية الكيفية التي يجب أن تكون عليها الأمور، يمكننا رؤية كيفية انحرافها، ويمكننا معرفة الانحراف عند مواجهتنا له. إذا ما وضعت تصريحات الديماجوجي في نصابها، فسوف نرى مدى تشوشها. كيف يحتمل أن نأخذها على محمل الجد أو نستجيب لها بجدية؟ لدينا أعمال أهم لتشغلنا – مسائل حياة أو موت لنا كأفراد ولأمتنا جمعاء. يعتمد الديماغوجي على فاعليته بناءً على حقيقة أن الناس سوف يتعاملون بجدية مع الاتهامات المذهلة التي يلقيها، وأنهم سوف يناقشون المواضيع الجهورية التي يطرحها وكأنها واقع، أو سوف يدخلون في تلك الحالة من الهلع بفعل الاتهامات والإدانات، وسوف يتخلون ببساطة عن حقهم في التفكير والتحقق بأنفسهم.

الحقيقة هي أن الديماغوجي لا يميل إلى كل ما هو عقلاني وناضج في الإنسان، لكنه يميل إلى أكثر الأمور غير العقلانية وغير الناضجة. ومحاولة الإجابة على هذيانه محاولة لفعل المستحيل. أولًا، إذا فعلنا هذا نقبل افتراضاته القتالية، ونجد أنفسنا محاصرين في جدال بالشروط التي اختارها. من السهل دومًا هزيمة عدو على أرضك وبشروطك. بالإضافة إلى ذلك، إما أن الديماغوجي غير قادر أو يتظاهر بأنه غير قادر على نوع المنطق الذي يجعل المناقشات والتوضيحات ممكنة؛ فهو أستاذ في تغيير المواضيع. نرتكب أكثر من مجرد جريمة لو تركنا أنفسنا لمجادلات لا نهاية لها ولا مغزى منها ولا مفر منها مع أشخاص لا تعنيهم الحقيقة والرخاء الاجتماعي والمشاكل الحقيقية، أكثر من اهتمامهم بلفت الانتباه بلا حدود والاستيلاء على السلطة لأنفسهم.

هل يوجد دفاع ضد الهجمات النفسية على الحرية؟ الناس بحاجة إلى المرح والإحساس الجيد أولًا، وأي موافقة مستمرة أو قبول صامت لأية إستراتيجية تبعث على الإرهاب ينتج عنها فقط انهيار نظامنا الديمقراطي، والارتباك يقوض الثقة. في أية دولة مثل دولتنا، يحق فيها للعامة المصوتين أن يستشفوا الحقيقة، تعتبر معرفة عامة للوسائل التي يستخدمها الديماغوجي لخداع أو إغواء العامة ضرورية

تمامًا.

المحاكمات أداةً للترهيب

يمكن لقابلية الإنسان للإيحاء أن تلقي على عاتقه مسؤولية، وعلى حريته الديمقراطية من ناحية مهمة أخرى. حتى وإن لم تكن هناك أية محاولة متعمدة للتلاعب بالرأي العام، فإن مناقشات الإجراءات القانونية الخارجة عن السيطرة، مثل المحاكمات السياسية أو الجنائية، في عناوين الصحف والأعمدة المناصرة للأحزاب تساعد على خلق مناخ انفعالي جمعي. وهذا يصعب على المشاركين مباشرة أن يحافظوا جيدًا على الموضوعية اللازمة من جانبهم، ويصدر عنهم أحكام وفقًا للحقائق بدلًا من الإيحاءات والخبرات الذاتية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن أية عملية قضائية تحظى بشعبية كبيرة ينتج عنها ضغط عقلي على العامة في المجمل. وبالتالي، يصبح المشاركون بل وحتى كل المواطنين في حالة انخراط انفعالي مع إجراءاتها. أية محاكمة يمكن أن تخضع لنفوذ السلطة أو تخضع للحقيقة، وربما يصبح التحقيق الموضوعي ظاهريًّا عبارة عن سلاح للتحكم ببساطة بتأثير الإيحاءات التي تصحبها حتمًا. يمكن أن يكون للمحاكمات عواقب مخيفة بفعل نفوذ الحكومة الشمولية. وما محاكمات التطهير في موسكو، وقضية الحريق بالرايخستاغ الألماني إلا مثالين بارزين على هذا.

بالطبع ليست لدينا مثل هذه المحاكمات الصورية المروعة في هذه البلاد، لكن ميلنا إلى تحويل إجراءاتنا القانونية إلى مقرات لعمل الصحف والراديو والتليفزيون، يضعف من قدرتنا على الوصول إلى العدل والحقيقة. وسيكون من الأفضل إذا أجلنا مناقشة مزايا أية قضية قانونية إلى ما بعد صدور الحكم.

كما رأينا بالفعل، يمكن إكراه أي إنسان على الاعتراف. وعملية إبادة العقل الوحشية ليست الطريقة الوحيدة للوصول إلى هذا الهدف؛ إذ يمكن اعتبار أن شخصًا ما مذنبا باتهامه فحسب، خاصة عندما يكون ضعيفًا جدًّا بشكل يجعله لا

يعارض تأثير الحنق الجماعي والرأي العام.

في ظروف الخوف غير الطبيعي والحكم المسبق، ربما يشعر البشر بالحاجة إلى كبش فداء أكثر من أي وقت مضى. وبالتالي، يمكن خداع الناس بسهولة بالاتهامات الزائفة التي تلبي حاجتهم إلى إلقاء اللوم على شخص ما. ومن ثم، كان ضحايا الغوغاء الذين حكموا بالإعدام عليهم بمثابة تضحية لإرضاء مشاعر الجماهير؛ وبالتالي يكون لديهم من يطلق عليهم خائنين ومتآمرين. بالنسبة إلى الرأي العام، تعد المحاكمة نفسها حكمًا «بالذنب».

تحقيق الكونجرس

في البداية دعني أقر بأنني أعتقد بشدة أن حق الكونجرس في التحقيق وفي اقتراح التشريعات على ضوء تلك التحقيقات أحد أهم أساليب حماية الديمقراطية. لكن مثلما هو حال أية مؤسسة بشرية أخرى، فإن حق الكونجرس في التحقيق يمكن التلاعب به وإساءة استخدامه. فربما تصبح سلطة التحقيق سلطة تدمير – ليس للرجل الواقع تحت الهجوم فحسب، لكن أيضًا تدمير السلامة العقلية لمن يشاهدون تلك التحقيقات بطريقة أو أخرى. يمكن لموجة تحقيقات الكونجرس الحالية أن يكون لها تأثير قهري على مواطنينا بطريقة خفية. إن بعض الشخصيات الديكتاتور لديها هوس بالحاجة المَرضية إلى التحقيق، وتحقيقات الكونجرس تجري لتنفذ أوامرهم. ويصبح كل من لا يتفق معهم أو لا ينحني ويخضع هو شخص مشتبه به، وعرضة إلى تشويه السمعة والسب. أما العامة فيميلون إلى عدم تصديق كل شيء يقوله خصوم الديماغوجي ويبتلعون دون انتقاد التصريحات الصادرة عمن يستسلمون إلى الشرر الذي يقدح من عينيه أو يتعايشون معه لأنهم يؤمنون بالأهداف التي يتظاهر بأنه يعمل على تحقيقها.

من المهم نفسيًّا فهم أن حقيقة أن المرء يجرى معه حوار أو خاضع لتحقيق أمر له تأثير قهري. بمجرد أن يخضع المرء لإعادة الاستجواب، ربما يشعر بالشلل نتيجة

هذا الإجراء ويجد نفسه يعترف بأفعال لم يقترفها قط. وفي البلد التي ينتشر فيها الدافع للتحقيق، ينمو فيها الشك وعدم الأمان. من هنا ينتاب كل شخص شعور بهيمنة المحقق. إن مراقبة المكالمات الهاتفية مثلًا له القوة نفسها؛ فهو التقاط لأسرار الآخرين.

في الدوائر النفسية تولى عناية كبيرة الآن لتأثير المقابلات والتحقيقات على الناس. وعلى من يقوم بالمقابلة النفسية أن يدرك هو نفسه مختلف عمليات التواصل مع الآخرين المتضمنة في مثل هذا النوع من التواصل؛ وإذا لم يفعل هذا، فلن يكون قادرًا على اكتشاف أين تكمن الحقيقة. لكنه يحصل بدلًا من ذلك على إجابات مذكورة ضمنًا في أسئلته، وهي أسئلة ربما لا تكون لها علاقة بالحقيقة الفعلية. ولا يحدث هذا فقط في الحالات التي يبدي فيها كل من مجري المقابلة والمريض سوء النية، بل يمكن أن تحدث بالرغم من إظهار أفضل النوايا؛ ذلك أن كل شخص يأتي إلى المقابلة النفسية يكون مجهزًا بكل خبرته في علاقاته التواصلية مع البشر من قبل. وفي «التجربة والخطأ» اللفظية الأولية، خلال ما يمكننا أن نطلق عليه فترة التعرف، يتأهب كل طرف ليكتشف ما يتوقعه منه الطرف الآخر، وأين تكمن مواطن ضعفه، وفي الوقت نفسه يحاول إخفاء نقاط ضعفه، ويؤكد على مواطن قوته. وإذا ما سئل الشخص السائر في الطرقات فجأة، يميل إلى الإدلاء بالإجابة التي يعتقد أن طارح السؤال يتوقعها منه.

إن كل محادثة وكل علاقة لفظية تكرر نمط العلاقات اللفظية المبكرة بين الطفل ووالديه بدرجة ما على الأقل. وبالنسبة إلى الرجل أو المرأة قيد التحقيق، يصبح المحقق هو الوالد، سواء أكان طيبًا أم شريرًا، ويكون في موضع شك أو خضوع. وبما أن المحقق نفسه لا يكون على دراية بالعملية اللاشعورية لديه عادة، يمكن أن تكون النتيجة معركة مربكة للاشعور أو الميول شبه الشعورية؛ حيث تكون الكلمات المنطوقة مجرد غطاء للحديث المغلف بالشك بين الطبقات العميقة للشخصيتين كلتيهما.

كل الناس الذين يخضعون للتحقيق الممنهج، سواء في المحكمة خلال التحقيق بالكونجرس، أو حتى عند التقدم لوظيفة أو إجراء فحص طبي، يشعرون بأنهم مكشوفون. وهذه الحقيقة في حد ذاتها تستثير سلوكيات عقلية دفاعية معينة. ربما تكون هذه السلوكيات مفيدة ووقائية، لكن في بعض الأوقات ربما تكون مؤذية للفرد. وعندما يبحث إنسان عن وظيفة مثلًا، ربما يكون لديه إحساس بالحماس الشديد، وفي خضم حماسته هذه «لإبداء انطباع جيد»، و«توطيد قدمه إلى الأمام» ربما يعطي انطباعًا سيئًا ويثير الشكوك. لأن الأمر لا يتعلق فقط بما نقوله، بل بالطريقة التي نقول بها الأشياء التي ربما تشير إلى أمانتنا واتزاننا. ربما تكشفنا الأصوات الانفعالية، أو الإيماءات، أو السكون، أو لحظات السكوت، أو التلعثم. وقد تغرينا الحماسة العدوانية لنقول الكثير، ويمنعنا الكبت من قول ما يكفي.

إن المتهم بموجب قرار محكمة أو تحقيق يكون في حالة دفاعية ليس ضد الاتهامات المنسوبة إليه فحسب، أو الأسئلة التي ينبغي عليه الإجابة عنها، لكنه يكون في حالة دفاعية أكثر حيال ذنبه اللاشعوري، وحول شكوكه في قدراته الخاصة. قال لي العديد من زملائي في الطب والطب النفسي إنه عندما كان يجري استدعاؤهم بصفتهم شهود خبرة في أثناء الإجراءات القضائية، كانوا يشعرون في اللحظة التي يخضعون فيها للاستجواب الدقيق بأنهم هم أنفسهم خاضعون للمحاكمة ومدانون تقريبًا. بدا لهم الاستجواب الدقيق أقرب إلى أحد أشكال القهر الانفعالي عن أن يكون طريقة للوصول إلى الحقيقة. وهذا هو السبب في أن كل نوع من سلطة التحقيق يمكن أن يصبح سلطة قهرية بسهولة. إن جعل الشهود والمدانين يعانون من مرحلة رعب حادة يمكن أن يكون سلاحًا مريعًا في يد الشمولية.

ولأن علماء النفس والأطباء النفسيين يقدرون هذه الحقائق، يوجد هذه الأيام ميل قوي في تلك الأوساط لاستخدام ما يمكن أن نطلق عليه تقنية سلبية في المقابلات النفسية. وبيان الأمر أنه عندما لا تكون أسئلة الطبيب الذي يجري المقابلة

غير موجهة للحصول على إجابة معينة، يتشجع متلقي الأسئلة للإجابة بمبادرة نابعة من رغبته الشخصية في التواصل. إن السؤال المحايد «ماذا فعلت عقب ذلك؟» يحفز على الإدلاء بإجابة أكثر حرية وأمانة عن سؤال «هل ذهبت إلى البيت بعد ذلك؟».

الشاهد وشهادته الموضوعية

لقد شاهدنا في السنوات الأخيرة مواكب طويلة للشيوعيين المتراجعين عن أفكارهم، الذين شهدوا بحرية وانفتاح عن ماضيهم. وفي الوقت الحالي، مازال لدينا نوع آخر من المواكب: مواكب المتراجعين عن تراجعهم. كيف يمكننا معرفة الحقيقة من الزيف في مستنقع الشهادة المتضاربة هذا؟ كيف يمكننا منع أنفسنا من أن نرتبك بعقل تضارب شهادات الرجال والنساء الذين يمكن لكلماتهم أن تؤثر في مسار إجراءات أمتنا؟ كيف يمكننا أن نتعلم تقييم ما يقولونه؟ من الناحية النفسية، إلى أي مدى يمكن الاعتماد على شهادتهم، سواء كانت ودية أو غير ودية؟

يمكننا القول عمومًا إن من يسرفون في الذم بتصريحاتهم لا يمكن عادة الاعتماد عليهم. وكثير منهم رجال ونساء تبنوا في الماضي أفكارًا عقائدية شمولية بدافع من حسهم العميق بانعدام الأمان الداخلي. ولاحقًا مرت عليهم لحظات شعروا فيها أن أفكارهم العقائدية خذلتهم. مع أنها كانت تأسر عقولهم بلا هوادة لفترة طويلة من الوقت، عند تلك المرحلة كانوا قادرين على التخلص من النظام تمامًا. وهذا ما فعلوه من خلال عملية إعادة ترتيب داخلية للملاحظات والقناعات القديمة. على أية حال، ما انسلخوا منه هو مجرد مجموعة من القواعد الفكرية الصارمة. ومعظمهم لم ينسلخ من الكره الخفي لديه وعدم الأمان المبكر إلى جانب هذه القواعد. ربما تخلوا عن معتقداتهم السياسية التي وهبتهم دفاعات وتبريرات، لكنهم تراجعوا عن سخطهم.

من الشائع جدًا أن تجد مثل هؤلاء الأشخاص يبحثون عن ملاذ فوري في بعض

المؤسسات الأخرى المنظمة بصرامة؛ لأنهم ينظرون إلى الأشياء في ظل ضوء مختلف. تكتسب الحقائق والمفاهيم القديمة أهمية مختلفة، إلا أنه يسري، طوال الوقت، الدافع الموجود دائمًا للتبرير الذاتي وتبرئة النفس، الذي يعتمل في كل البشر ويحفز في هذه الحالات الوفاء السابق للشيوعية. أما الآن فعليهم إثبات براءتهم وولائهم للأفكار المتبناة حديثًا. إن انفعالاتهم التي في قبضة جديدة الآن، مازالت تتجه إلى هدف التبرير الذاتي.

في عيني المرتد عن أفكاره، يكون المظهر الجديد - تلك الترتيبات الجدية للطلبات الداخلية وطرق إشباعها - منطقيًّا وعقلانيًّا مثلما كان حال مجموعة توقعاته وقناعاته السابقة. وها هو الآن يعيد اكتشاف عدة خبرات لم يعهدها منذ زمن بعيد. وأصبح أصدقاؤه القدامى أعداءَه؛ حتى إن بعضهم يعتبرون متآمرين، سواء كانوا كذلك أو لا. إنه نفسه غير قادر على التمييز بين الحقيقة والفانتازيا، بين الواقع والطلب الموضوعي. وبالتالي، ربما يصاب بتشوش كامل في المفاهيم والذكريات، وربما يخطئ حتى في استرجاع ذكرياته؛ وهذه العملية في معظمها لا يكون المرتد نفسه على دراية بها. أتذكر تمامًا أحد الأمثلة على هذا السلوك خلال الحرب العالمية الثانية. فقد صار أحد النازيين السابقين أحد الأفراد الشجعان في المقاومة ضد النازيين والمتخفين تحت الأرض؛ حيث سعى لتصحيح سلوكه، ليس بمكافحة النازيين فقط، ولكن أيضًا بنشر كافة أنواع الشائعات المثيرة للقلق حول أصدقائه القدامى. اعتقد أنه بجعلهم يبدون أكثر وحشية، يمكن أن يظهر نفسه وكأنه أكثر وفاءً.

وبالمثل، إن الإنكار والبيانات الكاذبة التي ربما تصدر عن المرتد أمام المحاكم أو لجان الكونجرس لا تكون عادة أكاذيب شعورية؛ حيث تكون نتاجًا لترتيبات داخلية جديدة. ربما يتلاعب المرتد بكل اتهام له عن ماضيه ليجعله أداة جديدة تستخدم في عملية التبرير الذاتي. والقليل فقط من هؤلاء الرجال لديهم الشجاعة الأخلاقية للاعتراف بأنهم اقترفوا أخطاء حقيقية في الماضي. وعادة ما يكون الفارق

ضئيلًا جدًّا بين كذبة بيضاء وبين النسيان الاختياري والكبت. اكتشفت هذا بنفسي بينما كنت أباشر تحقيقات مع أعضاء المقاومة الذين كانوا في أيدي النازيين، ووجدت أن من المستحيل تقريبًا الحصول على معلومات موضوعية منهم حول ما كشفوه للعدو بعد تعرضهم للتعذيب. وعندما كانوا يرفعون تقارير عن خيانتهم الإجبارية، كانوا على الفور يزينون قصصهم بكذب أبيض وتحويرات جانبية. وبناءً على إحساسهم بالذنب، كانوا يتهمون أنفسهم كثيرًا، أو لا يجدون أي خطأ على الإطلاق في تصرفهم.

حق التزام الصمت

نتيجة إجراء تحقيق لجان الكونجرس، حدثت مؤخرًا هجمة قانونية خطيرة على حق التزام الصمت عندما كان الإدلاء بالمعلومات يتضارب مع ضمير الشخص الذي على المنصة. يمكن أن تصبح هذه الهجمة غزوًا خطيرًا لخصوصية الإنسان وتحفظه. إن تقويض قيمة الشخصية والضمير الخاص خطيرة في الحفاظ على الديمقراطية بقدر تهديد العدوان الشمولي.

علينا إدراك أن من الصعب أحيانًا على الشهود أن يختاروا بين احتقار الكونجرس واحتقار الصفات الإنسانية. من الممكن أن يكتشف الإداريون بعض «الخونة» المزعومين بإجبار الشهود على خيانة أصدقائهم السابقين، لكنهم في الوقت نفسه يكرهون الناس على خيانة الأصدقاء، والصداقة إحدى أثمن ممتلكاتنا الإنسانية. أي حكومة أو إدارة يمكنها انتزاع الاعتراف تحت ستار «احتقار الكونجرس»، ويمكن للمعلومات أيضًا أن تجبر على خيانة الولاءات السابقة. ألا يمكن مقارنة هذا بما يفعله الشموليون المستبدون؟ وبأية تكلفة؟ إننا نحصل على تطهير زائف ناتج عن ضعف الشخصية وقلق الضحية. ونحن بالإضافة إلى ذلك ننتهك أحد المبادئ الأساسية للديمقراطية – احترام قوة شخصية الإنسان. إننا نصدق دومًا أن من الأفضل أن ندع عشرة أشخاص مذنبين على أن نشنق شخصًا بريئًا – وبعكس المفهوم الشمولي تمامًا الذي يفضل شنق عشرة رجال أبرياء عن

ترك شخص مذنب حرًّا. ربما نعاقب المذنب بإستراتيجية إجبار الإنسان على التحدث هذه عندما يحثه ضميره على أن يصمت، لكننا بكل تأكيد نحطم البريء بهدم ضميره. أكد قاضيا المحكمة العليا «دوجلاس» و«بلاك»، في رأيهما المعارض حول دستورية حصانة قانون عام 1954 [نيويورك تايمز، 27 مارس 1956. انظر الفصل الرابع عشر] ، على حق التزام الصمت لأنه حق دستوري مكفول بموجب التعديل الخامس من الدستور – وهي حماية للضمير الشخصي والكرامة الشخصية وحرية التعبير أيضًا. إنه أمر يتعدى نفوذ الكونجرس على إكراه أي شخص ليعترف بجرائمه، حتى وإن كانت الحصانة مضمونة.

إن حاجة المرء إلى عدم خيانة حلفائه السابقين – حتى وإن أخطأ في تقديره السياسي في عصر قل فيه الفهم – بالأهمية الأخلاقية نفسها للحاجة لمساعدة الدولة على تحديد المخربين. دعنا لا ننسى أن خيانة المجتمع متأصلة في خيانة الذات بإجبار الإنسان على خيانة مشاعره الداخلية ونفسه. إننا نسهل عليه في الواقع أن يخون المجتمع الأكبر في وقت ما مستقبلًا. إذا أجبر القانون الناس على خيانة شعورهم الأخلاقي الداخلي بالصداقة، حتى وإن كانت هذه المشاعر مبنية على ولاءات صبيانية، فإن هذا القانون نفسه يقوض نزاهة الشخص، ويبدأ الإكراه وإبادة العقل. يلعب ضمير الفرد دورًا كبيرًا في الاختيار بين المعارضة المخلصة والامتثال السلبي. على القانون أن يحمي الفرد أيضًا ضد انتهاك معاييره الأخلاقية الشخصية، وإلا خسر الضمير الإنساني في المعركة بين الضمير الفردي والقوة القانونية. يبدأ التقييم الأخلاقي بالفرد وليس بالدولة.

الابتزاز العقلي

أدى مفهوم غسيل الدماغ بالفعل إلى بعض الآثار القانونية، وأدت هذه الآثار إلى أوجه جديدة من الجريمة المتخيلة. من ناحية أخرى فإن التقارير عن غسيل الدماغ من الشيوعيين عن أسرى الحرب في كوريا والصين التي نشرت على نطاق واسع في الجرائد، أثارت القلق بين عامة الناس. وكما ذكرنا في الفصل الثالث، إن العديد من

مرضى الفصام والمحاربين على الحدود استوعبوا جيدًا مفهوم غسيل الدماغ الجديد تمامًا، واستخدموه تفسيرًا لنوع معين من الهذاء الذي يغضبهم – هذاء أنك واقع تحت تأثير. بعض هؤلاء كانوا، إذا جاز التعبير، يشعرون وكأن عقولهم فتحت من الخارج، عبر موجات الراديو أو بعض وسائل التواصل الغامضة الأخرى، كان يتم توجيه أفكارهم.

خلال السنوات الأخيرة، تلقيت العديد من الرسائل من أمثال هؤلاء المرضى يشتكون من شعورهم بالتعرض لغسيل الدماغ المستمر. تلاءم مفهوم القهر العقلي السياسي الجديد هذا مع منظومة الهذاءات لديهم. وقد طلب العديد من المحامين استشارتي للحصول على معلومات حول الموكلين الذين أرادوا مقاضاة غاسلي أدمغتهم.

نفس المفهوم المستخدم أعلاه لتفسير الشكوك المرضية، يمكن استخدامه بخبث لاتهام أي شخص يسدي النصيحة للناس أو يحاول التأثير عليهم ومقاضاته. في تلك اللحظات بالتحديد (خريف عام 1955)، ثمة كثير من الإجراءات القضائية المنعقدة التي أدين فيها المدعى عليهم بتهمة غسيل الدماغ من طرف ثالث. وهم متهمون بأنهم أشاروا على شخص ما بصفتهم المهنية، أن يفعل شيئًا ضد مصالح المدعي. يمكن للمحامي المخادع الآن أن يهاجم العلاقات البشرية المعقدة ويحولها إلى أمر فاسد. وذلك هو عين الشر الأزلي الذي يستخدم العطف ليس للتعاطف لكن للكراهية والهجوم. وفي تلك الأثناء يمكن للمتهم أن يسيء استخدام تردد الإنسان حتى يجعل هذه العلاقات البشرية في العلن. كما يمكن للمتهم أيضًا استخدام الموقف الغريب في الولايات المتحدة الذي يقتضي بأن البريء الذي كسب قضية في إجراءات المحكمة عليه أن يدفع نظير مساعدته القانونية. ومن الناحية العملية، هذا يعني أنه عندما يكون هناك مساءلة قضائية عويصة، عليه أن يدفع على الأقل ثلاثين ألف دولار قبل أن يتمكن من الوصول إلى المحكمة العليا – إذا كانت قضية متعلقة بالمحكمة العليا – والاستئناف مع أعلى أشكال العدالة في بلدنا.

وبسبب هذا الجانب الجديد، الذي تطور على مدار السنوات القليلة الماضية من موقف غسيل الدماغ، أصبحت مهنة الطب النفسي أكثر عرضة لهجمة غير منطقية. في إحدى القضايا، شعر الطرف الثالث بالضرر جراء المعاملة النفسية التي جعلت المريض أكثر استقلالًا في موقف تجاري بغيض كان يشعر فيه من قبل بالخضوع نوعًا ما. وفي قضية أخرى، قوضي الطبيب لأنه تمكن من تحرير مريضه من علاقة حب خانعة ووعد مبهم بالزواج. وفي قضية ثالثة، غير المريض خلال العلاج وكالة تجارية كانت تعامله معاملة سيئة. في تلك القضايا، كان يمكن للطرف الذي خاب ظنه أن يرفع دعاوى بدافع مما يسمى غسيل الدماغ والتأثير الشرير. في العديد من القضايا على غرار هذا النوع من الابتزاز، كانت تطلب تسوية باهظة من المحكمة؛ لأن إجراءات المحكمة كانت تكلف أكثر.

إن الطبيب النفسي الممارس الذي يتعرض للهجوم بهذه الطريقة لا يشعر فقط بالضغط المالي المفروض عليه من الطرف الساخط والمحامي الخبيث، لكن في العديد من الولايات لا تعترف المحكمة حتى بالقسم المهني بالحفاظ على السر الذي أقسم به. يقول **قسم أبقراط**:

«وسوف أظل حريصًا على منع نفسي عن الكلام في الأمور المخجلة، التي قد أراها أو أسمعها في أثناء ممارسة المهنة، وحتى بعيدًا عنها فيما يتعلق بحياة الناس، التي لا يجوز لأحد أن ينشرها».

بعض المحاكم تعتبر أن الكشف والعلاج الجسدي فقط هما ما يمكن اعتبارهما علاجًا طبيًا لا يجوز إفشاؤه؛ المحادثات الشخصية – جوهر العلاج النفساني – لا ينظر إليها على أنها إجراء طبي. يعتبر التخفي خلف السرية المهنية احتقارًا للمحكمة. وهناك تحدٍّ آخر أن هذا الاتهام بخطأ الممارسة من طرف ثالث – ليس من المريض نفسه – لا يغطيه التأمين المعتاد لخطأ الممارسة.

تتمثل أهمية هذه الهجمة الغادرة على العلاقات النفسية – مهما كانت ندرة القضايا من هذا النوع في ذلك الوقت – في أنها تفتح المجال للعديد من أشكال

الابتزاز العقلي الأخرى. وهذا يعني أن العلاقات الشخصية المعقدة يمكن مهاجمتها واضطهادها في المحكمة، ويكون ذلك فقط نتيجة شعور أي طرف ثالث بأنه منبوذ أو مهمل أو متضرر ماليًّا. لا يمكنني مقاضاة سمساري لأنه أسدى لي نصيحة مالية خاطئة، لكن يمكنني مقاضاة مستشاري النفسي لخطأ الممارسة لأنه "غسل دماغ" موكلي.

ما الاحتمالات الجديدة المطروحة للابتزاز العقلي والاتهامات الخبيثة؟ بالتدريج يمكننا المعاقبة على النوايا والتوقعات الخاطئة، والمشورة والإرشاد الذي يجانبه الصواب، وفي النهاية تأثير الشرف الإنساني البسيط وأصالته – تلك الأشياء التي تعتبر بالفعل جريمة في الدول الشمولية.

استخدمت كلمة «ابتزاز– blackmail» في الأصل في الحرب على الحدود بين إنجلترا واسكتلندا؛ حيث كانت كلمة ابتزاز هي التحية التي يلقيها قاطع الطريق حتى لا ينهب المزارع أو يتحرش به – مقابل المال أو الماشية. وهذه الكلمة تأتي من الإنجليزية الوسطى وكانت كلمة «maille» تعني الخطاب، أو الإيجار، أو الضريبة.

وكلمة الابتزاز الموازية بالفرنسية تجعلنا نستوعب أكثر مفهوم القهر العقلي؛ إنها تعني إجبار الشخص الآخر على «الغناء»، على الاعتراف بأشياء ضد إرادته بالتهديد بالعقاب البدني، أو التهديد بإفشاء سر؛ وهو أمر في تحليله النهائي بمثابة قهر عقلي.

ربما نسمي القهر العقلي الميل المتزايد لتخطي التحفظ والكرامة الإنسانية. وهو الميل لسوء استخدام المعرفة الوثيقة بما يجري في خبايا الروح، من خلال جرح وإحراج روح أخ في البشرية. يبدأ الابتزاز العقلي حينما يكون هناك افتراض مسبق بالذنب محل الافتراض المسبق بالبراءة. ونحن نلحظ كثيرًا ذلك التصيد للآثام والمشاعر لإحراج الضحية في الصحف الصفراء. إنها ليست سفالة فحسب، لكنها في نفس الوقت تقوض من حكم الإنسان ورأيه. ومن خلال إضفاء الإثارة فإنها

تمنع العدالة وتؤصل للحكم المسبق في المحاكم.

ما يمكن للطفل الرضيع أن ينجزه بالدموع والعبوس يمكن لملقي التهمة الذي يئِنُّ ويكثر الشكوى أن يفعله بالفانتازيا عن التأثير الخبيث وغسيل الدماغ. وربما يمارس المريض الذي لديه ميول انتحارية نوع الضغط نفسه.

أنا مقتنع أن المحكمة العليا في المستقبل يجب أن تصدر أحكامًا تتحكم في هذه الأشكال الجديدة من الاتهامات. ومع ذلك يكمن جوهر المشكلة في الشك المتنامي داخل الإنسان في عصر التحول الذي نعيشه. إننا نبتز عقل الإنسان بالعديد من المعايير الأمنية وبملفات سرية؛ ونبتز بالنميمة، بالضغط الخفي داخل مجموعات الضغط السياسي، وبمجموعات الضغط داخل مجموعات الضغط، وحتى بالقطيعة في صداقتنا.

القاضي وهيئة المحلفين

ماذا إذًا عن الأشخاص المنوط بهم غربلة الحق من الباطل، حتى يصلوا إلى العدل والأحكام غير المتحيزة؟ يتأثر القاضي وهيئة المحلفين أنفسهم بالجوانب الخارجية والحاجات الداخلية التي تقبع خلف سلوك المسؤولين الآخرين في القضية. ومع ذلك، من المفترض أن يرتقوا فوق خلفيتهم وحاجاتهم ورغباتهم الشخصية، وأن يصدروا حكمًا بصرامة بناءً على الأدلة؛ بحيث لا يتأثرون بأي حكم مسبق أو رغبات ظالمة أو ذاتية. دعنا نضع في الاعتبار أن المرتبطين رسميًّا بقضية ما ليسوا هم وحدهم من يتخذون قرارًا بشأنها، بل كل شخص يعلم بها: أنا وأنت، العامة، قضاة ومحلفون أيضًا.

يواجه القاضي والمحلفون مهمة الاستقصاء والمساءلة على أساس الحقائق وحدها، ومع ذلك فحتى في تلك الأثناء، وتحت تأثير انفعالات المجموعة القوية، ربما يحدث إعادة ترتيب انفعالي للحقائق المتذكرة.

يتأثر القضاة والمحلفون بالأجواء الانفعالية الجماعية المحيطة بالمواضيع الجدية، ومن الصعب عليهم الحفاظ على الموضوعية التي هم في حاجة ماسة إليها. إن هيئة المحلفين العادية تخضع بالفعل للمطالب الانفعالية الشعبية قبل بدأ المحكمة، وذلك حسبما أثبتت محاكمات عديدة حول الاضطهاد العرقي.

مؤخرًا، هاجم اثنان من كبار القانونيين نظام محاكمات هيئة المحلفين، أحدهما شن هذا الهجوم بسبب تباطؤ إجراءات العدالة (بيك- Peck) ، والآخر اعتبرها وسائل عفا عليها الزمن لإدارة العدل (نيومان- Newman). إن محاكمات هيئة المحلفين من القرن الثالث عشر، كانت تهدف إلى استبدال الفتنة بمحاكمة السحر- كانت الآلهة والصدفة هم من يقرون بالذنب - واستبدال المعركة بالمحاكمة؛ حيث كانت المهارة والقوة الجسدية تقرر أيًّا من الطرفين كان مذنبًا. إن المحاكمة التي عقدها أقران من المحلفين، من كل الأشخاص الذين كانوا يعرفون المتهم وظروف الجريمة المزعومة، كانت تؤدي غرضها في المجتمعات المنظمة ببساطة نوعًا ما لمدة طويلة. لكن في مجتمعنا المعقد؛ حيث يعرف الناس القليل عن بعضهم، وتتداخل آلاف الاتصالات مع العقل، فقد تغيرت الأمور. «تتذبذب هيئة المحلفين العادية بفعل الانفعال والإجحاف الموروث لديهم، والخلفية التي تدربوا عليها». (نيومان) ليس في استطاعة هيئة الملحفين لدينا دومًا أن يتبعوا قيود السلبيات والإيجابيات الخاصة بتفسير الحقائق. بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمحامي في كثير من الأثناء أن يعرف كيف يفتهم هيئة المحلفين، وكيف يبهر عقولهم ويؤثر على حكمهم. فيما وراء هذا، فإن اختيار المحلفين يؤخر أكثر فأكثر من عملية العدالة.

لنضرب مثالًا بسيطًا على الكيفية التي يمكن للارتباط الشرطي الفردي والشخصي والاجتماعي أن يؤثروا بها على ردود الفعل الحالية لهيئة المحلفين، دعنا نلقِ نظرة على الارتباك الداخلي الذي تحدثه عادة كلمة «خائن». في تلك الحالة لدينا كلمة محفزة ومحملة بالانفعالات. إذا ما اتُّهم شخص ما بأنه خائن أو مخرب، على أساس حقائق لا ريب فيها، فإن أي محاولة لعمل تفسير علمي ونفسي لسلوك هذا

الشخص تعتبر بالفعل خيانة ثقافية. إن الإجماع قائم على أن الخائن يجب معاقبته؛ إنه ينتمي إلى حثالة المجتمع، والأفضل تركه يموت. حتى المحامي الذي يدافع عنه أمام المحكمة ربما يتهم بالتعاون في الخيانة.

نعرف جميعًا العديد من الكلمات المحفزة التي تستثير على الفور الارتباك في فهمنا وحكمنا الموضوعي؛ لأنها تلامس مشاعر معلقة ولاشعورية. إن كلمات مثل «الشيوعية»، و«المثلية الجنسية» مثلًا يمكن أن تصبح كلمات محفزة ومربكة تحرك مخزونًا من المشاعر القاتمة. يحب الديماغوجيون استخدام مثل هذه الكلمات لتقليب مشاعر الجماهير، التي لا يسعهم التحكم فيها، لكن في اعتقادهم أنها مناسبة جدًّا لإستراتيجية اللحظة الآنية. إلا أن هذا الأمر يمكن أن يصبح مثل اللعب بالديناميت، فربما يتذبذب أي أحد منا بفعل شعارات مثل «لا دخان بدون نار»، أو «أن تصبح لصًّا مرة واحدة، تكن لصًا على الدوام». في إحدى المرات، وجدت أن هذه العبارة مثيرة للانتباه عندما وجه التوبيخ لشخص ما لأنه «قذر أحادي الزواج»، وما إن أطلقت التهمة حتى انقلب الرأي العام عليه.

حتى القاضي يمكن أن يتذبذب بفعل المشاكل الانفعالية بداخله، خاصة بفعل الشهادة المنحرفة للشهود الذين ربما يحاولون التضليل. في بريطانيا العظمى لدى المحاكم دراية أكبر بتأثير سلوك الحكم المسبق على المحلفين. وعليه فإن عملية المحاكمة تكون محمية بشدة، على الأرجح من خلال منع المناقشة والتداول قبل المحاكمة، بغض النظر عن عدم شعبية المتهم.

التحقيق المتلفز

إن التحقيق الرسمي المفتوح يؤثر على من يشاهدونه – وحقيقة أنهم يتأثرون ربما تؤثر في حد ذاتها على نتيجته. إن العديد من جلسات الاستماع في قضايا الجرائم في هذه البلاد مثلًا عرضت على الناس من خلال التليفزيون؛ حيث يمكن للمواطنين الجالسين بشكل مريح في البيوت بعيدًا عن المشهد متابعة كيف أن محامي الدفاع

يناورون بالحقائق أو يعطون تعليمات لموكليهم (من بينهم زعماء عصابات مشهورين)؛ بحيث يظهرون بإطلالة محببة. ومع أن إجراءاتهم ربما كانت خدعًا شفافة تبدو وكأنها مباراة مصارعة، كانت النتيجة هي السخرية من بعض ضحايا المجرمين الذين لم يبدوا مرحين بما فيه الكفاية، بينما بدا المجرمون الهادئون الواثقون المتزنون أكثر إثارة للإعجاب. لا يحتمل الضحايا غالبًا أن تسليط الأضواء عليهم؛ إنها تجعلهم يشعرون بالضيق والارتباك. وينكر المجرمون على الجانب الآخر كل التهم بنبرة من السخط الورع، أو يدلون باعترافات تتدنى إلى سعي هستيري لنيل الشفقة. هذا التأثير السحري لكل الجماهير المجهولين - لأن الشاهد أو المدعى عليه تخيلوا استحسانهم أو عدم استحسانهم - أثر على نتيجة جلسات الاستماع. عندما شاهدناهم جميعنا كانت لنا توقعات ذاتية حيال هذه الجلسات.

إن التليفزيون يجعل مثل هذه الجلسات محاكمة جماهيرية، ولا تصبح العدالة بل المشاعر المتنوعة للعامة جزءًا من أجواء قاعة المحكمة بدون قصد. وكل دليل في مثل جلسات الاستماع هذه يصطبغ بالشائعة والانفعال، وهنا لا يسع المتفرجين المصدومين سوى الشعور بالشك والتوجس الشديد؛ لأن جلسات الاستماع لم تتطرق فعليًا إلى عوامل الإدانة.

السعي إلى الانفصال

إن شعور الإنسان بالعدل له آثار خفية للغاية. بمجرد أن تعبث سيدة العدالة[80] مع أصدقاء أقوياء أو تصبح خاضعة تمامًا، يشعر الناس بعدم الأمان ويزداد توترهم. لكن شعور الإنسان بالعدل يحتاج إلى أكثر من مجرد أمان لإشباعه وإرضائه. إن حس العدالة سلوك داخلي يهدف إلى إدراك قواعد القانون المثلى التي يمكنها إلهام المجتمع ورفعه إلى مرتبة أخلاقية أعلى. ولا يتطلب الأمر الحد الأدنى من السلوك الموقر فحسب الذي يفرضه القانون، بل الحد الأقصى من المبادرة

80 - سيدة العدالة Justitia: باللاتينية؛ تجسيد مجازي للقوة الأخلاقية في الأنظمة القضائية. (المراجع)

الشخصية واللعب العادل المتبادل. ويتطلب العدالة الشخصية والاجتماعية، والقيود المتبادلة على الطلبات في خدمة العلاقات المتبادلة بين البشر، وبين البشر وحكومتهم. أية مشاعر مثالية بالعدالة تتطلب تضحية وتنطوي على تقييد للذات، والانفعالية عدوها. هذا العدل المثالي ليس صالحًا للأفراد فقط، لكن يجب أن يحكم المجتمعات والبلدان أيضًا. وفي مثل هذا المناخ فقط من التضحية المتبادلة بالقوة بحرية وباسم العدالة النامية، يمكن أن تزدهر الديمقراطية.

هل يمكن للناس أن يتعلموا النظر بموضوعية بطريقة منفصلة عن مشاعرهم الشخصية؟ نعم يمكنهم ذلك. يمكن تغيير طرائق الرؤية والشهادة المتصورة مسبقًا. إن الكثير من الناس يدركون الضرر الذي يلحقه البشر بأنفسهم وبالآخرين عندما يخضعون للعاطفة والحكم المسبق الجماعي. وهؤلاء الناس يتعلمون عندئذ، من خلال التحقيق والملاحظة الدقيقة، كيف يكونون أقل غبنًا في إصدار أحكامهم، وكيف يرون الأحداث بإعادة تكيف مستمر للعقل والعين، وبالبحث عن الحقيقة.

إن معتقلي معسكرات الاعتقال أو أسرى الحرب دائمًا ما يمطرون بوابل من الشائعات والإيحاءات، وتحيد ملاحظاتهم عن الصواب كثيرًا نتيجة دفاعاتهم الذاتية اللازمة، إلى درجة أنهم يستطيعون بالكاد رفع تقرير موضوعي يتعلق بأفعال أقرانهم. إن سلوك الجماهير كل يوم يحدد آراءهم. والرفيق الذي يصنع منه كبش فداء، ووظيفته التخفيف عن الغضب العام لأقرانه المعتقلين، لن يكون قادرًا أبدًا على التعامل بحيادية مع كافة التقارير اللاحقة عنه؛ لأنه، ببساطة، عدد الشهود المزعوم أنهم موضوعيون ضده. من الصعب جدًّا التفريق بين الشائعات والحقائق وتحييد المشاكل التي تربك العقل. يوجد بداخل الإنسان حاجة غريزية ليكون في صف الغالبية، وأن يتفق مع رأي الأقوى. تلك الحاجة متأصلة في الدافع البيولوجي للأمان. ولهذا السبب، ينمو حس قوي بالمشاركة بين الجنود في معسكرات أسرى الحرب. كانت النتيجة تزويرًا كاملًا لما حدث. وقد ضاعت

الملاحظات الفردية في ظل التأثير القوي للرأي الجماعي.

في مستقبل علم النفس، عندما تفهم أكثر وبشكل عام البصائر التي تدفع سلوك الإنسان، نكون أكثر دراية بأهمية الشهود المؤتمنين. سوف يفحص ويرجح كل تقرير وكل جزء من شهادة سلبية أو إيجابية في ضوء خلفيتها النفسية والتاريخية. وسيضحك المواطن في المستقبل وهو يتذكر الوقت الذي كان يشعر فيه بالضياع في أثناء المحكمة؛ لأن الحقائق الواضحة من جانب واحد لم تكن تمحص بالتساوي مع الحقائق الواضحة على الجانب المعارض. سوف يفهم هؤلاء المواطنون في المستقبل أننا كشفنا فقط عن عدائنا المتبادل وشعورنا بالخوف وعدم الأمان من خلال سلوكياتنا؛ وهي أحاسيس حركتنا باندفاع وبطريقة خفية لإعادة ترتيب ذكرياتنا وانطباعاتنا بشكل ذاتي. سوف يشير إلى أن التفكير الموضوعي كان في مرحلة طفولته في تلك الأيام.

الفصل التاسع

الخوف أداةً للإرهاب

الخوف من الحياة

إن الخوف النابع من العلاقات الإنسانية في عصرنا قوي للغاية إلى درجة أن الخمود والموت العقلي عادة ما يبدو جذابًا أكثر من اليقظة العقلية والحياة. عادة ما يتحدث علم النفس الكلاسيكي عن الخوف من الموت والمجهول العظيم على أنه سبب العديد من حالات القلق، لكن أظهرت لنا دراسات علم النفس المعاصر أن الخوف من الحياة أعظم وأعمق وأكثر رهبة.

كثيرًا ما تبدو الحياة أكبر من قدرتنا. ومن الخطورة والمجازفة تخطي مرحلة الاعتمادية الطفولية الآمنة نسبيًّا. إن الحياة تتطلب النشاط، والعفوية، والتجربة، والخطأ، والنوم، والنهضة، والتنافس، والتعاون، والتكيف، وإعادة التوجه. وتتضمن الحياة علاقات متشعبة، لكل منها آلاف الآثار والمضاعفات. كما أن الحياة تأخذنا بمنأى عن حلم أن نكون محميين، وتتطلب أن نكشف مواطن ضعفنا ومواطن قوتنا يوميًّا لأخوتنا في الإنسانية، بكل عدائهم وكذلك عطفهم. إنها تلزمنا ببناء دفاعات مفيدة، ثم نستبدلها بدفاعات أخرى لأنه ينبغي علينا تغيير أهدافنا وعلاقاتنا. إنها تتوقع منا أن نكون وحيدين من أجل التعاون بحرية، وتطالبنا بأن نخضع ونغزو ونتكيف ونثور. إنها تجردنا من قيلولة الرضا الطفولي، ومن السحر ومن فانتازيا القدرة الكلية في فترة طفولتنا. تتطلب الحياة تبادل الأخذ

والعطاء. وفوق كل هذا، أن تحيا يعني أن تحب. ويخشى كثير من الناس تحمل مسؤولية الحب، أن يكون لهم استثمار انفعالي في إخوتهم من البشر. إنهم يريدون فقط أن يكونوا محبوبين ومحميين؛ إنهم يخشون أن يلحق بهم الأذى أو يقابلوا بالرفض.

يمكننا أن نرى هذا بوضوح في حقيقة أن الكثير من الناس يعتنقون بشدة كل القيود وإحباطات الحياة التي تعرض عليهم – القيود العصبية للمظالم الاعتيادية، أو القيود الشمولية التي تفرضها قوى السياسة. في كتابه **الهروب من الحرية**، يصف «إريك فروم»[81] بوضوح كيف أن ضغوط الحرية، عندما لا توازن بالمسؤولية والفهم، يمكن أن تدفع البشر إلى إطار العقل الشمولي، وإلى تسليم حرياتهم التي حصلوا عليها بعناء. وهذا التسليم ليس أقل من موت عقلي بطيء.

يعرف القادة الشموليون أفضل من غيرهم، سواء كانوا من اليمين أو من اليسار، كيف يمكنهم استغلال مخاوف الحياة هذه. إنهم يزدهرون في الفوضى والارتباك. وخلال الاضطرابات في السياسات العالمية، يشعرون أنهم في أفضل حالاتهم. إن إستراتيجية الخوف واحدة من أهم أساليبهم. ونجد أن التعقيدات المتزايدة لحضارتنا وإدارتها تجعل وطأة سياسات القوة أكبر من ذي قبل. عندما يضيف الشموليون إلى أساليبهم كافة الخدع الماهرة التي ناقشناها بالفعل – الارتباط الشرطي البافلوفي، والإيحاء المتكرر، وفك الارتباط الشرطي من خلال الملل والتدهور البدني – يمكنهم الانتصار في معركة التحكم في عقل الإنسان.

في الفصول السابقة من هذا الكتاب وصفنا ببعض التفاصيل الأساليب التي يمكن تحويل الإنسان بها إلى روبوت في خدمة الشمولية وبعض الميول التي تعمل حتى في الدول الحرة لتسلب الإنسان سلامته العقلية. من المهم لنا إدراك أن التأكيد

---

81 - إريك فروم Erich Fromm (1900 - 1980): محلل نفسي وفيلسوف أمريكي ألماني. صدر كتاب **الهروب من الحرية** *Escape from Freedom* في عام 1941، ويعرف في بريطانيا بعنوان **الخوف من الحرية** *Fear from Freedom*، والكتاب مترجم إلى العربية. (المراجع)

على الامتثال والخوف من الحياة العفوية يمكن أن يكون مدمرًا، مثل الهجوم المتعمد للشمولية على العقل. إن الامتثال والخوف من الحياة يسلبان من الطريقة الحرة للحياة أعظم أركان في نضالها ضد الشمولية.

تكمن قوتنا الإنسانية في تنوعنا واستقلال أفكارنا، وفي قبولنا لعدم الامتثال، وفي استعدادنا لمناقشة شتى وجهات النظر المتضاربة وتقييمها. بإنكار تنوع الحياة وتعقيد العقل الإنساني وتفرده، وبنشر العقائد الصارمة والاستقامة الذاتية، نبدأ بالتدريج في تبني السلوك الشمولي الذي نستهجنه. لم يكن الهذاء قط سمة حصرية لأية دولة أو فئة أو جماعة، والهذاء الشمولي الذي يناصر في حد ذاته إبادة العقل، يمكن أن يغزونا من عدة جبهات، من اليمين ومن اليسار أيضًا، من الأغنياء أو المحرومين، من المحافظين ومن المتمردين.

الخوف والتهديد ليسا نتيجة للقهر العقلي فقط، بل أدوات أيضًا له. ومع أنه لا توجد بعد نظرية موحدة للخوف والقلق، ومن ثم لا نعرف بالتحديد لماذا وكيف تؤدي تطورات هذه المشاعر إلى مثل هذه العواقب الوخيمة، من المهم أن نفهم مدى فائدة أداتي الخوف والهلع، وأن نرى من خلال الوصف ما يمكن لهذه المشاعر الغامرة أن تفعله بالناس.

يظن معظم الناس أن ردود الفعل تجاه الخوف تعبيرات هيستيرية عن اليأس. لكن سيوضح هذا الفصل أن الخوف والهلع لهما تعبيراتهما المتناقضة أيضًا في اللامبالاة والتبلد، وهي ردود فعل يمكن أن تكون أكثر خطورة على الفرد لمجرد أنها معروفة بشكل أقل باعتبارها ناجمة عن الخوف، من الصرخة الهيستيرية العالية. إنها مخاوف خفية وصامتة لها تأثير كبير على سلوكنا الاجتماعي والسياسي.

إن الخوف والهلع ليسا رد فعل فقط على الخطر والتهديد العلني، لكنهما رد فعل أيضًا على الانتهاك البطيء والمتسرب للدعاية المزعجة وموجة الإيحاءات المستمرة التي نتعرض لها جميعًا. إن الخوف يعتمل حولنا جميعًا، وعادة ما يلقي بظلاله عندما لا نتوقع أن نجدها. ربما نتصرف بدافع من الخوف بدون حتى أن نعرف، وربما

نظن أن سلوكنا عادي وعقلاني إلى أبعد حد، بينما في واقع الأمر يقول لنا علم النفس إن الخوف المتسلل ربما يكون قد بدأ تأثيره علينا بالفعل.

يعزز الخوف والكارثة من الحاجة إلى التماهي مع قائد قوي؛ فهما يؤديان إلى حشد الناس الذين يشعرون بالخجل من رغبتهم في أن يكونوا خلايا منفردة بعد ذلك؛ بل يفضلون أن يكونوا جزءًا من جماعة مبهمة كبيرة تحميهم من التهديد والمحنة، متوحدين مع القائد. إن رد الفعل الغريزي الباحث عن الحماية توجه أيضًا ضد الانشقاق والفردانية، ضد الأنا الفردية. إننا نرى في هذا نكوصًا نحو حالة أكثر بدائية للمشاركة الجماعية. حقيقي أن عملية تقليص الأنا هذه هي الجانب السلبي لرد فعل العودة إلى الجماعة، إلا أنها تحفز الإدراك بالحاجة الأعظم للتعاون والمساعدة المتبادلة. خلال الحرب الأخيرة وحالات الطوارئ التي مر بها الكثيرون عمومًا، أدرك العديد من الناس للمرة الأولى الروابط الوجدانية مع جيرانهم. وفي الوقت نفسه، يمكن أن يبعث القلق على الشك والحاجة إلى البحث عن كباش فداء. إنه نقيض الخوف لأنه ينشر مشاعر دافئة من الروابط غير الناضجة والشك البارد في الوقت نفسه.

مع أنه يوجد توجه واعٍ في كل أرجاء العالم لتخطي الخوف ومشاعر عدم الأمان، إلا أن هناك أيضًا تيارًا مضادًّا يستثير المخاوف والقلق والشعور بانعدام الأمان. وسواء عرف الإنسان المعاصر ذلك أم لم يعرف، فإنه يعيش في مناخ من الخوف – الخوف من الحرب، والخوف من القنبلة الهيدروجينية، والخوف من الشمولية، والخوف من عدم الامتثال، والخوف من الانشقاق. يبدأ الخوف بالفعل في السيطرة على سلوكنا حين ندرك وجوده. وما إن يخترق الخوف العقل ويحفز الخيال، يبدأ في توجيه أفعالنا شئنا أم أبينا. لا يمكننا استبعاد آلاف الضغوط والمواقف التي تبعث الخوف في عالمنا المعاصر، لكن يمكننا تعلم كيف ندرك ونفهم بعض أكثر الأشكال الشائعة لردود الفعل تجاه الخوف. وبهذه الطريقة يمكن أن نجد طريقة جزئية لتخفيف التوترات التي تسفر عنها، ويمكن أن تعلم كيفية مجاراتها بفاعلية أكبر.

الفانتازيا حول الخطر

أتذكر بوضوح عصر أحد الأيام المشمسة خلال الحرب العالمية الثانية وأنا لا أزال في هولندا. في ذلك الوقت كنت ألعب التنس مع بعض الأصدقاء. كنا جميعا نستمتع بهذا الجهد الجيد الذي بذلناه في لعبنا، لكن استمتاعنا هذا أفسده إلى حد ما اللاعبون المجاورون لنا في الملعب المقابل. كانوا يتحدثون لغة المحتل البغيض، ومع أنهم كانوا يرتدون نفس الملابس الرياضية البيضاء التي كنا نرتديها، إلا أنهم كانوا كما هو واضح ضباطًا نازيين نسوا مؤقتًا أنهم غزوا العالم، وكانوا يحاولون الاسترخاء مثل البشر العاديين. وفجأة سمعنا جميعًا أزيز الطائرات وصوت إطلاق مضادات الطائرات عن بعد. تبع ذلك مجموعة طائرات من طراز سبتفاير[82] التي تطير على مدى منخفض؛ حيث جاء أصدقاؤنا من إنجلترا ليحلقوا مرورًا بنا. هنا توقفت أنا وأصدقائي عن اللعب، ولوحنا بمضاربنا لتحيتهم، وراقبنا الطائرات وهي تناور. أما جيراننا فكان رد فعلهم مختلفًا تمامًا. كانوا يتصرفون بذعر؛ وألقى أحدهم مضربه ثم جرى، وانبطح الآخرون أرضًا ووجوههم إلى الأسفل في حفرة على جانب الملعب. إذا تحدثنا بموضوعية فإننا جميعًا واجهنا نفس خطر القصف من الطائرات الإنجليزية، لكن بالنسبة إلى الألمان كانت هذه طائرات الأعداء، بينما كانت بالنسبة إلينا طائرات الأصدقاء.

أنا متأكد أنه ليس من الضروري بالنسبة إليّ أن أضيف أنه بعد هذه الواقعة حرم رفاقي الهولنديون من لعب التنس في هذا الملعب.

عندما وصلت بعد ذلك بعام إلى لندن بأعجوبة، وجدت أنه كلما مرت طائرة ألمانية في السماء ليلًا، كانت تراودني مشاعر الشك نفسها التي انتابت الضباط الألمان على الأرجح في ملعب التنس. بدا الأمر وكأن كل رصاصة وكل قنبلة كانت

82 - سوبرمارين سبتفاير Spitfire: طائرة حربية بريطانية ذات مقعد واحد، استخدمت من قبل القوة الجوية الملكية والعديد من دول التحالف خلال الحرب العالمية الثانية، وأيضاً في خمسينات القرن الماضي. (المراجع)

تستهدفني. يا له من دور عظيم يلعبه الخيال خوفًا من أن قنبلة العدو ربما يكون لها معنى مختلف لنا عن قنبلة الصديق.

ربما نعرِّف الخوف ببساطة على أنه رد فعل داخلي على الخطر. هذا تبسيط مخل لتعريف الخوف؛ إذ إننا بمجرد طرحه تواجهنا مشكلة جديدة: ما الذي يمكن أن نعرفه بأنه خطر؟ يمكن بسهولة إدراك أن القنابل والحرائق والزلازل والأوبئة مخاطر. وكذا الحال بالنسبة إلى التعذيب البدني والهجمة الشمولية والانهيار الاقتصادي المفاجئ. لكن، على غرار ذلك، توجد العديد من المخاطر الانفعالية الخفية التي تثير خيالات وتوقعات مخيفة تقترن عادة بظنون داخلية عن الهلاك والكوارث. وكما ستوضح أمثلتنا، فإن هذه المخاطر تواجه بطرائق مختلفة باختلاف الناس. إن سلوكنا الشخصي تجاه الحياة وتجاه البشرية هو ما يحدد إن كنا نعتبر موقفًا ما تحديًا أم خطرًا لا قبل لنا بمواجهته. يستمتع بعض الناس بالتحكم الصارم والارتباط الشرطي الآلي لحياتهم. بالنسبة إليهم، لا تعتبر الشمولية والسيطرة على الأفكار خطرًا؛ بل إنهما نوع من نوم اليقظة الأبدي الذي ينفض أية مسؤولية عن كاهلهم. يرى هؤلاء أن الحرية خطر، بينما الاعتمادية هي الأمان الممتع. بينما يشمئز آخرون من أي تدخل في حريتهم ونزاهتهم الشخصية، ويكونون متيقظين على الدوام للدفاع عن أنفسهم ضد أي ضغط خارجي – سواء أكان حقيقيًا أم وهميًا.

الخوف المتناقض

حتى عندما يكون الناس مستعدين جيدًا ومدربين على التعامل مع أي كارثة متوقعة، مثل الاعتقال أو غسيل الدماغ، ربما يبعث التأثير الحقيقي للخطر كافة أنواع السلوك الدفاعي. بل إن الإفراط في التدريب ربما حتى يضعف الشخص؛ لأن الترقب لفترة طويلة يسمح بتسلل كافة أنواع الخيالات وشططها. ربما يعبر بعض الناس عن هذا بردود فعل الخوف المَرضي على هيئة انهيار عصبي تام أو شلل كامل. يظهر كل شخص أقصى درجات المقاومة العقلية للخطر بطريقة مختلفة عن غيره، وهذه الدرجة القصوى قد تتغير يومًا بعد يوم، على حسب تحملنا البدني

والعقلي. أضف إلى ذلك القاعدة التي تقول إن القوات التي تفتقر إلى الخبرة لا يظهر عليها الخوف المرضي فورًا في المعركة؛ فهذا السلوك يأخذ بعض الوقت لينمو. على النقيض من ذلك، عادة ما تتطور ردود الفعل تجاه الخوف ولحظات الضعف بعد زوال الخطر الحقيقي. عندما تضع الحرب أوزارها أو ينجلي ضغط الحياة اليومي في معسكر الاعتقال، ولا يعود هناك حاجة للمرء أن يداري مخاوفه ويتحكم في سلوكياته، يجنح كثير من الناس إلى تسكين روعهم تمامًا والتنفيس عن توترهم.

في دوفر[83] في إنجلترا عام 1944، عانى السكان من أحد أنواع الانهيار العصبي الجماعي عندما كان الصمت فقط هو ما يصل إلى سمعهم بعد أربع سنوات عصيبة من القصف الألماني المستمر. في تلك اللحظة انهار كثير من الناس في دوفر، كان صمتًا غير متوقع جعلهم يصلون إلى مرحلة الصدمة.

من المهم أن نفهم رد فعل المتناقض تجاه الخوف بعد انجلاء الخطر. يعرف الخبراء الإستراتيجيون الشموليون أنه خلال فترة الهدوء والتراخي المؤقتة من التوتر، يفقد الناس يقظتهم أيضًا، ويمكن أن يكونوا عرضة أكثر للوقوع في قبضة العقلية الشمولية. وفي إستراتيجيتهم المتبعة للإرهاب، يستغلون عن وعي التأثير النفسي لفترة الراحة. فبمجرد أن نسترخي ونتخلى عن دفاعاتنا التي شيدناها لمجابهة الخطر، يمكن حينها إرغامنا على تقبل أية إيحاءات قوية. يطلق الشموليون في «وثيقة الإرهاب» الخاصة بهم على أسلوب استغلال مثل هذه الراحة «إستراتيجية الخوف المجزأ». في فترة الهدوء بين فترات التوتر الحاد، يمكنهم إخضاع عقول ضحاياهم للارتباط الشرطي بسهولة. استخدم «هتلر» فترة هدنة ميونخ بهذه الطريقة تحديدًا؛ حيث تضاعف وابل الدعاية بفاعلية خلال ذلك الوقت.

سواء كان رد الفعل تجاه الخوف والخطر فوريًّا أو مؤجلًا، يبدي معظم الناس

---

83 - دوفر Dover: بلدة ساحلية تقع في جنوب شرق إنجلترا. (المراجع)

تحت الضغط سلوكًا يمكن القول إنه يصنف على أحد الأنماط التالية:

1 - **النكوص** - نسيان السلوك المتعلم؛
2 - **التمويه والتنكر** - ما يدعى ردود فعل «التظاهر أو الإغماء»؛
3 - **الهلع المتفجر** - الدفاع من خلال «القتال أو الهروب»؛
4 - **الارتباط الشرطي النفسي الجسدي** - استحواذ الجسد.

النكوص

مع أن معظم الناس يعرفون بدرجات متفاوتة مفهوم النكوص، إعادة عقارب الساعة الثقافية إلى الوراء، إلا أنهم يندهشون إذا رأوا رجالًا ونساءً وقورين يفقدون عاداتهم الحضارية المكتسبة في وقت الكارثة والألم.

عالجت ذات مرة مهندسًا كان ضحية زلزال في دولة أجنبية. بعد الزلزال تصرف تمامًا مثل طفل رضيع. وحاولت معه كل أنواع العلاج، لكن لم يجدِ أي منها؛ لم نتمكن على الإطلاق من تغيير تصرفه الطفولي. ولم يستطع قط الرجوع إلى وضعه الطبيعي؛ أي إلى السلوك الملائم. منذ هذا اليوم المقدر، ظل متحصنًا في كهفه الذي لاذ إليه. كان الأمر شبيهًا بنسيانه لكل شيء تعلمه فجأة في مهب الريح. لم يعد رجلًا راشدًا، عالمًا مهنيًا، بل صار مثل الطفل. كان يتمتم مثل الطفل، وكان ينبغي إطعامه مثل الطفل. وهناك ضحية آخر لزلزال أعرفه، كان أستاذًا للرياضيات، عثر عليه في حديقته بعد انقضاء الزلزال، نصف عارٍ ويلعب بألعاب أطفاله. رفض تمامًا أي إدراك للموقف الطارئ الحقيقي الذي وجد فيه نفسه، ونكص إلى فترة انعدام المسؤولية الطفولية.

إن سلوك النكوص الذي يعد شكلًا من أشكال الدفاعات النفسية نجده في كل مكان في المملكة الحيوانية. عندما تتعرض كائنات للخطر، تتخلى عن تعقيداتها وتنكص إلى شكل بسيط من أشكال الوجود. وعندما تزداد خطورة ظروف المعيشة، تتحول بعض الكائنات العضوية متعددة الخلايا التي كانت عرضة سهلة للخطرة، إلى كائنات وحيدة الخلية بسيطة. عملية النكوص هذه، التي تدعى

التكيس، يمكنها مثلًا أن تحدث إذا ما تعرض الكائن إلى درجات حرارة عالية أو جفاف فوق المعتاد.

إن الإنسان عرضة لنفس الدور الدفاعي البيولوجي هذا. عندما تصبح الحياة أعقد من أن يحتملها، يعيد عادة عقارب ساعة الحضارة إلى الوراء ويصبح إنسانًا بدائيًّا مرة أخرى. وربما يحدث تفكك وانهيار مفاجئ للوظائف. هذا الشكل من سلوك النكوص شائع بين الأطفال. عندما يشعرون بالخوف، ينكصون عادة في الكلام مثل الرضع أو يبللون فراشهم. مثلًا، في المناطق التي قصفت خلال الحرب العالمية الثانية، بدأت العديد من الفتيات اللائي في أواخر فترة المراهقة يلعبن مرة أخرى بعرائسهن. حتى الرجال والنساء ممن يبدون ناضجين وعلى درجة رفيعة جدًّا من الثقافة ربما يظهر عليهم آلاف الأعراض من العودة إلى هذه المرحلة الطفولية عندما يهاجمهم الخوف. لم تكن أعراضهم دومًا بنفس سوء الأمثلة المعروضة أعلاه؛ مع ذلك، فإنها أعراض الخوف. عندما يبدأ البالغون في التلعثم وفقدان لباقتهم اليومية، وعندما يعتادون على حمل تمائم وقائية خاصة في كل مكان، وعندما يختلقون قصصًا حول حصانتهم السحرية؛ وعندما يتفاخرون أكثر ويأكلون المزيد من الكعك والحلوى ويصفرون أكثر ويتحدثون أكثر ويبكون أكثر ويفقدون سلوكهم الرصين والجاد، فإنهم يتصرفون بدافع من الخوف.

خلال الحرب العالمية الثانية، في معسكرات الاعتقال وملاجئ الغارات الجوية، عرف الناس بعضهم البعض بحق، مثلما يفعل الأطفال في مكانهم المخصص للعب من الذين يتمتعون بالموهبة الغريزية البسيطة التي يعرفون بها من يمكنهم الوثوق به. في عصر القلق الذي نعيشه، نشعر أن نفس ظلال المخاوف التي طاردت يومًا ما رجل العصر الحجري تستحوذ علينا، وربما تكون ردود فعلنا حيالها التصرف أكثر كما تصرف أسلافنا البسطاء.

التمويه والتنكر

يوجد نمط مختلف وهو نمط التمويه والتنكر – لعب لعبة الاستغماية مع القدر. وهذه الخدعة الوقائية المفيدة عادة ما نراها في الحيوانات الدنيا التي تكتسب مؤقتًا شكل بيئتها أو لونها، بالضبط مثل التمويه العسكري. نعرف جميعًا التغيرات في لون الحرباء، وتوجد الكثير من الحيوانات الأخرى القادرة على تغيير شكل جلدها أو جسدها في أوقات الخطر. مع ذلك فإن كثيرًا من الناس لا يدركون أن جلد الإنسان أيضًا يظهر محاولات تمويه بدائية. إن ظاهرة اقشعرار البدن تشبه رد فعل انتصاب شعيرات القطة الخائفة؛ وتحول لون الشعر إلى الرمادي فجأة أو تغير لون الجلد، المعروف تقنيًّا باسم **الخوف الميلاني**[84]، يغير لوننا الخارجي.

خلال الحرب العالمية الثانية، ذهبت مع فريق الإسعافات الأولية إلى **روتردام**[85] بعد أن تعرضت المدينة للقصف المكثف. وبينما كنا ننظر للناس، كان انطباعنا الأول أنهم كانوا جميعًا يرتدون قناعات. كان جلدهم مجعدًا ويظهر عليه رد فعل مموه نمطي. كانوا لا يزالون جميعًا يشعرون بخوف مقبض. وكأنهم كانوا يختبئون من جحيم نيران مستعرة تقذف عليهم من أعلى.

هناك نظير نفسي لردود الفعل الجسدية هذه؛ إنه يدعى نمط «التظاهر أو الإغماء». علم النفس الفعلي يعتبر ردَّيْ الفعل، التظاهر والإغماء، تراجعًا سلبيًّا عن الواقع. ورد الفعل هذا يمكن مقارنته بصدمة القصف أو عصاب المعركة، وهو أحد أبواب الطب الأكثر جاذبية. يمكن للجندي والمدني أن يدخلا في حالة شلل عقلي. في تلك الحالة يتبلد الضحية؛ لا يقوى على الكلام أو الحركة. ولم تعد هناك حقيقة خطيرة موجودة. يبدو وكأنه ميت؛ ولا شيء يبدو حيًّا فيه سوى عينيه الخائفتين المتأججتين. إن هذا التصرف كالأموات، أو رد الفعل المتصلب، يكون

---

84 - الميلاني melanosis: حالة من الإنتاج غير الطبيعي أو المفرط للميلانين في الجلد أو الأنسجة الأخرى. (المراجع)

85 - روتردام Rotterdam: ثاني أكبر مدن هولندا، وبها أحد أكبر الموانئ البحرية في العالم. (المراجع)

لهما عادة تأثير مروع للغاية على المتفرجين. لا شيء يُعدِي مثل الإغماء في أي مكان مزدحم.

من المهم للغاية إدراك كيف يمكن أن يتحول الأشخاص إلى سلبيين مشلولين لا مبالين وخاضعين في ظل ظروف تتطلب أكبر قدر من النشاط. يستغل الشموليون رد فعل الإنسان السلبي تجاه الرعب عندما يضعون المعتقلين في معسكرات اعتقال كبيرة فيها بضعة حراس فحسب؛ فهم يقامرون بأن رد الفعل السلبي سوف يمنع الضحية من التمرد أو محاولة الهرب. ومثل الطائر الذي يقف ساكنًا بلا حراك عندما تقترب منه الأفعى، ربما يستسلم الإنسان بسلبية لما يخشاه ويخافه للتخلص من التوتر الناجم عن التوقع. وأحد الأمثلة الواضحة نجدها في اللص الذي يستسلم للشرطة لأنه لا يمكنه تحمل التوتر وعدم الأمان الذي يشعر به لأنه لا يعرف متى يكتشف أمره.

يكمن رد الفعل المموه النفسي خلف الصدمة الانفعالية والهلع الصامت – الشلل العقلي الذي يتغلب على بعض الناس عندما لا يعود في إمكانهم التعامل مع الظروف التي يجدون أنفسهم فيها. إن الاستسلام السلبي من الإنسان لما يخشاه أحد أكثر ردود فعله شيوعًا أمام الخطر المفاجئ؛ ولا يقتصر على الشخصيات المريضة. يحدث هذا بوتيرة أكبر من الهلع الجامح والعلني، ويتجلى في عدد من آليات السلوك المعقد. ربما يفر الناس إلى الشكوى من المرض البدني. وربما يلجؤون إلى مهام وهوايات زائفة يدعون أنها "غاية في الأهمية". ربما ينكرون الخطر الحقيقي ويبدون مقتنعين بتأمينهم لأنفسهم. من هنا يصبحون عنيدين ومتمردين؛ فلا يعود باستطاعة شيء أن يحفزهم. يقولون إنهم ليسوا مهتمين بالسياسة. ويحاول البعض أن يروجوا لأنفسهم وللآخرين نظرية انعدام الأمل وحتمية الهلاك التي تسبب الشلل، لكنهم لا يتحدثون عن القنبلة النووية! وهناك آخرون يلقون بأنفسهم في حالة من النسيان بفعل الإفراط في شرب الكحول، أو يختبئون في مؤتمرات طويلة عديمة المغزى.

لكل إنسان خطوطه الدفاعية النفسية الأشبه بخط ماجنو[86] – قلعة عقلية يعتقد أن لها حرمتها. اعتدنا أن نطلق على هذا سياسة النعامة – وسياسة النعامة هذه إحدى أخطر الإستراتيجيات في العالم. لتحترس من الشمولي الذي يدعو إلى السلام؛ لأن نواياه قد تدفع العالم إلى استسلام سلبي لما يخشاه.

إن مذهب السلبية، أو ما يدعى استرخاءً، لهو أحد أخطر تطورات عصرنا الحالي. ربما يمثل هو الآخر في جوهره نمطا تمويهيا، أمنية مزدوجة بألا ترى أخطار الحياة وتحدياتها وألا تُرى. ليس في وسعنا الهروب من كل التوترات المحيطة بنا؛ إنها جزء من الحياة، وعلينا أن نتعلم كيفية التعامل معها بطريقة ملائمة لنستخدم وقت فراغنا في أنشطة أكثر إبداعًا وإمتاعًا. ربما يعمل الصمت والاسترخاء في عزلة – مع الكحول، والحلوى، وشاشة التليفزيون، أو رواية بوليسية – على تهدئة العقل ليدخل في حالة من السلبية التي ربما تجعله بالتدريج عرضة للاعتقاد المغري بوجود بعض الأعداء المخيفين. إن إنكار خطر الشمولية من خلال السلبية ربما يجعل من كانوا يخشونها مبدئيًا يستسلمون تدريجيًا لتملقها.

الهلع المتفجر

يعرف معظم الناس ردود الفعل المتحركة والمتفجرة التي نطلق عليها الهلع والتدافع، أكثر من معرفتهم بردود فعل الخوف الأخرى. هذا ما ندعوه هيستريا جماعية، رد فعل لا يعبأ فيه أحد إلا بنفسه[87]. تنتاب الطفل الرضيع نوبات غضب، ويشعر المسنون بغضب جامح وردود فعل «كافح أو اهرب». ومع أننا نفكر في كلمة «هلع» على أنها وصف لظاهرة مثل التدافع الهستيري من مسرح يحترق، أو

---

86 - خط ماجنو Maginot line: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، اعتمدت فرنسا إستراتيجية دفاعية سلبية بإنشاء هذا الخط، الذي يُعد نموذجًا للتحصينات الدفاعية الثابتة. واتبع القادة العسكريون هذه النظرية إيمانًا منهم بمقدرة الخط على وقف تقدم القوات الألمانية وإنهاكها؛ مما يسهل توجيه ضربات مضادة إليها وسحقها. (المراجع)

87 - لا يعبأ فيه أحد إلا بنفسه *chacun pour soi*: بالفرنسية في الأصل. (المراجع)

فرار مناطق سكنية كاملة في حالة من الرعب، إلا أن هناك العديد من الخطوات الخفية التي تنتقل بنا من أولى أعراض الانزعاج الذي نشعر به إذا هددنا شيء ما، وصولًا إلى نوبات الانفجار بالبكاء والركض والقتال الذي نراه في حالات الهلع الشديد. يبدي الإنسان الكثير من أشكال الهلع أو السلوك المحموم – مثل نوبات الصرع (الصرع في الخنادق أو أثناء الحرب)، والغضب، والحنق، وتدمير الذات، والعدوان الإجرامي، والاندفاع إلى الشارع بجنون، والانشقاق عن الجيش، والتمرد، والاندفاع، وجنون السرعة في أثناء القيادة. قد يتصرف الجندي في حالة الهلع كما يتصرف الرضيع الغاضب، ربما يهاجم أصدقاءه أو يطلق النار على القوات التابع لها. وفي حالات الهلع ربما يشرع المدنيون في البكاء والصياح، ويهيمون على وجوههم وهم يفركون أيديهم في توتر، أو ربما يصرخون ويزجرون، أو يصيحون طلبًا للمساعدة. ينشر الشخص المذعور هذا الهلع كلما صرخ، ويدفع الآخرين إلى الهروب. إن الهلع ليس مسألة قوى صرفة أو طاقة مبددة، لكنه بالأحرى مسألة افتقار للبنية الداخلية، وفقدان القدرة على التنظيم. يتردد القائد المذعور في استخدام السلطات المؤتمن عليها.

ذلك الطفل الرضيع الذي تنتابه نوبات الغضب قابع بداخل كل منا. وكلما كان الخطر غامضًا ولا قبل لنا به، كانت ردود فعلنا بدائية.

تعمل حركات التمرد والغضب الجماهيرية، وتفشي الجرائم على زيادة الخوف والهلع، ومن ثم يمكن استخدامها لترسيخ الشعور بعدم الأمان لدى الإنسان وزيادة خضوعه السلبي للبيئة الشمولية. إن أي نظام شمولي يجبر ضحاياه على كبح ردود أفعالهم المتمردة والغاضبة، وكلما كبحت ردود الفعل هذه، ازداد لدى الضحايا غضب داخلي، غضب يجب أن يأخذ وقته وينتظر حتى يصبح غير قابل للانفجار بمعزل عن المجتمع. عادة ما تكون الحرب بمثابة هلع عالمي، أو تنفيس جماعي عن الغضب الداخلي. وهنا أيضًا نجد تنفيسًا عن المخاوف الداخلية للإنسانية في عمليات التدمير الجماعية.

إن مجموعة ردود الأفعال الجسدية النفسية الكبرى، مع أنها ليست غامضة، إلا أنها أكثر صعوبة في تفسيرها. دعنا نلقِ نظرة على مثال ربما يجعل هذه الظاهرة تبدو أكثر وضوحًا. في موطني، هولندا، بعد بضع مرات من القصف بالطائرات خلال الحرب العالمية الثانية، تفشى وباء مرض بالمثانة – كان ذلك التفسير المبدئي على الأقل؛ حيث عانى الناس من الحاجة إلى التبول كثيرًا إلى درجة القلق أثناء النوم؛ تقريبًا لم يكن هناك أحد ينام طوال الليل. ولفترة قصيرة، كان هناك طفرة في ممارسة أطباء المسالك البولية. بعد هذا تمكن الأطباء النفسيون من تفسير هذا الدافع للتبول على أنه أحد ردود الفعل الأولية تجاه الخوف. كل ما كان في وسع الضحايا هو تذكر طفولتهم واسترجاع ردود فعل جسدهم قبل فترة امتحانهم في المدرسة ليروا ما يحدث. ربما يمكن وصف زيادة التبول على أنه أحد وسائل تقليل توتر الجسد.

ربما يتفاعل الجسد مع الخطر والهلع بعدة أعراض جسدية؛ ومن بينها العرق، والتبول المتكرر، وخفقان القلب، والإسهال، وارتفاع ضغط الدم. إننا نعرف أن العديد من ردود الفعل هذه لها علاقة باستنفار الجسد لدفاعات محددة ضد الأخطار المحدقة. إن الطرائق المحددة التي تكون الأمراض الجسدية لها علاقة فيها بنمو الخوف والقلق ترتبط شرطيًّا بتاريخ الحياة الشخصية للفرد إلى حد كبير، خاصة مرحلة نموه في فترة الطفولة. إن الطفل الذي كان توتره وأشواقه انغماسًا في شرب الحليب وتناول **بابليوم**[88] سوف ينمو ليصبح راشدًا يحاول ملء فمه مرة أخرى كلما حل به تهديد ما. أصبح الإفراط في الأكل بالنسبة إليه وسيلة لتسكين الخوف. وفي أثناء عملية تربية الطفل، يدرب الآباء عن غير عمد بعض الأعضاء داخل الطفل لتتجاوب مع توترات الحياة.

88 - بابليوم pablum: حبوب تغذية للرضع أنتجتها شركة جونسون في عام 1931. (المترجم)

ولأن الإنسان لديه العديد من أعضاء الجسم، يمكنه أن يظهر شتى أنواع الاستجابات الجسدية والعاطفية على الأخطار، سواء من الخارج أو من الداخل. يفرق الطب النفسي الجسدي بين أنواع الشخصيات المختلفة من حيث مختلف الأعضاء التي تستجيب للضغط الخارجي أو الخطر. يوجد نوع القرحة، ونوع الربو، ونوع التهاب القولون، ونوع الأزمة القلبية. ويظهر كل من هذه الأنواع رد فعل مختلفًا تجاه المعركة نفسها – معركته ضد الخوف. ربما يأتي التعبير عن التوتر الاجتماعي على هيئة أمراض عضوية مختلفة. إلا أنه عند الشعور بالخوف الحاد، تتصرف أعضاء معينة من الجسم على نطاق أعم من باقي الأعضاء. وكما شاهدنا في الأمثلة السابقة، فإن الحاجة إلى تكرار التبول هو تقريبًا رد فعل عالمي تجاه الخوف. و«اضطراب المعدة» أحد ردود الفعل الأخرى المنتشرة في العالم.

خلال الحرب العالمية الثانية، بذل فريق طبي جهودًا لم تجدِ في دراسة حشرة تسبب مرضا معويا مجهولا بين الجنود الأمريكيين الذين كانوا يستعدون للهبوط على إحدى جزر العدو في المحيط الهادئ. بحث الأطباء وعلماء الأحياء مرارًا وتكرارًا؛ ولم يفضِ بحثهم إلى شيء. اختفى المرض الغامض بمجرد ظهوره، بعد بدء الغزو، وصار بإمكان الجنود التنفيس عن توتر انتظارهم للغزو. هؤلاء الرجال لم يكونوا غرباء أو غير طبيعيين على الإطلاق. حتى عندما يتوقع أحدهم عن وعي الخطر القابع ويستعد لمواجهته، ربما تهزم قوات الردع داخل الجسد جهده العقلي. يريد العقل التحلي بالشجاعة، لكن الجسد يفر إلى المرض. إن الاتساق في تربية الطفل، والأمان العاطفي في المنزل، والارتباط الشرطي على مدى الحياة لقبول مختلف تحديات الحياة – كل هذه عوامل تحدد كيف نتفاعل عندما نوضع في اختبار.

في أثناء معالجتهم للجنود المذعورين خلال الحرب الأخيرة، خصص الأطباء النفسيون بعضًا من وقتهم لتفسير ردود الفعل الخطيرة المتعددة هذه. حيث بدأ الضحايا في فهم ردود أفعالهم ورأوا مدى شيوعها، لقد أخذوا الخطوة الأولى والأهم تجاه العلاج؛ إذ لم يعودوا خائفين من مخاوفهم، ولم يعودوا يخشون الجبن.

كان مهمًا بالنسبة إليهم معرفة أن السبب الذي جعلهم ينكصون إلى مرحلة الطفولة العاجزة جزء من نمط سلوكي دفاعي على مستوى العالم. لقد فهموا هذا وصاروا أقل خوفًا وخجلًا من مخاوفهم الخاصة. عرفوا أن أجسادهم كانت تتفاعل مثل أجساد الكثيرين غيرهم، وصارت لديهم القدرة مرة أخرى على قبول واجباتهم بهدوء، وعلى التحكم أفضل في أنفسهم. وتعتمد القدرة على التحمل والحيلة على معرفة الذات بنفس قدر اعتمادها على المساعدة والدعم اللذين نحصل عليهما من الآخرين.

في أوقات الضغط والمصائب، يبدأ الناس في التقصي عن مواطن الضعف والوهن في كل من أصدقائهم وأعدائهم. وهذا الاختبار يستمر خلال الحرب الساخنة، لكنه يحدث أيضًا خلال الحرب الباردة. تعمل الحرب الباردة على الضغط باستمرار على خيال الإنسان وقواه العقلية، وتتسبب في العديد من ردود الفعل، خاصة للفرار أو بعض التفاعلات الجسدية.

ينبغي على الإنسان الاختيار عندما يواجه بالخوف والخطر: هل يتمادى في غضبه؟ هل يركز على حماية ذاته؟ أو هل يقبل مسؤولياته؟ إن ردود الفعل تجاه الخوف التي وصفناها تصف كيف أن الدافع البدائي لحماية الذات (مع أنه ربما يبدو مضللًا) قد يخترق كافة دفاعاتنا الحضارية. يمكن فقط للتدريب والاستعداد الواعي للخطر من الداخل والخارج أن يجعل الإنسان يتحلى بالقوة لكبح ردود أفعاله والتمعن فيها. هذا التدريب يبدأ من نواة العائلة ويدعمه مثال المجتمع المسالم والحر. إنهم المعلمون الأوائل في المعركة المستمرة بين الخوف الداخلي والخطر الخارجي.

يمكن مساعدة من هم عرضة لخطر غسيل الدماغ ببساطة إذا جعلناهم يألفون الحقائق. يمكن أن يكون للمعرفة المسبقة وظيفة وقائية جزئية، وهذا ينتمي إلى أفضل أشكال الأمان التي يمكننا إعطاؤها لهم. إنها تسلب التأثير المضعف للتوقع المقلق والغامض. وبفضل هذه المساعدة يعزز ضعفهم العقلي قوة داخلية فطرية، باتباع نموذج التربية الجيدة، وبالتحدي والفرصة التي يمنحها لهم مجتمعهم.

الجزء الثالث

الإكراه الخفي

في معرض دراساتنا المتعلقة بالسيطرة على الأفكار وإبادة العقل وغسيل الدماغ، أصبح من الأوضح ضرورة أن نولي المزيد من الاهتمام إلى الوسائل التي تمكننا من أن نستحضر من خلالها الاستعداد الداخلي في مواجهة الخضوع العقلي. يمكن لتطور الشخصية والتأثيرات الثقافية المتعددة أن تجعل الإنسان أكثر عرضة للإيحاء والهجمة العقائدية بطريقة خفية. في الجزء الثالث، ألفت انتباه القارئ إلى ذلك التدخل المتطفل في عقولنا من خلال الوسائل التقنية والبيروقراطية، وكيف يمكن للأشكال الخاصة من الحكم المسبق والهذاء الجماعي أن تستحوذ على عقولنا قبل أن ندرك هذا. وفي الفصل الأخير، نتحرى عن الخيانة والولاء مرة أخرى، ما يركز انتباهنا على التأثير الهائل للتفكير الجماعي على مفاهيمنا الشخصية عن الولاء.

الفصل العاشر

الطفل والد الإنسان

آن الأوان لنسأل أنفسنا إذا كان ممكنًا أن يوجد شيء ما في نمونا وتطورنا ربما يجعلنا عرضة للاقتحام العقلي وغسيل الدماغ التام. هل توجد مثلًا احتياجات قهرية خاصة بداخلنا؟ ما الذي يتم توصيله وتعليمه للطفل الذي ربما يبقيه سجينًا روحيًّا داخل بيئته؟

تلك هي الأسئلة المهمة التي سوف تتطلب دراسة فلسفية وتربوية دقيقة. مع ذلك، ربما نركز انتباهنا، لأغراض عملية، على مجالين مختلفين للتطور: تأثير الوالدين، وتأثير عادات اجتماعية معينة. تناولنا الجانب الثاني بالفعل في الجزء الثاني من الكتاب. في حقيقة الأمر، ينبغي أن أكرر أنه من واقع تجربتي، كل من تم تعليمهم وفق قواعد ونظام طاعة وامتثال صارم كانوا ينهارون بسهولة أكبر تحت الضغط. خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان ما يطلق عليهم الضباط القساة في القوات الخاصة يتم التحقيق معهم بعد أن وقعوا في الأسر، كانوا يستسلمون سريعًا بإفشاء أسرارهم العسكرية؛ لأنهم عاشوا لسنوات في ظل قيادة شمولية، كانوا على نفس القدر من الطاعة للأصوات القائدة الجديدة. في بعض الأوقات، كان كل ما علينا فقط محاكاة أصوات صياح قادتهم وكانوا يغيرون على الفور زعيمهم السابق

بزعيم جديد. بالنسبة إليهم أصبح كل أمر هو المحفز التلقائي لطاعة جديدة متماثلة.

عند التعامل مع أعضاء الحزب الشيوعي في هذه الدولة، كانت لدينا تجربة مشابهة: كان الأعضاء يخضعون سياسيًّا ويغيرون من إستراتيجيتهم الحزبية المعوقة إلى مجموعة أساليب جديدة مغايرة في اللحظة التي يأتيهم فيها الأمر من موسكو بذلك.

كيف «يمكن» لبعض الشموليين أن يتطوروا؟

زاد تركيز الانتباه على شتى المحفزات النفسية التي تؤدي إلى التطرف السياسي والعقلية الشمولية في الرجال والنساء الذين تربوا في أجواء ديمقراطية، لكنهم اختاروا طوعًا ربط أنفسهم ببعض العقائد الفكرية الشمولية. وقد وافق أغلبية علماء النفس الذين احتكوا بهذا السلوك الشمولي، ودرسوا من تأثروا بسهولة به، على أن خيار الشمولية في الدول الحرة والديمقراطية يحدد غالبًا بعامل داخلي في الشخصية – الإحباط، إذا جاز التعبير. ليس الفقر أو المثالية الاجتماعية ما يجعل عادة الإنسان شموليًا، لكن على الأرجح عوامل داخلية مثل الخضوع المتطرف والمازوشية من ناحية، أو اشتهاء السلطة من ناحية أخرى. كما يلعب دورًا أيضًا تنافس الأشقاء (على لفت انتباه الأبوين) الذي لم يسوَّ بعد؛ فقد عالجت الكثير من المتواطئين مع النازيين ممن كان الحافز السياسي لديهم إلى حد ما حقيقة أنهم كانوا الأبناء الأكبر، ولم يكن باستطاعتهم تحمل المنافسة مع أخوتهم الأصغر سنًّا. ساعدت كل هذه العوامل على تفسير السبب الذي يجعل الشموليين في كل مكان يستخدمون دعاية العنف لاستغلال الحنق والكراهية والعنصرية والغضب السياسي. إنهم يعرفون أنه ينبغي عليهم فقط اللعب على مشاعر الحرمان وعدم الرضى الصبيانية هذه لجعل الناس يتأثرون بتعويذتهم.

من خلال خبرتي الخاصة، أدهشني أن أرى مدى عدم واقعية أسس الآراء السياسية عمومًا. نادرًا ما كان يدهشني رؤية عدم واقعية أسس الخيارات السياسية

عمومًا. نادرًا فقط ما كنت أجد شخصًا يختار حزبًا سياسيًا – ديمقراطيًا أو شموليًا – من خلال دراسة المبادئ ومقارنتها. وكثيرًا ما كانت تحدد خيارات الإنسان لانتماءاته السياسية بالتعاطف أو تقاليد العائلة أو الأمل في الحصول على مكسب مالي أو عوامل أخرى غير ذات صلة. إن هذا الافتقار للدردشة المحفزة العقلانية يمكن أن يجعل البشر عرضة أكثر للنفاق الشمولي، حتى في مجتمع ديمقراطي. أتذكر تمامًا على سبيل المثال، طبيبًا هولنديًا كنت معه في كلية الطب؛ كان مغرمًا بابنة أحد الشيوعيين وفي النهاية تزوجها. في البدء أزعجه التضارب بين مبادئه ومبادئ محبوبته، لكن في النهاية استسلمت مبادئه وبدأ في تبرير سياسات الحزب. ولاحقًا التقيته بضعة مرات، كان طبيبًا ممتازًا وزميلًا مرحًا، وتعامل بروح رياضية مع مزحنا نصف الجاد حول السياسة التي يتبعها. لكن في اللحظة التي بدأنا فيها المناقشة الجادة فعليًا، لاذ إلى زاوية دفاعه الرسمية وأصبح شخصًا مختلفًا – نكد المزاج وآليًا، ويتحدث إلينا بمناقشات معلبة. وخلال الحرب التقيته أكثر من مرة في معرض عملنا المشترك في المقاومة تحت الأرض. كان مبهورًا تمامًا بمعاهدة «ستالين» مع النازيين، لكن في اللحظة التي تم غزو روسيا فيها وأصبحت حليفة، بدأ في آليته العدوانية مرة أخرى. لم يكن مقاتلًا شرسًا فحسب ضد النازية، بل كان يصر على أن طريقته هذه هي طريقة القتال الوحيدة. زهقت روحه في مهمة خطيرة تابعة للمقاومة تحت الأرض، وراودني دائمًا شعور بأن هذا كان يتماشى مع أحاسيسه الانتحارية الكامنة.

كذلك وجدت أمثلة مثيرة بين أتباع آخرين للنازية والشيوعية عن كيف يمكن للضغينة الشخصية التي تخرج عن سياق المعاناة من ظلم حقيقي، أن تؤدي بالإنسان إلى الانضمام لجانب المتمردين. كان بعض هؤلاء الأشخاص من النوع الذي يخضع بسلبية بكل بساطة لحركة أقوى منه – رجالًا ونساءً كانت عقيدتهم الفكرية انعكاسًا لأي جانب يستحوذ عليهم أولًا؛ وهناك آخرون حفزتهم الحاجة إلى التنفيس عن غضبهم واستيائهم الشخصي في اتجاه ما، واستخدموا الإجراء

السياسي لإشباع حاجتهم.

لكن إذا أردنا أن نصل إلى فهم حقيقي للعوامل الداخلية التي تجعل الإنسان يتبنى عقيدة فكرية شمولية، علينا أن نتعمق قليلًا في البحث، ويجب أن نركز انتباهنا على بعض الجذور الأساسية لهذه المشكلة.

حضانة القولبة

أحد الأشياء المهمة التي تعلمناها من علم النفس الحديث أن جذور العديد من سلوكياتنا ومشاكلنا في مرحلة البلوغ ترجع إلى ماضٍ بعيد منذ سني حضانتنا وطفولتنا التي تبدو هادئة. ربما تبدو حياة الطفل هادئة وخالية من الأحداث، لكن من اللحظة التي يولد فيها يسمع آلاف الدمدمات من داخل عقله ومن العالم الخارجي. غير أنه عندما كان في رحم أمه لم يكن يعرف الدفء أو البرد؛ والآن ينقل جلده هذه الأحاسيس. بينما كان يتمدد محميًا داخل جسد أمه، لم يكن عليه التنفس أو الأكل أو التبرز؛ والآن عليه فعل كل هذه الأمور بنفسه. إنه بحاجة إلى المساعدة في فعلها، بحاجة إلى الحماية، وللحصول على هذه الحماية والمساعدة عليه الاعتماد على هذين العملاقين الراشدين، الأم والأب. إنه معتمد عليهما تمامًا بكل معنى الكلمة، وغير قادر بنفسه على الاستجابة الملائمة لاحتياجاته. وها هو ذا بوسائل تكيفه المحدودة والمثيرة للشفقة، وبالحد الأدنى من أنماط الفعل الفطرية لديه. يأتيه الدفء والطعام والحب والأشياء التي يحتاج إليها للحفاظ على حياته، إذا ما فعل الشيء «الصواب» – والشيء الصواب هو الشيء المكتسب بالتعليم والتحضر، وليس الشيء الغريزي والبدائي. يفرض عليه العملاقان، أبواه، مطالب – ويبدآن في قولبته وفقًا لعاداتهما، وعلى الطفل الخضوع لكافة هذه المطالب الخارجية للحصول على مبتغاه وحاجاته. عليه اتباع مئات القواعد التعليمية غير المفهومة حتى يجازى بالتعاطف والحماية التي يتكل عليها. وكل هذا يحوله إلى كائن ممتثل نوعًا ما، وتصبح أخلاقيات والديه - إذا جاز التعبير - مستوعبة، وتغدو قوة

موجودة بداخله دائمًا. تترسخ بداخله كل أنواع العادات التي تعمل على خلق ارتباطات شرطية لديه حتى يتحول إلى شكل معين من التكيف الذي يعتقد والداه والمجتمع أنه الصالح له. تلك الشاكلة التي يكون عليها سلوكه في مرحلة البلوغ إن هي إلا مرآة للشاكلة التي عليها سلوكيات والديه. ترسخ الوالدة الصبورة بداخل طفلها الصبر؛ وترسخ الأم القلقة والمندفعة التوتر بداخل طفلها.

إن الطفل الذي ينشأ في بيئة محبة سوف يطور صور الحب والتعاطف، ويتمكن بطريقة أفضل من قبول كافة القيود التي يفرضها والداه على حريته، كل القواعد التي يضعانها. سوف يقبل جداول المواعيد، والتعود على المرحاض، وارتباك الوالدين بدون قدر كبير من الاعتراض الداخلي، حتى حين تتعارض احتياجاته مع هذه المتطلبات الاجتماعية. ربما يرغب في تناول طعامه وفقًا لجدوله حتى حين لا يكون جائعًا. ربما يريد في أن ينام عندما يريد منه والداه أن يستيقظ. يطالبه المجتمع بأن يتعلم تأجيل رغباته، وسيتعامل مع هذا المطلب بسلوك يتفق مع سلوك حس الأمان لديه المتمثل في عطف والديه. عليه أن ينتظر الطعام ولم يعد يسمح له بأن يرضع، وعليه أن يتحكم في حاجته للتبرز – كلها أمور تتطلب من الطفل أن يصنع تكيفات جديدة وصعبة. يجب أن يُحَوِل الإشباع الفوري وغير المشروط لحاجته إلى شيء أكثر تعقيدًا – نمط كامل من الاستجابات المكتسبة.

لا يهمنا أن نفصل هنا مختلف الطرائق التي يتعامل بها الطفل مع تلك الالتزامات الثقافية المبكرة، لكن من المهم فهم أن تغيير المهد والحضانة، وإعادة ربط الاستجابات الطبيعية الفطرية للطفل البدائي غير الاجتماعي شرطيًا من أجل قولبته ليصبح بالغًا، قد يرسب بداخله إرثًا من الإحباط منذ فترة الطفولة، منبعه عملية القولبة. إن المشاكل الفردية تسببها أنماط فردية في تعليم الطفل؛ وهذه الأنماط تحديدًا هي إلى حد ما نتاج التقاليد الثقافية التي ترسخ فيها، وأعراف المجتمع الذي ولد فيه الطفل. وبالدرجة نفسها التي يفرض المجتمع بها على الأطفال إحباطات وقيودًا لا يكونون مستعدين لها بيولوجيًا أو عاطفيًا، إلى هذه

الدرجة تمهد ثقافتنا الطريق أمام المشاكل السلوكية للبالغ وللسلوكيات العصابية من خضوع أو عدوان، التي ربما يتم التعبير عنها بالتحالف مع مجموعة شمولية ما.

إن ربط الطفل شرطيًّا بسلوك خانع وخاضع، مثلًا، ربما يبدأ عندما يفرض الوالدان بصرامة قواعد سلوك آلية على الطفل. ربما يجعلانه مهووسًا بالوقت أو شخصًا ينظف بشكل آلي. ربما يجبرانه على الحديث قبل الأوان، أو أن يصمت عندما يتلهف صوته للاندلاع من حنجرته، أو ينام عندما يكون جسده مفعمًا بنشاط اليقظة. هذان الأبوان يفرضان على طفلهما شعورًا مستمرًّا بالذنب – فيشعر بأنه منزعج وغير سعيد في كل مرة لا يذعن فيها لطلباتهما. وفي الوقت نفسه يجبرانه على حبهما حتى إذا كانا مزعجين. ربما يجبرانه على الاعتذار عن سلوك يبدو له مقبولًا للغاية؛ وربما يطلبان منه الاعتراف بجرائم لا يعدها جرائم في سنه. يمكن رؤية بعض أساليب غسيل الدماغ في المهد؛ ربما يستجوبه الوالدان بدقة، أو يجعلانه تحت سيطرتهما، أو يبقيانه على الدوام تحت ناظريهما. وبهذا الانتباه المهموم، لا يتركانه أبدًا وحده ليستمتع بشعور الأمان مع نفسه. يصبح الطفل العاجز غير آمن انفعاليًّا في مثل هذه البيئة، مقابل المزيد من الأمان المستعار، يصير ممتثلاً وخاضعًا أكثر، مع أن سلوك الامتثال لديه يغطي احتجاجًا داخليًّا وعدائية هائلين.

عندما لا يسمح الوالدان للطفل بأن يعبر عن احتياجاته الغريزية بشكل منفتح ومباشر، فإنهما يجبرانه على البحث عن طرائق أخرى للتعبير عنها. إذا ما واجه الطفل خلال مرحلة التدريب المبكرة – والتي ربما تبدأ من وقت ميلاده – قيودًا لا نهاية لها على التعبير المباشر عن حاجاته، فسوف يحاول الإفصاح عن هذه الحاجات بطرائق غير مباشرة – من خلال التوتر والبلبلة والبكاء. وبدلًا من أن يصبح قادرًا على استخدام القنوات الطبيعية لدوافعه الغريزية، يربط الطفل شرطيًّا، ويسمح له بالتصرف فقط من خلال كبح دوافعه والسيطرة عليها. وفي أثناء صراع الطفل للتحكم في دوافعه لإرضاء والديه، ربما تنعكس وسائل التعبير الطبيعية لديه. وبدلًا من التعبير عن نفسه يكتسب صفة الكبت. وهنالك تقبع جذور سلوكيات

يفعلها البالغون مثل الخضوع الذليل والحاجة الملحة للامتثال. ويتشكل أساس نمط الاستسلام المازوشي هذا في فترة الطفولة المبكرة. فالخضوع والاعتراف هما الإستراتيجيتان الوحيدتان الممكنتان للطفل في عالم لا يقوى على التعامل معه بتاتًا، ويكون التعبير فيه عن التمرد الداخلي والعدائية والكره بطريقة متناقضة، ويكون الصمت المُطبِق للطفل دليلًا على رغبته في البكاء والعويل. وربما يوبخ العالم العدائي ويهاجمه من خلال تلميحات سحرية أو تصرفات بهلوانية أو حتى نوبات صرع. مجبرًا على كبت احتياجاته الغريزية ووسائل إشباع رغباته، ربما يخفي وجودها حتى عن نفسه. وهنا يصبح الامتثال السطحي وسيلة التواصل الوحيدة لديه، وما إن يحدث هذا تكتسب الكلمات والتلميحات وظيفة الكتمان. لا يقول أبدًا ما يعنيه، وبالتدريج لا يعرف حتى ما يعنيه.

إن ما يستمر في حياة الرشد جراء هذا النوع من تربية الأطفال يكون واضحًا. إن الطفل الذي يدرب على الامتثال، ربما يترعرع ويصبح بالغًا يرحب عن طيب خاطر بالمطالب السلطوية للقائد الشمولي. إنه التكرار المحتفى به للنمط القديم الذي يمكن اتباعه دون أي استثمار في طاقة انفعالية جديدة. وقد تدرب من قبل على توجيه عدائه إلى كباش فداء، ربما يزيح الآن حنقه الخفي ضد أحكام والديه وقواعدهما ليوجهها ناحية المجتمع ككل. أو ربما يتمكن من التنفيس عنها في الانفجار الشديد لهذا العداء المكبوت، الذي من أمثلته الغوغاء الذين كانوا ينفذون أحكام الإعدام، أو كتيبة العاصفة التابعة لهتلر[89].

ثمة أشكال أخرى أيضًا من السلوك الأبوي لها تأثير على الطفل. إذا دُرب الطفل قبل الأوان على عادات كان يمكن أن تتطور تلقائيًّا في عمر لاحق، ربما تظهر عليه كافة أنواع التشوهات في سلوكياته الطبيعية. ومن هذه الأمثلة الأكثر شيوعًا مثال التدريب المبكر على استخدام المرحاض، لكن هناك عدة أوامر أبوية أخرى

89 - كتيبة العاصفة (1920 – 1945): الجناح شبه العسكري للحزب النازي. (المراجع)

يمكن أن يكون لها التأثير نفسه على الطفل. إن الطريقة التي يرتدي بها الطفل ملابسه، أو يطالبه بها الآباء دومًا أن يبقى هادئًا ونائمًا وبلا حراك أمثلة صالحة بالقدر نفسه. عندما يطبق الطفل أي أمر بحذافيره قبل أن يكون قادرًا على التعامل معه، سوف ينتج عنه تأثير محبط هائل. ما يجبر عليه الطفل من قوة ما خارجية يصبح قاعدة داخلية آلية رغمًا عنه. دعنا الآن نرجع إلى مثال التدريب على استخدام المرحاض، مع أنه مجرد جزء واحد من نمط كامل من التعليم. إن الطفل الذي يتدرب على التحكم في حاجته إلى التبرز في سن مبكرة للغاية، يتعلم كيف يبقي نفسه نظيفًا، ويقبض أمعاءه في ظل كافة الظروف. من هنا يتعلم جسده كيف يسيطر على نفسه تلقائيًّا، لكن الطفل، في مكان ما بداخله، يشعر بالازدراء لمن أجبروه على هذا السلوك، وربما يكبر في السن ليصبح بالغًا لديه ميول عدوانية حادة، وجاهزًا لاستحسان عقيدة فكرية ذات طابع عدواني. وفي حالات أقل درجة، ربما ينتج عن الصراع بين المحرمات الخارجية والحاجة الداخلية لإراحة الأمعاء نمط مستمر من الإحساس الداخلي بعدم الأمان. أو ربما يؤدي إلى استياء وتذمر على الدوام؛ وهو ما يمكن استخدامه بسهولة من أي مستبد مرتقب.

ما ينبغي علينا التأكيد عليه هو: أن أقدم شبكة تواصل بين الوالدين والطفل حدثت فيما يدعوه علم النفس المرحلة اللاشعورية قبل اللفظية؛ حيث يوجد تواصل بلا كلمات. تنقل الأم حالتها المزاجية مباشرة إلى الطفل؛ إنه يستشعر أحاسيسها ويستوعبها. كما ينقل الطفل هو الآخر حالته المزاجية إليها؛ فهي تشعر بألمه وفرحته تقريبًا في الوقت الذي تنتابه هذه المشاعر. وهذه الحساسية لدى الطفل تجعله يتصرف بعصبية شديدة – فهو يدرك مشاعر أبويه بعمق. ومثل تلك العوامل السلبية كالقلق، وعدم الأمان، والسلوكيات الطفولية، وعدم الانسجام المتبادل، والحب العصابي، والحرمان، والمكابدة من أجل الوجود، والطغيان القهري لها جميعها تأثير هائل على الطفل. عالجت منذ فترة قريبة طفلاً رفض أية بادرة بإطعامه أو تدبير شؤونه من أمه. «عرف» الطفل أن أمه تكنُّ له عداء شديدًا، وشعر

بإعراضها ونفورها. لكن الطفل قبل الطعام والعطف من أي شخص آخر. يبدأ التفاعل بين سلوكيات الوالدين ونمو الطفل منذ الميلاد.

ربما تكون أحد أوضح الأمثلة على النمو المشوه للطفل ظاهرة في حالة عالجتها خلال الحرب العالمية الثانية، عندما طُلبت مني دراسة نفسية على أحد الأشخاص الذين زعموا تواطأهم مع النازيين. كان هذا الرجل يعيش في إنجلترا حينما قابلته، قال إنه غادر من هولندا، التي كانت محتلة حينذاك، لأنه لم يعد متفقًا مع المحتلين الألمان. عندما وصل إلى إنجلترا، وضِع احترازيًّا في منزل للأشخاص رهن التحقيق، المشتبه في أنهم جواسيس. ومن هناك أودع على الفور مستشفى الأمراض النفسية نظرًا لسلوكياته الغريبة. لم يكن مصابًا بمرض ذهاني، لكنه كان يعاني من صعوبة شديدة في التواصل مع الآخرين. عندما ذهبت لمقابلته، أصبح واضحًا لي أنه مرتبك تمامًا. كان يتلعثم كثيرًا إلى درجة أنه كان يستحيل فهمه تقريبًا. سألته عن طفولته، ولم يكن من السهل عليه الحديث عنها، لكنه في النهاية قال لي شيئًا ما عن خلفيته. كان طفلًا وحيدًا، وكانت أمه المهيمنة على العائلة؛ حيث كانت تعمل بنشاط في البحث العلمي. أما والده فكان شخصًا ضعيفًا وغامضًا، ونادرًا ما كان يتواجد في المنزل؛ حيث كان يعمل مديرًا في شركة كبيرة، وكان كثير السفر. وفي إحدى المرات النادرة التي كان فيها الأب في المنزل، تذكر المريض فترة صمت كبيرة بين والديه، كان والده يحتج من وقت لآخر على تعليمات والدته المستمرة. وفي بعض الأحيان، كان الابن يعاون أمه في انتقاد انعزال والده وعدم اهتمامه، وأحيانًا أخرى كان يلجأ لوالده ليستدر حبه ومساعدته ضد السلوك القمعي لوالدته. لكن في أغلب الأحيان كان يشعر بالضياع والوحدة في المنزل. في أواخر سن المراهقة، ظهرت لدى الفتى بعض الميول الجنسية الشاذة، التي يلعب فيها الدور السلبي والخاضع. لكنه لم يشعر بالحيوية العقلية إلا عندما جعله أحد أصدقائه يحضر مسيرة استعراضية فاشية. ألهب عرض القوة والعدوانية حماس الفتى، بل وأثار بداخله الأحاسيس الجنسية. انضم للجماعة الفاشية، مما سبب هلعًا شديدًا لوالديه، لكنه لم

يكن قط نشطًا للغاية في عمل الحزب؛ لأن الحزب لم يدعمه بالإرشاد والمحبة اللذين يتوق إليهما.

بعد غزو النازيين والاحتلال، طلب منه الحزب أن يكون أكثر نشاطًا في التواطؤ مع الألمان. والآن يؤلمه ضميره وصار مريضًا، وتطورت لديه كافة أنواع أمراض المعدة، وكانت بالنسبة إليّ بصفتي طبيبًا نفسيًّا انفعالية المنشأ بشكل واضح. إلا أنه لم يكن قويًا بما فيه الكفاية لينسحب من الحزب تمامًا. شعر أنه واقع بين المطرقة والسندان – الحزب والخيانة. وهنا عاودته مرة أخرى معاناة الطفولة؛ شعر بعدم الأمان مع الأب أو الأم، ولذا قرر الهروب من البلد لأن لديه إحساسًا غامضًا بأن هذا سيساعده على الهروب من صراعاته.

وما إن كان في إنجلترا في مستشفى الأمراض النفسية، حتى شعر بالرضى التام. لم يفهم ببساطة طبيعة الاتهامات الخطيرة التي وجهت إليه. عندما تحدثت معه حول شؤون عالمية ونشاطه السياسي، التزم الصمت التام. لم يتذكر أي شيء من تفاصيل تصرفاته السياسية. كان الأمر وكأنه عاش حلمًا منذ اللحظة التي فر فيها من هولندا. من الوارد تمامًا أن يكون العدو قد استخدمه أداةً، لكن في الوقت الذي رأيته فيه كان شابًّا لديه حالة شبه عصابية ويتملكه الخوف. ظل في مستشفى الأمراض النفسية خلال فترة الحرب.

يوجد شيء واضح تمامًا في هذه القضية (بغض النظر عن تعقيدها باعتبارها ظاهرة مرضية)، وهي بحث هذا الشاب الدائم عن سلطة ذكورية. هذا البحث عن دعم روحي شائع جدًّا بين الأشخاص الذين تنمو بداخلهم ميول شمولية.

الأب يقطع الحبل

أظهرت لنا الدراسات النفسية مرارًا وتكرارًا أن سلوك الطفل تجاه السلطة الأبوية، بكل تعقيداتها الداخلية الخفية، يلعب دورًا رئيسًا في تحديد كيف سيتعامل مع عداواته – سواء أكان سيتعلم مجاراتها أم يوجهها ناحية أهداف تدميرية. وكما

أسلفنا القول، يشكل الوالدان والعائلة تقريبًا كل بيئة الطفل في سنوات حياته الأولى. إنهم يشكلون ظروف أسس شخصيته المستقبلية. وفي العائلة يحدد تأثير الأب إن كان الطفل سيرتبط بالروابط الطبيعية القوية مع والدته، وباحتياجاته الاعتمادية واحتياجه للحماية، أم أنه سيخرج من عالم الأم ويشكل روابط جديدة مع أناس جدد. والأب هو أول شخص يقلص العلاقة البيولوجية الضرورية بين الأم والطفل. إنه ما يدعوه المحللون النفسيون ممثل الإحالة الأولى؛ أول نموذج أولي يمكن للطفل أن يحيل إليه توقعاته بالإشباع وإحساسه بالقرابة والرضا والخوف. هذه العلاقة التجريبية الجديدة الأولى مع الأب العملاق، ربما تصبح نموذج الارتباط الشرطي لكل علاقة اجتماعية تالية.

إن علاقة الطفل المبدئية مع أمه علاقة بيولوجية وتكافلية محضة. يحل المهد محل الرحم. تعرف الأم كل شيء وتفعل كل شيء. يصف علم النفس التحليلي علاقة الطفل بأمه بأنها علاقة اعتماد شفوي؛ لأن الطفل الرضيع عديم الحيلة، يعتمد تمامًا على توفير أمه للطعام والرعاية والدفء. إن الحاجة الاعتمادية لدى هذا الكائن البشري الصغير تدوم أطول مما هي عليه في الحيوانات الأخرى. إنها تلك الحقيقة التي تجعل الإنسان محبًا للمخالطة، ومعتمدًا على التعاون مع الآخرين.

الأب بمثابة طرف ثالث ليست له صلة بعلاقة الاعتماد البيولوجي في حياة الطفل. وعندما يقلص علاقة الطفل مع أمه، فإنه بهذا يقطع الحبل السري النفسي، مثلما يقطع الطبيب الحبل السري الحقيقي عند ميلاد الطفل. في البداية، يعطي للطفل الفرصة ليحول مشاعره وتوقعاته إليه؛ وبعدئذ، يجعل الطفل أكثر نشاطًا خارج عالم الأم ويعلمه المزيد والمزيد عن علاقاته الاجتماعية. إن الدور المحدد للأب بصفته نموذجًا مبدئيًا للإحالة ليس بسيطًا كما يبدو للعديد من الآباء، إن الطفل يحتاج إلى أن يتماهى مع العملاق الذي يعيش معه ومع الأم؛ يريد أن يصبح على ألفة بالعملاق، ويريد من العملاق أن يصبح جزءًا من عالمه. ويريد الطفل أكثر من هذا – يريد الشعور بالرضى من الأب؛ بحيث يمكنه أن يحب الأب مثلما يحب

الأم. لكن الطفل سوف يحول بعض حبه واستثماره الانفعالي إلى الأب وحده إذا ما وجد شيئًا من الأمومة فيه. يمكن للأب أن يفعل ما تفعله الأم – يمكنه إطعام الطفل، ويمكنه مواساته، ويمكنه العناية به – ومن ثم يمكن للطفل الحفاظ على الشعور بالرضى والعاطفة تجاه هذا الطرف الثالث. إلا أن إحالة المشاعر لا يمكن أن تحدث إلا إذا كانت العلاقة بين الولدين نفسيهما هادئة. كيف يمكن للطفل أن يتماهى مع والديه ويحبهما إذا كانا في صراع دائم معًا؟

هذه الصورة بالطبع تبسيط مخل. هناك أمهات يتصرفن مثل الآباء الباردين والمنزوين بعيدًا، وآباء يتصرفون مثلما تفعل الأمهات الدافئات والعطوفات. كما يوجد أجداد وآباء بالتبني يقومون بالرعاية. يوجد الكثير من البدائل للأم أو الأب. لكن ليس هذا هدفي. أقصد أن كل موقف يجب أن يدور حول فرد يمكن أن يصبح النموذج الأولي للارتباط الشرطي في علاقات الطفل مع كائنات جديدة. والأرجح أن يكون الشخص الأول هو الأب، وهو من يغير اعتمادية الطفل البيولوجية إلى علاقة نفسية. فإذا لم يكن هناك رمز أبوي، أو إذا كان الأب ضعيفًا جدًّا أو مشغولًا جدًّا أو كان منكرًا للطفل أو متسلطًا تجاهه، تكون النتيجة أن علاقة الطفل مع الأم واعتماده عليها تبقى قوية وتدوم لفترة طويلة. وبالتالي، فإن حاجة الطفل للمشاركة الاجتماعية والروابط الاجتماعية مع الآخرين تضحى بالنسبة إليه حاجة نهمة. وعندما يغدو راشدًا ربما يكون مستعدًّا للالتحاق بأية مجموعة اجتماعية تعده بالدعم والطمأنينة، أو ربما يوجه استياءه اللاواعي من الأب الذي لم يساعده على النمو والاستقلالية، ليصبح استياء من رموز سلطوية أخرى مثل المجتمع نفسه. وفي الحالتين كلتيهما ربما يتجه الطفل إلى المشاكل وعدم التوافق، وفي الحالتين كلتيهما ربما ينمو الطفل ليصبح شخصًا بالغًا غير ناضج.

في دراسة عن العيش بالوكالة، وصفت توقف النمو الانفعالي الناجم عن عدم لعب الأب لدوره الملائم أو عدم حضوره. إن الطفل الذي يتربى في مثل هذا الجو المعيب انفعاليًّا، يبحث باستمرار عن رموز قوية يمكنها أن تخدم كوكيل لعلاقات

عادية كان يمكن للطفل أن يحظى بها في الحياة لولا ذلك. لقد عالجت عدة حالات من الشذوذ الجنسي وأشكالًا أخرى من توقف النمو، في كل من الرجال والنساء، وكان من الممكن أن تنسب مباشرة إلى الحياة المقيدة والتكافلية أكثر من اللازم مع الأم التي تنتج في مثل هذه البيئة.

في طريق بناء وعي الإنسان ليصبح ذاتًا مستقلة، وتوطيد قدرته على إقامة علاقات انسيابية وسهلة مع أقرانه من البشر، يلعب الأب دورًا مهمًّا بصفته الرئيس والحامي الطبيعي للعائلة. إنه يقطع الحبل السري. وربما يضع الارتباط الشرطي للنمط اللاحق من الاعتمادية والاستقلال. كما يمكن أن تصبح هيمنته النفسية المحتملة نعمة أو نقمة؛ حيث يغدو السلوك الانفعالي للطفل تجاه أبيه نموذجًا أوليًّا لسلوكه تجاه قادته المستقبليين، وتجاه المجتمع نفسه.

وقد عاينا ذلك صراحة في حالة «الجاسوس» الذي تحدثنا عنه ولم يحظَ قط بإرشاد من ذكر قوي في حياته. كثير من الأشخاص الذين فحصتهم، من الذين اختاروا الدخول في حالة تماهٍ مع جماعات شمولية عدوانية، كانوا يعانون من هذه المشكلة. بالنسبة إلى هؤلاء الناس، يصبح الحزب الشمولي الأب الصالح الذي قبلهم، ووكيلًا يعبر عن كرههم الخفي والمحبَط. يمكننا القول إن الحزب يحل مشاكلهم الداخلية.

إن الصراع بين الآباء في الطفولة المبكرة، والسلوك المتضارب والمهدد والمبغض تجاه الطفل يمهد الطريق للتمرد والخضوع وتكرار هذا النمط لاحقًا في الحياة. ربما تؤدي الرغبة في الانفصال عن نمط العائلة إلى التمرد، لكن الشكل المحدد الذي يكون عليه التمرد يعتمد على مدى قدرة الحركات السياسية في تعديل مسار استياء الفرد وتوجيهه.

بالطبع لا يعني هذا أنه لا توجد نواة صلبة للأشخاص ذوي العقل الشمولي؛ إذ يتغذوا منذ المهد بعقائد آبائهم الشموليين، الذين وهبوا أنفسهم لمهام حزبهم لأنهم

لم يعرفوا قط عالمًا مختلفًا عنه. وفقًا لـ «ألموند»[90]، نجد هذه الأنواع على وجه الخصوص في العالم الغربي بين المتطرفين في الدرجات العليا. إنهم يرضعون الشكل الشمولي من الاشتراكية مع حليب أمهاتهم؛ إنهم أعضاء جماعة تزداد تدريجيًا من الممثلين الشموليين بالوراثة. هنالك، لا حاجة لأن تصبح ثائرًا متطرفًا.

لكن غالبية ذوي العقل الشمولي في المجتمعات الديمقراطية هم رجال ونساء ينجذبون لتلك الطريقة المدمرة من الحياة لأسباب انفعالية داخلية معروفة لهم. بينت لي خبرتي مع كل الشيوعيين والنازيين خلال الحرب العالمية الثانية هذه الحقيقة مرارًا وتكرارًا. في هولندا، مثلما هو الحال في الدول المستعمرة من النازيين، حارب معنا الشيوعيون والمتعاطفون معهم بشجاعة في المقاومة تحت الأرض بصفتهم رفقاءنا المؤقتين. وحتى خلال ذلك الوقت العصيب من الأزمة والإرهاب القومي، لم تخلُ طباعهم قط من النقد اللاذع لنا والاستياء الشديد منا. لقد أصروا على أن عقيدتهم الفكرية هي الوحيدة الصحيحة، وأعلنوا تصريحًا أحيانًا وتلميحًا أحيانًا أخرى، أنه بعد القضاء على النازيين، سيواصلون نضالهم ضد النظام الاشتراكي. دعني أعرض مثالاً واحداً لتوضيح تلك النقطة. كان أحد أولئك الشيوعيين طبيبًا شجاعًا (ليس الشخص الذي تحدثت عنه سابقًا)؛ فقد قَتل قائدًا نازيًّا وبعدها مات هو نفسه ميتة شنيعة. كان رجلًا ناضجًا لم يكن باستطاعته قط التغلب على بعض صفات الاستقامة والعدوانية من فترة المراهقة. في الليلة التي سعى فيها للوذ بمنزلي هربًا من خطر محدق، شعر أنه مضطر للدخول معي في مناقشة سياسية نظرية طويلة تعتصرها المرارة. حينها وبخ بازدراء باقي جماعات المقاومة لأنها لم تشاركه وجهات نظره السياسية. ولإنصافه علي القول إن آراءه ومُثُله بدت صادقة بالنسبة إليّ، لكنه كان متشبعًا بالعدوانية الشديدة تجاه الحكومة في موطنه، إلى درجة أنه كان مستعدًّا طوال الوقت للإطاحة بها. توصلت إلى أن

90 - جابريل أ. ألموند Almond (1911 - 2002): أمريكي، متخصص في السياسة، وقد عُرف بأعماله حول السياسة المقارنة والثقافة السياسية. (المراجع)

جوهر منطقه الزائف يكمن في الارتباك حول الغاية والوسيلة في النضال الاجتماعي من أجل العدل. بالنسبة إليه أصبحت التكتيكات والاستراتيجيات تفوق في أهميتها الهدف النهائي للتعايش السلمي بين الإنسان والأرض. وكانت ميتته البشعة – بعد أن قتل ضابطًا بالقوات الخاصة الألمانية – نتيجة جزئية لحقيقة أنه سعى وراء التكتيكات لتتعدى الحاجة الإستراتيجية في تلك اللحظة. صحيح أنه في النهاية وهب حياته للمثل التي يؤمن بها ولوطنه الأم، لكنه حتى النهاية ظل يحمل ضغينة شديدة ضد كل من كانوا لا يتفقون تمامًا مع كل ما يعتقده ويشعر به. كانت تلك الضغينة الشخصية والعدائية هي التي جعلت تخطيطه سيئًا وقادته إلى مصيره المحتوم.

لا يدرك معظمنا بوضوح أننا، إلى جانب رغبتنا في أن نصبح مواطنين صالحين وأسوياء، لدينا أيضًا رغبات خفية لانتهاك تحالفاتنا مع الكيان الاجتماعي الذي ننتمي إلى عضويته. هذه الرغبات ليست مبنية على المنطق والذكاء؛ إنها انفعالية تمامًا. وهي تترسخ بفعل الطرق التي نتربى عليها، وبعلاقتنا مع آبائنا، وبنظامنا التعليمي، وبسلوكنا تجاه أنفسنا وتجاه سلطتنا. لكن كافة البشر الذين يخضعون بصرامة لأي معتقدات سياسية، خاصة من احتضنوا بعض العقائد الفكرية الشمولية، يعتقدون أن سلوكياتهم نابعة من قناعة عقلانية، وأنها نتيجة تطور فكري طبيعي. لديهم إصرار على أن من لا يتفق معهم ملتزم بطريقة التفكير المنغلقة والعتيقة. فلا يمكنهم رؤية سلوكهم الانتقامي والخائن على أنه شيء غير اجتماعي وغير طبيعي.

من الواضح بلا شك بالنسبة لعالم النفس أن هذه السلوكيات لا ترجع جذورها إلى الاقتناع الفكري، لكن إلى حاجة انفعالية قابعة في أعماق النفس. عادة ما كنت أرى حالات كانت هذه التحالفات العمياء والصارمة مع العقيدة الفكرية الأيديولوجية فيها بمثابة تمرد جريء ضد الحاجة الداخلية القهرية للنمو والتغير والنضج. في هؤلاء الأشخاص، كان اختيار حزب سياسي خاص هو البديل

الوحيد لحاجتهم إلى الاعتماد. غالبًا ما يكون العناد الفكري مأساويًا لأنه ربما يغطي ردود الفعل العصابية الأساسية التي قد تؤدي إلى تدمير الذات. كانت إحدى مريضاتي سيدة شابة ومعتقداتها اليسارية المتطرفة هي دفاعها ضد مشاعر زنا المحارم تجاه والدها الرجعي. وتطلب الأمر علاجًا مطولًا لجعلها تفهم الطبيعة الحقيقية لمشكلتها، وجعلها ترى أنه لم يكن هناك أي شيء مخزٍ أو مقزز حول حبها الطفولي والاستياء الذي كانت تحاول إخفاءه بسلوكها السياسي.

إن الجذور التي ينبت منها السلوك الشمولي ربما ترجع إلى الحاجة غير المفهومة إلى السلطة، والمقاومة المرتبكة للسلطة. عندما يخفق الأب القائد، يكون مثالًا لنمط مشكلة مستقبلية مع السلطة. وبدلًا من إقامة علاقة ناضجة مع إخوته البشر، يصبح الطفل شخصًا بالغًا ومجبرًا على اختيار رابطة شمولية مستبدة لكبح جماح توتره.

أينما وجد الصراع الأبوي، ينمو الطفل ليصبح بالغًا مثقلًا بأعباء قد تجعله متشوقًا لقبول عروض الحلول الشمولية البسيطة. وأينما وجد القهر الأبوي، الذي لا يدع للطفل أية فرصة لتنمية سلوكياته وتقييماته، ينمو الطفل ليصبح بالغًا خانعًا، وقد يقضي كل حياته بحثًا عن سلطة خارجية، وعن شخص يملي عليه ما ينبغي عليه فعله.

الفصل الحادي عشر

العدوى العقلية والهذاء الجماعي



في أوقات عصيبة مثل هذه الأوقات، تتْبع أفكار كل شخص اللعبة الدبلوماسية التي تجري في شتى المؤتمرات السياسية. ومن المجدي حينئذ دراسة إن كان من الممكن لقائد الأمة أن يصل إلى فهم عام نتيجة تبادل الكلمات والأفكار والتفاوض بشأن المعاهدات. إلا أن ثقافات العالم المنوعة، ومختلف العقائد الفكرية لا تتحدث لغات مختلفة فحسب، لكنها تختلف حتى في طرائق التفكير. دون قصد يتسلل ماضينا الشخصي وبيئتنا الثقافية إلى عادات تفكيرنا، وترتبط أحاسيسنا وأفكارنا ارتباطات شرطية، وتقهر نتيجة تأثيرات اجتماعية عديدة.

من الممكن بالفعل كشف بعض الأوهام والأحكام المسبقة التي يضمرها الناس لبعضهم. ويمكننا القول إن البيئات الخاصة التي يترعرع فيها الناس، والعادات التي يكتسبونها توطد داخل الأشخاص أوهامًا وهذاءات خفية، تكون بدون إدراك في معظمها. من خلال البحث في هذا المجال، تمكنت الأنثروبولوجيا وعلم النفس من مقارنة مختلف المعتقدات الفكرية لدى الناس بملاحظة نمو ما هو سليم وما هو غير سليم – في الطفل، وفي الجماعات، وفي القبائل، وأخيرًا في الأمم. وهذه النتائج تلفت انتباهنا إلى فن الجدال الصعب في المواقف التي يندر وجود أرضية

تواصل وفهم مشتركة فيها. في دراسة بشأن القهر العقلي، تتبعنا بعض التأثيرات النفسية الجماعية التي تجعل سلوكنا يرتبط شرطيًّا في الحياة.

تأكيد أخطائي الشخصية

إن الكذبة التي أقولها عشر مرات تصبح نصف حقيقة بالنسبة إليّ. وكلما واصلت تكرار نصف الحقيقة هذه للآخرين، يصبح هذائي المدلل.

إننا نكتشف هذه الظاهرة يوميًّا في مختبر العلاقات الإنسانية العملاق الذي ندعوه الاستشارة النفسية والعلاج النفسي. دعنا نلقِ نظرة على مثال واحد فقط: حالة الطفلة التي تتمتع بوافر الصحة، وتقرر يومًا ما أنها لا تريد الذهاب إلى المدرسة لأن الدراسة تبدو بالغة الصعوبة. لذلك تقول لأمها إنها مصابة بصداع، وتوافق الأم على بقائها في البيت؛ ومن ثم تتفادى الفتاة الدراسة التي تهابها، وتحصل على امتنان إضافي من رعاية فائقة وحنونة من أمها.

في المرة القادمة التي تود الفتاة الصغيرة أن تمكث فيها في البيت من الأسهل عليها التظاهر بالصداع – وفي المرة الثالثة تصبح أسهل أكثر. بالتدريج تبدأ الفتاة نفسها في الاعتقاد بأن لديها مرضًا متكررًا. كان ضميرها يؤنبها في المرة الأولى التي كذبت فيها، لكن الآن أصبحت كذبتها المبدئية حقيقة راسخة لديها. وبحلول الوقت الذي تصير فيه بطلتنا امرأة ناضجة يكون عليها استشارة طبيب بشأن الصداع المتكرر الذي يصيبها. وينبغي على الطبيب والمريضة أن يمضيا بضع ساعات في حل لغز الكذب الأبيض، والتلميحات، والشكوى من الشفقة على النفس إلى أن تكتشف المريضة أن كل الصداع الذي كان يأتيها بدأ في اليوم الذي لم ترغب فيه الذهاب إلى المدرسة.

إن نوبات الصداع الذي يسببه الهذاء بلاء حل بالعالم نفسه. والديماغوجية السياسية إلى حد ما مشكلة في بلدنا، كما أن الشكل المعين الذي تتخذه هذه الديماجوجية مجرد مرحلة عابرة، حتى عندما هدأت الوحوش الحالية والخيالات

الداخلية، ربما ينشأ الديماغوجي الخالد من جديد. سوف يتهم الآخرين بالمؤامرة لإثبات أهميته، ويحاول إرهاب من ليست لديهم قبضة حديدية أو من ذوي الطباع الحادة من أمثاله، ويغوي بعض الناس بالتدريج ليقعوا في شباك هذاءاته. وعلى الأرجح سيتقمص عقلية الشهيد ليستدر دموع أصحاب القلوب الضعيفة. وبهذه العاطفية والشك، يبدد ثقة المواطنين ببعضهم. ويعدي هذاء عظمته تلك الأرواح غير الآمنة التي تأمل في أن يصيبها بعض وهجه الاستبدادي.

لسوء الحظ اقتصرت دراسة مشكلة الهذاء على مظاهرها المرضية. والطبيب النفسي الذي واجه هذاءات العظمة في مرضاه كان يفتقر فيما مضى إلى الخلفية الفلسفية والاجتماعية اللازمتين لتمكينه من المقارنة بين الأنظمة الهذائية لمرضاه والهذاء الجماعي في العالم. وعند التعامل مع المرضى الذين يعانون من جنون العظمة أو عقدة الاضطهاد، كان يميل كثيرًا إلى فرضية تشرح الهذاءات المرضية على أنها نتاج التغيرات التشريحية في دماغ الفرد؛ لم يهتم اهتمامًا كافيًا بالسؤال عن ما إن كانت لهذه الظواهر علاقة من أي جانب بأية طريقة غير عادية من طرائق التفكير في الشخص السليم جسديًا.

ومنذ نمو الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية في العقود الماضية، ألقي ضوء جديد على موضوع المشاعر الجماعية والهذاء الجماعي. ومن الواضح أنها ليست ظاهرة يمكن لأخصائي علم الأمراض أن يفحصها تحت المجهر؛ فهي تتطلب معرفة بالتاريخ، وعلم النفس الاجتماعي، وبكافة الدراسات المعنية بالعلاقات بين البشر والتفكير الجمعي للإنسان.

ولكي نصل إلى مرحلة إكلينيكية لدراسة هذا الموضوع، من الضروري تجريد المرء من عدة أفكار فلسفية ثابتة تهيمن على الفكر العلمي منذ أرسطو. فهناك مثلًا مذهب وحدة كافة عمليات التفكير وإمكانية الفهم العالمي للتفكير الإنساني. وهذا الأمر مبني في الأساس على الاعتقاد بأن كافة البشر يفكرون بالطريقة نفسها. لكن على العكس من هذا الافتراض، الحقيقة الظاهر للعيان أن الفلاسفة أنفسهم يجدون

صعوبة بالغة في الوصول إلى فهم مشترك. ربما يرجع هذا بدرجة كبيرة إلى حقيقة أن اختلاف البشر يجعل لهم وسائل ومعايير مختلفة في التفكير. على مدار قرون تبنى العلم مقولة أرسطو بأن معظم الأفكار تنفذ وفقًا لقواعد المنطق الراسخة، الذي ينطبق بنفس طريقة قوانين الطبيعة. وكان الفيلسوف «**فرنسيس بيكون**»[91] أول من أشار في نظريته عن الأصنام إلى أنه بالرغم من وجود قوانين المنطق والتفكير الواضح بكل تأكيد، ربما يستخدمها البشر أو لا يستخدمونها؛ وذلك يعتمد على الظروف الانفعالية: «تكون الأفكار عادة الستائر المسرحية التي تخفي العواطف وردود الفعل الشخصية». في ذلك التصريح ربما نجد من هذا الفيلسوف الذي عاش في وقت «شكسبير» شبه هجوم على المنطق الظاهر للديماغوجية الحديثة. منذ عصر النهضة إذًا تم الإقرار بأن المشاعر البشرية والميول الشخصية تشكل الفكر وتوجهه، ووجهة النظر هذه تجد أكثر تعبيراتها المحركة للمشاعر في أعمال «سبينوزا» و«باسكال».

عندما يتعلق الأمر بالتواصل مع ظاهرة العاطفة الجماعية والهذاء الجماعي، من المستحيل إبقاء علم النفس بمنأى عن الصورة، سواء نظرنا إليها من الناحية الفلسفية أو السياسية. إننا بفحص هذه المشكلة نواجه على الفور سؤالًا مفاده: هل هذه الظاهرة المزعجة في حياة الجماعة التي تؤدي إلى سوء فهم متبادل، نابعة من أن الجماعة في حد ذاتها في مرحلة عدم نضج ومراهقة فيما يتعلق بالنمو النفسي والسياسي؟

ربما يساعدنا ويلقي الضوء على إجابة هذا السؤال أن ندرس بإيجاز مختصر تاريخ نمو الوعي والإدراك في عقل الفرد وهو يمر في مراحل متتابعة من الطفول إلى النضج؛ حيث يمكننا في الواقع أن نجد توازيًا بين مراحل النمو هذه في الفرد

---

91 - فرنسيس بيكون Francis Bacon (1561 - 1626): الفيلسوف الإنجليزي الشهير؛ وفي نظريته عن الأصنام Idols يتحدث عن أربعة أصنام: وهي أصنام القبيلة، وأصنام الكهف، وأصنام السوق، وأصنام المسرح. (المراجع)

والجماعة البشرية.

مراحل التفكير والهذاء

[أتبع هنا جزئيًا تصنيف «**شاندور فيرينتزي**»[92] وتصنيفي من كتابي عن الهذاء.]

تواجه النفس العالم الخارجي دومًا وتتواصل معه، وفي كل مرحلة من تطور الفرد يكون الشعور بهذا العالم وأحداثه مختلفًا. ومع أن مختلف العلماء توصلوا إلى استنتاجات متباينة حول المراحل المتعددة وآثارها، فإن هذا الإدراك نفس بتغيير المظهر الشخصي ونموه هو أحد أهم النتائج العلمية التي توصل إليها علم النفس ومتفق عليه بين علمائه. دعني أشرح بإيجاز تلك المقاربة التطورية في علم النفس البشري؛ إنها ليست الجانب الوحيد، لكنها ستساعد على توضيح التأثير الهائل للتفكير غير الناضج والوهمي على خياراتنا النهائية.

يفترض علم النفس التطوري – الذي يدرس الأطفال والشعوب البدائية – فيما يتعلق بأصل التفكير، في كل من الفرد والعرق، وجود مرحلة هلوسة في العقل، وفيها لا يمكن الشعور بالفارق بين العالم الداخلي والخارجي؛ لا يكون هناك فصل عقلي ومسافة بين الذات والعالم. تشعر النفس أنها كلية القدرة – ويعزى كل ما يشعر به داخل النفس إلى الكون، ويتخيل أنه جزء من هذا الكون. ووفقًا لعلم النفس التطوري، يشعر الطفل الرضيع بالعالم بهذه الطريقة، وفي أنواع محددة من الجنون يرتد الشخص البالغ إلى تلك المرحلة من الهلوسة. ومع ذلك فإن الإنسان الناضج لا ينجح تمامًا في الفصل بين الفانتازيا الداخلية والحقيقة الخارجية، وعادة ما يعتقد أن حالته المزاجية الخاصة والذاتية نتيجة حقيقة خارجية.

في المرحلة التالية، مرحلة التفكير الرُّوحانِيّ– animistic، مازال هناك إحساس جزئي بالوحدة بين الأنا والعالم. يتم إسقاط التجربة الداخلية للفرد ومخاوفه

---

92 - شاندور فيرينتزي S. Ferenczi (1873 - 1933): محلل نفسي مجري، ومنظِّر رئيسي في مدرسة التحليل النفسي، وأحد المقربين من "سيجموند فرويد". (المراجع)

ومشاعره على عوامل سببية ظاهرية في العالم الخارجي. والعالم الخارجي هو تهديد شيطاني مستمر له. إن الطفل الذي يضرِب على المائدة يسقط على هذه المائدة قوة عدائية حية، ويقاومها. ورجل القبائل البدائية، الذي يطارد وحوش الفرائس، يعزي إلى تلك الحيوانات التي يخشاها قوى إلهية؛ قوى إلهٍ عدواني. بل ربما في الواقع حتى يحتشد العالم الخارجي كله بمخاوف الرجال. في أوقات الهلع والخوف، ربما نتصور أن الأحياء التي نسكن فيها تعج بخونة أو طابور خامس لا وجود لهم. إن تفكيرنا الروحاني هذا مشغول على الدوام باتهام الآخرين بما يحدث بالفعل داخل عقولنا. أما في الوقت الحالي فلا وجود للشياطين والأشباح على الأشجار وفي الحيوانات البرية؛ بل استوطنت شتى أكباش الفداء التي يصنعها المستبدون والديماغوجيون.

هذه المرحلة الثالثة، هي مرحلة التفكير السحري، التي توجد فيها صلة قريبة بين الإنسان وعالمه الخارجي. ومع ذلك يضع الإنسان نفسه في جهة مقابلة للعالم أكثر من أن يكون متحدًا معه، إنه يريد التفاوض مع القوى الغامضة المحيطة به. في الوقع، يعتبر السحر أبسط إستراتيجيات الإنسان. لقد اكتشف أن بإمكانه التلاعب بالعالم من خلال الإشارات والإيماءات، وفي بعض الأحيان بالأفعال والتغييرات الفعلية. فينصب أعمدة الرسوم الطوطمية، وقوالب ذات أشكال معينة للتضحية بها؛ يصنع طلاسم وعقاقير غريبة. كما يستخدم الكلمات إشارات قوية على تغيير العالم، كما يطور شعائر يشبع بها حاجته في التفاهم مع العالم الخارجي.

من منا لم يشعر برغبة مفاجأة في عد الحصى، أو لم يشعر بغيرة ممن يملك تميمة أو أية تعويذة سرية أخرى تفقد قواها إذا عرف مكانها الآخرون؟

وعلى الرغم من أن هذه التعويذات غير ناضجة، إلا أنها تسهم في بناء السعادة وطيب العيش. مازلنا جميعًا نعيش في عالم السحر، ومحاصرين بهذاء تلاعب الطبيعة الذي يسعدنا. أصبحت القبيلة العصرية تقود السيارات الآلية، وصارت مثل ساحر خلف عجلة القيادة ومصاب بجنون العظمة. وهناك ملايين الضحايا يؤتى

بهم إلى مذبح إله السرعة بسبب هذائنا الخفي بأن القيادة بسرعة جنونية تطيل الحياة. حل المحرك والآلة محل التميمة الأكثر غموضًا في سالف الأيام. ومازالت المعرفة في خدمة القوة بدلًا من خدمة الفهم.

في المرحلة الأخيرة من النمو العقلي، يفصل الإنسان تمامًا بين نفسه والعالم الخارجي. لم يعد يعيش مع الأشياء ويحاول التلاعب بها، لكنه يعيش في الجهة المقابلة لها. في تلك المرحلة من المواجهة الواقعية الناضجة، يصبح الإنسان ملاحظًا لحياته. ويكون مدركًا ببواطن كينونته. كما يرى أن جسده وعقله منفصلان عن العالم. من هنا يواجه الحقيقية بيديه وأذنيه وعينيه وعقله المسيطر. ويأخذ خطوة إلى الوراء عن العالم ثم يلاحظه. إنه في واقع الأمر الحيوان الوحيد الذي يستطيع المشي وقامته معتدلة، مواجهًا العالم مباشرة. وهو الحيوان الوحيد الذي يستخدم يديه وأحاسيسه أدوات تحقق. وتدريجيًّا، صار عقله وجسده أدوات يمكنه قبول أو رفض دوافعها. الإنسان فقط هو من يمتلك القدرة على رؤية دوافعه وغرائزه خطيرة أو مفيدة. ولا يعرف الإنسان فقط الخوف الملم به من الخارج، لكنه يعرف أيضًا الخوف الداخلي، الخوف من فقدان التحكم الداخلي الذي اكتسبه بكل غالٍ ونفيس. بالذراعين واليدين يتواصل الإنسان – ليس مع العالم الخارجي فقط الذي كان يطمح ذات يوم إلى أن يغزوه بالإيماءات السحرية كما يفعل الطفل، لكنه أيضًا يتواصل بوعي مع العالم الداخلي. يعيش الإنسان الناضج بين العالمين الداخلي والخارجي.

ثمة شيء مأساوي حول استخدام تلك العملية المرهقة المتمثلة في أن تكون واعيًا بانفصال الواقعين الداخلي والخارجي. عندما ينضج الإنسان يستيقظ من الحلم البدائي الجميل الذي كان فيه جزءًا من كيان كلي فردي، جزءًا من عالم الصفاء النيرفاني. يخيم الإحساس بفقدان الوحدة مع الكون، وفي أوقات التوتر الجماعي، أو أوقات الأزمات، يحاول الرجوع إلى نعمة خبراته القديمة غير الشخصية وغير المسؤولة.

إن السلبية التامة، أو تميز الذات، والنشوة المصطنعة التي تتأتى باستخدام المخدرات، والرغبة الانتحارية في النوم الأبدي – جميعها وسائل يأمل الإنسان من خلالها أن يشبع هذا الحنين الأبدي.

في أية مرحلة فيما يتعلق بنمو خبرة الإنسان قد نتحدث عن الهذاء؟ عندما يستعطف عضو القبيلة البدائية العالم الغامض والعدواني بصلاته لحيوانه الطوطمي، نطلق على هذا هذاء؛ لكن إذا وصل الإنسان إلى مرحلة أكثر تقدمًا من الانتكاس الفكري إلى عادة التفكير البدائية هذه، يمكن حينئذ أن نطلق على هذا الرجوع (النكوص) هذاء.

ضياع الحقيقية التي يمكن التحقق منها

إذًا يمكننا مبدئيًّا تعريف الهذاء بأنه ضياع الحقيقة المستقلة التي يمكن التحقق منها، مع الانتكاس الذي يعقب هذا إلى مرحلة من الوعي أكثر بدائية. ومثل حال الشابة التي تحدثنا عنها سابقًا وقد بدأت تعتقد أنها تعاني من الصداع، كذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان الذي يروج لخياله الخاص على هيئة إشاعة في البداية، ومن ثم حقيقة واقعية، ويفقد بالتدريج الإدراك بأن تصريحاته المبدئية كانت في الواقع خدعًا، ويغدو هذاءه نوعًا من التحجر الدائم لتفكير التمني البدائي الموجود فيه في الأصل.

توجد عدة عوامل تعزز من التفكير الهذائي. ربما يحدث النكوص والسلوك البدائي نتيجة مرض عضوي، تحديدًا أمراض الدماغ، ومع هذا النوع من الهذاءات يتعامل الأطباء النفسيون. تتسبب الكثير من الأمراض في وقف قشرة الدماغ عن العمل، ذلك العضو الذي نما في آخر عملية التطور ويجعلنا ندرك تفكيرنا ونتحكم فيه. وعندما يحدث هذا الاضطراب في الوظيفة، فإن الأنواع الأقدم جينيًا من وظائف المخ تبدأ في تولي الأمور.

إلا أن معظم مسببات الهذاء ليست عضوية صرفة. ربما ينتج تأثير النكوص نفسه

بالتنويم المغناطيسي والتنويم الجماعي، الذي يتدنى بالخاضع لهذا التنويم إلى مرحلة بدائية من المشاركة الاجتماعية في تجربة الوحدة، من خلال إزاحة الأشكال العليا من الوعي اليقظ.

إذا أصبح الإدراك ومواجهة الواقع ثابتًا وتلقائيًا، وإذا لم يبحث الإنسان عن اليقظة والتثبت المستمر لما يجده في العالم، ربما تظهر لديه هذاءات – أفكار لا تتناسب مع الواقع. من الواضح أن الإنسان يحتاج إلى مواجهة وتأكيد مستمرين لعدة جوانب من الواقع إذا كان يريد أن يصبح حيويًا ويقظًا. وعندما تتصلب الخبرة لتصبح عقيدة، تُحوِّل العقيدة نفسها دون الوصول إلى تثبت جدي من الحقيقة الجديدة. وهذاء الأمة التي تطلق على نفسها البلد «المختار» يصعِب أكثر على هذه الأمة التعاون مع سائر الأمم.

إن المدى الذي تسهم به عملية السيطرة على الأفكار في تشكيل الأفكار العامة في عصرنا يمكن عرضها في التجربة التالية: بعد الحرب العالمية الأولى تعرفت على فيلسوف ألماني مخلص للفلسفة المثالية لبلدته. مرت ألمانيا بمرحلة إبداعية؛ حيث نبعت أفكار جديدة عن الأخوة والسلام العالمي. كانت ألمانيا، تلك الدولة المهزومة حينها، تظهر قوتها الروحية. خلال إجازتنا جبنا معًا جبال تيسينو[93] المشمسة، وخصصنا مناقشتنا الفلسفية حول شوق الإنسانية الأبدي للانسجام والصداقة. غدونا أصدقاء وكنا نكتب إلى بعضنا حول أعمالنا المشتركة، إلى أن أطلت الشمولية بظلالها على دولته. في البداية كان متشككًا وحتى ناقدًا للنازية. ثم تضاءلت بيننا المراسلات، وعندما أصبح بالتدريج متسقا[94] وعضوًا في الحزب، تبع ذلك آخر انقسام عقلي بيننا، ولم أعد أسمع عنه.

يتخلى الكثير من الفلاسفة عن تفكيرهم النظري تحت تأثير الانفعالات

93 - تيسينو Ticino: منطقة في أقصى جنوب سويسرا. (المراجع)

94 - متسقا Gleichgeschaltet: بالألمانية في الأصل. (المراجع)

الجماهيرية القوية. ولا يقتصر السبب على القلق والخضوع، لكنه عملية انفعالية أعمق بكثير. فالناس يريدون الحديث بلغة دولتهم وموطنهم. ولكي يتنفسوا، عليهم الامتثال للشعارات الفكرية المحيطة بهم. لا يمكنهم الوقوف بمفردهم من الناحية الروحية. كتب «ستيفان زيفايج»[95] خلال الحرب العالمية الأولى أن عملية الحديث الداخلية هذه، إلى جانب الأصوات الشوفينية حوله، كان يشعر بها على هيئة صراع داخلي عميق: «لم تعد عندي المقدرة بعد لأصبح عادلًا تجاه الآخرين»[96].

الهذاء الجماعي

من المثير للاهتمام أن نذكر أن ظاهرة الهذاء الجماعي المؤسسي لم تتلق سوى القليل من التناول العلمي إلى الآن، مع أن هذا المصطلح يتداول كثيرًا كلما طرح إلى النقاش مسألة الدعاية السياسية. لكن العلم توارى عن إمعان النظر في الانحراف العقلي الجماعي الذي ندعوه الهذاء الجماعي عندما ارتبط بشؤون العصر الحالي؛ كان النصيب الأكبر من البحث التفصيلي عن النماذج التاريخية مثل السحر، وأشكال معينة من الهيستريا الجماعية.

في عصر الإيديولوجيات الحربية الحالي، وفي زمن معركة من أجل عقل الإنسان، يتطلب هذا السؤال اهتمامًا: ما الهذاء الجماعي؟ وكيف ينجم؟ وماذا يمكن أن نفعل لمكافحته؟

إن حقيقة أنني أقارن بين إطار العقل الشمولي ومرض الانسحاب العقلي المعروف باسم الفصام، تشير إلى أنني أعتبر الإيديولوجيا الشمولية هذائية، وأن الإطار الشمولي للعقل تشوه مرضي ربما يحدث لأي إنسان. عندما نعرف الهذاء

95 - ستيفان زيفايج Stefan Zweig (1881 - 1942): كاتب نمساوي من أبرز الكتاب الأوروبيين في بدايات القرن العشرين. (المراجع).
96 - الاقتباس في الأصل بالألمانية، ثم بالإنجليزية. (المراجع)

مبدئيًا بأنه ضياع الحقيقة المستقلة التي يمكن التحقق منها، وانتكاس تالٍ إلى حالة إدراكية أكثر بدائية، يمكننا رؤية كيف أن ظاهرة الشمولية نفسها يمكن أن تعتبر هذائية.

من الهذاء (أي عدم التلاؤم مع الواقع) أن نعتبر الإنسان آلة مطيعة. ومن الهذاء أن ننكر طبيعته الحيوية، ونحاول تقييد كل تفكيره وأفعاله في مرحلة الخضوع الطفولية للسلطة. من الهذاء أن نعتقد في وجود إجابة واحدة بسيطة على المشاكل الكثيرة التي تواجهنا في الحياة، ومن الهذاء الاعتقاد بأن الإنسان متصلب، ثابت في تكوينه، وليست لديه تناقضات أو شكوك أو صراعات أو دوافع للحرب بداخله.

أينما يعزل التفكير بدون أي تبادل حر للأفكار مع العقول الأخرى ولا يعود باستطاعته التمدد، ربما يتلو ذلك هذاء. وحينما تتجزأ الأفكار، بين الستائر وخلفها، تعرقل عملية المواجهة اليقظة للحقائق والواقع. يتجمد النظام ويصبح صلبًا ويفنى في الهذاء.

يمكن أن نجد أمثلة على هذا في مجتمعات صغيرة جدًّا منفصلة عن العالم؛ في سفن الصيد التي مكثت وقتًا طويلًا في البحر، من المعروف اندلاع حالات الهوس الديني المعدي المقترن بالقتل الطقوسي. في مجتمعات القرى الصغيرة توجد حالات من الهذاء الجماعي، التي تكون عادة تحت تأثير شخص واحد مهووس. ويحدث الشيء نفسه في المجتمعات الشمولية الأكبر حجمًا، المنقطعة عن الاتصال مع باقي العالم. أليس هذا ما حدث في ألمانيا في عصر هيدر- Hider Germany؛ حيث كان ممنوعًا التحقق الحر وتصحيح الذات؟ في الواقع، يمكن أن نبين أن هذه هي الحالة تاريخيًّا في كل حضارة منعزلة. إذا لم يكن هناك أي تفاعل مع الشعوب الأخرى، تتدهور الحضارة، وتصبح ضحية لهذاءاتها وتموت.

يمكننا التعبير عن مفهوم الهذاء بطريقة مختلفة؛ إنه إحدى طرائق التفكير البدائية والمشوهة التي نجدها في المجموعات أو الأفراد، التي ينظر إليها من وجهة نظرهم المحدودة فقط. لا يعرف التفكير الهذائي مفهوم التفكير الهذائي. سيعتبر الفقير

الممدد على فراش من المسامير شخصًا مصابًا بالهذاء إذا أظهر إخلاصه للطابور الخامس، لكن بين أهله سوف يعتبر سلوكه مقدسًا وحكيمًا. لن يرى عضو القبيلة البدائية في طقوس طرد الأرواح الشريرة، أو تجمع للبعث مثالًا للهذاء الجماعي، لكن الإنسان الذي مر بهذه المرحلة من النمو العقلي إلى درجة المنظور والإدراك الأعظم، سوف يعرف أن الخواطر الهذائية تقبع خلف هذه الطقوس.

سواء كان باستطاعتنا رصد الهذاء عند ظهوره أو لا، فهو يعتمد بالكامل على الظروف وحالة الحضارة التي نعيش فيها، وعلى الجماعات والطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها؛ لأن الهذاء والنكوص مصطلحان ينطويان على درجة اجتماعية وفكرية خاصة من الإدراك. ولهذا يصعب كثيرًا رصد الهذاءات والطقوس البدائية في عقليتنا. إن حضارتنا في العصر الحالي مليئة بالهذاءات الجماعية والأحكام المسبقة والأخطاء الشاملة التي يمكن إدراكها بسهولة إذا عرضت في سياق الصورة الكاملة، ولا يمكن رصدها إذا ما رصدت من الداخل. في حين أن هذاءات السحر انتفت، لم نحرر أنفسنا قط من هذاء الدونية والتفوق الثقافي والعرقي. إن الوسواس الجماعي في العصور الوسطى مثل هوس الرقص ورقصة سانت فيتوس[97] غير معروف الآن بين الأمم الغربية؛ لكن نجد بدلًا منه تجمعات جماهيرية عندنا تصرخ فيها الحشود التي تعبر عن نشوة هذائية لارتباطهم بهذاء سياسي ما. وبدلًا من هياج الرقص، لدينا جنون الهذيان باستخدام المحرك، أو عدوى اختلاس النظر بسلبية لشاشات التليفزيون.

وكما شاهدنا في الفصل بعنوان «توتاليتاريا»، يمكن تحفيز الهذاء الجماعي. إنها ببساطة مسألة تنظيم بالمشاعر الجماعية بالطريقة الملائمة والتلاعب بها. إذا أمكن

---

97 - هوس الرقص tarantism: مرض نفسي يتميز بدافع شديد للرقص، انتشر في جنوب إيطاليا من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، ويُعتقد على نطاق واسع في ذلك الوقت أنه نتج عن لدغة العنكبوت الذئبي. رقصة سانت فيتوس St. Vitus's dance: أو رقص سيدنهام Sydenham's chorea، اضطراب يتميز بحركات سريعة وغير منسقة تؤثر بشكل أساسي على الوجه واليدين والقدمين. (المراجع)

لشخص ما أن يعزل الجماهير، ويمنع التفكير الحر فلا يعود هناك تبادل حر لها، ولا تصحيح من الخارج، ويستطيع تنويم الجماعة يوميًّا بالضوضاء، بالصحف والراديو والتليفزيون، وبالتخويف والحماسة الزائفة، يمكن عندئذ ترسيخ أية هذاءات. يبدأ الناس في قبول أكثر التصرفات البدائية وغير الملائمة. تشعل الوقائع عادة الخارجية، الهيستريا الخفية والعقد الهذائية في الناس. إن الجنون الجماعي يبرر الجنون الشخصي المكبوت داخل كل فرد. ولهذا السبب من السهل جعل الناس يرددون الشعارات في خضم هيستريا الحرب الجماعية. أما العدو الخارجي الذي يُهاجَم بشعارات تُشهِّر به فهو مجرد كبش فداء، وبديل لكل الغضب والقلق الذي يعيش داخل الشعب المنهك.

من الصعب تصويب الهذاءات التي غرست بعناية؛ إذ لم تعد ثمة أية قيمة للمنطق؛ لأن التفكير المتدني والأقرب إلى الحيوانية يجعله أصم تجاه أية فكرة أرقى. إذا ما تناقش شخص ما بالمنطق مع شخص شمولي تم تخصيبه بالشعارات الرسمية، سوف ينسحب إن عاجلًا أو آجلًا إلى قلعة التفكير الشمولي. ويغدو الهذاء الجماعي الذي يمنحه الشعور بالانتماء وبالعظمة وبالهيمنة أعز عليه من إدراكه وفهمه الشخصي.

من الأسهل إجبار المعتقل المنعزل في معسكر اعتقال شمولي على الاستسلام تدريجيًّا للتفكير الشمولي لحراسه، بينما يرتبط جزء من تفكيره الطفولي شرطيًّا بالاستسلام للقوة الإيحائية القوية. عليه أن يتواصل مع حراسه وإلا وقع فريسة هذاءاته الخاصة. يحافظ القليل منهم فقط على حقيقتهم في تلك المعركة البطولية.

لا يمكن دراسة وضع أسرانا في الحرب الكورية الذين عاشوا هناك لأشهر وسنوات، بدون أن نأخذ في الاعتبار المناخ العام للهذاء الجماعي. في أجواء مليئة بالإشاعات بدون أية فرصة للتحقق من الحقائق، يكون العقل يقظًا باستمرار لكن ملاحظاته مشوهة. وقد جعلت عملية غسيل الدماغ الجماعي بالدعاية المستمرة من الصعب على الفرد ملاحظة رفاقه بموضوعية. وفي مثل هذا الوسط، من السهل

تقديم كبش فداء بريء لمعاناة كل المجموعة – ويمكن تشويه الحقائق بسهولة في مثل هذا المناخ من العدوى الجماعية.

في أحد معسكرات الاعتقال كان عليَّ إعداد تقرير عن رجل أجروا عليه طقوسًا لطرد الأرواح الشريرة، بل وهوجم من الآخرين بسبب سلوكيات المثلية الجنسية البهيمية. وخلال التحقيق، لم يكن ثمة حقيقة أو ضحية لإعداد التقرير عنه؛ كانت هناك الكثير من الشائعات التي تعبر عن الكراهية تجاه كائن وحيد ومتهكم وغير اجتماعي، مما أجج بداخله مشاعر بالمثلية الكامنة تجاه المعتقلين الآخرين، ومن ثم هاجم رجولتهم.

لا يجب إدانة أي أسير حرب متهم بالتآمر مع العدو بدون إجراء دراسة حول الشائعات التي كانت رائجة في معسكر الاعتقال الذي كان فيه.

في الوسط الشمولي، نادرًا ما يبقي أي إنسان على تفكيره حرًّا بلا عدوى ويقع كل شخص تقريبًا ضحية للهذاء، وإن كان بصفة مؤقتة.

خطر العدوى العقلية

في الواقع هناك خطر مستمر للإصابة بالعدوى العقلية. إن الناس في حالة تبادل نفسي مستمر مع بعضهم. علينا أن نسأل كدولة عن التلوث العقلي الخطير الذي قد يأتينا من الجانب الآخر من الحدود.

دعني أوضح تمامًا أنني أبعد ما يكون عن عدم الشعور بخطر التخريب والعدوان الشمولي الذي يواجهنا الآن. وقد علمتني خبرتي الخاصة مع النازيين درسًا قاسيًا عن أن هذه الأخطار لا يجب الاستهانة بها. وبصفتي طبيبًا نفسيًّا أيضًا، فأنا على دراية تامة بالطبيعة المعدية للدعاية الشمولية، وحقيقة أن المواطنين الأحرار في البلاد الحرة يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحماية أنفسهم. لكن علينا أن نتعلم مكافحة تلك الأخطار بطرائق ديمقراطية؛ وأخشى أن يكون علينا في حربنا ضدهم اقتباس ورقة من كتابهم الشمولي. دعني أستشهد بمثال واحد فقط على

هذا.

قانون فاينبرج[98] في ولاية نيويورك، الذي تم سنه لحماية الأطفال من انتشار الدعاية السياسية الخطيرة، والمبني جزئيًا على مفهوم العدوى العقلية. إنه يهدف إلى حماية المدارس من الاختراق الخفي للأفكار الهدامة. ويبدو من الوهلة الأولى حلًّا بسيطًا: امنع التخريب فحسب قبل أن يتمكن من التأثير على عقول أطفالنا التي يمكن التأثير عليها.

لكن تبقى حقيقة أنه يمثل كافة أنواع المشاكل النفسية. وبسبب خوفنا من التلوث، خلقنا عادات وخططًا بالقياس عليها نعرف وجاهة الأفكار غير التقليدية، ونسينا أن وجود أفكار الأقليات، سواء أكانت مقبولة أم لا، إحدى الطرائق التي نحمي بها أنفسنا من زحف نمو تفكير الغالبية الْمُتَمَثِّلَةِ منا. وقد طرح قاضي المحكمة العليا الأمريكية «هوجو بلاك- Hugo Black»، في عرضه لرأيه المخالف حول قانون فاينبرج، تلك النقطة:

إنه واحد من سلسلة تشريعات تتضاعف سريعًا، وتجعل من الخطورة... أن نفكر أو نقول أي شيء باستثناء ما توافق عليه الغالبية العابرة في تلك اللحظة.

تستند هذه القوانين في جوهرها إلى الاعتقاد بأن الحكومة يجب أن تشرف على تدفق الأفكار في عقول البشر وتحد منه. وتميل مثل هذه السياسة الحكومية إلى قولبة الناس في أنماط فكرية عامة. وهناك سياسة حكومية مختلفة قائمة على الاعتقاد بأن الحكومة يجب أن تترك عقل الإنسان وروحه حرين تمامًا.

مثل هذه السياسة الحكومية تشجع الآفاق الفكرية المختلفة اقتناعًا بأن أفضل الآراء سوف تسود. وسياسة الحرية في حكمي تجسد التعديل الأول من الدستور، وتم العمل بها في الولايات بموجب التعديل الرابع عشر.

---

98 - قانون فاينبرج Feinberg Law: قانون يمنع أي شخص يعمل بالتدريس من الدعوة إلى قلب نظام الحكم. كان القانون يستهدف الشيوعيين بالتحديد، وقد تم تمريره في عام 1949. (المراجع)

بسبب هذه السياسة، لا يمكن للمسؤولين العموميين المحصنين بالسلطات بموجب الدستور أن يختاروا الأفكار التي يمكن للناس التفكير فيها، أو يراقبوا الآراء العامة التي يمكنهم التعبير عنها، أو يختاروا الأشخاص أو الجماعات التي يمكن للناس الانتساب إليها. إن المسؤولين العموميين الذين يتمتعون بمثل هذه السلطات ليسوا خدمًا للعامة بل سادة عليهم.

لا يمكننا منع عدوى عقلية بفرض أخرى. الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها منح القوة للإنسان كي يتحمل العدوى العقلية تكون بمنحه أقصى درجات الحرية في تبادل الأفكار. على الناس أن يتعلموا طرح أسئلة بدون طلب إجابة لها على الفور. والرجل الحر هو الذي يتعلم أن يعيش مع مشكلاته على أمل أن يتم حلها في وقت ما – سواء في جيله أو الأجيال التالية. يجب تحفيز فضول الإنسان وتساؤله. علينا أن نكافح الخوف المتنامي لدى الإنسان من أن يفكر بنفسه، وأن يكون أصليًّا، وأن يكون مستعدًّا للنضال من أجل ما يؤمن به. على الجانب الآخر، يجب علينا أيضًا أن نتعلم مقاومة الأفكار. إذ يمكن الإطاحة بالحكومات ليس فقط بالعنف المادي، لكن أيضًا بالعنف العقلي، بالإيحاء وإبادة العقول من خلال اختراق العقول الشابة، بالارتباط الشرطي الصارم، والنظام الصارم وتحريم المعارضة.
[نيويورك تايمز، 4 مارس 1952.]

هذاء التفسير

أحد أكثر الهذاءات **قهرًا هذاء التفسير**، الحاجة إلى شرح كل شيء وتفسيره لأن الشخص لديه عقيدة فكرية بسيطة في جعبته. عن غير قصد يلتحف من يقع ضحية هذاءاته بمعطف القدرة الكلية السحرية حول نفسه، وهذا يستثير الرهبة والخضوع في هؤلاء الأشخاص الذين لديهم حاجة قوية للتفسير العقلي لظاهرة لا يفهمونها. إن الدجال على سبيل المثال يدفع ضحيته، بإيماءاته التي تنم عن القدرة الكلية، إلى نوع من العدمية فيشعر بأنه صار أكثر ضحالة أمام الألغاز الكبرى في العالم. وكثيرًا ما نجد في العالم الشمولي الحاجة القهرية لأن تكون الشخص الحكيم والساحر

الذي يعرف كل الإجابات، ولا أحد بما في ذلك مؤلف هذا الكتاب، متحرر تمامًا من التمسك بهذه الإجابات السابقة لأوانها.

كثيرًا ما نجد لدى النخبة المثقفة، خاصة من يحبون اللعب بالأفكار والمفاهيم بدون المشاركة الفعلية في المساعي الثقافية لعصرهم، اندفاعًا قهريًّا لتفسير كل شيء مع عدم فهم لأي شيء. إن تراجعهم إلى العزلة الثقافية وفلسفة البرج العاجي مصدر للكثير من العدوانية والشك من أولئك الذين يتلقون حجارة الفكر بدلًا من خبز الفهم. تلعب النخبة المثقفة دورًا خاصًا في عالمنا الديمقراطي بصفتهم معلمين للأفكار، لكن كل تعليم هو علاقة انفعالية، مسألة حب لطلابك. أن تتحرك وسطهم وأن تشاركهم شكوكهم من أجل أن تساهموا معًا في مغامرة استكشاف العالم للمجهول.

وللمفارقة ربما نقول إننا بحاجة إلى الخبرة مع الشموليين حتى لو كان ذلك لمجرد أن نكتشف انعكاس أنظمتهم الصارمة على أنظمتنا الديمقراطية.

التحرر من التفكير السحري

في حضارتنا الغربية، زادت وسائل الاتصال الإعلامي بالجماهير من تأثير الضغط الجمعي على كلٍ من أحكامنا المسبقة وتفكيرنا غير المتحيز. إننا نعيش في عالم من الضوضاء المستمرة التي تخلب عقولنا حتى عندما لا نعي ذلك.

لدينا بالفعل في مجتمعنا مشكلة الأصوات الوحيدة غير المسموعة. وأنا مقتنع بأنه يوجد الكثير من الحكماء بيننا ممن يمكن أن تساعدنا أصواتهم وتعليمهم في تصحيح جزء من تفكيرنا؛ ذلك الجزء الهذائي. لكن كلماتهم الحكيمة تحجبها الضوضاء الصاخبة من ناحية أخرى. في مجتمعنا لم يعد بوسع الإنسان أن يوصل حكمته وأفكاره؛ ومن أجل أن يسمع صوته، عليه أن يعلن عنها ويعززها بقوة شديدة ومسميات رسمية. يجب أن تسانده منظمة ما، ويجب أن يحرص على طرح أفكاره في الوقت المناسب؛ بحيث يكون هناك منصتون لتلقي رسالته. عليه أن

يحصل على درجة علمية معترف بها ودبلوم رسمي، وإلا ضاع صوته.

إن تصحيح الهذاء الجماعي أحد أصعب مهام الديمقراطية. تدافع الديمقراطية عن حرية الفكر؛ وهذا يعني أنها تطالب بحق كل البشر في اختبار كافة أشكال المشاعر الجماعية والتفكير الجماعي. وهذا الاختبار يكون ممكنًا فقط إذا تم تشجيع نقد الذات على المستويين الشخصي والجماعي. على الديمقراطية مواجهة مهمة الحفاظ على حراك الأفكار هذا لتحرر نفسها من المخاوف العمياء والسحر. إن التصادم والتأثير المتبادل لمختلف الآراء الذي يعتبر سمة الديمقراطية ربما لا تنتج عنه الحقيقة مباشرة، لكنه يمهد الطريق.

في تلك اللحظة تحديدًا يرقص العالم حول هذاء، حول الفكرة السحرية بأن القوة المادية والقوة العسكرية اللتين تقفان خلف جدال ما سوف تجعلاننا أقرب إلى الحقيقة، وأقرب إلى الأمان. إلا أن ضغطة واحدة على زر، ربما تدفعنا القنابل الذرية إلى عملية انتحار جماعية.

في عالم الحرب والأفكار المتباينة والهذاءات، يكمن الحل في ترسيم الحدود، في إدراك الحدود المشتركة. هذا الاتفاق على ماهية ما نختلف عليه أولى خطوات التفاهم.

الفصل الثاني عشر

التكنولوجيا تغزو عقولنا

من الصعب إلى حد ما وصف الهجمة التي يشنها إقحام التفكير التقني على عقولنا؛ وذلك لأن التكنولوجيا لها تأثيرات متباينة. يمكن لتأثيرها أن يكون نعمة، بجعلنا أكثر استقلالية عن قوى الطبيعة التي تهددنا؛ لكن في الوقت نفسه يمكن للأداة والآلة أن يهيمنا علينا. **ينبغي** علينا السيطرة على تناقض الهيمنة التقنية هذه بداخلنا – وإلا جرتنا دوامة التطور التقني المتنامي باستمرار إلى كارثة ذرية في النهاية! يكمن التناقض المتعلق بالتكنولوجيا على وجه الخصوص فيما يلي: بالتدريج تصبح رفاهية الآلة (السيارة أو المصنع) أهم وأكبر قيمة من رفاهية الإنسان والإنسانية.

أعاد النمو التقني لمختلف الأدوات الآلية خيالاتنا البشرية إلى مرحلة الأحلام الطفولية بالقوى اللامحدودة. فها هو ذلك الإنسان الصغير، في غرفته محاطًا بشتى الأجهزة. وبمجرد ضغطة زر يتغير العالم من أجله. يا لها من قدرة! يا لها من قوة إضافية يمكنه تصورها! لكن يا له من خطر عقلي.

قد يشتت التطور التقني من كفاح الإنسان من أجل النضج العقلي. إن التطبيق العملي للعلوم والأدوات كان يهدف في البداية لأن يعطي الإنسان المزيد من الأمان

ضد القوى المادية الخارجية. أن يحرس عالمه الداخلي، ويتيح المزيد من الوقت والطاقة للتأمل والتركيز واللعب والتفكير الإبداعي. وبالتدريج فإن الأدوات نفسها التي استخدمها الإنسان صارت تستحوذ عليه ودفعته إلى العبودية بدل أن تدفعه نحو الحرية. ثمل الإنسان بفعل المهارة التقنية؛ لقد أصبح مدمنًا على التكنولوجيا. استدعت التكنولوجيا من داخل الناس سلوكًا طفوليًّا وذليلًا مجهولًا بالنسبة إليهم. لقد صرنا كلنا تقريبًا عبيداً لسياراتنا. وللمفارقة، ربما يزيد الأمان التقني من الجبن. لم يعد يوجد تقريبًا أي تحدٍّ لمواجهة قوى الطبيعة خارجنا والقوى الغريزية بداخلنا. صارت كل كلمة تقنية بالنسبة إلينا بمثابة التحدي السحري الذي أتاحته الطبيعة في الأصل.

إن الخضوع للتكنولوجيا يشكل هو نفسه هجمة على التفكير. والطفل الذي يتعامل منذ صباه مع كافة الأجهزة والمعدات التكنولوجية – الراديو والموتور والتليفزيون والأفلام – يرتبط شرطيًّا **بدون قصد** بملايين الروابط والأصوات والصور والحركات التي لا يشارك فيها. إنه ليس في حاجة للتفكير فيها، وهي متصلة مباشرة بأحاسيسه. لقد علمت التكنولوجيا الحديثة الإنسان أن يسلم بأن العالم الذي ينظر إليه أمر مفروغ منه؛ فلا يستغرق أي وقت للتراجع والتأمل. تغيره التكنولوجيا وتلقي به في عجلاتها وحركاتها. لا وقت لراحة أو تأمل أو تفكير أو مناقشة – ويثقل كاهل الحواس دومًا بالتحفيز. لم يعد الطفل يتعلم كيف يتساءل عن عالمه؛ حيث تعرض عليه الشاشة إجابات معلبة. حتى الكتب لا توفر له مقابلة مع البشر – فلا أحد يقرأ له؛ إذ يسرد عليه الأشخاص الذين يظهرون في الشاشات قصصهم على طريقتهم. إن المعرفة التقنية التي تُفرَض عليه بهذه الطريقة لا تتطلب منه التفكير فيما يراه ويسمعه، وعليه تغدو المناقشة فنًّا ضائعًا. وبناءً على ذلك يندفع عصر الآلة، ولا يدع وقتًا للقراءة المتأنية والتعامل مع الفنون الإبداعية. ومع ذلك نرى تيارًا مضادًّا في الحركة المسماة «افعلها بنفسك»؛ إذ نرى على الأرجح بعثًا من جديد للروح الإبداعية والتحدي للمهندس الذي يبتكر الروبوت.

في العالم الذي تطغى عليه الآلة لم يعد هناك وجود للجسد والعقل، وتصبح الحياة جزءًا فقط من عملية تفكير تقنية وكيميائية أعظم، فنجد المعادلات الرياضية تتدخل في العلاقات الإنسانية. تعلمنا مثلًا من خلال عقيدة الذنب بالتداعي، المعادلة البسيطة القاضية أن عدو عدوي صديقي، وأن أصدقاء أعدائنا أعداؤنا – وكأن إضافة بسيطة فقط للعلامات الإيجابية والسلبية تجعلنا نقيم البشر.

القهر بواسطة التكنولوجيا

يستحوذ الراديو والتليفزيون على العقل مباشرة، ولم يعد هناك متسع من الوقت للأطفال كي يهدئوا ويتجادلوا مع كتبهم. إن المشهد من الشاشة لا يتيح التواصل والنقاش المتبادلين اللذين يبعثان على الحرية. صار النقاش فنًّا مفقودًا. إن هذه الاختراعات تسرق الوقت وتسرق إدراك الذات. ما تعطيه التكنولوجيا بيد – السهولة والأمان المادي – تأخذه باليد الأخرى، لقد سلبتنا علاقات التعاطف بين البشر. وما بطاقات الكريسماس مطموسة الشخصية بتوقيعها المطبوع، والخطاب الرسمي، والآلة الكاتبة إلا أمثلة على الوكلاء الآليين. إن الاقتحام التقني يغتصب منزلة العلاقات الإنسانية، وكأنه لم يعد ينبغي على الناس أن يهتموا ببعضهم ويتبادلوا الحب. تحل زجاجة الحليب محل ثدي الأم، والعملة المعدنية التي تدخل في الآلة صارت بديلة عن إعداد الأم للشطائر. أصبحت الماكينات عديمة الشخصية بديلة عن التفاعل والتبادل بين البشر. يفضل الأطفال الذين يتعلمون بهذه الطريقة أن يصبحوا بمفردهم مع فانتازيا الهروب إلى أجهزة للعب معها؛ حيث تدفعهم الآلية إلى الانسحاب العقلي.

توحي التكنولوجيا وتخلق إيحاءً بقدرة الإنسان الكلية من ناحية، وبضآلة الإنسان من ناحية أخرى، بضعفه ودونيته مقارنة بعظمة الآلة. تتوارى قوة عقل الإنسان المبدع خلف حلم الآلات الاجتماعية والميكانيكا. تقدر الميكانيكا في المناورات السياسية بالغ التقدير بشكل يفوق التصور. إننا نستخدم الاستخبارات،

والاستخبارات المضادة، والخدع والآلات السياسية، وننسى "الأسباب الانفعالية" التي تكمن وراء ذكاء الإنسان وغبائه. توجد فقط علاقة بين الإيمان الساذج بالتكنولوجيا والإيمان الساذج بالذكاء والمنطق والبراءة البشرية؛ وهو ما كان جزءًا من الشعور الليبرالي المتفائل الذي ساد في القرن التاسع عشر. إننا نرى في المعتقدين كليهما إنكارًا للأعماق غير المنطقية للعقل.

ما النتيجة النهائية للتقدم التقني؟ هل يدفع الناس إلى المزيد والمزيد من الخوف واليأس الذي يجلبه عالم الأزرار الخالية من الحب؟ هل يصنع سعادة جنون العظمة التي تأتي من التحكم عن بعد بأشخاص آخرين؟ هل يصل بالناس إلى مرحلة الخواء غير المرضي في ساعات الفراغ التي يملأها الملل؟ هل النتيجة النهائية هي **العيش بالوكالة**، والتعرف على العالم فقط من خلال فيلم أو شاشة تليفزيون، بدل أن يعيش المرء حياته بنفسه ويكدح فيها ويبنيها؟

في حالات إدمان التليفزيون، لاحظت النقاط التالية:

إن لوقع سحر التليفزيون إدمان حقيقي؛ أي إذا جاز التعبير، يمكن للتليفزيون أن يشكل العادات، ولا يمكن وقف تأثيره دون تدخل بعلاج فعال.

إنه يسبب اضطرابًا جنسيًّا وانفعاليًّا في مرحلة مبكرة من العمر، ويغري الأطفال على اختلاس النظر إليه مرة تلو الأخرى، مع أنهم في الوقت نفسه يرتبكون حيال ما يرونه.

إنه يوفر باستمرار إشباعًا للفانتازيا العدوانية (مشاهد أفلام الغرب الأمريكي، ومشاهد الجرائم)، مع ما يتبع ذلك من شعور بالذنب – حيث يميل الطفل دون وعي إلى التماهي مع شخصية المجرم، بالرغم من كل الانتقامات البطولية.

إنه سارق للوقت.

يثبط الاندماج مع التليفزيون من الإبداع الداخلي النشط – فجُل ما يفعله الأطفال والبالغون هو الجلوس ومشاهدة عالم زائف في الشاشة، بدلًا من مواجهة

مشاكلهم الخاصة. وإذا كان هناك صراع مع الآباء الذين ليس لديهم وقت ليقضوه مع صغارهم، فسوف يستسلم الأطفال بإرادة أكبر للشاشة. إن الشاشة تتحدث معهم وتلاعبهم وتأخذهم إلى عالم الفانتازيا السحرية. بالنسبة إليهم، يحل التليفزيون مكان الراشدين وهو صبور دائمًا. وهذا ما يفسره الطفل بأنه حب.

كما هو الحال في إعلام الجماهير، يجب أن نعي الإجراء المنوم والمغري لأي شكل من أشكال التواصل الاختراقية. صار الناس مفتونين حتى عندما لا يريدون إلقاء نظرة. علينا أن نضع في الاعتبار أن كل خطوة من خطوات النمو الشخصي في حاجة إلى عزلة، وفي حاجة إلى مناقشة داخلية وتداول ومراجعة للنفس. ويعوق التليفزيون هذه العملية ويعد العقل بسهولة أكثر للجماعية وتفكير الشعارات. إنه يجبر الناظرين على التفكير من منظور القيم الجماعية، ويتدخل في حياة العائلة، ويقلص المزيد من عمليات التواصل المعقدة بين العائلة.

سوف يشهد عالم الغد معركة هائلة بين التكنولوجيا وعلم النفس. سوف يكون صراعًا بين التكنولوجيا والطبيعة، بين الارتباط الشرطي الممنهج والعفوية الإبداعية. إن تبجيل الآلة ينطوي على تحويل المعرفة الآلية إلى سلطة، إلى سلطة الضغط على زر. إن أدوات التدمير الآلية، مثل القنبلة الهيدروجينية، ترجمت الحاجة الملحة للتدمير لدى البشر إلى قتل علمي على نطاق عريض. والآن، ربما يصبح هذا التدمير المحتمل أداة سهلة لأي زعيم مصاب بجنون السلطة. لقد أصبح عالمنا المدفوع بالتكنولوجيا يتسم أكثر بالاعتماد المتبادل، ومن خلال الاعتماد على المعرفة والأجهزة، نكون نحن أنفسنا معرضين لخطر توريط شعبنا مع أكثر الشموليين وحشية. وهذه هي المعضلة الفعلية لحضارتنا. الآلة التي صارت أداة لتنظيم البشر وأتاحت لهم غزو الطبيعة، اكتسبت مكانة استبدادية. لقد أجبرت الناس على استجابات الآلية، على أنماط وعادات مدمرة.

أثارت الآلة حنينًا متصاعدًا للسرعة، وللإنجاز المسعور. وهنا توجد علاقة نفسية بين جنون السرعة والقسوة. خلف مِقوَد السيارة ينتشي السائق بالشعور

بالسلطة. ونجد في هذه الحالة أيضًا إنكار مفهوم النمو الطبيعي والثابت. إن الأفكار والتقنيات في حاجة إلى وقت كي تنضج. إن الآلة تجبر على الوصول إلى النتائج قبل أوانها؛ حيث يتحول التطور إلى ثورة العجلات، فالآلة بمثابة إنكار لوجوب نمو التقدم بداخلنا قبل أن يمكننا إحرازه خارجنا. ويسلب التحول إلى الآلية الإيمان بالكفاح العقلي، والإيمان بأن حل المشكلة في حاجة إلى وقت ومحاولات مستمرة. وبدون هذه المعتقدات تهيمن حالة من الابتذال، بيان متسرع وعاجل. يؤمن العالم الآلي فقط بتكثيف المشاكل وليس بالصراع الجدلي المستمر بين الإنسان والأسئلة التي يفسرها.

إحدى مغالطات التقنية الحديثة أنها تتجه صوب مزيد من **الفاعلية**. باستخدام طاقة أقل، يجب إنتاج المزيد. ربما يكون هذا المبدأ مناسبًا للآلة، لكنه ليس صحيحًا بالنسبة إلى الإنسان. ليصبح الإنسان قويًّا ويبقى قويًّا، عليه أن يتعلم التغلب على المقاومات، ويواجه التحديات، ويختبر نفسه مرة بعد مرة. إن الرفاهية تضمر العقل والبدن.

كما يوحي الحط من قدر العقل البشري الفردي والاستعاضة عنه بالحواسب الآلية، بفكرة النظام الشمولي الذي يجبر مواطنيه على التحول إلى أدوات ذليلة شيئًا فشيئًا. إذ يصبح الهدف هو هذا «النظام» الهمجي، إنه نظام نتاج للتكنوقراطية والتجرد من الصفات الإنسانية وقد تنتج عنه وحشية ممنهجة وسحق لأية أخلاق شخصية. في المجتمع الآلي ترسخ مجموعة من القيم في العقل اللاواعي، بالطريقة نفسها التي أخضع بها «بافلوف» كلبه لارتباط شرطي. لم تعد عقولنا في حاجة إلى خدمتنا أو تطوير عملية التفكير لدينا؛ سوف تفعل الآلات هذا لنا. في النظام التكنوقراطي يتم التأكيد على السلوك الخالي من المشاعر والإبداع. إننا نتحدث عن «عقول كهربائية»، وننسى أن العقول الإبداعية بالفعل هي التي تقف وراء تلك العقول وضعفها. بالنسبة إلى بعض المهندسين لم تعد العقول سوى مصابيح كهربائية في مختبر شمولي، وصار بين الإنسان وأخيه الإنسان قوى روتينية هائلة

وباردة وبيروقراطية مجهولة من القواعد والأدوات. وقد جلبت الميكنة إلى العلاقات الإنسانية «القواد» السري، الوسيط، البيروقراطي الآلي، الذي يتمتع بالقوة لكن ليست لديه شخصية. وقد أصبح مصدرًا جديدًا للخوف من السحر.

في العالم التكنوقراطي تقمع كل مشكلة أخلاقية ويستبدل بها تقييم تقني أو إحصائي، فتحل المشاكل الرياضية المنطقية والسريعة محل الأخلاق. ولو تحرى أحدهم مثلًا عن حياة الحراس في معسكرات اعتقال وعن مشاكلهم ومحنهم الداخلية، لفهم السبب الذي يجعل السجانين يفكرون كثيرًا في المشكلة التقنية المتعلقة بإخراج جثث ضحاياهم من غرف محارق الغاز بأسرع وقت ممكن. اكتسبت عندهم كلمات مثل «تنظيم»، و«عملي»، و«تطهير» أبعادًا مختلفة عن الأبعاد الاعتيادية. إنهم يفكرون من الجوانب الكيميائية والإحصائية – ويتمسكون بها – من أجل ألا يدركوا الذنب الأخلاقي الأعمق.

إن العقل الذي ينظر إليه كآلة حاسبة هو نتيجة العقلنة والتعميم القهريين للعالم. كان هذا هو الحال منذ عصر المفكرين اليونانيين الأوائل. وينطوي هذا المفهوم على إنكار أو تصغير للحياة الانفعالية إلى أقصى حد ولقيمة التجارب الهامشية. في مثل هذه الفلسفة، لا تفهم العفوية أبدًا – ولا يفهم الإبداع والصدفة التاريخية ولا معجزات التواصل البشري مثلما تبين من توارد الخواطر. إن التكنولوجيا التي تبنى على هذا الأساس باردة وبلا معايير أخلاقية للعيش، أو إيمان و«شعور بأننا في موطننا» في عالمنا الخاص. إنها تحفز دومًا شعورًا جديدًا بعدم الرضا وإنتاج رفاهية جديدة دون معرفة السبب. إنها تحفز الجشع والكسل بدون التأكيد على ضبط النفس وفن الحياة. في واقع الأمر، إن التكنولوجيا بصفتها هدفًا لا وسيلة تمدنا بقصة المعادلة البسيطة دون السعي المتواصل نحو الحرية والتنوع والكرامة الإنسانية. وتتجاهل التكنولوجيا حقيقة أن رأينا العلمي عن العالم مجرد تصحيح تدريجي لوجهة النظر الخرافية التي سبقت عصر العلم. وصارت التكنولوجيا التي كانت ذات يوم نتاجًا لشجاعة الفانتازيا والرؤية، تشكل تهديدًا بقتل هذه الرؤية

التي يصبح تقدم الإنسان مستحيلًا بدونها. يجب أن يتحول صنم التكنولوجيا مرة أخرى إلى أداة ولا يكون ساحرًا مهيمنًا في حد ذاته، يدفعنا نحو الهاوية.

لقد نتج عن التقدم الصناعي في ثقافتنا الغربية مشكلة جديدة، وهي إبعاد الإنسان عن إيقاع الطبيعة. في البداية كان الإنسان الصناعي مربوطًا بالمصنع والمحرك، ثم زاد التقدم التكنولوجي من وقت الفراغ، مما طرح على الساحة سؤالًا جديدًا: لماذا وقت فراغ؟

إن النمو المتزايد للوقت، وفضاء الوقت، وأحجام المدن، وتقليل المسافة من خلال زيادة وسائل المواصلات، أثر بعمق على جذور مشاعر الانتماء والأمان لدينا. في كثير من الأحيان نجد تفكك العائلة، بل وحتى تدهورها – وهي نواة المجتمع. أصبح السعار على سيارة العائلة يوم الأحد يحل محل لم شمل العائلة لتبادل المشاعر والحكمة.

عندما يتعلم الإنسان أن يستقل عقليًّا عن التكنولوجيا فحسب – أي عندما يتعلم أن يفعل هذا – يتعلم أيضًا حينها ألا ينهمك فيها وينجرف معها. على الناس أن ينعزلوا أولًا مثلما بطل رواية **روبنسون كروزو**، قبل أن يكون بإمكانهم أن يستخدموا ويقدروا بحق مزايا التكنولوجيا.

على نظامنا التعليمي أن يتعلم أن يعرض ببساطة التحديات والحاجات الطبيعية للطفل لتحصينه ضد الميول التي تسبب الشلل والكسل في هذا العصر التقني.

مفارقة التكنولوجيا

من المفارقات الشديدة أن الأمان التقني ربما يزيد من الجبن. إن العالم التقني الذي صنعناه بأيدينا حل محل التحدي الحقيقي الذي فرضته الطبيعية أصلًا على مخيلة الإنسان، ولم يعد الإنسان مجبرًا على مواجهة تحديات قوى الطبيعة خارج نفسه والقوى الغريزية بداخله. صارت عاداتنا المترفة وحضارتنا المعقدة تميل إلى

سلبيتنا العقلية أكثر من يقظتنا الروحية. ينجذب الأشخاص السلبيون عقليًّا بدون أخلاقيات وفلسفة أساسية بسهولة إلى مغامرات سياسية تتصادم مع أخلاقيات المجتمع الحر الديمقراطي.

إن خط التجميع هذا يعزل الإنسان عن عمله وعن إنتاج عمله الخاص. لم يعد الإنسان ينتج الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان؛ بل تنتج الآلة نيابة عنه. أخبرنا المهندسون والعلماء أن مستقبل التحول إلى الآلية القريب - تشغيل المصانع دون الحاجة إلى مساعدة البشر - سيصبح حقيقة، وأن العمل البشري، والإنسان نفسه، سيصبح تقريبًا فائضًا عن الحاجة تمامًا. كيف يمكن للإنسان أن يحظى بتقدير الذات عندما يغدو أكثر الأجزاء التي يمكن الاستغناء عنها في هذا العالم؟ إن القيم الأخلاقية والمعنوية التي هي أساس المجتمع الديمقراطي قائمة على وجهة النظر القائلة إن حياة الإنسان ورفاهية الإنسان هما أعظم خير في هذه الدنيا. لكن في المجتمعات التي تسيطر فيها الآلة تمامًا، يمكن تدمير كافة قيمنا التقليدية. إننا بتبجيل الآلة نشوه سمعتنا؛ ونبدأ في الاعتقاد بأن القوة تلبس لباس الحق، وأن البشر ليست لهم قيمة جوهرية، وأن الحياة نفسها جزء من عملية تفكير تقني وكيميائي أعظم.

إن تراجع الإنسان بالتدريج ناحية عالم آلي يعمل بضغطة زر واحدة يظهر بصورة أفضل في حبه للسيارات والآلات الأخرى. وفي اللحظة التي يستطيع فيها التراجع عن مقعد سيارته وإدارة العالم بجهاز تحكم عن بعد، يحلم أحلامًا طفولية قديمة طواها النسيان عن القدرة الكلية الجبارة. إن خضوع الإنسان لسيارته والآلات الأخرى يسلب شيئًا ما من فرديته. لقد أصبحت فكرة جهاز التحكم عن بعد تنومنا، وتعطينا العجلات والأزرار إحساسًا وهميًّا بالحرية. ومع ذلك، يقاوم الجانب الإبداعي في الإنسان في الوقت نفسه الاقتحام البارد والآلي للآلة لحريته الداخلية.

في أثناء قيادتي للسيارة، كلما مررت بشيء جميل على جانب الطريق، سواء كان

منظرًا خلابًا أو متحفًا أو نهرًا أو شجرة سامقة، في تلك اللحظة تحديدًا ينشب بداخلي نوع من الصراع المتوتر: هل ينبغي علي التوقف بالسيارة وأشرب شيئًا ما في هذا الجمال المحيط بي، أو هل ينبغي علي الاستسلام لآلتي وأواصل السباق؟

بالنسبة إلى عالم النفس وعالم الأحياء يثير مثل هذا السلوك أسئلة مهمة. كيف ينتهي هذا الأمر؟ هل ميل الإنسان أكثر فأكثر إلى أن يصبح جنينًا تكنولوجيًّا مستقرًّا سيخرج في النهاية أفضل ما فيه وفي حضارته؟ وصف عالم التشريح الهولندي «بولك» – أحد أساتذتي – منذ وقت طويل هذا التخلف الرجعي في سمات النمو لدى البشر بأنه يقارن بالتطور السريع في الرئيسيات العليا. نتيجة لهذه الطبيعة الجنينية والتخلف التشريحي للإنسان، اكتسب وضعيته المنتصبة، واستخدام يديه اللتين يلتقط بهما الأشياء ويتحقق منها بهما، والقدرة على التحدث. إن فترة الشباب الطويلة هذه أتاحت له التعلم وبناء عالمه الفكري الخاص.

منذ عصر النهضة وتقدم العلوم الحديثة، أجبر العالِم نفسه على التراجع أكثر فأكثر إلى رحمه التكنولوجي – معمله ودراسته ومقعده ذو الذراعين. وما فعل هذا إلا من أجل تركيز فكري أعظم، لكن نتيجة لهذا صار بالتدريج منعزلًا أكثر عن الناس الأحياء – بدون أن يلحظ هذا. في العقود الماضية فحسب، بدأ العلماء في التواصل مع المشكلات الاجتماعية أكثر، وما أجبرهم على هذا جزئيًّا هو نمو العلوم الاجتماعية.

تعلم العالِم، من ركنه السحري، كيف يتحكم في الدنيا باختراعاته وإملاءاته العقلية. أصبحت فكرة جهاز التحكم عن بعد تغري الناس بازدياد. هذه الترسانة من الأزرار والمعدات أخذتنا إلى عالم الأحلام السحرية للقوة الكلية. تسهل حضارتنا التقنية علينا الأمور، لكنها تمثل تحديًا وارتباكًا للشخصية وللقوة.

إن هذا المتنفس المتكرر، الذي لا نتسامى من خلاله فقط عن مواقفنا العدوانية بل نتسامى أيضًا عن أهدافنا الغريزية ونعيد ربطها شرطيًّا، معرض للخطر بشدة نتيجة التحول إلى الآلية التقنية. وهنا توجد علاقة وثيقة بين وتيرة العمل ووتيرة

الابتكار. في عالم الفراغ وعدم الانضباط في العمل، سوف نكتسب مرة أخرى غرائزنا التي يطلق لها العنان. لكن ما يحسن من استمتاعنا وراحتنا هو تناوب وتيرة عملنا ووقت فراغنا.

في مؤتمر بمدينة **نيو هيفن**[99] تحت رعاية جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية حول تأثير التحول إلى الآلية على العمال، قيل إن الشكوى الرئيسة للعمال هي أن زيادة التوتر العقلي حل محل التعب العضلي. [نيويورك تايمز، 29 ديسمبر 1955] ذلك أن الضغط الناتج عن مراقبة الآلات والتحكم بها يجعل الإنسان عصبيًّا، وينمو لديه بالتدريج شعور بأن الآلة تتحكم فيه بدل أن يتحكم في الآلة. كان الكثير من مرضاي ينظرون إلى الآلة على أنها شيء حي، حي وخطير لأنها لا تحب وليس لديها مشاعر أخرى تجاه الإنسان الذي يستخدمها.

إن المفارقة الخطيرة في رفع معايير المعيشة أنه بزيادة الفراغ تزداد البلادة والكسل. إذا لم يكن العقل مستعدًّا لملء وقت الفراغ بتحديات جديدة ومساعي جديدة، ومبادرة جديدة وأنشطة جديدة، ينام العقل ويصبح آليًّا. وكأن إله الآلية يلتهم أبناءه. يمكن للآلة أن تحولنا إلى بدائيين متخصصين إلى أبعد حد.

ومثلما نستبدل بالتدريج الآلات بالعمالة البشرية، فإننا نستبدل بالتدريج الآلات الحاسبة بعقل الإنسان، وبالتالي نزيد من إحساس الإنسان بعدم الجدارة. نبدأ في تصور العقل نفسه على أنه آلة حاسبة، أو مجموعة من النبضات والحركات الكهروكيميائية. إن الدماغ عضو من أعضاء الجسد؛ يمكن دراسة هيكله وحركاته وفحصها. لكن العقل شيء مختلف تمامًا. إنه ليس مجرد مجموع العمليات النفسية للدماغ؛ لكنه الجانب الفريد والإبداعي في شخصية الإنسان.

إذا لم نراقب أنفسنا، وإذا لم ندرك أكثر المشاكل الخطيرة التي فرضتها علينا

---

99 - نيو هيفن New Haven: مدينة في ولاية كونيكتيكت في الولايات المتحدة الأمريكية، تشتهر بجامعة ييل، وتعتبر ثاني أكبر مدينة في كونيتيكت. (المراجع)

التكنولوجيا، يمكن أن يتحول مجتمعنا بالكامل إلى نوع من الدولة الآلية الخارقة. إن أي انهيار في الوعي الأخلاقي وفي شعور الفرد بجدارته، تجعلنا جميعًا أكثر عرضة للقهر العقلي. لقد أعطتنا ألمانيا النازية مثالًا مرعبًا على الانهيار التام للتطور الأخلاقي. في مجتمع القوات الخاصة المعروفة اختصارًا باسم .S.S، يصبح الاضطهاد العرقي والقتل نوعًا من القواعد الأخلاقية.مكتبة سُر مَن قرأ

قد يبدو هذا كله تطرفًا، لكن تبقى الحقيقة أن أي تأثير – سواء كان معلنًا أو مخفيًا، وسواء كان بنية حسنة أو سيئة – يقلل من يقظتنا أو قدرتنا على مواجهة الحقيقة، أو رغبتنا في العيش كأفراد نشطين وفعالين، أو لا يجعلنا نتحمل المسؤولية ونجابه المخاطر، يغتصب منا جزءًا من جوهر إنسانيتنا؛ تلك الصفة التي تسعى تجاه الحرية والنضج الديمقراطي. إن الاقتحام العقلي الإجباري الذي يمارسه الشموليون يكون عن عمد ومنبعه سياسي، لكن الاقتحام العقلي خطير للغاية حتى عندما يكون الغرض منه غير سياسي. إن أي تأثير يميل إلى سلب الإنسان حرية عقله يمكن أن يحط من قدره إلى روبوت. وأي تأثير يدمر الفرد يمكن أن يدمر المجتمع كله.

الفصل الثالث عشر

الاقتحام بواسطة العقل الإداري

بما أن الحياة الاجتماعية تزداد تعقيدًا، فقد تطورت مجموعة جديدة من الوسطاء بين الإنسان وأهدافه. لم يعد الكاهن القديم هو الوسيط بين الإنسان وآلهته وبين الإنسان والقوى التي تتجاوزه، لكن تولى تلك المهمة جزئيًّا مجموعة من الإداريين؛ مهمة التدخل بين الإنسان وحكومته. يوجد هذه الأيام وسطاء بين الإنسان ورؤسائه، وبين الفنان والجمهور، وبين المزارع والسوق؛ وسطاء بين كل الأشياء. يُولَد العقل الإداري، الذي يهيمن عادة على السلوك الاجتماعي للإنسان واتصالاته المتعددة، مما يؤدي إلى إجراءات ودوافع معقدة تتعدى سلوكه العفوي.

كل هذه الروابط، الروابط البيروقراطية الصارمة والروابط الإدارية المفيدة، تؤثر على سلوك الإنسان، وربما تربك تفكيره الحر. لدي سبب خاص لتناول هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب يتحدث عن اغتصاب العقل؛ لأن مشكلة التأمل هذه بين الإنسان وتصرفاته وأفكاره موجودة في الديمقراطية التي نتبناها كما توجد في الدول الشمولية. يحاول نصفا العالم التصدي لهذه المشكلة المتعلقة بكيفية إدارة أنفسهم. يمكن أن يصبح أسلوب إدارة أنفسنا وإدارة عالمنا في حد ذاته تهديدًا لتطور الإنسان الحر – وربما يكون هذا بمنأى عن العقيدة الفكرية التي تخضع لها

هذه الإدارة. إننا لا نتمتع بحرية اختيار الأشخاص المسؤولين الذين يحكموننا كما نتمتع بحرية اختيار متجرنا أو طبيبنا المفضل. وطالما أن الشخص المسؤول في السلطة، نكون خاضعين لسلطته البيروقراطية.

العقل الإداري

لا يمكن لرجال الدولة اليوم إدارة أعمالهم بطريقة ملائمة في حدود معرفتهم البسيطة بالناس والأمم التي شكلت حكومات في السنوات الماضية. إذا لم يكن باستطاعة قادتنا أن يأخذوا في الحسبان القوى غير العقلانية في أنفسهم وفي الأشخاص والأمم الأخرى، ربما ينجرفون بسهولة في دوامة انفعالات الجماهير. إذا لم يستطيعوا إدراك أن تصرفهم الخاص أو الرسمي يعكس عادة أحكامهم المسبقة ومواقفهم غير العقلانية، فلن يستطيعوا التعامل مع الأحكام المسبقة غير المتوقعة عادة من الآخرين. لو شعروا بحساسية مثلًا تجاه الإستراتيجية المتناقضة التي تختبئ وراء لغة التورية عند الشموليين، فلن يستطيعوا مواجهة الحرب الباردة. أصبحت معرفة علم النفس شيئًا لازمًا في عصر العلاقات البشرية المرتبكة الذي نعيشه.

هل يفهم مسؤولونا فهمًا كاملًا، مثلًا، الإستراتيجية الشمولية الاستفزازية التي تعتمد على الافتراء والتهم الباطلة، وهل لديهم القدرة على التعامل معها تعاملًا مناسبًا؟ هل يدركون أن الإنكار الرسمي البحت ليس بنفس قوة جاذبية الاتهام المبدئي وتأثيره، وأنه في الحقيقة يلائم إستراتيجية ملقي التهمة؟ إنهم لا يدركون هذا على ما يبدو؛ حيث ما زال كثير منهم يلجأ إلى الإنكار الرسمي البسيط باعتباره وسيلة دفاعية ضد الإستراتيجية الشمولية للاتهام، بينما في الواقع يمكن للكشف المستمر عن هذا الأسلوب تحديدًا والسخرية منه أن يهزماه.

هل يدركون الآثار التي تنطوي عليها إستراتيجية إثارة مشاكل زائفة؟ عادة ما يستخدم الشمولي والديماغوجي هذا الأسلوب المربك. بفتح تحقيقات وطرح

تساؤلات انفعالية ولفت الانتباه إلى مشاكل مفتعلة، يسعون إلى صرف الانتباه عن أهدافهم الحقيقية.

هل يفهمون مثلاً ما يكمن وراء تقنية استغلال شهامة العامة وكرامتهم وابتزاز شفقة العالم؟ إن استراتيجية الشكوى وطلب العدالة حيلة دفاع عقلية شهيرة يستخدمها الأفراد العصابيون لإثارة الشعور بالذنب لدى الآخرين، وللتغطية على عدوانيتهم الخفية. كما أن استغلال الشفقة والإعلان صراحة عن نقاء الشخص وأمانته وبراءته حيلة معروفة عندما يستخدمها الأفراد، لكن من غير المحتمل أن ندركها حينما تستخدم في السياسة العالمية.

هل يدرك رجال دولتنا أن المُثُل الرومانسية للحب الأخوي والسلام العالمي يمكن استخدامها أيضا للتغطية على المخططات العدوانية؟ بعد الحرب العالمية الأولى، سمعنا العديد من الشعارات المثالية الملهمة من دول وسط أوروبا المنهزمة. وصفت صحفهم وزعماؤهم بإسهاب للعالم أجمع «التطهير الداخلي من خلال معاناة» الشعوب المهزومة. وعليه، ناشدت هذه الدول ضمير العالم كله وشفقته. لكن لم يكن الأمر محادثة قابلة للنقاش. فكل طبيب نفسي معالج يعرف أن من يتحدثون كثيرًا عن تغيرهم الداخلي وشفائهم لم يتغيروا على الإطلاق في معظم الحالات. تناقض الأفعال غالبًا العبارات الرائعة. على السياسيين استيعاب أنه يمكن لهذا أن يصح بالنسبة إلى الأمم كما يصح بالنسبة إلى الأفراد. دعنا لا ننسى أن الأمم لا تتحدث، لكن الكلمات الرسمية ينطق بها ممثلو الدول بدوافع داخلية غير رسمية، وفي معظم الأحيان مجهولة.

يشكل رجال الدولة والدبلوماسيون والسياسيون المراكز العصبية وممرات التواصل بين الشعوب والأمم. وتمثل التوترات في الدوائر الدبلوماسية التوترات السياسية في العالم. لكنهم يمثلون شيئًا آخر أيضًا. إن مهنة السياسة تخضع لأنواع خاصة من التوترات العصبية. حينما يصل المدير إلى أعلى درجة، يطرأ بداخله تغير داخلي. ومنذ ذلك الحين، يمكنه أن يتماهى مع مَن كانوا يقودونه سابقًا. إن حقيقة

أن الإنسان في موقع إدارة وأنه قائد، ربما تُغَيِّر من عقليته بعدة طرائق. إنه ينأى غالبًا بنفسه أكثر وأكثر عن مشاكل البشر وعن الأشخاص الذين يمثلهم، ويفكر فقط في الإستراتيجية القومية، والمعتقد الفكري الرسمي وأهداف سياسة القوة. أو تستثار طموحات الطفولة التي أحبطت منذ أمد بعيد. ربما يصبح ضحية طموحاته الشخصية المتضخمة، وفكرته الفردية عن المسؤولية، ونتيجة لهذا يفقد السيطرة على شخصيته.

على كبار رجال الدولة المثقلين بالمسؤوليات أن يكونوا أكثر حرصًا؛ في الواقع عليهم في الغالب أن يعبروا عن أنفسهم بلغة مراوغة. ومع ذلك لا يعرفون أن مثل هذه اللغة ربما تشكل بالتدريج طريقة تفكيرهم. وفي النهاية، ربما يعتقدون أن الأولوية للحديث المخادع.

وهناك صعوبة أخرى تتعلق بالخوف العام من النجاح نوعًا ما. مع تحقيق طموح كبير، ربما يستيقظ الخوف المستتر منذ الطفولة، وهو خوف له علاقة بالمنافسة المبكرة مع الأب ومع الأشقاء. مُذَّاك ربما يبدأ حسد المتفرجين وعداوتهم في الإضرار بحياة رجل الدولة.

خطر تولي أية قيادة – حتى ولو أي شكل من أشكال توكيد الذات – أنه يستثير المقاومة والعدوانية والثأر والعقاب. يعرف المدير نفسه أنه تحت أنظار الرأي العام، ويشعر بأنه معرض للانتقاد والهجوم السياسي. وعليه من الآن أن يطور واجهة دفاعية ليتودد إلى العامة والناخبين إذا لم تكن لديه من قبل. من هنا قد تكون النتيجة أن الديمقراطي الذي كان وديعًا من قبل، والمؤمن بحكم الشعب، يأخذ فجأة وضع شخصية سلطوية. وترشده في ذلك فانتازيا القيادة الطفولية المحبطة بداخله.

مع ذلك فإن «مستشاري» الإدارة «غير الرسميين» بكل مشاكلهم الداخلية هذه يصنعون لنا التاريخ. وتتأثر عقولنا بعمق بعقولهم. في نفس الوقت، فإننا – الشعب العظيم – نؤثر فيهم، وربما توجههم دوافعنا المتحضرة لإيجاد الطريق السليم، تمامًا

كما يمكن لدوافعنا وتأثيراتنا البدائية أن تحثهم على دفعنا جميعًا باتجاه كارثة. ويصبح اقتحام العقل الإداري حتى متزعزعًا أكثر عندما تتبع السلطات نمطًا من الإجراءات التي لا تتحكم فيها المحاكم أو القانون. في مثل هذه الحالات يمكن للتعسف والطغيان أن ينموا بسهولة مثلما جربنا في العديد من لوائحنا الأمنية. إن التكتم الرسمي سمة من سمات القوة السحرية؛ كلما زاد الصمت في العالم، قل تحكم الديمقراطية وتعاظم الخوف من الخيانة.

تقنيًّا يجب أن تكون إدارة أية جماعة أو أمة - أو حتى العالم بأسره، بسيطة تمامًا. ومن المؤكد أن البشرية تعرف ما يكفي للقيام بهذه الوظيفة. إننا نعرف القدر الكبير من التاريخ وعلم الاجتماع وعلوم العلاقات الإنسانية والحكم، على الأقل بما يكفي لعدم تكرار أخطاء التاريخ. إننا نعيش في عالم الوفرة التقنية والاقتصادية. لكننا لم نتعلم بعد تطبيق ما نعرفه أو تنظيم موارد العالم، وقع خطأ ما في مكان ما، وخرجت الأمور عن السيطرة. يبدو أن إرادة الأمم والناس على التفاهم أصابها الشلل وتراكم الخوف والشك المتبادل نتيجة فانتازيا الأيديولوجيات الأسطورية التي تتقاتل معًا. وربما كل ما يبقى غدًا حكايات عن الكلاب المتقاتلة.

خلال الحرب العالمية الثانية، بعثت بصفتي ممثلًا رسميًّا لحكومة هولندا إلى اجتماع دولي حول الرفاهية ومساعدة ضحايا الحرب. عندئذ أدركْتُ أكثر مدى ما يمكن للمشاعر الخاصة أن تفعله في تمهيد الطريق الذي نتعامل به مع المشاكل العامة. كانت وجوهنا جميعنا في المؤتمر باردة وخالية من التعبيرات؛ مما يعني شكلًا حاد وغير متحيز من التفكير، لكن عقولنا اللاشعورية كانت متأثرة بمشاكل أخرى. عادة ما يطرح موضوع الرفاهية باعتباره مسألة كره أكثر من أن يكون مسألة حب أو تعاطف. يمكن أن يلعب كبرياء المرء أو هيبته دورًا أكبر بكثير من الشفقة على الضحية الفقير. وأكثر من يعلم هذه الحقيقة هم النازحون وشعوب الدول المدمرة والمتخلفة. إنهم لا يحبون الدور الذي أعطاه لهم القدر؛ وعليهم أن يلعبوا الدور المزدوج للضحية الخالد الذي لا يكون مجرد ضحية للسياسات

والحرب، لكن أيضًا لمعطي الخير المتعجرف. في الواقع، كان ممثل الطرف المتلقي في هذه الصفقة في حالة استياء من أي عرض يقدم لبلده. كان كل شخص يرغب في أن يكون هو نفسه «العم الأمريكي» الكريم.

علل العاملين في الوظائف العامة

في المستقبل بينما ينمو فهمنا النفسي، سيتلقى القادة السياسيون تعليمًا أفضل حول مبادئ علم النفس الحديث. مثلما ينبغي على الجندي معرفة كيفية التعامل مع أسلحته العينية، كذلك يجب أن يعرف السياسي كيف يواجه ويتعامل مع الإستراتيجية العقلية للعلاقات البشرية والدبلوماسية. وينبغي عليه أن يعي مخاطر التواصل البشري ومواطن الضعف في عقله.

يمكن للمرض الجسدي والنمو العصابي أن يكون لهما كافة أنواع التأثيرات على هؤلاء المسؤولين. تحت تأثيرهما، ينسحب الناس إلى حياة من الاستياء المستمر، وكأنهم في نشاطهم السياسي والرسمي يتقاتلون مع معاناتهم الطفولية ضد الشياطين والقلق والذنب الداخلي. وثمة آخرون طهرتهم معاناتهم وصاروا أكثر حكمة وأكثر إنسانية عما كانوا عليه.

إن علم الطب النفسي الجسدي الحديث أوضح لنا أن القلق المستمر والمنافسة المستمرة والعدوان المكبوت، والرغبة في الهيمنة على الآخرين وحكمهم، والخوف من المسؤولية وأعباء المهنة التي اختارها المرء أشياء من عوامل كثيرة تؤثر على الجسد والعقل لتشكل نمطًا من ردود الفعل الجسدية. وردود الفعل هذه تعوق بالفعل قدرتنا على حل مشاكلنا؛ وذلك بإعاقتنا جسديًّا. أن يصبح المرء رجل دولة منتخبًا في عصرنا المليء بالتنافس البشري والاعتماد المتزايد على أعداد غفيرة من الناخبين، يبني داخل النفس صفات أصحاب المناصب التي تكاد تكون مرضًا نفسيًّا، وقد تشل الجسد أو العقل أو الاثنين معا في الوقت الذي نحتاج فيه إلى قادة يتمتعون بالصحة والحكمة. إن الدور الذي يلعبه الذهان الكامن، أو اضطراب

الشخصية في العديد من الشخصيات الحاكمة لا يمكن التحقق منه بالقدر الكافي. منذ فترة ليست ببعيدة عالجت قائد جمعية إنسانية كبيرة، وكان يحظى بتقدير كبير من إخوته المواطنين، لكنه كان يعتبر مريضًا وديكتاتورًا سيكوباتيًا في دائرة عائلته. كان أطفاله يرتعدون بمجرد رؤيته، ونما لديهم - بالطبع - سلوك متهكم من كل المُثل والشؤون الإنسانية.

أشك أنه في كثير من الأحيان يتأثر هذا المرض بالطريقة التي نختار بها قادتنا. إن التفضيل العام يميل عادة إلى صفات الشخصية القوية والدفاعية والمرضية كثيرا التي تظهر بشكل جيد في وظائف عامة. إن الواجهة الخارجية هي محط الأنظار؛ ولا يمكننا الحكم على الجوهر الداخلي.

في عام 1949، كتب «برنيت هيرشي» مقالًا طرح فيه سؤالًا: هل قدرنا معلق بأيدي رجال مرضى؟ كتب المقال بعد الموت المأساوي لـ «جيمس فورستال»[100] وزير الدفاع الأمريكي، الذي انتحر تحت تأثير اليأس وهذاءات الاضطهاد. وهذا المقال يصف بشيء من التفصيل المحن النفسية الجسدية للعديد من رجال الدولة. اقتبس «هيرشي» كلمات «جورج س. مارشال» إلى نادي ما وراء البحار للصحافة[101]: "لقرح المعدة تأثير غريب على تاريخ عصرنا. في واشنطن أجادل، ضمن أشياء أخرى، حول قرح «بيدل سميث» في موسكو، وقرح «بوب لوفيت» و«دين أتشيسون» في واشنطن[102]. يذهب الكاتب إلى نقطة أبعد من ذلك، وتتمثل

---

100 - برنيت هيرشي Burnett Hershey (1896 - 1971): كاتب أمريكي. جيمس فورستال James Forrestal (1892 - 1949): آخر وزير على مستوى مجلس الوزراء الأميركي للبحرية، وأول وزير للدفاع في الولايات المتحدة (1944 – 1947). (المراجع)

101 - جورج س. مارشال George C. Marshall (1880 – 1959): وزير الخارجية الأمريكية (1947 – 1949)، وزير الدفاع (1950 – 1951). نادي ما وراء البحار للصحافة Overseas Press Club: نادي أمريكي تأسس في مدينة نيويورك في عام 1939. (المراجع)

102 - فالتر بيدل سميث Bedell Smith (1895 - 1961): دبلوماسي وعسكري أمريكي. بوب لوفيت Bob Lovett (1895 - 1986): وزير الدفاع الأمريكي من 1951 إلى 1953. دين أتشيسون Dean Acheson (1893 - 1971): وزير خارجية أمريكا من 1949 إلى 1953. (المراجع)

في أن «ستالين» و«ستافورد كريبس» و«أرين أوستين» و«فيشينسكي» كانوا يعانون هم أيضًا من علل نفسية جسدية، مثلما كان حال «كليمنت أتلي»[103]. سمعنا جميعنا التعويذات التي تصيب بالإغماء التي ألقاها رئيس الوزراء الإيراني الأسبق «محمد مصدق» في خطابه في نوبات الإغماء، وقد غير بها ميزان القوة في الشرق الأوسط. كما أن عضو مجلس الشيوخ «مكارثي» المثير للجدل، والمتصدر لعناوين الصحف، حالة إضافية هو الآخر. في خضم صراعه على تصدر عناوين الصحف، كان يعاني من حالة مرضية في المعدة تطلبت عملية استكشافية، وكان يعاني أيضًا من التهاب كيسي وصداع جيبي متكرر وعلامات الإرهاق – وكل هذه الأمور معروفة بأنها أمراض نفسية جسدية تنتج عن التوتر الشديد. *[نيوزويك، 12 إبريل 1954.]*

لدينا أيضًا الكثير من الأمثلة السارة على كيف يمكن للإعاقة الجسدية والنمو العصابي أن يجعلا الشخصية ناضجة وقوية. ربما أوضح مثال على العلاقة بين الجسد والمهنة هو الراحل «فرانكلن د. روزفلت»، الذي كانت حياته السياسية غير جلية إلى أن أصيب بشلل الأطفال. من هنا صارت سنوات معاناته الجسدية سنوات لنضجه العقلي، وغيرت هزيمته للألم والمرض سلوكه تجاه مشاكله الخاصة وأيضًا تجاه مشاكل العالم. من المؤكد أن نمو تعاطفه وتواضعه، وزيادة تفكيره الإستراتيجي، ومعرفته الثاقبة بتوازن القوى في بلاده لابد أنها تعزى جزئيًّا إلى نموه العقلي الداخلي خلال مرضه.

سيظل «روزفلت» دومًا مثالًا يحتذى به على الكيفية التي يستطيع بها العقل تخطي الحدود المادية للجسد، وكيف يمكن للعقل أن ينمو خارج حدوده عندما يكون الإنسان مستعدًّا للنظر إلى الداخل ومحاربة الصراعات بداخله.

---

103 - ستافورد كريبس Stafford Cripps (1889 - 1952): النائب العام لإنجلترا وويلز من 1930 إلى 1931. أرين أوستين Warren Austin (1877 - 1962): قاضٍ ومحامٍ ودبلوماسي وسياسي أمريكي. أندري فيشينسكي Vishinsky (1883 - 1954): سياسي سوفياتي وقاض ودبلوماسي. كليمنت أتلي Clement Attlee (1983 - 1967): رئيس وزراء بريطانيا من 1945 إلى 1951. (المراجع)

دعني أعاود الحديث مرة أخرى عن مؤتمر وقت الحرب حول الرفاهية الذي ذكرته من قبل، وأخبرك بشيء إضافي عنه.

لم يشعر رئيس المؤتمر أنه على ما يرام؛ فقد كان كل قرار يؤلمه بنفس درجة ألم القرحة. كان يناقش ويفكر ويرفض قبول المسؤولية التي فرضها عليه المنصب. كانت ممثلة إحدى دول شرق أوروبا امرأة جذابة، لكنها كانت كارهة للبشر. وكل كلمة كانت تنطق بها كانت مصبوغة بالشك، وعندما حاول أحد ممثلي الدول اللاتينية أن يلاطفها بكلمات رقيقة، ارتبكت وتحدثت بغضب حيال كل اقتراح من اقتراحاته البناءة.

لدينا أيضًا سياسي محترف من المدرسة القديمة ومتردد. مع أنه لم يتدرب على إلقاء خطبه بكلمات رقيقة ومهذبة، إلا أنه يتحدث فقط لتدمير كل اقتراح لم يكن وليد مخيلته. عندما يجبر على الإنصات – وهذا ما لم يكن يعجبه على الإطلاق – كان يشغل نفسه دومًا بربطة عنقه أو نظارته، ويتأنق دائمًا.

في ركن مزدحم جلس شاب متحمس كان متشوقًا لفعل شيء مهم. أراد أن يتصرف وأراد أن يرى إنجاز شيء ما، وكان يُنظر إلى حماسته بازدراء شديد من الآخرين. لم يكن يعرف قواعد لعبة المؤتمرات.

كانت الجلسات مملة، وتحدث المندوبون بإسهاب وبلا مغزى. لكن في أحد الأيام سيطر على المؤتمر نوع من الغضب العارم؛ إذ حاول كل مندوب أن يحطم زملاءه. واستخدم شخص ما على غير المتوقع كلمة "خونة" لوصف مجموعة معينة تقاتل في أوروبا، وهنا تحول النقاش الهادئ فجأة إلى صدام بين المشاعر المتمردة التي كانت تتأجج لفترة طويلة خلف أقنعة الدماثة.

يا له من هياج! ويا له من سخط، ويا له من غضب! لكنه كان مؤقتًا فحسب. وخبت نيرانه؛ حيث أعادت روح المؤتمر المعقدة تأكيد نفسها، واستقر بنا الأمر على

عدم القيام بأي عمل. عندئذ ألقى رئيس المؤتمر خطابًا ختاميًّا مهذبًا، وانفض المؤتمر بعدها. وإلى الآن لم ينجز العمل الذي خططنا له بعناية، بعد مرور سنوات عديدة.

بتفاؤل كبير ما زال القادة السياسيون يعقدون الاجتماعات لإحلال سلام جديد في العالم. إننا نعرف أن الكثير منهم سوف يعانون مرة أخرى من قرحة المعدة، لكن ما الذي نعرفه عن رغباتهم واستياءاتهم المخفية بعمق؟

مع أنني أخشى أنه مازال أمامنا الكثير من الوقت عندما يتوجب علينا إخضاع ممثلينا الرسميين ورجال الدولة للتعليم والاختيار النفسي، علينا أن ندرك أكثر العديد من العوامل اللاشعورية التي تؤثر عليهم وعلينا.

هل يحاول القادة السياسيون التفاهم وفهم الجماعات التي يمثلونها، أم أنهم يقيسون القوة فقط بآلاتهم السياسية وكلماتهم وأصوات ناخبيهم؟ هل يرشدهم الاستياء والطموحات الخاصة أم الرغبة الشريفة في خدمة المجتمع ومثله؟

هل رجال الدولة مزودون بالعتاد العقلي لأداء مهامهم؟ وإن لم يكونوا كذلك، كيف يمكن للتفكير النفسي أن يحسن بالتدريج من عتادهم؟

كم منهم يدرك مدى إحباطاته الخاصة؟ هل يمكنهم التفكير منطقيًّا تحت معطف التحالفات السياسية؟ كيف يمكن للعلة والمرض والعصاب أن يصطدموا بمداولاتهم؟ راقب كيف أنه في أية مناظرة تقاطع الخطب المهذبة سجالات مفاجأة.

إلى أي مدى تؤثر التربية في الطفولة أو الأفكار الثابتة أو الطموحات المرضية لرجال الدولة على مصير بلدة أو أمة؟

إننا ندرك أن البديهيات المثالية ربما تغطي على الاقتراحات غير الملائمة، ونميل إلى قبول هذا باعتباره لعبة مبتذلة في الإستراتيجية السياسية والدبلوماسية. لكن الأسوأ من سياسة المراوغة العلنية هذه هو المؤتمرات والمناقشات السياسية الخفية بين العقول اللاشعورية للسياسيين ومشاعرهم.

كم عدد السياسيين وأتباعهم الذين يدركون هذا التيار السفلي المترصد الذي يكون له عادة تأثير أقوى من الأفعال العلنية؟ كيف يمكن للعنصر الشخصي بين رجال الدولة أن يعرقل حريتنا العقلية، وما دور العنصر النفسي الجسدي في بعض قادتنا؟

من المهم لنا طرح هذه الأسئلة. وقد تعلمنا من تطور العلوم أن طرح الأسئلة الصحيحة يساعد على إيضاح المستقبل، حتى عندما يستحيل إيجاد حلول مُرْضية على الفور. إنها تمهد الطريق للحل.

العقل البيروقراطي

في الدولة التي يستخدم فيها الرعب لإبقاء الناس تحت السيطرة، ربما تصبح الآلة الإدارية ملكية حصرية وأداة للديكتاتور. إلا أن تطوير نوع من الحكم البيروقراطي المطلق لا يقتصر على الدول الشمولية. إننا نجد في كل دولة شكلًا خفيفًا من أشكال الحكم المهني الواضح في طبقة الوسطاء من مقدمي الخدمة المدنية الذين يملؤون الفجوة بين الإنسان وحكامه. مثل هذه البيروقراطية ربما تستخدم لمساعدة المدنيين الذين ينبغي عليها خدمتهم أو إيذائهم.

من المهم إدراك أن هناك معركة صامتة من نوع ما تدور في كل دول العالم – في ظل كل شكل من أشكال الحكومات – وهي معركة بين الرجل العادي والأجهزة الحكومية التي صنعها بنفسه. في الكثير من الأماكن يمكن أن نرى أن هذه الأداة الحكومية، التي كانت معنية في الأصل بخدمة الإنسان ومساعدته، وقد اكتسبت بالتدريج المزيد من السلطة عما كان مفترضًا لها.

هل **قديس البيروقراطيين**[104] شيطان يستحوذ على الإنسان بمجرد أن يتقلد مسؤولية في الحكومة؟ هل أصيب رجال الدولة بعدوى صناعة نظام زائف،

104 - قديس البيروقراطيين Saint Bureaucratus: باللاتينية في الأصل. (المراجع)

والتلاعب بالآخرين من وراء مكاتبهم الحديدية الخضراء؟ إن الأساليب الحكومية لا تختلف عن أية إستراتيجية نفسية أخرى؛ إن القبضة القمعية للنظام الصارم يمكن أن تستحوذ عقليًا على من كرسوا أنفسهم لها، إذا لم يكونوا حذرين؛ وهذا هو الخطر الجذري للعديد من العناصر التي تتوسط بين الرجل العادي وحكومته. إنه جانب مأساوي من الحياة أن يكون على إنسان أن يضع إنسانًا آخر عرضة للخطأ بينه وبين تحقيق مثله العليا.

أي العيوب البشرية سوف تتجلى أكثر في الآلة الإدارية؟ إن اشتهاء السلطة والآلية والصرامة العقلية – تمثل جميعها خبز الشك والمكيدة. أن يكون الإنسان ممن يقدمون خدمة مدنية في منصب رفيع يجعله عرضة لمغريات خطيرة، ببساطة لأنه جزء من الجهاز الحاكم. إنه يجد نفسه متورطًا في التعقيد الإستراتيجي. إن سحر أن يكون المرء مديرًا تنفيذيًا وخبيرًا إستراتيجيًا تستثير مشاعر القدرة الكلية المكبوتة منذ زمن بعيد. يشعر الخبير الإستراتيجي وكأنه لاعب شطرنج، ويريد التلاعب بالعالم من خلال جهاز التحكم عن بعد. يمكنه إبقاء الآخرين الآن قيد الانتظار؛ حيث إنه أجبر على هذا الانتظار نفسه في أيام الشباب، ومن ثم يمكنه الشعور بالتفوق نفسه. يمكنه تحصين نفسه خلف لوائحه الرسمية ومسؤولياته. وفي الوقت نفسه عليه أن يقنع الآخرين على الدوام بعدم إمكانية الاستغناء عنه لأنه يكره إخلاء مقعده. وبمثابة طريقة دفاعية ضد عدم أهميته النسبية، عليه أن يوسع من طاقم عمله ويزيد من جهازه البيروقراطي. لكي يصبح المرء «شخصًا بالغ الأهمية»، فإنه يحتاج إلى مكتب كبير. ويتطلب كل عضو جديد في طاقم العمل سكرتاريا جديدة وآلات كاتبة. يبدأ كل شيء في الخروج عن السيطرة، لكن يجب التحكم في كل شيء؛ يجب إنشاء ملفات جديدة وتُجرى الدعوة لاجتماعات وتعقد لجان جديدة. في النهاية تتحدث لجان التفاعل بين الموظفين لأيام، ويتم تكليف مشرفين جدد للإشراف على المشرفين القدامى للإبقاء على كل المجموعة في دولة في حالة إذلال طفولي. وما كان يستطيع رجل واحد أن يفعله بمفرده من قبل، يفعله

الآن طاقم عمل كامل. في النهاية، يصبح التوتر البيروقراطي هائلًا، وتسعى الرغبة الاستبدادية إلى البحث عن راحة من الانهيار العصبي.

هذا التسلل للشمولية عن طريق المكتب والملف متفشٍ تقريبًا في كل مكان في العالم. وبمجرد ألا يصبح موظفو الحكومة قادرين على الحديث بإنسانية ولطف، ويدونون كل شيء بالأسود والأبيض، ويحتفظون بمحاضر طويلة في ملفات متدفقة، تبدأ معركة السلطة الإدارية. يصبح النظام الإجباري والشريط الأحمر والأحكام أكثر أهمية من الحرية والعدالة، وفي غضون ذلك يتفاقم الشك بين الإدارة والموظفين والرعية.

لقد صارت كتابة المستندات والتقارير وطباعتها أشياء شديدة الخطورة في العالم. بعد نقاش ما، حتى ولو كان بكلمات قاسية، سرعان ما ينسى اللغو. لكن على الورق تدوم هذه الكلمات ويمكن أن تكون جزءًا من نظام يغذي الشك.

أصبح الكثير من الناس إداريين في الشؤون العامة بنابع من الشعور المثالي تجاه الخدمة والحرفة. وهناك آخرون يحاولون الهروب من مغامرة الحياة بأن يصبحوا جزءًا من هيكل الخدمة المدنية. ومثل هذه الخدمة تضمن لهم دخلًا ثابتًا وعلاوة منتظمة وإحساسًا بالأمان الوظيفي؛ وذلك الشعور بالأمان مغرٍ جدًّا. إن هذه الآلية السلسة، والصرامة اللامعة جذابتان جدًّا لأنواع معينة من البشر، لكنها قد توهن آخرين مازالوا يؤمنون بالتحدي والتلقائية.

والسؤال النفسي اللاذع هو إن كان الإنسان سيتمكن من التحكم في مؤسساته هذه بحيث تخدمه ولا تحكمه. في الدول الشمولية لا يسمح للمرء برؤية الدعابة في قصوره. على هذا الأساس يكون النظام والشريط الأحمر والملفات المتعددة أكثر أهمية من الكائن المسكين الضائع في كرسيه خلف مكتب ضخم، يبدو شديد الأهمية بالنسبة إلى قدراته العقلية.

من الصعب التمكن من فن أن تكون إداريًا قائدًا، وأن تكون ممثلًا أصيلًا

للناس؛ إنه يتطلب الكثير من التعاطف والامتثال مع الأشخاص الآخرين وما يحفزهم.

مازال الدبلوماسيون والسياسيون يؤمنون بالإقناع الشفهي، والتكتيكات الجدلية. إنها لعبة قديمة للغاية وجذابة، تنطوي على إستراتيجية التمويه السياسي بالشعارات والكلمات الجذابة الرسمية – المكر المتمثل في تخطي الحقيقة في خدمة التحزب وإعطاء تأكيد معيوب ومهارة الرقص حول جدالات منتقاة للوصول إلى أهداف دعائية شخصية أو أهداف حزبية. عاجلًا أم آجلًا يصاب تقريبًا كل السياسيين بهذه العدوى. تحت وطأة مسؤولياتهم يستسلمون إلى رغبتهم في ممارسة لعبة الدبلوماسية. وعليه، يبدأون بالمساومة على تفكيرهم، والرجوع إلى الخلف ويكونون حذرين، وإلا انتقد ملاحظاتهم ذوو المناصب الأعلى، أو سوف يسقطون مرة أخرى في مشاعر الهيمنة السحرية الطفولية. إنهم يريدون لهم يدًا في كل شيء – يسارًا ويمينًا.

كل هذه نزعات عقلية يمر بها كل إنسان ويمكن أن تنمو بسهولة أكثر لدى السياسيين والإداريين، نظرًا للتأثير المتزايد لتقنيات الحكم الحديث وتهديده لحرية التعبير عن الرأي. عندما ينخرط الإنسان في حديث إستراتيجي وسياسي، يغير شيء ما سلوكه. لم يعد مباشرًا؛ إنه لا يعبر ويوصل ما يفكر فيه، لكنه قلق حيال ما يعتقده الآخرون عنه خلف مظهرهم الزائف. يصبح حصيفًا جدًّا ويبدأ في بناء كافة أنواع الدفاعات العقلية والتبريرات حوله. باختصار، يتعلم التصرف بسلوك إستراتيجي. ينسى العفوية وينكر الحماسة؛ لا تطالب نفسك أو الآخرين بالأمانة الداخلية، لا تكشف نفسك أبدًا، لا تفصح عن نفسك أبدًا، العبْ مثل خبير إستراتيجي، كن حريصًا وأكثرْ من استخدام «لكن» و«مع ذلك»؛ لا تلزم نفسك أبدًا.

أتذكر زعيم معارضة ارتبك بشدة وكاد ينهار حين فاز حزبه في الانتخابات بعد فترة طويلة خارج السلطة، وكان عليه أن يتحمل مسؤولية حكومية. وبعد أن كان

ناقدًا عدوانيًّا وصريحًا، أصبح مترددًا وعصابيًّا شكاكًا يلعب دور الخبير الإستراتيجي الكَيّس، ولم يعد يتمتع بروح مبادرة حقيقية.

بعض السياسيين مثل الدمى المتحركة، متحدثين باسم رؤسائهم. وبعضهم لا نظير له في التلاعب بالكلمات، ويحولون عدوانية الإنسان إلى شعارات. هناك أيضًا عازفو أبواق الهلاك، الذين يميلون إلى الجدال عن الهلع. تنفذ السياسات الحديثة بقواعد عتيقة في المحادثات والتواصل والمناقشات؛ والقليل جدًّا من السياسيين على دراية بالعيوب المتعلقة بدلائل الألفاظ وعدم أمانة أدوات الكلمات التي ينبغي عليهم استخدامها لإقناع الآخرين.

مع ذلك يمكن للتفاهم المتبادل أن يكون أساسًا للإستراتيجية السياسية. لا يحتاج الأمر إلى سياسة القوة مع الخداع اللفظي والشعارات، بل إلى التقصي العقلي لإيجاد طرائق ربما تثبط من خلالها العروض والمقترحات مقاومة من لديهم آراء ودوافع مختلفة.

وكثيرًا ما ينسى السياسيون أن معركتهم من أجل السلطة الإدارية ربما تصبح شكلًا من أشكال الحرب النفسية ضد سلامة عقول من يجبرون على الاستماع. وكثيرًا ما يُستخدم التشهير المتبادل والمتكرر خلال الانتخابات، وبالتدريج يقوض النظام الديمقراطي ويؤدي إلى وجود حاجة إلى التحكم السلطوي. كما أن الشائعات الإستراتيجية والشكوك التي يضع بذورها السياسيون تمثل هجمة على نزاهة الإنسان.

حين يفقد الموطن الثقة في قادته، يبحث عن الشخص الذي لديه القوة الغاشمة ليكون قائده. أين هو السياسي الذي لديه استعداد للاعتراف بأن خصمه لديه على الأقل نفس قدرته، وربما حتى يكون أكثر قدرة منه؟ تكمن فرصة تعاون السياسي في اعترافه الحر بمساواة خصومه له في القدرة والحكمة. والحقيقة أن التعاون يمكن أن يأتي فقط بالتعاطف والإحساس والفهم المتبادل لأخطاء البشر.

في أبريل عام 1951، كانت مجموعة من الأخصائيين النفسيين والمحللين

النفسيين وعلماء الاجتماع العاملين في الأمم المتحدة، والاتحاد العالمي للصحة النفسية، واليونسكو، ومنظمة الصحة العالمية ضيوفًا على مؤسسة يوشيا ميسي الابن في نيويورك[105]. كانت المقابلة تستكشف وتناقش تلك المشاكل الخاصة بالحكومة وتأثير الأنظمة الحكومية، ونشرت تقريرًا لاحقًا عن ذلك. أصبح هؤلاء الخبراء يدركون أكثر الحاجة إلى التعليم النفسي واختيار الإداريين الحكوميين.

هل ينبغي إجراء تحليل نفسي لرجال دولتنا؟ إنه سؤال طوباوي تقريبًا لا يتوقع اندفاعًا فوريًا للتدريب النفسي للسياسيين والإداريين، لكنه يشير إلى فترة مستقبلية يعمل فيها الذكاء العملي والمعرفة النفسية السليمة على إرشاد الإنسان بخصوص مختلف جوانب حياته. سوف يتخلل المناهج التعليمية بالكامل معرفة سيكولوجية يمكن الاعتماد عليها. مازال علم النفس وعلم النفس التحليلي من العلوم الشابة، لكن العديد من رجال السياسة لدينا في الوقت الحاضر يمكنهم الاستفادة منهما بالفعل. من خلال اكتساب بصيرة ذاتية، يكونون أكثر سلامة في إستراتيجية قيادة العالم. سوف يتكفلون بالمزيد من المسؤوليات – ليس عن نجاحاتهم فقط، لكن عن إخفاقاتهم أيضًا. وسيأخذون على عاتقهم مسؤوليات أكثر، مع نسبة أقل من وخز الضمير، لصالح رفاهية الجميع.

في تلك اللحظة تحديدًا ربما يقف فشلنا في حل مشكلات عدم الكفاءة الحكومية والاقتحام البيروقراطي لتصرفات الإنسان، عائقًا أمام تطور عقل المواطن. إن احتياج الإنسان إلى التوافق في صراع دائم مع احتياج الإنسان إلى الانطلاق بمفرده. يجب دراسة هذا الرابط بين تفكيرنا الحر التلقائي والعقلية الإدارية غير المغامرة، إلى جانب المشكلة التي يطرحها ليحلها علم نفس المستقبلي.

---

105 - مؤسسة يوشيا ميسي الابن Josiah Macy Jr. Foundation: مؤسسة خيرية أسستها كيت ميسي لاد (1863-1945) عام 1930 تكريما لوالدها الكابتن البحري "يوشيا دبليو ميسي الابن" (1837 - 1876). (المراجع)

الفصل الرابع عشر
المرتد في كلٍّ منا

التأثير المربك لمشكلة الخيانة والولاء

بمجرد ذكر كلمة «خيانة»، يتحرك شيء ما في روح الإنسان. ويثار بداخله الغضب والاحتقار والشك والقلق، ويرغب الناس في تجنب الموضوع. ورد الفعل الاجتماعي تجاه الخائن – حتى قبل أن نكون على يقين بأنه يستحق التهمة – مدهش للغاية. تراجع بعض الأصدقاء القدامى لرجل متهم «بالخيانة»، ونكصوا على أعقابهم من هذه السمة الشريرة. في كل محاكمة للخونة نشعر في أعماقنا بأننا شخصيًّا متهمون ومذنبون.

وهذا أحد الأسباب التي تجعل المحاكمات بالخيانة تعطي هذه الانطباعات العميقة، وتستثير أكثر المناقشات إرباكًا. يمكن للطغاة استغلال مثل هذه المحاكمات لإلقاء تعويذتهم على العامة. من هناك جاءت الحاجة إلى تقصي مشكلة الخيانة والولاء في كتاب يتناول القهر العقلي واغتصاب العقل.

الخائن اللاإرادي

«**إن خيانة الذات تنبعث من مسام كل بني البشر**» *(سيجموند فرويد)*

في موطني هولندا يوجد محل حلاقة صغير وهادئ بالقرب من مباني حكومية، كان مملوكًا لرجل ضئيل البنية بلحية فرنسية رمادية. وعلى مر السنين، خدم الحلاق أهم رجال الدولة. وكان كل الدبلوماسيين والوزراء والجنرالات المعتدِّين بأنفسهم، والقادة الشرسين من المعارضة – يريدون خدماته. كان هذا الحلاق الضئيل دائم المجاملة، وودودًا ومتحمسًا لإسعاد زبائنه. كان يتراقص حولهم بإيماءات تذلل وخنوع، بينما يصفف شعرهم ويعتني بشواربهم. وفي أثناء عمله، كان يسأل زبائنه المميزين أسئلة مهذبة: «ماذا سيقول جلالته فلان الفلاني عن مشروع القانون هذا؟»، «ما شعور وزير الدولة حيال هذا الأمر؟».. لم يكن الحلاق في حقيقة الأمر مهتمًا بالسياسة على الإطلاق، لكن هذا الحلاق الضئيل عرف أن زبائنه يشعرون بالإطراء من مثل هذه الأسئلة.

وفي أحد الأيام، دخل أحد الجنرالات الألمان منتفخًا ومزدانًا بالأشرطة وجلس على مقعد الحلاق – كانت الجحافل النازية قد غزت هولندا واحتلتها. بالطبع كان الحلاق على علم بهذا، بل وتمكن حتى من كراهية الغزاة لبضعة أيام، لكنه بفطرته ذو روح رقيقة، وقام بنفسه بوضع الرغوة على وجه الجنرال وحرص على ألا يتسخ زيه الرسمي. وفي الأيام التالية، تعاقب آخرون من هؤلاء الرجال ذوي الزي الغريب على الظهور في محل الحلاقة، وكان الحلاق الضئيل يخدمهم بنفسه أيضًا. بعد ذلك تبع هؤلاء الرجال العسكريين أعضاء البوليس السري "الجستابو" من ذوي القمصان البنية وذوي القمصان الخضراء. وقد بلي جلد كرسي الحلاقة بسبب الأحذية الطويلة السوداء والضخمة، لكن الحلاق الضئيل لم يشْكُ، وسرعان ما اعتبر المحتلون قصته أكثر قصات الشعر المواكبة للموضة، وأفضل ما يمكن الحصول عليه في المدينة بأكملها.

لم يكن هذا الحلاق يدرك ازدياد أهميته الرسمية، وظل يتراقص حول زبائنه الجدد بنفس قدر مجاملته للدبلوماسيين في الأيام الخوالي. كان يشعر بالأسف على اختفاء معارفه القدامى تدريجيًا. لكن في الماضي كان عمله موسميًا؛ وعندما كان

البرلمان لا يعقد جلساته، يخلو المحل من الزبائن. والآن ازدهر عمله طوال الوقت. لقد أحب الألمان والمتعاونون معهم محل الحلاقة الصغير هذا والعطر ومهارة الحلاق. في الواقع، كان صديقنا الودود محببًا إلى أنفس هؤلاء المعتدين في زيهم الرسمي. ففي النهاية لم يكونوا معتادين تمامًا على المعاملة الودية؛ كان سلوك الحلاق تغييرًا مرحبًا به مقارنة بالازدراء الذي كان ينظر به إليهم الشعب الهولندي – هؤلاء المقاومون الأغبياء المتشددون.

في أحد الأيام دعي الحلاق لشراء بطاقة عضوية في إحدى منظمات المتعاونين مع المحتل المنشأة حديثًا. عندئذ، استجاب صديقنا إلى هذا الطلب كما كان يمكن أن يفعل مع أية دعوة للعمل الخيري. لم يكن يحب العطاء لكنه فكر في الرفاهية باعتبارها ضريبة خاصة على العمل، ومن ثم أذعن بالدفع باعتبار أن الأمر إزعاج ضروري وبسيط. لكن كان بعض معارفه القدامى حذروه من العواقب؛ إذ سيتم اتهامه بالتآمر والخيانة. لكنه هدأهم بقوله: «أنا حلاق وأعيش بصفتي حلاقًا. ليس لدي أي اهتمام على الإطلاق بالسياسة. كل ما أريده هو خدمة زبائني».

وبعد سنوات من المرار والاضطهاد، دقت ساعة التحرير، وأصبح صديقنا يعرف رسميًّا بأنه خائن ومتآمر. بمجرد الإطاحة بالرجال الخارقين في زيهم الرسمي وأحذيتهم الطويلة، زج بأصدقائهم المتآمرين على الفور في السجون، ومن بينهم الحلاق. وبعد أن أمضى مدة من فترة عقوبته أرسل أحد القضاة الحكماء والمتسامحين هذا الحلاق إلى محله الصغير. وبعد أن مرت موجة حماسة التحرر الأولى، أصبح لدى الناس استعداد أكبر للتسامح مع من كانوا متآمرين لأنهم كانوا ضعاف القلوب.

لم تنتهِ قصتنا بعد على أي حال؛ فقد عاد الحلاق من السجن رجلًا مقهورًا. كان قد مكث في السجن ثلاثة أشهر؛ ومازال لا يستطيع فهم ما حدث له. كان يفكر على الدوام في أيام الخزي في السجن، والظلم الذي حاق به. كان يخدم إخوته في الإنسانية بسلوك حسن، هكذا ينبغي للمواطنين الفضلاء، لكن تم التعامل معه

مثل المجرمين. شعر بأنه أقوم خلقًا من الآخرين، وأنه ظلم وأهين وأسيئت معاملته وأسيء فهمه. في النهاية، كل ما أراده أن يكون كريمًا ومفيدًا. كان حلاقًا – لا شيء أكثر من هذا.

لم يستطع الحلاق أن يتخلص من المرارة والاستياء اللذين حلا به. ولم يأتِ أي أحد من أصدقائه القدامى لتهنئته والتعاطف معه. لم يعد أصدقاؤه القدامى، وزاد حزنه واكتئابه يوميًا؛ وبعد أشهر قليلة فارق الحياة. وبهذا انتهت مغامرة الحلاق ضئيل البنية الذي لم يكن يعي تمامًا تآمره وخيانته.

كنت أعرف هذا الرجل، ولا أحتقره – على الإطلاق. أنا واثق أنه يوجد العديد من هؤلاء المتآمرين المثيرين للشفقة. وأتساءل على أي حال لماذا كان هذا الحلاق ضئيل البنية بهذا الجهل؟ هل كان غباءً؟ هل كان لطفه الظاهري يغطي دائمًا على استيائه من أخوته في البشرية؟ هل أضلته موجة الإيحاءات الخبيثة الأقوى من قدرته العقلية على المقاومة؟ لن نعرف أبدًا.

هذه المأساة التي كان عدم الوعي وراءها على الأرجح، ربما نتيجة عدم القدرة على الاختيار بين الولاءات المتصارعة، حفزتني لفحص مشكلة الخائن. لدي فرصة سانحة لدراسة هذا السؤال من خلال خبرتي مع المقاومة الهولندية تحت الأرض خلال الاحتلال النازي، وعندما كنت قيد الاعتقال في معسكر الاعتقال في فيشي. وأول تحليل رسمي أجريته كان عام 1943، عندما طلبت مني الحكومة الهولندية إعداد تقرير نفسي عن عدم ولاء الجنود والمواطنين الهولنديين الذي كانوا رهن الاعتقال في جزيرة مان[106].

وصلت إلى السجن بعد رحلة عاصفة محفوفة بالمخاطر في طائرة صغيرة. شعر السجناء بأسف بالغ، وتوقعت عدوانية من جانبهم، لكنني لم أتوقع أن أجد الكثير

106 - جزيرة مان Isle of Man: جزيرة تقع في موقعٍ متوسطٍ من البحر الإيرلندي بين المملكة المتحدة وأيرلندا؛ لا تعتبر جزءًا من المملكة المتحدة، ولكنها تتبع التاج البريطاني. (المراجع)

من الضعفاء، الذين استنزفوا من الإحساس بالضغينة والغضب. كانت شخصيات بعضهم سلبية وأنانيّة وسيكوباتية، ترفع على ما يبدو شعار: «دع العالم يذهب إلى الجحيم! لن أمتثل أبدًا». ويبدو أن آخرين يقعون ضحايا لصراع داخلي لا قبل لهم به – وهو صراع بين رغبتهم في الانتماء إلى جماعة أقوى، ومقاومتهم لهذه الرغبة مقاومة زادت فقط من مرارتهم وعداوتهم.

كان هذا موقفًا أثبت لي مرة أخرى أن هناك أوقاتًا معينة لا يجدي المنطق والمناقشة فيها نفعًا على الإطلاق. حاولنا مرارًا وتكرارًا أن نقنع أنصاف المتآمرين أنه عليهم الالتحاق بنا في النضال ضد النازيين، لكنهم تراجعوا أكثر خلف ضغائنهم الخاصة. وقد رفضوا حتى السجائر التي عرضتها عليهم.

وبقدر سوء الرحلة إلى السجن، كانت كذلك رحلة العودة أسوأ. فقد خرجت الطائرة الصغيرة عن مسارها بفعل رياح عاتية. أصابني الإحباط والاشمئزاز من خبراتي، وعندما وصلت إلى إنجلترا في النهاية، أصابني المرض أنا والطيار.

كانت أمامي فرصًا عديدة بعد ذلك لدراسة الجواسيس والخونة والمخربين. في آخر تحقيق رسمي لي خلال فترة الحرب، ذهبت إلى معسكر اعتقال في مستعمرة سورينام في جيانا الهولندية[107]؛ حيث أعددت تقارير جماعية حول الموجودين في معسكر الاعتقال، واستطعت أن أستشف في الكثير منهم سمات عصابية وحتى ذهانية.

لكني وجدت أن ربما أفضل فهم توصلت إليه حول مشكلة الخيانة كان من أبحاثي النفسية على المرضى العصابيين الذين كانوا يواجهون صراعًا يوميًّا مع خيانات صغيرة في الحياة العادية، مع خيانتهم لأنفسهم، ومع المشاعر المتناقضة حيال من ينبغي عليهم أن يحبوه.

---

107 - سورينام Surinam: مستعمرة زراعية هولندية في غيانا Guinea، منطقة في شمال شرق أمريكا الجنوبية. (المراجع)

مفهوم الخيانة

قبل النظر أكثر في هذا الموضوع، دعنا ندقق في معنى كلمة «خيانة- treason». تستخدم الكلمة في النهاية بعدة معانٍ محيرة. تحمل كلمة "خيانة" عدة معاني ضمنية اجتماعية وسياسية، وتؤثر عادات المجموعة التي تستخدمها وتقاليدها وأعرافها على معناها وتلونه.

الكلمة نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية- *tradere* أو *transdare*؛ وتعني التصرف خطأ، أو الغدر، أو نقل شيء ما، أو إفشاء أسرار وأمور مؤتمن عليها. لكن من هذا الجذر اللغوي، اكتسبت الكلمة عدة معانٍ.

تحمل الكلمة في المقام الأول معنى انفعاليًّا وفرديًّا خالصًا يرتبط بمشاعر الحرمان والظلم. يشعر الرضيع عادة بأن كل من يجبره على الخروج من حالة النعمة والاعتماد التي يعيشها – ما يعني عملية النمو في حد ذاتها – بأنه غدر، ويرى الخيانة فيما يعتبره رفضًا من والديه. والشخص الذي يحافظ على هذه المشاعر الطفولية في رشده ربما يتعامل مع كل استخفاف أو رفض متخيل على أنه من أعمال الخيانة أو الغدر.

هذا الافتقار للوحدة مع العائلة أو العشيرة – مع الجماعة الداخلية – وعدم الامتثال لطقوسها ومحرماتها عادة ما كان يفسر من الجماعة على أنه خيانة، خيانة بالانشقاق. وبهذا المعنى، تنطوي الكلمة على تقييم أخلاقي بدائي؛ يرتبط بها الازدراء والاحتقار. تشير الخيانة إلى شيء انفعالي بعمق ومحرم، شيء مختلف أو غريب، مثل الولاء لعقيدة فكرية غريبة، أو انتهاك للأعراف أو مجرد حقيقة أن تكون أجنبيًّا. إن رفض أعراف المجتمع وقواعده، وأن يكون المرء قاضيًا على أخلاقه وقيمه، عادة ما يعتبر خيانة.

من التطرف أن يرفض المرء عادات موطنه كلها، بل ربما يعتبر عدم الامتثال لشيء بسيط خيانة أيضًا. في الواقع، إن عدم الامتثال الشمولي والانشقاق هما أخطر

الجرائم التي يمكن اقترافها ضد النظام، والعقول الشمولية لديها ميل للنظر حتى إلى الأخطاء أو اختلاف الرأي الشريف على أنه خيانة متعمدة.

ونظرًا للمعنى الضمني الانفعالي العميق للكلمة، يمكن استغلال أداة سياسية للتلاعب بالناس من خلالها. في توتاليتاريا أصبح الأمر مجرد إشارة بافلوفية؛ إذ تطلق ردود أفعال من عدم الثقة والكره. غير أنه بعد الهزيمة العسكرية أو الخذلان الدبلوماسي، أو كلما سرت موجة كبيرة من الشعور بالإهانة والخزي بين الناس، من الناجع حينئذ جعلهم يسقطون شعورهم بالنقص على الآخرين. يكون "الخائن" في تلك الحالة كبش فداء سهلًا يرضي الحاجة الجماعية لإلقاء اللوم والتنفيس عن القلق اللاواعي. في المجتمع الشمولي يجبر كل مواطن على أن يصبح خائنًا، وفقًا لمفهوم الأخلاق الغربية عندنا، لأنه يخون النظام في كل تعبير عن الانشقاق أو التمرد. على الطفل أن يبلغ عن أبيه، والأب عن ابنه؛ إنهم حتى مشمولون بتعريف الخيانة بالمعنى الشمولي إذا امتنعوا عن الإبلاغ عن بعضهم.

في التفسيرات السياسية الشائعة، تعتبر الخيانة من أعمال التمرد والسادية والانشقاق والهرطقة والتآمر والتخريب. ومعناها القانوني التقني معروف للجميع. الخيانة إذعان للعدو ومساعدته والعمل على راحته؛ كما أنها بالمعنى الأكثر حداثة والمعدل، المشاركة في مؤامرة فكرية عقائدية عن عمد ضد الوطن.

بصفتي طبيبًا نفسيًّا، أعتبر أن علاقتها بالمشكلة العامة المتمثلة في خيانة الذات مفتاح فهم الكلمة. إن أصل الخيانة ينبع أساسًا من مساومة الفرد على مبادئه ومعتقداته. وبعد هذه المساومات المبدئية، يصبح من السهل أكثر المضي قدمًا وإجراء المزيد من المساومات، إلى أن يصبح المساوم في النهاية إنسانًا مستعدًّا لبيع نفسه ومجتمعه لأعلى المزايدين. خلال الاحتلال النازي، رأينا هذا بين من كان يغويهم تقديم القليل من الخدمات للعدو. كانت الخطوة الأولى تؤدي إلى الثانية، ومن ثم إلى التآمر النهائي. وهذا لأننا جميعًا نشك في أنفسنا من حين للآخر؛ لأننا غير متأكدين مما سنفعله إذا ما خضعنا للاختبار. ولأننا ربما نرى أنفسنا خونة

محتملين، نجد أن كلمة "خيانة" هذه لها تلك الجاذبية الانفعالية العالية.

لكن الشك بالنفس أبعد ما يكون عن الخيانة الحقيقية، والخائن الحقيقي بالمعنى المَرضي للكلمة ليس مجرد شخص يشك في نفسه؛ إنه شخص يؤمن فقط بحقوقه الشخصية جدًّا، ويحتقر حقوق المجتمع وأمنياته. وهو أيضًا لا يدين بالولاء لجماعته. من ذلك أن "هتلر" مثلًا كان خائنًا، ليس لأفكاره فقط التي كان يتعامل معها كأدوات متغيرة لمساعدته على اكتساب السلطة والحفاظ عليها، لكن تكررت خيانته إلى أقرب أصدقائه والمتعاونين معه، ممن خان وقتل الكثير منهم عام 1934، فيما أطلق عليه ليلة السكاكين الطويلة[108]. إن الخائن الحقيقي شخص لديه هذاءات حول الأنا، والقناعة الواعية بأنه وحده على صواب. إنه من نوع مختلف جدًّا عن أي خائن مسلوب الإرادة، ومثير للشفق وغير واعٍ مثل الحلاق ضئيل البنية الذي تحدثنا عنه.

الخائن الذي يختار الجانب الآخر بوعي

في أثناء دراستي للخونة والمتآمرين السياسيين، اكتشفت سمتين رئيستين يشترك فيهما معظمهم: كانوا يتأثرون بسهولة بالعقول الأقوى من عقولهم، ولم يكن أي منهم يعترف بأن عدم ولائه عمل من أعمال الخيانة. دائمًا ما كان يتطوع الخونة الذين أجريت معهم مقابلات نفسية بتقديم تبريرات لا حصر لها لتصرفهم، ودائمًا ما كانوا يحيطون خيانتهم بشبكة معقدة من السفسطة والمسوِّغات. في الواقع، لا يمكنهم التسامح مع عرض صورة موضوعية لأفعالهم. وإذا فعلوا ذلك فسوف يدينون أنفسهم بأنفسهم. وبدون وعي، يدرك معظمهم طبيعة جرائمه ويعذبهم الشعور بالذنب. هذا الشعور بالذنب يصبح غير محتمل إذا ما أقروا، ولو حتى لأنفسهم، بهول أفعالهم.

---

108 - ليلة السكاكين الطويلة night of the long knives: عملية تطهير في ألمانيا النازية (30 يونيو - 2 يوليو 1934) نفذ فيها "أدولف هتلر" سلسلة عمليات إعدام خارج نطاق القضاء لتعزيز قبضته على السلطة في ألمانيا. (المراجع)

خلال احتلال النازيين للأراضي المنخفضة[109]، شاهدت هذه الصفات تتضح مرة تلو الأخرى؛ حيث كان العديد من الخائنين المحليين لدينا من عديمي الشخصية المستعدين تقريبًا لقبول أية فكرة جديدة أو نظرية مفصلة. كانت قابليتهم للإيحاء أعظم عائق يقف أمامهم. ومعظم هؤلاء النازيين المرتقبين لم تكن لديهم على الإطلاق شخصية قوية. فقد فشلوا في طموحاتهم وشعروا بالخذلان في حياتهم، وحولوا بالفعل تطلعاتهم الشخصية التي أحبطت إلى وهج مستنقع كالسراب السياسي. بعد احتلال الألمان وغزوهم، واجه هؤلاء الناس أبناء بلدهم المهزومين بنغمة منتصرة مفادها «لقد قلت لك هذا». كانوا يتباهون بحكمتهم وفكرهم في رهانهم على الحصان الرابح. من هنا اكتسبوا شعورًا كبيرًا بأهمية الذات، إضافة إلى ما اكتسبوه مؤخرًا من الثقة بالنفس التي تطيح بالعقل، ودعم القوات المسلحة للعدو لهم، جعلهم يتعاملون بصلف وازدراء مع أبناء وطنهم.

وفي محاولة منهم لتبرير تصرفهم وطمعهم للوصول إلى السلطة، حاولوا إقناع الآخرين بطريقة حياتهم الجديدة. كان يستحوذ عليهم الدافع لأن يصبحوا أبطالًا لدى الغزاة. دائمًا ما يحاول المرتدون التخفيف من وخز ضمائرهم بإقناع الآخرين بالمشاركة في جريمتهم.

بالطبع كانت لديهم بعض المآسي الحقيقية، مثل الجميع. لكن هؤلاء الخونة كانوا يتأثرون بها أقل من تأثرهم بالظلم المتخيل. ومن خلال أعمال الخيانة، كانوا ينتقمون لأنفسهم من المجتمع بسبب الأخطاء الخاصة التي عانوا منها نتيجة فشلهم الشخصي. كان يمكن الشعور باستيائهم في كل ما يتفوهون به.

كان الخبراء الإستراتيجيون النازيون محنكين في استغلال هذا الشعور بعدم الرضى. بدوا وكأنهم يعرفون بالغريزة إن كان يمكن إيقاع فرد ما في شرك الدعاية

109 - الأراضي المنخفضة Low Countries: منطقة تاريخية في أوروبا، تضم حالياً بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمال فرنسا وغرب ألمانيا. (المراجع)

النازية من عدمه. ثمة حالة أعرفها في هولندا تتعلق بمدير سابق له شأن عظيم طرد من منصبه على خلفية مشاكل أخلاقية. في أوائل الاحتلال، تلقى هذا الرجل دعوة لتقلد أحد الرتب النازية، وفي وقت قصير مثير للدهشة صار قائدًا لأحد الأعمال النازية المهمة. منحه النازيون شعورًا بالبراءة.

من بين المجندين في قوات الشرطة النازية في الأقاليم المحتلة كان يوجد مرتدون من كل الأنواع، وحتى من نزلاء مستشفى الأمراض النفسية المصابين بجنون دفعهم لارتكاب جرائم. كانت الضغينة المَرضية التي يكنها هؤلاء للمجتمع هي العجز الذي جعلهم النازيون يتحولون من خلاله إلى خونة. كان النازيون أنفسهم يحتقرون هؤلاء الأشخاص، لكنهم كانوا ماكرين بما فيه الكفاية لاستغلالهم أفضل استغلال.

لقد لعب النازيون لعبة غريبة مع بعض المؤلفين والفنانين الذين لم يلقوا استحسانًا كافيًا؛ فقد مدح العدو هؤلاء بشراء أعمالهم ومديحها. في البداية قيل للفنانين إنه يمكنهم الكتابة والإبداع كما يحلو لهم بدون خوف من أي تدخل. وبالتدريج، كان يطلب منهم خدمات سياسية بسيطة، تنازلات صغيرة وبسيطة مثل تقرير مفيد عن مقابلة، أو تلميح مفيد عن فيلسوف لم يكونوا على وفاق معه.

لكن هذا التنازل البسيط الأول كان له داخليًا وقع انهيار جليدي من التبرير الذاتي الذي يؤدي في النهاية إلى خيانة الذات. وبعد المساومة الأولى والتبرير الذاتي تأتي المساومة الثانية؛ وهذه المساومة يقابلها تبرئة للذات أكثر دهاء. على كل حال يتمتع المساوم بخبرة في التبرير الآن. هذه التنازلات المتكررة تتحول إلى خضوع وتعاون عن طيب خاطر. كما قلت من قبل، بمجرد أن يغري الإنسان تنازل بسيط عن عقيدته الفكرية، يكون من الصعب جدًا أن يتوقف. من الآن فصاعدًا تصور له مخيلته ما يكفي من التبريرات لمساعدته على الحفاظ على احترامه لذاته.

دائمًا ما يشعر الخائن المزعزع من الداخل بالحاجة الملحة إلى تقمص العدو – الغازي المعتدي. إنه لم «ينتمِ» قط ولم يشعر قط بالانسجام مع جماعته، ولم يشعر

بجدوى هذا الترابط، كما لم يحظَ بحب أقرانه أو تعاطفهم أو احترامهم. من ثم يريد الالتحاق «بالآخرين». بل ربما حتى يتمادى وينعت أصدقاءه القدامى بالخيانة. كان «وليم جويس»[110] الشهير باللورد هاو هاو، ذلك البريطاني الخائن الذي أعدمته الحكومة، يعتبر نفسه "من الجنس الآري الألماني" بحق؛ وبهذه الطريقة كان يبرر محاربته لإنجلترا.

في الأيام المحمومة التي تلت الغزو النازي لهولندا على الفور، شعرت أنا شخصيًّا بإغراء داخلي عابر بأن أذهب إلى العدو، إلى الحزب الأقوى، بمؤسساته القوية، التي كانت على أتم استعداد لدعم المرء، ومساندته. بل إنني حلمت حتى بزيارة «هتلر» وإقناعه بطريقة طفولية وودية بعدالة قضيتنا. لم أخضع لمغريات هذا الحلم، لكن كان هناك القليلون ممن وقعوا في فخ مثل هذه التصورات الطفولية ولم يكن في استطاعتهم أن يتحملوا حاجتهم إلى الخضوع. إن الحاجة للامتثال ولأن تكون مقبولًا وآمنًا وتحظى بالاحترام، متأصلة في أعماق الإنسان. في تحليلنا للقوى الداخلية التي تؤدي بالبشر إلى التخلي عن سلامتهم العقلية تحت ضغط حياة السجون ومعسكرات الاعتقال، عرفنا مدى أهمية الدور الذي يمكن لهذه الآلية أن تلعبه. إن العيش في دولة محتلة من العدو ليس مرعبًا مثلما هو حال العيش في معسكرات الاعتقال أو معسكرات أسرى الحرب، إلا أنه مع ذلك مخيف وفي هذا الموقف المخيف ربما يظهر الامتثال على هيئة استسلام لمعتقدات العدو الفكرية. أما من يقاومون هذه الحاجة، حتى وإن كانوا يشعرون بها، فعادة ما يصبحون أكثر حساسية في مقاومتهم للنازية، نتيجة شعورهم بالذنب حيال هذا الدافع بالخيانة.

وقد علمتنا خبرة الحرب حقيقة أخرى: يمكن صناعة الخونة بالإيحاء الجمعي الشديد. في فوضى الصياح بالعقائد الفكرية الغامضة وتغيير القيم، يصبح العقل

---

110 - وليم جويس William Joyce (1906 - 1946): سياسي فاشي ومذيع بالدعاية الألمانية الموجهة لبريطانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، أعدمه البريطانيون بتهمة الخيانة العظمى نتيجة نشاطه في زمن الحرب. (المراجع)

متجهمًا وعنيدًا، وحيثما وجد عدم النضج والافتقار إلى التحكم الداخلي، ربما يصاب الإنسان بارتباك بخصوص ولائه ويستسلم ببساطة إلى المجموعة الأقوى.

حاول النازيون بأساليبهم السياسية المشوهة أن يدعموا الضعيف والطموح والساخط والمحبط بمجموعة من المثل الزائفة المقولبة لتبرير الاستسلام لصالحهم. يقول «هتلر» في **كتابه كفاحي**[111] إنه عندما يعطى المخذولين إحساسًا بالأهمية، سوف يبتلعون كل إيحاء بكل سلاسة. كان يعلم أن الضعف الإنساني – وحتى الطيبة – يمكن استغلالها باعتبارها نقطة بداية للأحاديث التي تهدف إلى التنشئة بمنهجية. كان«هتلر» على علم أيضًا بأن الإرهاب السياسي المطلق يمكن أن يحول أي شخص تقريبًا إلى خائن. إن نشر الخوف والإرهاب والجوع يسبب خسارة فادحة، وفي النهاية نتيجة القهر العقلي وتزايد الارتباك، يخضع الكثيرون بل ويخونون حتى عائلاتهم. في العديد من معسكرات الاعتقال، كان الضحايا أنفسهم مسؤولون عن القتل في غرف الغاز، واستمروا في عملهم الشنيع هذا إلى أن حان دورهم. لقد حولهم الخوف والرعب إلى عبيد مسلوبي الإرادة.

ثمة أيضًا سمة إنسانية أخرى يمكن أن تؤدي إلى الخيانة والغدر. هناك بعض الناس الذين لا يعرفون ببساطة إلى أين ينتمي ولاؤهم. في قضية «كلاوس فوكس»[112]، ذلك الرجل الذي خان بإفشاء سر القنبلة الذرية إلى روسيا، مثال مأساوي على هذا. في ذلك المثال لدينا شخص حاد الذكاء، وخبير في معظم المشاكل النظرية العويصة، إلا إنه تاه في بحر صراع الولاءات. ونظرًا للاضطهاد النازي لعائلته التي تنتمي إلى **الكويكرز**[113]، تبنى وطنًا جديدًا؛ إنجلترا. في غضون ذلك كان يحلم بالعالم المتحد مع الكون الذي اعتقد أنه وجده في العقيدة الفكرية

---

111 - **كفاحي** *Mein Kampf*: بالألمانية في الأصل (المراجع).

112 - كلاوس فوكس Klaus Fuchs (1911 - 1988): عالم فيزياء ألماني. (المراجع)

113 - الكويكرز Quaker: الصاحبيون، أو جمعية الأصدقاء الدينية، أو الكويكرز. والتسمية الأكثر شيوعًا الكويكرز؛ وهي مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس (1624 - 1691). (المراجع)

الشمولية. وفي خضم ارتباكه حيال مشاكل العالم، لم يعرف ببساطة إلى أي جانب ينتمي ولاؤه.

لم تكن هذه حالة فصام أو موقف يشبه موقف «**جيكل وهايد**- *Jekyll-and-Hyde*» مثلما أفادت الصحف، لكنها قضية ارتباك في الولاءات في عقل على قدر رفيع من الثقافة. لم يكن «فوكس» يعرف إلى أين ينتمي انفعاليًّا.

في حالات أخرى كان الناس يندفعون حرفيًّا إلى الخيانة والتآمر لأنهم لا يحظون بثقة أي أحد في بيئتهم. حدث هذا على سبيل المثال في مقاطعة الفلامندرز[114] مع المتآمرين في الحرب العالمية الأولى. وقد أجبر العديد منهم على أن يصبحوا متآمرين مرة أخرى.

هذا التحليل للعوامل التي تدفع الناس إلى الخيانة لا يعني قطعًا أن كل إنسان يجب أن يبقى على ولاء للمجموعة التي استقى منها أصلًا أخلاقياته ومثله العليا. ربما تتفوق الأفكار الأفضل والأخلاقيات الأرفع على ولائنا الطفولي. إنه القدر وحاجة البشر لتخطي معلميهم وأن يصححوا، إن أمكن، القواعد التقليدية لمدارسهم. اتهم الفيلسوف العظيم «سقراط» بأنه «خائن» لأنه «أتلف عقول شباب أثينا». ومع ذلك نعرف اليوم أن «سقراط» كان أبعد ما يكون عن الأشخاص المفسدين.

فكرنا الخائن

ربما يكون أكثر الأشكال المأساوية للخيانة غير البارزة وخيانة الذات ما يحدث نتيجة جمود الفكر البشري. تخوننا عقولنا عادة، وننسى تمامًا ما نريد أن ننساه، كما ننكر وجود المشكلات الحقيقية للنكوص إلى تفكير التمني. وبمجرد ألا نفهم أو نشعر بدلالة المشكلة أو الجدال، نميل إلى الخضوع بسلبية إلى الجانب الأقوى، مثلما

---

114 - مقاطعة الفلامندرز Flanders: تطلق على كل مناطق بلجيكا التي تتكلم باللغة الهولندية، وهي التي تقع في الشمال من بلجيكا. (المراجع)

فعل الحلاق الودود. إن السهولة التي يمكن للكائنات البشرية أن تفسد بها مازالت واحدة من أكثر المشاكل الأخلاقية والنفسية خطورة. يمكن للارتباك الداخلي أن يجعلنا نخضع لأي إيحاء قوي من الخراج تقريبًا، مهما كانت حماقته أو زيفه.

«شكوكنا خائنة،

وتجعلنا نخسر الخير الذي يمكننا اكتسابه غالبًا،

بالخوف من المحاولة.»[115]

هناك حيل أخرى أكثر تعقيدًا للفكر يمكن أن تؤدي إلى خيانة الذات. يثير الشعور بالدونية عادة لدى الجهلاء رغبة كبيرة في التمسك بالأفكار بالغة الصعوبة. وأمثال هؤلاء يحبون التماهي مع أنظمة من التفكير تبدو عميقة. ربما حول «هتلر» وكتاباته العويصة مؤقتًا غالبية الشعب الألماني إلى فلاسفة زائفين وسحرة. من ذلك أيضًا أن كافة الطغاة الشموليين يشترون خدمات المثقفين الذين يمكن أن يسوغوا لهم هذه المنظومة من الفلسفات الزائفة.

للأسف، من السهل شراء بعض المثقفين. في هولندا مثلًا كان هناك فيلسوف لا يتمتع بقدر كبير من الذكاء اعتنق النازية بعد أن أظهرت قوتها الديكتاتور. وبعد ذلك شعر بأنه حر في أن يكتب عن أَصعب المواضيع الفلسفية ويفسر أعقد النظريات، وكل ذلك تمجيد لقوة أصدقائه من الرايخ الثالث وأسطورة غزوهم للعالم أجمع. في الوقت نفسه، أسس نظامًا من الكلمات المبهمة حول شعوره العميق بالذنب؛ عزل نفسه عن العالم أكثر وأكثر لأنه لم تتواجد كلمات مقنعة بما فيه الكفاية لتبرر خيانته لنفسه. وفي النهاية فقد التواصل مع الحقيقة. بعد ذلك طبعًا لم يعد النازيون في حاجة إليه هو الآخر.

خيانة الذات

115 - الاقتباس عن "وليم شكسبير"، مسرحية **العين بالعين**. (المراجع).

مثلما رأينا، هناك العديد من التحفيزات الداخلية التي قد تؤدي إلى جريمة انعدام الولاء أو الخيانة. في بعض الأحيان تعمل هذه التحفيزات بتعقيد شديد، وبطرائقٍ مجهولة للنَفْس؛ وفي بعض الأحيان ربما تكون الخيانة مجرد عملية بيع فجة لمن يدفع أكثر. دعنا نحاول ترتيب بعض هذه التحفيزات وتصنيفها، بدءًا من تلك اللاشعورية ونهاية بالخيانة المتعمدة.

في المقام الأول، ربما تبدأ خيانة الذات على هيئة دفاع ضد الشعور بالضياع والرفض. من أجل الفوز بالقبول في مجموعة ما، ربما يخفي الفرد معتقداته وقناعته الخاصة ولا يدافع عنها إذا هوجمت. ربما يطلق على هذا في علم النفس – إذا ما أصبح هذا السلوك السلبي عادة لاشعورية – الخضوع السلبي للامتثال مع الشخص الأقوى. إذا لم يكن بمقدورك هزيمة العدو، التحق به! (آنًا فرويد)

مع أن مفهوم الخائن الداخلي عندنا لا يسهل قبوله، إلا أنه بالدراسة المقارنة للدوافع الداخلية التي تحث الإنسان، ربما يصبح المرء مقتنعًا أكثر بهذه الاحتمالية. إن المفهوم الإكلينيكي للتناقض الداخلي لدى الإنسان مبني على الكثير من الخبرات النفسية. عند دراسة الحوافز الأعمق لدى العديد من الخونة، نرى عادة أن تصرف الخائن هذا يأتي بعد محنة داخلية تهدد بانهياره، وبجعله حطامًا عصبيًا لا سيطرة عليه. يبدو هذا وكأن المريض النفسي في المستقبل يفضل الاستسلام لعدو خارجي بدلًا من أعداء داخليين متمثلين في المرض والانهيار العصبي. كان «رودلف هس» على شفا الانهيار الفصامي حينما كسر قواعد «هتلر» وفر إلى إنجلترا.

دعنا نضع في الاعتبار جاسوسي وزارة الخارجية البريطانية: «دونالد ماكلين» و«جاي برجيس»[116]؛ حيث أبدى كل منهما عدة أعراض من الانهيار العقلي

---

116 - دونالد ماكلين Donald Maclean (1913 - 1983): دبلوماسي بريطاني وعضو في حلقة تجسس نقلت أسرار الحكومة إلى الاتحاد السوفياتي. وهو طالب جامعي، أعلن عن وجهات نظره اليسارية، وتم تجنيده في جهاز الاستخبارات السوفياتي المعروف باسم NKVD. جاي برجيس Guy Burgess (1911 - 1963): دبلوماسي بريطاني وعميل سوفياتي. (المراجع)

الوشيك. ربما يكون القارئ على علم بأن هذين الرجلين غادرا إنجلترا في مايو عام 1951، للذهاب إلى روسيا من فرنسا، وقد هربا كلاهما من الدولة طواعية؛ إذ كان لكل منهما ميول شيوعية في فترة دراسته في كمبريدج، لكنهما تخليا لاحقًا عن انتماءات المراهقة. وقد ظهرت على كل منهما أعراض غير طبيعية في أثناء الخدمة. انهار «ماكلين» في مايو عام 1950 نظرًا للإفراط في العمل والشرب؛ أما «برجيس» فتم توبيخه نظرًا للقيادة المتهورة في أثناء خدمته وإهماله لعمله. وبقراءة التقرير يندهش المرء من كمية عدم الاتزان العقلي التي كان يسمح بها في ذلك المنصب الحكومي الحساس. كان للرجلين كليهما ميول مثلية يمكن أن ترجع إلى العدوانية المكبوتة تجاه أمهاتهم (وبلدانهم الأم). *[تيكست أوف بريتين Text of Britain «تقرير عن استجواب»، نيويورك تايمز، 24 سبتمبر 1955؛ مجلة تايم، 3 أكتوبر 1955.]*

في بعض الأحيان، تعني الخيانة استئناف أحادي الجانب للعادلة. ونجد هذا في الشخص الذي يطلب نوعًا ما من العدالة الوقائية الخاصة، ويرفض الإقرار بالعلاقة المعقدة بين الحقوق والواجبات. يشعر مثل هؤلاء الأشخاص على الدوام بالحرمان والخيانة، إنه ما يطلق عليهم «إدموند بيرجلر»[117] «جامعي المظالم». وهم في عدم ولائهم يسعون إلى لعب دور قضاتهم الخاصين. والعديد من غريبي الأطوار، وحتى المصابين بجنون الارتياب، لديهم هذا النوع من بنية الشخصية.

هناك أيضًا ذلك المثالي الزائف المحبط الذي يتحول بالتدريج إلى متهكم، ويغطي خواءه بتبريرات ومسوغات كثيرة. أمثال هؤلاء يخونون إحباطهم الفكري في كل ملاحظاتهم المفضوحة.

ربما تُؤجج الخلافات بين الآباء حاجة الطفل إلى خيانة أحد الوالدين أو كليهما، وربما تتحول هذه الحاجة في الحياة المقبلة إلى حاجة لخيانة الوطن. وكثيرًا ما وجدت أن روابط الكره والحب التي لم تسو بعد تجاه الآباء تلعب دورًا مهمًّا في تشكيل

---

117 - إدموند بيرجلر Edmund Bergler (1899 - 1962): محلل نفسي أمريكي من مواليد النمسا. (المراجع)

الشخصية المرتدة. وكما شاهدنا، فإن هذه المشكلة تكمن عادة في أصول بنية الشخصية الشمولية. ومع أن ذوي العقول الشمولية لا يمكن تعريفهم بالخونة الصريحين، إلا أن بعض هؤلاء يمكن أن يكونوا خونة بسهولة لُمثل الحرية والديمقراطية – إما بدافع من التحالف القهري مع عقيدة فكرية أجنبية، أو بدافع من تكرار عدم الامتثال.

عند وصف السمات الخاصة لمجموعة سياسية، على المرء أن يضع في الحسبان أن التباينات الداخلية الأساسية غريزية في كل الناس. إن التفسير الماركسي شبه العقلاني للعالم، الذي يشبع حاجة التوضيح المنطقي والتنظيم العقلاني للحياة الاجتماعية، يغطي على قلق خلقته القوى الداخلية اللاعقلانية التي يسهل رصدها في العقل الشمولي. كثيرًا ما يكون مذهب «الجماهير» بمثابة دفاع ضد الوحدة. ربما يولد الإيمان بالتقدم بدافع من اليأس الغامض وانعدام الأمان. إن الخوف من الانحراف هو الخوف من احتمال تفكك وحدة الجماعة. ويعمل الشك ونقد الذات على إبقاء المجموعة معًا في المقام الأول.

توجد أنواع كثيرة من الغرور الداخلي الذي ربما يحول الإنسان إلى خائن. والفيلسوف الهولندي الذي تحدثت عنه من قبل ليس إلا مثالًا على هذا، وكذا الحال بالنسبة إلى أيٍّ من المدافعين الإيديولوجيين باستفاضة عن الشمولية.

إن انعدام الثقة، أو الافتقار إلى الإيمان بالأعراف والأهداف الإرشادية في مجتمع المرء، يمكن أن تؤدي أيضًا إلى العداء؛ ومن ثم إلى الخيانة. وبدون مثل هذه المعتقدات العرفية، تزداد القابلية لإيحاء هذه الإيديولوجيات المنافسة وتقبلها؛ وقضية «كلاوس فوكس» المذكورة من قبل مثال على هذا.

إن الحاجة الشخصية للريادة والشهادة، التي عادة ما تترسخ نتيجة الحاجة اللاشعورية للمعاناة، ربما تؤدي إلى هذاء مسيحي خاص، وتسبب هجمة على القيم التقليدية للجماعة. وتعتبر جماعات كثيرة هذا التطرف خيانة.

يوجد شكل آخر من خيانة الذات ربما ينتج عن عدم القدرة على الإلمام بتعقيدات العالم الحقيقي. وقد أُغري العديد من الناس بالتصرف بشكل متقلب وحتى عدم الولاء من خلال الافتقار إلى فهم هذه التعقيدات، ومن خلال الحاجة إلى إيجاد إجابة واحدة شاملة وسهلة لمشاكل حياة الإنسان. من يعطيهم الأسطورة البسيطة ليؤمنوا بها؟ يغري النازيون كل الألمان تقريبًا لفعل أحد أشكال هذه الخيانة الفكرية بهذه الطريقة!

ربما تكون الخيانة أيضًا رد فعل متناقض للشعور العصابي العميق بالذنب. إن الإستراتيجية العصابية التي يتراكم فيها المزيد من الذنب مصحوبة بالتطور التالي، نتيجة الحاجة الداخلية للعقاب هما عادة السببان الأساسيان للفعل الإجرامي. يمارس الفعل الإجرامي تحديدًا من أجل جلب العقاب (ريك)[118].

ربما تكون الخيانة أيضًا مغامرة مدفوعة الأجر مثلما نجد في الجاسوسية العالمية. وهذا النوع من الحياة يفتن العقل غير الناضج الذي يعيش في عالم الحكايات الغامضة والقصص الخيالية. وربما تجعل الرشوة بالنساء أو المال هذه الخيانة حتى أكثر جاذبية. يشبع العدو الحاجات الاقتصادية والجنسية، بينما يكون الخائن على استعداد لبيع نزاهته لأعلى المزايدين.

يمكن للخوف والهلع الصريحين أن يسببا الخيانة. إن كل سيكولوجيا المقابلة والتحقيق الشموليين قائمة على هذا المبدأ. يمكن إخافة الناس وغسل أدمغتهم ليخونوا.

تطور الولاء

يمكن أن نستنتج من هذا أن ما نطلق عليه خيانة يحدث في المجال الوظيفي الانفعالي أكثر مما يحدث المجال الفكري. وفي مسار النمو الإنساني، يمر كل شخص

118 - تيودور ريك Reik: انظر هامشا سابقا للمراجع. (المراجع)

بفترات من الصراع التي ينبغي عليه أن ينقل فيها حبه وولاءه من شخص إلى آخر – من الأم إلى الأب، ومن الوالدين إلى العائلة بأكملها، ومن العائلة إلى البلد، ومن البلد إلى البشرية. إن جوهر مشكلة الخيانة وخيانة الذات نجدها في المشاكل التي تنجم من كبت الولاءات السابقة؛ لأن كل ولاء بدوره يحل محله الولاء الذي يليه.

يشعر العديد من الناس بالارتباك الشديد في فترة المراهقة، عندما ينبغي عليهم للمرة الأولى أن يتركوا الحماية الانفعالية الآمنة التي يوفرها لهم المنزل ويصنعوا ولاءات جديدة ومعايير أخلاقية جديدة لأنفسهم. في تلك الفترة تنمو الملكات النقدية. ربما يدعى المراهق خائنًا إذا شك في الحقائق التقليدية التي ينقلها إليه والداه؛ إلا أنه يكون صادقًا مع نفسه التي يشكلها. وخلال فترة المراهقة، مع المشاعر المتزايدة بالشوق إلى سعادة مجهولة، يريد الكثير من الشبان "خيانة" بيت الوالدين ومعايير والديهم. وفي الوقت نفسه، لا يريدون التخلي عن الحماية التي يوفرها البيت.

إلا أننا نعلم من الناحية النفسة أن عدم الولاء المؤقت جزء من النمو العقلي الطبيعي. في أثناء عملية النمو البشري الفردي، هناك مراحل من التقدم تنتقل من الخضوع المبدئي إلى التمرد الصريح وعدم الامتثال. وكل خطوة تجاه النضج العقلي والاستقلال تتضمن النمو بمنأى عن روابط الماضي. وقد يتأثر هذا النمو بشتى الطرائق؛ وذلك بالعداء والهجر الصريحين إلى حد ما، مع خيانة الذات والخضوع السلبي، ومع الخضوع المتجدد للتكفير عن الشعور بالذنب، ومع النزعة المحافظة أو التمرد العلني. في تلك المرحلة من المراهقة يكون الإنسان عرضة للدعاية الشمولية على وجه الخصوص.

ربما يبقى لدى الشاب نتيجة صراع النمو الداخلي إحساس بالوحدة والذنب. إذا استخدمه استخدامًا مثمرًا، ربما يصبح ما يمكن أن نطلق عليه الثوري المبدع. وينطبق هذا على من يستن سنة جديدة مدفوعًا بقواه الداخلية للانفصال عن عادة ما. في الواقع، كان العديد من قادة الإنسانية الأخلاقيين والروحيين العظماء من

هذا النوع. كانوا قادة لأنهم انفصلوا عن بقايا قاسية من الماضي، أو عن عناصر متحجرة أو غير أخلاقية. من واقع خبرتي عرفت شخصًا مماثلًا هو عالم نفس ألماني كان يتمتع بحس من المثالية والأخلاق يجعل من المستحيل عليه التوافق مع التدنيس النازي للقيم الإنسانية، وقد شنق بتهمة الخيانة نتيجة دوره في التمرد الألماني الذي حاول إجهاض نظام «هتلر» عام 1944[119].

في مديح عدم الامتثال

ما الذي يمكن فعله عمومًا لمكافحة الخيانة، وعدم الولاء، وخيانة الذات؟ في المقام الأول، يجب النظر إلى السلوك الدفاعي الطبيعي لدى الطفل تجاه السلطة، وحاجته للانفصال عنها بيقظة ملائمة في كل الأوقات من جانب الآباء والتربويين. من السهل تمامًا إجبار الطفل على إنكار الذات. وفي حالات كثيرة، كان عدم الولاء في مرحلة لاحقة من الحياة رد فعل على التعامل الخاطئ مع مشاكل الطفولة. إن معظم الخونة يصنعون ولا يولدون خونة. لكن هذه الحقيقة للأسف عادة ما ينساها التربويون الذين ربما ينهارون تحت وطأة الشعور بالولاء العظيم لمجموعتهم الخاصة من نفس السن التي نجدها بين الفتيان، نتيجة عدوانيتهم المكبوتة.

هل يمكن تحديد إن كان شخص ما يمكن الاعتماد عليه أم لا؟ فقط حينما تكون لدينا فكرة ما عن محفزاته ودوافعه الخفية التي تعمل في لاشعوره. وللوصول إلى فكرة كاملة يلزم الرجوع إلى التحليل النفسي، لكن الطريقة التي يعبر بها اللاشعور عن نفسه في سمات الشخصية ودفاعات الشخصية يمكن أن تعطينا إشارات غاية في الأهمية. إن الشخص الذي لديه احتياجات اعتمادية مفرطة أو أنا ضعيفة،

---

119 - الإشارة إلى مشاركة حوالي 200 ألماني في مؤامرة لاغتيال هتلر والإطاحة بالنظام النازي في 20 يوليو 1944، فيما يعرف بعملية فالكيري Operation Valkyrie. (المراجع)

والشخص الذي لديه قابلية للإيحاء بسهولة عادة ما يمكن إغراؤهما بالتخلي عن ولائهم. وكذلك حال الإنسان المغرور، وغير المتماسك، والمليء بالكِبر والخيلاء. كما تؤدي الأنانية المادية، والرغبة في السلطة، والعدائية المستمرة إلى إنكار القيم الأخلاقية ومن بينها الولاء.

كما هو الحال غالبًا في علم النفس، تكون معرفة السمات الشخصية التي لا ينبغي أن تتوفر في الشخص المتكل أسهل من تقديم صورة إيجابية لما ينبغي أن يكون عليه. وعمومًا يمكن أن نقول إن الشخص الأمين مع نفسه يظهر أقل قدر من خداع الذات، والشخص الذي يبدو أنه يتمتع ببنية شخصية مستقرة، والشخص الناضج تمامًا يكون أكثر انسجامًا مع نفسه بحق ونتيجة لذلك يكون أكثر ولاءً للآخرين.

ومع هذا فإن بذور الخيانة مغروسة في كل واحد منا، وربما تعززها التأثيرات البيئية. في العالم الشمولي مثلًا يتعلم الجميع إنكار الذات وخيانتها؛ عندما يصبح شخص ما غير ممتثل، تلصق به علامة "خائن". وفي عالم يختنق بالعقائد والعادات، يمكن أن يوصف كل شكل من أشكال التفكير الأصيل بأنه تحريض وخيانة. وفي مثل هذه الحالات، تكون العوامل البيئية والاجتماعية والسياسية، وليس العمليات الداخلية المربكة، هي التي تحدد ماهية الخيانة. إلا أنني أكدت في هذا الفصل على العوامل الشخصية التي تنتج عنها الخيانة – تأثير ظلم الأهل والجماعة، وعدم الاستقرار الداخلي الناتج عن تعقيدات في البيئة المباشرة. وهناك الكثير من الفانتازيا المعقدة عن خيانة الذات والعدوان السري بداخل كل شخص، وهناك رغبة شديدة للانتقام بدافع من الاستياء السري، حتى إن أي حكومة ربما تستخدم هذه المشاعر العصابية غير الصحية لإثارة أهل البلاد.

فرض الولاء بالإكراه

في الآونة الأخيرة، كان الأمريكيون ينظرون بعين ناقدة أكثر من أي وقت مضى إلى مفهومي الولاء والتخريب. وقد بدأنا بوعي عميق بالطبيعة الساخرة والقاسية

للهجمة الشمولية من خلال التخريب، في السماح لخوفنا من التخريب الداخلي أن يشل حرياتنا الديمقراطية.

صرنا معنيين كثيرًا بشبح الطابور الخامس الخائن في وطننا، إلى درجة أننا أصبحنا أكثر حذرًا وشكًّا[120]. إننا نحتاج إلى تأكيد دائم بأن نوايا جيراننا ومواطنينا مقبولة ومخلصة. ويعمل خطر هذا البحث المحموم عن الأمن على كل من المستويين السياسي والنفسي. على المستوى السياسي، في محاولتنا لإقامة حواجز منيعة ضد انتشار الأفكار الشمولية، ربما نجد أننا تخلينا تحديدًا عن تلك الصفات التي تميز الديمقراطية عن الشمولية: الحرية والتنوع. وعلى المستوى النفسي، ربما نجد أنفسنا ضحايا الشك المرضي (الذي يمكن أن يطلق عليها إكلينيكيًّا جنون الارتياب- paranoia)، وهذا الشك ربما يدفعنا إلى الرفض التام لأغلى الخصال التي نتمتع بها بصفتنا بشرًا: التسامح واحترام إخوتنا في الإنسانية.

أشار إلى هذه المخاطر السياسية في ذلك الموقف مرة تلو الأخرى قادة مسؤولون في المجتمع الأمريكي. بصفتي طبيبًا نفسيًّا، أود أن أكرس انتباهي للجانب النفسي من هذه المشكلة وإلى الأخطار المتربصة بالعقل الحر الملازمة للموقف الحالي؛ لأن كل السلوك السياسي، كما شاهدنا بالفعل، هو في جوهره امتداد للسلوك الفردي ومتأصل في نفسية الأفراد الذين يشكلون الجماعة السياسية.

يمكن أن نعزي الكثير من شكنا الجماعي إلى تضاعف الشعور الشخصي بانعدام الأمان بقدر كبير. تبزغ في أوقات الخوف والمحن أسطورة المعتدي الخائن، تلك الأسطورة التي يعرف الشموليون تمام المعرفة كيفية استغلالها؛ حيث يزاح انعدام أمننا الداخلي ويتم إسقاطه على جيراننا وعلى بيئتنا، ونبدأ في الشك في الجميع وتنعدم ثقتنا بهم. إننا نتهم الآخرين لأننا نخشى من أنفسنا. إننا نشعر بالضعف

---

120 - في دراسته الموثقة جيدًا عن الطابور الخامس الألماني، استطاع المؤرخ الهولندي الدكتور "لويس دي يونج" أن يثبت أن شبكة "هتلر " المخيفة من الخيانة والغدر كانت في معظمها غولًا وهميًا خلقه هلع الناس وخوفهم. (المؤلف 3)

ونغطي على ضعفنا بزيادة شكوكنا والبحث باستمرار عن الخونة والمنشقين المحتملين.

كما شاهدنا من قبل، إن كل سؤال يطرح حول الولاء هو سؤال معقد. وفي فورة حماستنا لإعطاء ضمانات بجدارتنا، نميل إلى التبسيط المخل للمشكلة، ومن ثم ربما نعلي من سقف توقعاتنا ونصبح مثل العدوانيين الشموليين، الذين يعتبرون التبسيط المخل بضاعة رائجة لديهم. وإذا طالبنا الناس بالقسم على الولاء - إذا طلب منهم أداء طقس سحري يحلفون من خلاله على الابتعاد عن كل خطاياهم السياسية الماضية والمستقبلية - ربما يكون لذلك تأثير متناقض. إن مجرد حلف اليمين لا يجعل إنسانًا مخلصًا، مع أنه قد يمكن القاضي لاحقًا من الحكم عليه بتهمة الشهادة الزور. إن إصرارنا على التعبير الرسمي عن قسم يمين الولاء يضعف مصداقية الإحساس الشخصي الجوهري بالامتثال مع المجتمع طوعًا وبطيب خاطر؛ وهو جوهر الولاء ويحط من قيمته؛ إنه بالتأكيد لا يصنع الولاء ولا يؤكده. إن قسم الولاء يتدنى بسهولة ليصبح وصفة طبية خاوية، وقد ينسى تمامًا الشخص الذي يتناوله المعنى الذي يفترض أن يحمله. بالنسبة إلى الكثيرين أصبح الأمر شريطًا أحمر مثل الشريط الذي يرمز للبيروقراطية، من بين عدة أشرطة لا حصر لها، استمارات مثيرة للمشاكل ويجب ملؤها.

إن الإكراه على حلف اليمين ربما ينمو بسهولة ليتحول إلى إستراتيجية سحر طفولية، أحد أشكال الابتزاز العقلي. في بعض الأديان الشرقية تكون العبادة باستخدام عَجَلة للصلاة. عندما تلف العجلة بحركة من اليد، يكون العابد أتم وظيفته. ولم يعد في حاجة إلى تلاوة أية صلوات؛ ولا يحتاج إلى التفكير في أي أفكار تقية. وممارسو هذه الأديان لم يعد لديهم أي وعي بمحتوى صلواتهم. إنهم مشاركون عميان في طقس نسوا معناه منذ أمد بعيد. إن التوقيع على حلف يمين الولاء يمكن أن يكون بنفس خواء رمزية لف عجلة الصلاة.

إن الولاء الحقيقي ليس شيئًا ساكنًا؛ وكما شاهدنا بالفعل، إنه ينمو ويتطور مع

الشخصية. يجب إعادة اكتشافه والشعور به من جديد كل يوم، حيث إنه في جوهره نتيجة للمعركة الداخلية بين القيم المتنازعة التي يسعى الإنسان من خلالها إلى الوصول إلى قيمه وولاءاته المعينة. وحينما يجبر إنسان ما على القسم على ولائه حتى وإن كان يشعر بأنه بالفعل قابع في أعماقه، فإن الإكراه من الخارج يعني أنه يجب أن يتخلى عن حقه الشخصي في ترجيح القيم والرجوع إلى مبادئه الشريفة. لا يهم إن كان القسم تعبيرًا عن مشاعره الحقيقية أم لا، فعنصر الإجبار الكامن وراءه له تأثير موهن نفسيًا على الإنسان الذي يقع تحت وطأته. ربما يبدو هذا غريبًا من الوهلة الأولى، لكن تشابهًا بسيطًا يوضح الأمر: مثلًا الرجل الذي يحب زوجته لا يحتاج إلى أن يقسم لها على حبه باستمرار؛ بل يظهر هذا في أفعاله. لكن إذا أصرت على أن يقسم لها، فإن إصرارها في حد ذاته يعني ضمنيًّا أنها تشك فيه، مما قد يجعل الأسئلة تموج في عقل زوجها – ويبدأ في الارتباك حيال ما يعتقده حقًّا.

في كل من طلب اليمين وأخذ اليمين، نعمل على تخليد ذلك الوهم السخيف بأن الأعداء يمكن درؤهم عنا من خلال نظام عجلة الصلاة. والحقيقة أن الخونة والمخربين المتعمدين هم تحديدًا من لا يخافون من ستر دوافعهم وإخفاء نواياهم خلف الصيغ الموصوفة. كما أنهم لا يخشون من تهمة شهادة الزور، ولا يشعرون بالتردد في توقيع اليمين إذا ما أتاح لهم فعل كذا وكذا. بالنسبة إليهم تكون الكلمات واليمين مجرد أدوات غير ملزمة أخلاقيًّا. الأهم من طلب الولاء هو طلب النزاهة واتزان الشخصية ونضج الأهداف والدوافع.

إن الإنسان في حاجة إلى الولاء للذات أولًا، وهذا يتضمن الحق في أن يكون نفسه. إن الإنسان الذي يشعر بأنه لا شيء ويشعر بأن كل إنسان، بما في ذلك نفسه، يشك فيه، ويشعر بضعف داخلي، ربما يصبح فريسة سائغة لكل أنواع التأثيرات السياسية الشمولية. وقد تؤدي عمليات البحث عن الولاء وقسم الولاء إلى عدم الولاء للنزاهة الشخصية للمرء وللحرية الشخصية؛ حيث يزرعان الشك في أنفسنا وفي الآخرين. وتبقى الحرية صالحة تحديدًا بوجود المعارضة – حتى إذا خاطرنا

بوجود عدم امتثال وتخريب في أنحاء متفرقة.

يأتي الولاء نتيجة الثقة المتبادلة؛ لا يمكن صنعه بالإكراه. إن أي إكراه بطبيعته يكون من جانب واحد. يجب أن يكون الولاء مستحقًّا ويكتسب يوميًّا عبر التفاعل المتبادل، ومن خلال التواصل بين القادة والمواطنين. ولأنه مبني على الثقة، يعطى الولاء بعفوية وإرادة حرة، ولا يمكن شراء الولاء الحقيقي أو طلبه.

مع التحقيق في حالة الجنود الأمريكيين الشبان في كوريا الذين غسلت أدمغتهم ونسوا بسهولة إلى أي الأطراف ينتمي ولاؤهم، نجد عادة في خلفيتهم صفة عدم الولاء من أحد آبائهم تجاههم. وفي كل الحالات تقريبًا التي كانت تَدَّعِي مناصرة للشيوعية، نجد أن فترة شبابهم كانت مرتبكة. ومن المهم أن يتحرى المجتمع عن ولائه المبدئي تجاه هؤلاء الشبان.

في الدولة الديمقراطية يجب أن نستعد لنبدي حقائق مقنعة تدعم طريقتنا في الحياة، أو تنمي مقاربات جديدة تكشف لنا عن مواطن ضعف أي نظام مخرب.

اضطهاد الأفكار المعارضة، والإصرار على الولاء وفقًا لبعض الوصفات المقترحة – جميعها أشياء تجعل من المستحيل علينا فعل هذا، وربما تكون بداية عدم الاستعداد للنقاش والإقناع، وربما حتى تؤدي إلى شكل جديد من أشكال الخيانة؛ خيانة الانفصال الفكري المستتر وعدم الاستعداد لتحمل المسؤولية، وخيانة الشك في القرابة التي تؤدي إلى السلبية. وربما تنحط لتصل إلى أحد أشكال الكسل العقلي الخطير الذي يمكن تحويله بسهولة إلى حياة دون امتثال، أو إلى خضوع شمولي. إن مقاربات الحقيقة متعددة، وعندما تصطدم الآراء فقط يمكن اكتشاف هذه المقاربات، ونجد طريق الحقيقة الصحيح.

وعليه، يكمن خطر الإكراه على الولاء في أننا ربما نخفي بعض الفتور العقلي خلف صيغ صارمة؛ ومن ثم لا يمكننا رؤية الحاجة إلى اليقظة النفسية والمعنى الحقيقي لطريقة الحياة الحرة. وربما تكون آلية صيغة قسم الولاء بداية التحكم في

الأفكار، وهو ما نخشاه جميعًا؛ لأنه يبطل عمل اليقظة العقلية والبحث عن تفسير أخلاقي. إن الولاء الحقيقي سمة حية وديناميكية.

في الاختيار الدقيق بين الولاء للناس والولاء للمبادئ (وهو شعور يكون عادة أكثر غموضًا)، يكون على المشرع ترك أكبر مساحة ممكنة من الحرية للأفراد؛ لأن النوع الثاني من الولاء مبني على الأول. فبدون الولاء الشخصي لا يوجد ولاء قومي!

ومازال هناك أيضًا جانب آخر لهذه المشكلة. علينا أن نتعلم التفريق بين عدم الولاء في الأفعال وعدم الولاء في المشاعر والأفكار. إن تدمير رأي ليس جريمة أبدًا. والحق في المعارضة حجر الزاوية للديمقراطية. في الدولة الحرة علينا أن نكون مستعدين لتصحيح التدمير بمناقشات أفضل. إن اضطهاد الأفكار نوع من الكسل العقلي، ومن الناحية النفسية، لا يمكن للحكومة أن تهتم بالدوافع الشعورية (والدوافع اللاشعورية التي لا يمكن فصلها عنها) لدى الناس؛ لأن كل شخص في أعماقه دوافع متباينة. إن المأزق الذي يمكن لمثل هذه الحكومة أن توقع نفسها فيه موضح في الاقتباسات التالية من جلسة الاستماع الأمنية لـ «روبرت أوبنهايمر» برئاسة «جوردون جراي»[121]؛ وقد نشرت عام 1954.

نعتقد أنه قد تبين أن الحكومة يمكنها أن تبحث في روحها وفي روح فرد علاقته بالحكومة موضع تساؤل عن الحماية الكاملة لحقوق الطرفين ومصالحهما. إننا نؤمن بأن الولاء والأمن يمكن فحصهما داخل إطار العمل التقليدي والمبادئ المقدسة للعدالة الأمريكية.

في هذه العبارات الجميلة تختفي كافة البوادر المشؤومة للتحكم الشمولي في

121 - روبرت أوبنهايمر Oppenheimer (1904 - 1967): فيزيائي أمريكي، وهو المدير العلمي لمشروع مانهاتن لتصنيع السلاح النووي الأول في الحرب العالمية الثانية، ويعرف أوبنهايمر بوالد القنبلة النووية. جوردون جراي Gordon Gray (1909 - 1982): سياسي أمريكي ينتمي إلى الحزب الجمهوري. (المراجع)

الفكر. إن الحكومة التي تفتش في روح أي فرد مفكر يمكنها دومًا أن تجد اتهامًا ضده؛ لأن الشك والمشاعر المتنافرة وتلمس الطريق جميعها خصال موجودة في كل البشر. ولا يمكننا قياس القدرة على الاعتماد على أي شخص بناءً على أفكاره ومشاعره الظاهرة لنا. أولًا، لا يمكننا أبدًا معرفة ما يكمن خلف واجهة الولاء الظاهري. وثانيًا، إن الإنسان الذي يقوده بحثه عن الحقيقية إلى استكشاف العديد من وجهات النظر التي تتسم بالهرطقة يمكن أن يكون أكثر ولاءً في أفعاله. إن استكشافه الحقيقي يمكن أن يؤدي به تمامًا إلى الحكم المعتبر الذي يشكل أساس الولاء الحقيقي. ما يهم في أي إنسان هو اتساق سلوكياته ونزاهته، وشجاعته في اتخاذ موقف ما وليس امتثاله لعقيدة رسمية.

وبالتصريح بأن الحكومة يمكنها أن تفتش روحها، لا يكون هذا تصريحًا على الإطلاق. إن الحكومة في النهاية مجرد مجموعة من الأفراد. تحت ضغط الإكراه على الولاء، ربما لا يبحث هؤلاء الأفراد بعينهم عما يجول في أنفسهم بنفس الأمانة كما كان يمكن أن يفعلوا في الأوقات الأقل توترًا، أو لو كانوا يتصرفون بصفتهم أفرادًا لهم خصوصيتهم وليسوا ممثلين رسميين عن الحكومة. إن الشخص الذي يتمسك بالقواعد الأمنية الرسمية سجين للقلق وعدم الأمان المتفشي في أولئك الذين يريدون ترسيخ هذاء اليقين والأمان – تجاوزًا للقيم!

بمجرد أن تبدأ الحكومة في البحث داخل أرواح مواطنيها، تبدأ في التدخل في حقوقهم ومصالحهم. تهاجم الديمقراطية في الوطن وتضعف من موقفها في الخارج. ولا يمكن أن نعثر على طريق للسلام ومرافقة باقي العالم إذا تبنينا مواقف متشددة ومُتعنتة وحاولنا فرض عقائدنا على الآخرين. إن السمة الخاصة للشمولي هي إصراره على أن طريقته هي الطريقة الوحيدة الناجعة. وإذا أردنا الحفاظ على موضعنا قادةً للعالم الحر، علينا دومًا أن نبقي على عقولنا متفتحة. وبهذه الطريقة فقط يمكن أن نجد طرائق جديدة للسلام.

رأينا الآن أن مشكلة الخيانة ترجع قطعًا إلى الفشل في فهم عملياتنا العقلية

الداخلية. إن كل خيانة هي في المقام الأول خيانة للذات، عدم ولاء لمعايير المرء نفسه. عندما يسكت الناس ضميرهم ويساومون سعيًا وراء اليسر والراحة، في تلك اللحظة ينعدم ولاؤهم لأنفسهم. إن السلبية – التي نصطنعها عندما يجبرنا ضميرنا على اتخاذ إجراء ما – هي أكثر أشكال خيانة الذات. ربما يغضب الإنسان من داخله بسبب بعض الظلم الذي شهده، لكن من الخارج لا يبدي أي شيء حياله – هذا السلوك الذي يشعر به من الداخل خيانة للذات، ويجعله يشعر عادة بحساسية بالغة تجاه عيوب الآخرين. عندما يتكرر نمط السلبية، يتراكم باستمرار لدى الفرد مزيد من الشعور بالظلم، ويزداد استياؤه ضد المجتمع أكثر وأكثر. إن المراوغة والتملص بمهارة من المواضيع التي تنطوي على مبادئ – تمثل بعض أخطر أشكال خيانة الذات في عصرنا الحالي. إنها خطيرة لأنها تؤدي عن غير قصد إلى النفاق الذي يضع القوة فوق القيمة الأخلاقية.

من الخطر أن نراكم الضغائن الشخصية والسخط على شكل استياء دائم ضد المجتمع بأسره. ويمكن للآباء والمربين ترك مثل هذه المصاعب من خلال الفكر النفسي إذا أتاحوا لكل فرد – بطريقة متحضرة وغير مدمرة – حرية انتقاد المجتمع الذي ينتمي إليه ومهاجمته. إذا ساعدنا أن ننمي داخل الطفل الإحساس بأنه مسؤول عن وجهات نظره الخاصة، وإن كان الأمر يبدو تخريبيًا بشكل مؤقت، إلا إن الآباء عندئذ يوفرون له الفرصة لتجاوز شعوره بالوحدة والتناقض ورغبته في إيقاع الأذى بمن يؤثرون عليه. ومرة أخرى، إن الولاء عبارة عن علاقة – والولاء للعائلة أو الأصدقاء أو الدولة يجب أن يكون مستحقًا.

يصبح الولاء ممكنًا فقط عندما يسمح بالعدوانية والعداء العقليين المتبادلين ويحتملان في إطار القانون. إن هذا الشكل من أشكال العدوانية الشفهية المتسامية والمتحضرة يفترض مسبقًا وجود الإنصاف والروح الرياضية. إنه توليفة التمرد والتخريب وإخضاعهما. مهما بدا الأمر متناقضًا، إلا أن الديمقراطية تأسست على أساس الإخلاص المتبادل بين الجماعات المختلفة سياسيًا! لا يمكنك الشك في

الدوافع والنوايا الطيبة لخصومك بدون تقويض أسس التعاون والحكم الناجح. وأكثر الطرائق التي تفت في عضض الديمقراطية هي نعت الحزب المعارض بعدم الولاء؛ حيث يظهر لنا التاريخ أنه إذا ما سنحت الفرصة فقط بمواجهة ودمج الأفكار المعارضة، يمكن للإنسان استئصال ذلك الشكل من عدم الاتزان النفسي الذي يتحول تدريجيًّا إلى عدم ولاء للنفس وللمجتمع. وعادة ما يكون الخوف من التخريب والمعارضة خوفًا من الأفكار؛ خوفًا من الامتثال لأفكار معينة غير مقبولة، خوفًا من خيانة الجزء الخفي داخل المرء. وسيظل الخوف من الخيانة باقيًا طالما اعتبرت المعارضة المخلصة جريمة. ما الديمقراطية إلا عدم امتثال؛ إنها ولاء متبادل، حتى عندما نهاجم أفكار بعضنا – وهي أفكار من نتاج بشري، وهي غير مكتملة دومًا.

الجزء الرابع

بحثًا عن دفاعات

في اللحظة التي نعي فيها أن الظواهر السياسية الخاصة تهديد لوجودنا، تتطور تلقائيًّا الدفاعات الداخلية المستجيبة لهذا الخطر، ونشعر بالطمأنينة ونحن نكتشف طرائق مواجهة المشاكل. تتعامل الفصول الختامية في هذا الكتاب أولًا مع بعض التوجهات الرسمية، ومع القانون الذي تم سنه لمواجهة غسيل الدماغ؛ وهو خطر ظهر تاريخيًّا مؤخرًا نوعًا ما. وفي الفصل الأخير نبحث بإسهاب أكثر عن القيم الملهمة التي تميز الحرية والديمقراطية. إن السؤال عن أفضل الطرائق لبناء قواعد أخلاقية عسكرية ومدنية، يصبح أكثر إلحاحًا بسبب الضغوط العقلية الهائلة التي تفرضها ضغوط الحضارة الحديثة على الإنسان.

الفصل الخامس عشر

التدريب ضد التعذيب العقلي

القانون الأمريكي لمكافحة غسيل الدماغ

بموجب الأمر التنفيذي من الرئيس «أيزنهاور»، الصادر في 17 أغسطس عام 1955، تم سن قانون جديد للفرسان المحاربين يشكل السلوك الحاكم للمحاربين الأمريكيين في أرض المعركة وفي الأسر. وعليه، أعلنت ستة مبادئ لسلوك المحاربين:

- أنا رجل أمريكي مقاتل، خدمت في القوات التي تحمي بلادي وطريقة حياتنا، أنا مستعد لأهب حياتي فداءً لها؛
- لن أستسلم أبدًا بإرادتي الحرة. وإن كنت في السلطة، لن أجعل رجالي يستسلمون أبدًا مادامت لديهم وسائل المقاومة؛
- إذا ما أُسرت فسوف أواصل المقاومة بكل السبل المتاحة، وأبذل قصارى جهدي للهرب ومساعدة الآخرين على الهرب. ولن أقبل إطلاق السراح المشروط أو أية محاباة خاصة من العدو؛
- لو أصبحت أسير حرب سأحافظ على إيماني بأقراني المعتقلين، ولن أعطي أية معلومات، أو أشارك في أي إجراء قد يضر رفاقي. وإذا كنت من كبار الضباط، سأتولى القيادة، وإن لم أكن كذلك فسوف أطيع الأوامر القانونية لمن

هم أعلى مني رتبة، وسأدعمهم بكل طريقة؛

- في حالة إن أصبحت أسير حرب وأُسأل، فأنا ملزم فقط بأن أدلي باسمي ورتبتي ورقم خدمتي وتاريخ ميلادي. وسأتجنب الإجابة عن أي أسئلة إضافية بأكبر قدر ممكن. لن أقر بأي تصريح شفهي أو مكتوب عن دولتي وحلفائها، أو ما يضر بقضيتها؛
- لن أنسى قط أنني محارب أمريكي مسؤول عن تصرفاتي، ومخلص للمبادئ التي جعلت دولتي حرة. وسأثق في ربي وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

[تقرير كامل في نيو تايمز، 18 أغسطس 1955.]

في التقرير الإضافي حول توصيات وزارة الدفاع، يُعترَف بأن الحروب الحديثة فرضت التحدي على كل مواطن، وأن الجبهة الأخيرة لخط الحرب الباردة موجود في عقل كل مواطن.

في الوقت نفسه، تسلم مجموعة قواعد محددة واضحة تخبر أسرى الحرب الأمريكيين عن كيفية التصرف بعد الأسر. وعلى الرغم من أن مثل هذه القواعد لم تكن متوفرة من قبل، يفيد التقرير بأن «القوات الأمريكية أثبتت عبر كل الحروب أنها لا تستسلم بسهولة، لم تستسلم بأعداد كبيرة، وكان أداؤها عمومًا مثيرًا للإعجاب في قضية دولتهم وهم أسرى حرب».

بعد وصف الهجمات الجسدية على المعتقلين – مواكب الموت، والجوع، والقذارة، والبرد والتعذيب، وإذلال شامل – يفرد التقرير مساحة كبيرة لكافة أشكال القهر العقلي التي تهدف إلى انتزاع اعترافات زائفة أو معلومات عسكرية من الجنود، وتهدف إلى إصابتهم بعدوى التفكير الشمولي. أولًا، يستهدف العدو انهيار القادة وإرباك الضباط الذين يؤثرون بسهولة على جنودهم. وبالتدريج، يكون على كل شخص أن يخضع لمحنة التلقين. يبدأ وابل من دعاية العدو بأقصى سرعة، وهذه الهجمة الإيحائية التي تصل إلى العقول غير المعتادة على خوض المناقشات الخاصة الرفيعة، والعقول التي لم تعرف الشيوعية وأساليبها، بل وتشعر بالارتباك حيالها.

إن التناقضات الداخلية في تفكير الإنسان يمكن مهاجمتها بسهولة والتقليل من شأنه إلى خاضع ذليل.

ويدعو هذا التقرير إلى تقديم المزيد من التدريب المطول للجنود (والمواطن) حول معتقداتنا ومسؤولياتنا الأساسية، وتعبئة عقلية للصراع المستقبلي بين «الأفكار» و«الإرادات». نشب نزاع واضح بين الآراء في اللجنة الاستشارية لوزارة الدفاع التي صاغت مجموعة القواعد، بين الرؤية الإسبرطية المتشددة، والرؤية الأكثر ليونة التي تدعوهم إلى الحديث. ادعت المجموعة الأولى أن كل جندي يجب أن يقاتل حتى النهاية؛ بينما اعتقدت المجموعة الثانية أنه في النهاية يمكن إخضاع أي شخص.

مع هذا، يجب تدريب كافة الجنود على نحو خاص على المقاومة، وعدم خيانة ولائهم لدولتهم، وخدمتهم ولرفاقهم. كان هذا السبب الرئيس في إصدار قواعد المعايير العالية هذه، مع أنه من المعروف أن القهر يمكن أن يتجاوز القدرة على المقاومة. مع ذلك يضيف عالم النفس هنا سؤالًا إضافيًّا: من يستطيع الحكم على ما هو وراء القدرة على الاحتمال؟

يُختتَم التقرير بالتأكيد على حقيقة أن الحرب الشاملة على العقول بين البشر مستمرة، وأن الجبهة الداخلية ليست إلا امتدادًا لجبهة القتال!

تطالب هذه القواعد بنقطة مهمة، وهي الاهتمام بجبهة معركة عقلية أكثر امتدادًا، وذلك بمعرفة أننا نفهم تمامًا وسائل القهر المتبعة من الشيوعيين، يمكن جزئيًّا استبعاد تأثير إستراتيجية حربهم الباردة ومعناها. في النهاية لا أحد من العالم الخارجي يصدقهم، حتى وإن كانت وسائلهم الشمولية مفيدة لهم من أجل الدعاية الداخلية في بلدانهم. مع ذلك لا يمكننا مكافحة التلقين بتلقين محض مجابه له.

للسماح للجنود بالتوقيع على إعلان بأنهم لن يستسلموا لغسيل الدماغ أبدًا مزية إخبارهم على الأقل بما يمكنهم توقعه. مع هذا لا تحميهم هذه المعرفة من الارتباط

الشرطي المعقد الذي يفعله المحقق الذي يعرف كيف يتغلب على العقبات العقلية. يمكن للوقت والاختراق الإيحائي المعقد أن يحطم مقاومة الإنسان.

إن الإكراه على قسم الولاء والتوقيع على الإعلان لا يعني، من الناحية النفسية، أي شيء في حد ذاته. لكن التعليم العميق بشأن الحرية العقلية، والوعي الديمقراطي يمكن أن يساعد على مكافحة السموم. إن السلطات التي تطالب بتوقيع إعلانات للولاء ليست على دراية كافية بمدى الدعاية وغسيل الدماغ المقنع وأشكال الإغراء العقلي الأخرى التي تجري هنا في مجتمعنا؛ إنها تستبدل المسؤولية الاجتماعية والقومية بالمسؤولية الفردية. إن المناخ الأخلاقي والسياسي الذي ينشأ فيه المرء في المناطق النائية هو الذي يزوده بقدرته العقلية. إن الأمة مسؤولة عن الأساس العقلي الذي تدرب جنودها عليه في الحرب الباردة وتنقله إليهم! لقد شعر العديد من أسرى الحرب بالتضليل من حكوماتهم؛ فقد كانت المعلومات التي لديهم عن العدو معلومات سيئة، بمصطلحات بالغة التبسيط عن الأبيض والأسود. بإظهار الآسر للجانب الجيد من نفسه، يمكنه بسهولة إثارة الشك حول أمانة قادة الأسير.

من وجهة نظر الطب النفسي، يجب أن نكرر القول بأن كل شخص يمكن أن يصل إلى نقطة الانهيار بغض النظر عن مدى معرفته أو التلقين المضاد الذي ربما يتلقاه. لا يفتقر العدو إلى الوسائل عندما يريد الإصرار على أساليب تحطيم المعنويات. للأسف، لم يؤكد التقرير بما فيه الكفاية على المعضلة الجدلية الصعبة التي يقع فيها كثير من الجنود البسطاء. لسنوات عدة وهو يتدرب في المجتمع، أو مجموعات عسكرية غرست فيه عادات طاعة القانون فيها والامتثال للمجتمع، وفجأة عليه الاختيار واختبار دفاعاته الفردية الحاسمة الخاصة. إن الحرب الباردة تتطلب مستوى عالٍ من الوعي السياسي.

وهذا يرد المشكلة مرة أخرى إلى مشكلة ضعف القدرات العقلية الفردية للأشخاص، ومشكلة الأخلاق بصفة عامة. لا يمكن تنمية الشجاعة العقلية

بالتدريب البدني فحسب، يتطلب الأمر حيوية عقلية في فهم المعتقدات الأساسية، وحتى في التفكير غير الممتثِل. علينا أن نؤمن بعمق بالسبب الذي نقاتل من أجله حتى نقاوم وجهة نظر العدو. إن قوة القناعة هي التي تعطي القوة الأخلاقية!

تلقين ضد تلقين؟

يوجد مفهوم تعليمي مفاده أن الارتباط الشرطي بالتعذيب البدني سوف يساعد الجنود على أن يكونوا أكثر مناعة ضد غسيل الدماغ. في إحدى قواعد القوات الجوية، كان على الطيارين الالتحاق "بمدرسة التعذيب"، التي كان يطلق عليها مجازًا مدرسة النجاة؛ حيث كانت بعض الوسائل الشيوعية البربرية والقاسية في التعامل مع المعتقلين تستخدم فيها ليخشوشن الرجال ضد أي وحشية مستقبلية. [مجلة **التايم**، 19 سبتمبر 1955.] كان المتدربون يتحملون التمرينات الشنيعة جيدًا، إلا أن مثل هذا التدريب يمكن أن يخلق ارتباطًا شرطيًّا لدى الإنسان عن غير قصد بتبني وسائل الشمولية. إنه يعطي ضوءًا أخضر شبه رسمي لوسائل العدو بالتلميح بأننا يمكن أن نفعل الشيء نفس. بالإضافة إلى ذلك، ربما تحفز مثل هذه الوسائل ميولًا سادية خفية في كلٍّ من المدرب والمتدرب. تحت ستار الحاجة إلى التدريب الصارم، يمكن تعليم الشباب الأمريكي الرؤية السادية نفسها التي يتبناها أعداؤهم.

إن التأثير النفسي المهم لكل أشكال التدريب القهري الصعب والتلقين يكمن في ملاءمته للنمط الشمولي. فضلًا عن ذلك، لا يحتاج المحققون الشموليون إلى استخدام التعذيب البدني للكشف عن الأسرار الكامنة في عقول الرجال، مع أنهم قد يستخدمون هذه الوسائل للاستمتاع الشخصي. وعلى العكس، فإن العدو يعتمد بالقدر نفسه على التلميحات الودية والمزايا الخاصة لإغراء سجين الحرب الجائع والمنهك حتى يعترف. ما يلزم المحققين تحديدًا لتحقيق النجاح أن تكون شخصية العدو ضعيفة، وألا يعي حاجة الجندي إلى الامتثال؛ بحيث يكون مثقلًا

بالقلق ويفتقر إلى الصبر. إن المحقق غاسل الدماغ لا يحتاج إلى التعذيب. إن التعذيب البدني يعزز عادة المقاومة ضد المحقق، بينما يمكن للعزلة وحدها أن تحقق أهدافه. إن المدرسة التي تعلم أساليب التعذيب والمراوغة فحسب يمكن أن تستثير القلق الكامن؛ وبالتالي يحدث النقيض، وتجعل من السهل أكثر على الجندي – الذي أنهكته التوقعات الخيالية – أن يستسلم لغسيل الدماغ. يمكن للبطل في تلك المدرسة أن يضعف بمجرد مواجهته للتحديات الحقيقية.

لا يهم كثيرًا ما يحققه المتدرب خلال التدريب البدني، لكن ما يتحمله عقليًا وروحيًا. هل لديه أساس عقلي؟ هذا فقط ما يجعله في موقف جيد خلال محنة الاعتقال.

تقرير الطب النفسي عن غسيل الدماغ وإبادة العقل

في كل تقرير حول غسيل الدماغ عن أسرى الحرب، ينبغي أن نضع في الحسبان عدة عوامل ربما تؤدي إلى الاتهام "بالتعاون مع العدو" لتحديد المسؤولية النفسية للمتهم.

هل استسلم عقليًّا تحت تأثير نوع من التنويم؟ هل يمكن إلقاء المسؤولية عليه عمومًا؛ هل كان ذلك التعاون الذي حول الإنسان إلى خائن عن وعي وبمحض إرادته؟ هل كان جبنًا أم مجرد ضعف روحي؟

ولأن هذه الأسئلة جديدة على تاريخنا وعادة ما تكون أعقد في علاقتها بالظروف، من الجيد أن نعدد مجالات الاهتمام حتى نحللها:

الاتهام: على علماء النفس دراسة الحقائق التي تورط الإنسان في جريمة. يمكننا أن نرى غالبًا، على سبيل المثال، في صياغة الاعترافات الموقعة، دليلًا على أن التوقيع وقع تحت إجبار. ويمكن اعتبار أن بعض العبارات المبتذلة للعدو قد استخلصت تدريجيًّا بالتحايل على رأس الضحية. لإحدى المحاكم استطعْتُ تحليل اعتراف مكتوب مؤلف من مثل هذه العناصر غير المتجانسة؛ بحيث كان من الممكن أن

أستشف بسهولة عملية الصراع العقلي والاستلام التدريجي للمعتقل.

الإشاعات وعلم نفس الجماهير: لا يمكن لكل الاتهامات ضد أسير الحرب من أقرانه الأسرى – حتى عندما تكررها الغالبية دومًا – أن تؤخذ على علاتها. تحت تأثير الرعب والخوف، يمكن تصديق الشائعات بسهولة حول أشخاص بعينهم. هناك شخصيات يمكن أن تصبح بسهولة نقطة ارتكاز للشائعات، على أساس بنية شخصيتهم الخاصة. إن المثقف المنعزل، مثلا، يُتهَم عادة بالتنسيق مع العدو. عندما يتحدث لغة العدو ويمكنه التواصل معه، يمكن أن تصبح الاتهامات ضده مثل هلوسة جماعية هائلة.

وعلى المحقق أن يجري مسحًا استقصائيًا حول العلاقات الجماعية في معسكرات أسرى الحرب. يحاول العدو غاسل الدماغ أن يهاجم القادة أولًا، لمهاجمة الروح المعنوية التي تبقت لدى أسرى الحرب؛ من ثم يحاول اختيار شخصيات ضعيفة بعينها لإستراتيجيته هذه المرتكزة على الضغط العقلي وتحول العقيدة الفكرية.

بنية شخصية المتهم: يكون مقدرًا لبعض الأشخاص، لها بناء على أناهم الضعيفة وقلقهم العصابي، أن يستسلموا مبكرًا للضغوط العقلية. ولكي نحصل على تقدير عادل للفرد، يجب أن يخضع الفرد لاختبارات الذكاء **واختبار رورشاخ**[122]، كما ينبغي دراسة الخلفية العائلية، والأسس الدينية والعقائدية الفكرية للشخص.

هل كان مغسول الدماغ مدربًا بما فيه الكفاية لتحمل هذه المعاملة؟ وما نوع المعلومات التي أعطيت لأسير الحرب خلال تدريبه؟ هل كان يعرف ما يكفي عن الحرب العقائدية ووابل الكلمات التي يمكن أن يتعرض لها؟ هل كان مستعدًّا فقط للانقياد والخضوع، أم لمناقشات الحرية وعدم الامتثال؟ هل تدرب بدنيًّا فقط أو

122 - اختبار رورشاخ Rorschach: اختبار نفسي تُسجَّل فيه تصورات الأشخاص عن بقع من الحبر ثم تحليلها باستخدام التفسير النفسي. يستخدم بعض علماء النفس هذا الاختبار لفحص خصائص شخصية الشخص وأدائه الانفعالي. ينسب إلى الطبيب النفسي السويسري هرمان رورشاخ (1884 - 1922). (المراجع)

عقليًّا أيضًا؟

حقائق التعذيب: كم تطلب الأمر قبل أن يستسلم المعتقل؟ هل كان يتناول المخدرات؟ ما قدر العزلة؟ ما عدد ساعات التحقيق؟ هل كانت توجد أعراض للألم والإعياء البدني؟ هل يمكن إثبات هذه الحقائق؟

هذا مجرد مسح استقصائي موجز لوجهات النظر الواجب أخذها في الحسبان. وهي تعمل على إظهار أنه مع ظاهرة غسيل الدماغ الممنهج، والسيطرة على الأفكار تطرح مسألة قضائية جديدة أمام المحكمة. ولا يمكن تطبيق المواقف التقليدية حيال الكفاءة الشخصية والمسؤولية والمساءلة.

في حالة غسيل الدماغ الناجح، تستحوذ الدولة (النظام الشمولي للعدو) وتسيطر حتى على كل المسؤولية النفسية للأشخاص الطيعين. وعليه، ينبغي على محاكمنا الجنائية، ومحاكمنا العسكرية أن تسن قوانين جديدة للحكم على من يقعون في أيدي مثل هذا النظام الإجرامي.

الفصل السادس عشر

تعليم الانضباط أو المعنويات المرتفعة

دور التعليم

يمضي الطفل سنوات حياته الأولى التي تشكله تحت توجيه الوالدين أولًا ثم مع مدرسيه؛ وهم جميعًا يؤثرون على سلوكه المستقبلي. يمكن للنظام التعليمي أن يعزز أخطاء الآباء وسلوكياتهم أو يصححها، إما أن يقوي رغبة الطفل في النمو تجاه الحرية والنضج، أو يكبت حاجته للنمو ويحورها لتصبح حاجة إلى أن يستسلم لطفولة واعتمادية دائمتين.

منذ عصر النهضة، حققت مُثل التدريب المدرسي العالمي مكاسب ثابتة. لكنه اليوم [أي التعليم] يميل عن غير قصد إلى قولبة العقول في أنماط معدة مسبقًا، ويوهم طلابنا بأنهم يعرفون، أو ينبغي عليهم معرفة كافة الإجابات. المغالطة في نصف التعليم هذا أن ما يدعى بـ الملمون بالأبجدية – مقارنة بمن لا يستطيعون القراءة – يمكن أن يصبحوا أتباعًا جيدين ومفكرين سيئين. إن الشموليين مثلًا ليسوا ضد المدارس؛ على العكس، كلما أثقلت كاهل العقل بالحقائق، كلما زادت فرصة أن يتحول إلى السلبية. ولا تكفي سعة الاطلاع وتعلم قراءة الكتب وحدهما في صناعة شخصيات قوية، ومع شغفنا بتعليم الوقائع وأنواع الامتحانات

السريعة، يكمن شكل خفي من أشكال الضغوط العقلية. إن الرهبة التي ننظر بها إلى تراكم الحقائق المدرسية، ربما تثبط العقل إلى درجة ألا يستطيع التفكير بنفسه. علينا أن نعي أكثر الضغوط التلقائية التي يمكن للنظام التعليمي أن يفرضها علينا، وتأثيراتها الخطيرة المحتملة على مستقبل مجتمعنا الديمقراطي. إن الإستراتيجية الفعلية التي تبقي الناس طلابًا على الدوام تحت إشراف ممتد، مفيدة للتلقين الشمولي. على سبيل المثال، تكمن في بعض العقول الإدارية فكرة أن الامتحانات المتكررة والمقارنة سوف تزيد من جودة السلك الإداري. لكن على العكس، ينمو قلق طفولي يتعلق بالخوف من أداة القياس والتقييم الطفولية تلك: الامتحان. يوجد بالكاد إداري يجرؤ على اعتبار الواقع أفضل اختبار لقدرة الإنسان وتحمله.

إن نوع التعليم القائم بالأساس على الاعتمادية، ويتحكم أكثر من اللازم في الطفل، ويجذبه إلى الأخلاق من خلال العقاب، ويبعث بداخله إحساسًا بالذنب، ويبالغ في تقييم المهارة الميكانيكية والتعليم الآلي، هذا النوع من التعليم يعجن العقل على شكل من الامتثال يمكن تحويله بسهولة إلى قنوات شمولية. وتلك هي الحالة فيما يتعلق بالتدريب الانضباطي للجنود. مثل هذا التعليم الصارم يمجد السلوك الحسن أكثر من اللازم؛ إذ يوافق على المحاكاة والامتثال على حساب الإبداع العفوي، والتفكير الذاتي، والتعبير والنقاش الحر للأفكار المعارضة. إن هوسنا بالامتحان يجبر الطلاب على الدخول في ممرات عقلية من التفكير الآلي. إن تعليمنا الفكري وما يدعى تعليمنا الموضوعي يبالغ في تقييم العقلانية والمعرفة التقنية ظنًّا بأن هذا يجعل الأخطاء الانفعالية تحت السيطرة. بالطبع ما يفعله بدلًا من ذلك هو تدريب الطفل على أنماط التفكير والتصرف الآلية، وهي أقرب إلى أن تكون الانعكاس الشرطي الذي يغرم به طلاب «بافلوف»، أكثر من أن تكون نمطًا حرًّا استكشافيًا يجب أن يتمحور حوله التعليم الديمقراطي.

تدرك الشمولية جيدًا أن الشباب لديهم فترة حساسة يمكن خلالها ترسيخ الارتباط الشرطي البافلوفي بدون صعوبة. كما أن التربية المبكرة تشكل أنماطًا

يستحيل تفكيكها تقريبًا في عقل الطفل، وفي النهاية تحل مكان الدقة الغريزية الفطرية. هذه الآلية البافلوفية المبكرة في الحياة ربما تطور هي نفسها تقريبًا قوة غريزة فطرية؛ وهذا بالتحديد ما يحدث في توتاليتاريا؛ حيث يعكف الطغاة خصيصًا على تنظيم الشباب والضغط عليهم للالتحاق بحركات شبابية انضباطية.

تكمن المفارقة في هذا التثقيف العام في أنه قد ينشأ عنه سباق بين الرجال والنساء الذين أصبحوا (نتيجة هذه المقاربة الفكرية الجديدة للحياة) أكثر قابلية لتلقي التلقين العقائدي من معلميهم وقادتهم. هل نحن بحاجة إلى طلاب جهابذة أو طلاب يفكرون بحرية؟ والأهم من ذلك أن وسائلنا التقنية في التواصل لحقت بتعليمنا. إن العين التي تعرف القراءة تصطدم على الفور بالإعلان والدعاية؛ وتلك هي معضلة عصرنا الهائلة.

في العديد من مدارسنا الابتدائية يتعلم الطلاب في مناخ النظام الصارم القهري، ويغرس فيهم حس الاعتيادية والخوف من السلطة، ويستمر معهم طوال حياتهم. إنهم لا يتعلمون قط أن يفكروا بحق بأنفسهم. إن مصانع الحقائق الدراسية والمدارس، تجعل الكثير من الطلاب ينشغلون تمامًا عن التفكير؛ ربما تعلمهم بدلًا من ذلك عدم النضج المتنامي. طالما أن الناس يمكنهم الاقتباس من بعضهم البعض ومن رأي «الخبير» المتاح، يتم اعتبارهم متعلمين جيدًا ومثقفين. وتركز العديد من المدارس على ما يمكن أن نطلق عليه هوس الاقتباس؛ إذ تجعل القدرة على الاقتباس هي السبيل الأمثل للحكمة كلها. إلا أن أي شخص لديه منطق لا يمكن الرد عليه ظاهريًا، وأي شخص يمكنه أن يدعم موقفه بتصريح أو اقتباس سلطوي، يمكن أنْ يكون له تأثير قوي على مثل هذا العقل؛ إذ إنه يمكن أن يحاصر ويرتبط شرطيًّا على الفور بالتيارات الفكرية الزائفة والمغرية انفعاليًّا. وفي الواقع، خلال عملية غسيل الدماغ يستخدم المحقق الإحساس بالارتباك الذي يستحوذ على ضحيته عندما يظهر أن حقائقه غير ملائمة، وأن هناك عيوبًا في مفاهيمه. من هنا سرعان ما ينهار الإنسان الذي لا يعرف خدع الجدال.

أود التفرقة بين الثقافات؛ فهناك الثقافة الكمية والثقافة الكيفية: الأولى معنية بكم المعرفة والحصاد السهل لأي نوع من الارتباط الشرطي الجديد. أما الثقافة الكمية، على الجانب الآخر، فمعنية بجودة النزاهة الشخصية. لا تُستقى الحقائق بسلبية، لكنها تُرجح ويُتثبت منها. هذا النوع من الثقافة يحتمل أن يجعل تعليم المدرسة مستقلًا، لكن المدرسة تفسده غالبًا.

من أكثر الحالات التي عالجتها إثارة للدهشة حالة لأحد المثقفين الكميين، وهو حاصل على دكتوراه في علم النفس أتم لتوه تعليمه الجامعي، وبأطروحة عن موضوع نفسي تقني. جاء إليَّ لأن كل علاقاته بالفتيات باءت بالفشل التام، أراد علاج هذه «اللعنة» دوائيًّا. في البداية رفض كافة أشكال العلاج النفسي؛ لأنه كان «يعرف كل تلك الأشياء»، وفي معرض حديثنا أصبح من الواضح أن كل تعليمه المدرسي قد فاته. لقد التحق بالكلية، لكن جوهر ما درسه تسبب في تضليله؛ إذ لم يلم حرفيًّا بأي شيء حول علم النفس. كان قد حفظ كل شيء ولم يفهم أي شيء. كان باستطاعته أن يذكر اقتباسات من كل صفحة من الكتاب، لكن لم يكن في وسعه شرح أي منها. وفي كل مرة ينبغي عليه أن يمر باختبار أو يعطي نصيحة عملية كان يصاب بالهلع. تطلب الأمر سنوات من المعالجة لاختراق عاداته الصارمة والقهرية هذه، وجعله يصل إلى النقطة التي يستطيع عندها التفكير والشعور مثل البشر وليس كالآلة. في نهاية علاجه، بدأ في التعلم مرة أخرى، وقرأ بنهم وشراهة ما كان بالنسبة إليه حقائق فارغة من قبل.

لكنه لم يكن مقتني الحقائق الوحيد السائر على قدمين الذي قابلته في حياتي؛ فهناك مريض آخر كان شابًا مهووسًا بالرغبة في التعلم وتحصيل كل الدرجات العلمية التي تستطيع كليته تقديمها. في الوقت الذي التقيته فيه كان عضوًا في منظمة نازية. (إنه مثال على أن العديد من المتحذلقين لديهم صلة بنظام سياسي استبدادي.) حتى في تلك الجماعة كان يستثير العداوة نظير سعيه للبحث عن الحقائق والمزيد من الحقائق، الحقائق لوجه الحقائق. أصبح دافعه الذي لا يقاوم

أكثر من أن يتحمله حتى أقرانه الشموليون. كان مصابًا بهذاءات العظمة، وليست لديه أية علاقات انفعالية على الإطلاق؛ وكلاهما علامتان على أنه في طور الإصابة بمرض ذهاني. لكن قدرته الثقافية كانت سليمة. إنه ابن شخص مثقف وعاش في منافسة دائمة مع والده؛ في ريعان شبابه بدأ في قراءة الموسوعة، وبعد ذلك، في المدرسة الابتدائية والثانوية، نال استحسانًا نظرًا «لمعرفته» الاستثنائية. في الواقع، كان يعرف الحقائق لكنه لم يكن يعي أي شيء آخر. لم يكن يعرف كيف يتكيف مع نفسه أو مع أي شخص آخر.

توضح هاتان الحالتان كيف يمكن لنظام التعليم الآلي، الذي يفشل في رصد حتى الحاجة الملحة للعلاقات الانفعالية والإحساس بالانتماء ويؤكد على التعليم بدلًا من الحياة، أن ينتج عنه راشدون غير مجهزين تمامًا للتعامل مع مشاكل الحياة، ويعتبرون هم أنفسهم أنصاف أحياء وغير قادرين تمامًا على النهوض بتحديات الحقيقة. مثل هؤلاء الرجال والنساء لا يمكن أن يكونوا مواطنين ديمقراطيين جيدين.

إحدى أكثر المهام الضرورية للتعليم من أجل الحرية العقلية إعداد الطفل لمرحلة الرشد الناضجة، بتعليمه أن يرى بواطن الأمور، وتعليمه أن يفكر بنفسه. توجد عدة مجالات اهتمام ربما تتطور من خلالها القدرة على التفكير في النفس – مثال ذلك، مجال التواصل وعلم التجريد- science of abstraction. إدراك الطفل للغته، وللكلمات التي يستخدمها بنفسه أداة تعبيرية بدلًا من مجموعة قواعد نحوية يمكن أن تجعله فضوليًّا حيال اللغات الأخرى وطرائق التفكير الأخرى؛ ومن ثم ربما تحدو به إلى القدرة على التفكير المجرد وفهم العلاقات. إن أكثر الفترات التي يكون الطفل فيها حساسًا تجاه اللغات الأجنبية عندما يكون في حوالي العاشرة – أصغر بكثير من السن التي عادة ما ندرس فيها اللغات الأجنبية. في ذلك العمر أيضًا يبدأ الطفل في تكوين اهتمام شخصي فعال بالكلمات والتعبير عن الذات. ويمكن استخدام هذا الاهتمام لجعل اللغة مغامرة استكشافية مثيرة بدل أن تكون

عملية حفظ بدون فهم.

يجب على مدارسنا أن تشجع الابتكار والنشاط الذاتي أيضًا، من خلال مواضيع مثل النجارة والتصميمات. يمكن للعب الإبداعي بالأشياء المادية أن ينمي أيضًا قدرة الطفل على التجريد والتعميم؛ مما يسهل عليه استيعاب الأشياء المجردة التي تشكل كل الرياضيات. وإذا استعضنا عن إلقاء الطفل في بحر المجردات التي يقابلها في التدريبات الحسابية اليومية، بتربيته على فهم عملية التجريد بخطوات تدريجية حريصة، فسوف يفهم ويستوعب ما يتعلمه، ولا يصبح مجرد ببغاء يكرر ما يقال له. إننا نميل مثلاً إلى تعليم استيعاب الرياضيات قبل الأوان، وننتظر أكثر مما ينبغي لتعلم اللغات والتعبيرات اللفظية.

إن التاريخ موضوع لا يتعلم بحفظ الحقائق والتواريخ فقط، ولكن من خلال المناقشات المتبادلة. يجب أن تبدأ بمفهوم أزمنة الحياة الشخصية والتاريخ الشخصي. من الأفضل أن نعطي الطفل تقريرًا ورقيًا عن تاريخ أمس ونطلب تعليقاته وآراءه عنه، أو الأفضل تعزيز التفكير الفردي بجعله يبحث عن المعلومات الأساسية في المكتبة أو المتحف، بدلًا من أن يطلب منه حفظ الحقائق. بهذه الطريقة يمكن أن يصبح تعلم التاريخ مغامرة.

يمكننا أيضًا مراجعة النظام الذي يخاطر بسهولة بتربية الأشخاص العاديين ليتلاءموا مع نمط الحياة العادية. يجب تدريب الأطفال المختلفين وتعليمهم بطرائق مختلفة. كل واحد لديه جدوله الزمني الداخلي؛ وسيكون لكل واحد تعديلاته الحياتية الخاصة. لماذا ينبغي علينا أن نفعل بالإكراه مع أطفالنا ما لا نفعله قط مع زهور بساتيننا؟ كل نبات مسموح له بالوصول إلى حجمه الطبيعي. وممارستنا الدراسية الحالية تحفز في الطموح عددا قليلا من الأطفال، لكنها تجمده في آخرين. بدلًا من مناصرة الخداع بقواعد الامتحان الصارمة لدينا، لماذا لا نسمح للأطفال بالتعاون على حل المشاكل العامة؟ كثيرًا ما يتمكن الأطفال من تعليم بعضهم ما لا يمكن للمعلم تعليمه.

فكر للحظة في الطفل الذي يعاني من حساسية خاصة تجاه الملل من بعض المدارس المعاصرة؛ إما أن يصبح ممتثلًا – يحفل بالعلامات الجيدة وليست لديه أفكار أصيلة – أو متمردًا – مهيأً لعيادة إرشاد الأطفال اليوم، وربما الدولة الشمولية غدًا.

الانضباط والروح المعنوية

في حين أن الروح المعنوية الجيدة تعني القوة الداخلية وضبط النفس، ربما لا تعني بالضرورة مجموعة من الضوابط بالمعنى السياسي أو العسكري. إن الروح المعنوية الشخصية الجيدة وعمودها الفقري كانا من أهم مواصفات المشاركة بنجاح في المقاومة تحت الأرض خلال الحرب الأخيرة. كان المحاربون غير النظاميين الذين يعملون في الخفاء – في مختلف الأماكن – في معاركهم التي يخوضونها بأنفسهم يعتمدون على مبادرتهم الفردية وروحهم المعنوية، بنفس قدر اعتمادهم على قيادتهم وانضباطهم إن لم يكن أكثر منها. وهذا مجرد نقيض الاستعداد المعنوي الذي يدفع بالخوف ويباشر من على بعد، ذلك النوع الذي يتم الحصول عليه في السجون أو معسكرات الاعتقال، أو في قبيلة تؤكد بشدة على المشاركة العامة. في المجموعة الأولى، كانت هناك روح معنوية بدون انضباط؛ وفي الثانية، انضباط بدون روح معنوية. وبالطريقة نفسها هناك بعض الضباط يمكن أن ينمو بداخلهم الانضباط بدون روح معنوية.

ومع ذلك، توجد عادة علاقة داخلية بين الانضباط والروح المعنوية. فقط عندما يعطى قدر معين من التدريب الانضباطي المبدئي للشبان أو الجنود، يكونون مرتبطين شرطيًّا بشكل جيد بهذه القوة الداخلية الشخصية المبنية على أساس الثقة بالنفس والثقة في المجموعة ككل، إلى جانب الثقة في السلطات. ويكون اللجوء إلى الانضباط الطارئ خلال فترات التوتر عندما لا يتوفر الوقت عادة؛ والنتيجة أنه لا تكون هناك فترة كافية للتحكم في الذات والتكيف مع المجموعة. إن الالتزام الذي

يختاره المرء فقط وينمو بالتدريج يمكن أن يضع أساس الحرية الداخلية والروح المعنوية. ذهبت هذه القاعدة طي النسيان لدى كثير من المربين، مع أن هذا الأساس من الأنماط المبدئية للارتباط؛ الشيء هو فقط ما يعطينا الثقة لنعتمد على أنفسنا.

بدأنا جميعنا بمرحلة الاندماج واستلهام معنوياتنا من الآخرين – آبائنا ومعلمينا. وأساس روحنا المعنوية الشخصية يترسب في غريزتنا من خلالهم. أما العلاقة التبادلية المعقدة بين الانضباط والحرية فتبدأ من المهد تحت رعاية آباء محبين ومهتمين ومنسجمين؛ فالآباء أول من يبني الروح المعنوية. إن الصراع بين الانضباط والروح المعنوية في المجموعة عادة ما ينشب عندما يجتمع الأعضاء معًا بحكم الضرورة أو بالإكراه. هنا يختلف تمامًا التماسك الداخلي عن الموقف الذي يكون فيه ولاء المجموعة عفويًا. إن الهدف من أي انضباط هو تنمية التكيف تنمية أفضل في المجموعة. في المقابل، إن النجاح في التماهي مع المجموعة يقوي الأنا أكثر. وانطلاقًا من هذه النقطة، تبدأ الحرية.

من المهم زيادة فهم هذه المبادئ التي توطد الروح المعنوية لتقييم القوة أو الضعف الداخلي للعديد من المجموعات الثقافية. ربما نتوقع وفقًا لخبراتنا في العلاج النفسي أنه إذا انتشر قدر كبير من الانضباط أو حتى العبودية يكون التماسك الداخلي للمجموعة صعبًا للغاية عن تلك المجموعات التي تحترم الفرد وتمنحه تقديرًا عاليًا. ومع ذلك وجدنا أشخاصًا حتى في جيوش الأنظمة الشمولية ضربوا أعلى مثال للروح المعنوية. أتذكر هؤلاء الجنود اليابانيون الذين ظلوا وحدهم مرابطين لسنوات في مواقعهم – دون اتصال بوطنهم – بعد الحرب، وكأن الإمبراطور وجنرالاته كانوا ما يزالون ينظرون إليهم. هذا يشي إلينا بشيء عن الحب الثابت والأمان والإخلاص الذي نالوه في السنوات الست الأول من حياتهم.

الانضباط وغسيل الدماغ

عندما نرغب في تدريب جندي على مقاومة غسيل الدماغ، علينا أن نعطيه ترياقًا مضاداً للإيحاء الجماعي. علينا أن نعلمه الوصول إلى إجاباته الخاصة وانتقاد معلميه. علينا تدريبه على القابلية للإيحاء السلبي والتأكيد على الشجاعة لرفض المنطق الممتع انفعاليًّا عندما لا يبدو حقيقيًا. وفوق كل هذا علينا تكرار مثل هذه الدروس عدة مرات لنصنع من المجند فردًا واثقًا من نفسه. علينا أن نستثير الحس النقدي الفردي ضد وابل الإيحاءات اليومية. يجب فعل كل هذا بالإضافة إلى جعل الجندي أكثر ألفة بمفهوم غسيل الدماغ وآثاره. وبفعل هذا، سوف يتعلم بشكل لاشعوري أن يحكم على ما هو دعاية وما هو غير ذلك – كما نفعل جميعنا جزئيًّا عندما نستمع إلى إعلان عبر الراديو. تخبرنا التجربة النفسية أن جزءًا من الإيحاء الدعائي يمكن أن يتسرب حتى عبر الدفاعات العقلية اليقظة ويخترق آراءنا. من ثم يجب عمل غسيل الدماغ المضاد بدقة وباستمرار. ربما يبدو الأمر متضاربًا مع الانضباط الصارم؛ عندما يعرف المدرس والضابط ما فيه الكفاية حول موضوع ما. على أية حال، فإن احترام الطالب لذاته يتعزز من خلال التماهي مع شخصية قائده. صحيح أننا نرى هنا تغيرًا في علاقات الانضباط، لكن ذلك يقدم الاختبار الحقيقي للانضباط في مجتمع ديمقراطي حر. إن الإنسان الذي تعلم تقدير الذات والمعرفة سوف يتحمل في النهاية عندما تأتي ساعة التحدي.

إن تغيير حرب الأسلحة إلى حرب باردة عقلية يتطلب تغييرًا في الانضباط. على الجندي ألا يعرف بندقيته فحسب، بل عليه أن يعرف أكثر حتى معنى مهمته وهراء العدو.

طبيعة المجموعة وتأثير القائد

في كل موقف للمجموعة، تشير الروح المعنوية إلى درجة قوة ترابط أفرادها ومقدار ولائهم للمجموعة ولأهدافها. ربما تتضمن الروح المعنوية فهمًا للأهداف،

وربما لا تتضمن ذلك. في الثقافة الغربية بسلبياتها وإيجابياتها المعقدة، نجد حاجة ملحة أكثر تتضمن إدراك الأهداف وفهمها واستعراضها أكثر مما هو عليه في الدولة الشمولية.

في الدولة الشمولية التي تبجل القائد القوي، تشكل خسارة الترابط تهديدًا – عندما يفشل الديكتاتور أو المجموعة القائدة – يمكن أن يكون لذلك تأثير مفكك أكثر من الفشل الذي قد يلحق بالمجتمع الديمقراطي، الذي يصل أفراده عادة إلى أعلى درجات تحديد مصير الذات ومهارة التحكم. تجد الديمقراطية دائمًا قائدًا جديدًا جاهزًا لتقلد المسؤولية.

تطرح الروح المعنوية سؤالًا عن مقدار ما يمكن للناس تحمله بدنيًا وعقليًا، وفترة التحمل. في ظل أنواع مختلفة من الأنظمة، تختلف حدود القدرة على التحمل. إن الروح المعنوية الجاهزة النابعة من الخوف، مثلما هو الحال في السجون، ربما تتفكك من أقل بادرة على ضعف القائد أو الحارس، أو عندما لا يكون الأفراد منضبطين بعد بما فيه الكفاية.

كان يتم تلقين الكاميكازيين[123]، الطيارين الذين يتعلمون الانتحار، إيديولوجيا تقديم النفس تلقينًا شديدًا؛ وربما يمكن القول إن روحهم المعنوية، حسبما ظهر في الحرب مع اليابان، كانت مرتفعة – بالمعنى الشرقي للكلمة. هنا أصبح الانضباط والطاعة آليين إلى أبعد حد، إلى درجة أن الحياة لم يكن لها أية أهمية للفرد أو للمجموعة. كانت الفكرة الوحيدة هي الاستمرار وهزيمة العدو. يعتمد هذا النوع من الروح المعنوية عادة على تأمين يأس محموم – نوع من الغضب الانتحاري الجماعي – سعيًا لتحقيق هدفٍ قومي.

---

123 - الكاميكازيون kamikazes: كلمة تعني "الرياح الإلهية" باليابانية، وحدات الهجوم اليابانية الخاصة للطيارين العسكريين الذين شنوا هجمات انتحارية ضد سفن الحلفاء البحرية في المراحل الأخيرة من حملة المحيط الهادئ للحرب العالمية الثانية. (المراجع)

إننا نعي أكثر وأكثر مدى أهمية القيادة في تعزيز الروح المعنوية. إن القائد تجسيد للعلاقات الإنسانية القيمة التي نستعد من أجلها لبذل جهدنا وحتى حياتنا عند الحاجة. من خلال التماهي مع القائد نستعير جَلَده. والقائد الرسمي ليس المسؤول دائمًا عن رفع الروح المعنوية. في بعض الأحيان ربما يتولى رقيب أو جندي هذه المهمة.

إن القائد الرسمي نفسه في موضع أكثر صعوبة، لأنه ينبغي عليه القيام بأشياء كثيرة ربما تبدو متناقضة مع بعضها. عليه أن يمثل السلطة الأبوية بالإضافة إلى أنانا- our ego ووعينا ومُثُلنا. عليه أن يريحنا من الإحساس بالذنب والقلق، ويجب أن يكون قادرًا على استيعاب حاجتنا للقوة والتعاطف والإخلاص – حاجاتنا المتحولة بتعبير مصطلحات علم النفس. عليه أن يكون قادرًا على التخطيط لأفعال المجموعة وتحفيزها وفي الوقت نفسه يزيد من التقدير الذاتي للفرد. ربما تصبح شكوكه شكوكنا؛ وفقدانه للثقة تجعلنا نفقد ثقتنا بأنفسنا. في بعض الأوقات ربما نريد منه أن يكون ديكتاتورًا؛ بحيث نخفف عن كاهلنا الاستياء الشخصي والمسؤوليات، وأحيانًا نريد التنافس معه كما تنافسنا مع آبائنا، وأحيانًا أخرى نريد منه العطف. يجب أن يكون القائد كبش فداء وعملاقًا. إن قوتنا الداخلية تنمو اعتمادًا على شخصية القائد الملهمة والمرشدة. ومع أننا قد لا نحبه تمامًا، سوف نستخدمه لننمي روحنا المعنوية أو نضعفها.

مع ذلك، لا يستعير الفرد قوته فقط من المجموعة وقائدها، لكنه يسهم فيها أيضًا بروحه. حتى عندما يستخدم كبش فداء للتنفيس عن عدائية المجموعة، ربما يعزز الفرد عن غير قصد من الروح المعنوية للمجموعة، عندما يأخذ الأمر بحس فكاهي ويفهم الفلسفة التي وراءه. إنه، إذا جاز التعبير، يوصل تسامحه الشخصي مع الآخرين. وتكون الغنمة السوداء في الفصيلة مقبولة غالبًا مثل بطل رياضي محبوب.

على المنوال نفسه، توصل المجموعة كافة أنواع المشاعر إلى الفرد؛ التواصل

المستمر لعملية عدوى الروح المعنوية. وتعتمد نوعيتها على التقبل المتبادل، والصداقة، ومدى سريان الخوف في المجموعة، ونوعية التفاعلات بين الأشخاص، والصفات التي تحث على المقاومة في البعض وما إلى ذلك.

دعنا لا ننسى أن أفضل ما يرفع من روحنا المعنوية هو المساعدة على رفع معنويات الآخرين. عندما لا يسمح بالتواصل بين البشر، سرعان ما يفتقرون إلى الروح المعنوية. على سبيل المثال، سمعنا من كثير من الأشخاص الذين هربوا من خلف الستار الحديدي أن شكواهم الرئيسة من النظام الشمولي كانت الشعور بالعزلة العقلية. يشعر الفرد بالوحدة ويكون دائم اليقظة، ولا يوجد إلا الشك المتبادل. بينما كان الإنجيل الجديد لهؤلاء الفارين التقبل والتواصل البشري الجاهز الذي شعروا به في المجموعة الديمقراطية، لأنهم وجدوا هنالك الحماس التلقائي والتقبل المتبادل – حتى عند نشوب خلاف.

سرد لبعض العوامل المؤثرة على الروح المعنوية للمجموعة

العوامل التالية الناتجة في الغالب من التجربة العسكرية، ربما تهدد الروح المعنوية:

- التوقع الخاطئ للخطر؛ خرافات وشائعات حول العدو؛
- الضغط الشديد؛ التعب من المعركة؛
- تدهور الصحة البدنية والعقلية (إنفلونزا!)؛
- قلة الطعام، نقص النوم؛ البرد والقذارة؛
- سواء القيادة؛
- التدريب السيء؛ الافتقار للمهارة؛ الإجهاد في التدريب؛
- التواصل السيء وضعف المعلومات؛
- تدمير القيم الأساسية، فقدان الإيمان؛
- ارتباك الأنشطة والصراعات السياسية وسوء اختيار الحكومة؛

- السلوك السلطوي وغير الديمقراطي؛ الإذلال؛
- التعسف؛ الانضباط الصارم، وعدم الانضباط أيضًا؛
- الحنين إلى الوطن والشعور بالغربة؛
- العداوات الداخلية والأحكام المسبقة واضطهاد الأقليات؛
- السيطرة على الأفكار وإبادة العقول؛ ليس لديك الحق في أن تكون فردًا، لا عدالة، ولا حق للاستئناف؛
- عدم وجود مهمة في الوضع الاجتماعي، لا واجبات؛
- الكحول والمسكنات.
- قد ترفع العوامل التالية من الروح المعنوية:
- القيادة الديمقراطية السليمة؛
- التنظيم المخطط له جيدًا مع حرية الارتجال؛ والقليل من البيروقراطية.؛
- الانضباط الذاتي الديمقراطي؛ هل لدينا إيمان بمؤسساتنا؟
- المعلومات وعدم إعاقة التواصل؛
- حرية الدين؛ النزاهة الأخلاقية؛
- الولاء المتبادل والمسؤولية المتبادلة؛ روح الفريق؛
- اليقظة العقلية؛ أهمية علم النفس في إدراك مشاكل عصرنا الحالي؛
- الشعور بالانتماء والقبول؛
- الشعور بالعدالة والحرية والخصوصية؛
- الثقة في الخبراء الجاهزين لتقديم الإسعافات الأولية (خبراء التطهير العقلي، ورجال الدين، والصليب الأحمر، والدفاع المدني، والإسعافات الأولية الطبية).

نقطة الانهيار وقدرتنا على تحمل الإحباط

ما القشة التي قسمت ظهر البعير؟ هذا سؤال رئيس في مشكلة الروح المعنوية الشخصية. خلال الحرب العالمية الثانية، عالجت طيارًا محاربًا لم يكن يخشى عمله الخطير، لكنه شعر بالتعاسة حول علاقاته الشخصية. وفجأة، وخلال أحد إنذارات الغارات الجوية في لندن حيث كان لديه تصريح بإجازة، أصابه هلع تام. في حياته العادية كان رجلًا خجولًا وانطوائيًّا، لكن على غير المتوقع وجد لنفسه ملجأ من الغارات، ومحاطًا بمجموعة من الخائفين عليه، ومن ثم أصيب بعدوى من خوف الآخرين. لم يكن جاهزًا لهذا الموقف الغريب؛ وبناءً عليه انهار. ذكرت تلك النقطة لأوضح مرة أخرى إلى أية درجة يمكن أن يكون مناخ معسكرات أسرى الحرب معديًا.

ليس هناك أي شخص يمكنه أن يعرف كيف يتصرف في أوقات الخطر العظيم إلى أن يواجه الاختبار فعليًّا. هذا الاختبار الفعلي للحقيقة يمكن حله بطرائق مختلفة؛ يقبل العديد من الناس التحدي، بينما يبالغ البعض في دفاعهم، حتى إن الأشخاص القهريين يرحبون بالخطر. إلا أن ثمة آخرين – كانوا غير متزنين بالفعل – يسيئون استغلال الموقف الجديد حجة للانهيار والتنفيس عن مشاعرهم. يطلق «سيجال» على المجموعة الأخيرة كبار المتاجرين المحبطين والمنغلقين والسذج والأطفال الخائفين والمغرورين المتعطشين للمديح – يمكن تضخيم الأنا لديهم جميعًا بمديح المحقق لهم.

ندرك في علم النفس حقيقة وجود مجموعتين من العوامل المحددة التي تتسبب في الانهيار العقلي: تتكون إحدى المجموعتين من اعتبارات طويلة المدى تسبب انهيارًا تدريجيًّا للدفاعات الداخلية، وتتكون الأخرى من عوامل قصيرة المدى؛ من العوامل المحفزة أو المثيرة التي تسبب الانهيار المفاجئ للسلامة العقلية والبدنية. بالنسبة إلى مجموعة العوامل الأولى، يمكن أن تضم المرض المزمن أو الكثير من الاستفزاز الشديد في الحياة. تعمل المجموعة الثانية من خلال التأثير الرمزي

المفاجئ على الحساسيات الخفية. إن الفأر الذي يظهر فجأة في فصل الفتاة لا يبعث فيها الهلع بسبب خطره الموضوعي. لقد درس علم النفس المرضي الحديث حالات الحساسية النفسية المتعددة، التي نشعر بها في المراحل المبكرة من الحياة، وتجعل الناس خاضعين لردود الأفعال المثيرة المجهولة.

مع ذلك يتم التأكيد كثيرًا على الصدمة والإحباط باعتبارهما من عوامل إضعاف الشخصية خلال مرحلة نموها. إن العكس، في الواقع، هو الصحيح. يصنع التحدي ومقاومة التأثيرات غير المرغوبة الشخصية. ولتنمية قوة شخصية أفضل ولتكوين دفاعات أفضل للذات، يجب على الفرد أن يتعرض للصدمات. ماذا أيضًا يمكن اعتباره رياضة «عادلة» ومنافسة «عادلة» سوى تكرار تدريب الروح المعنوية؟ لا يجب أن يكون التدريب البدني «لينًا». إن الصدمات الذاتية بالتجربة والخطأ، التي نتعرض لها بشكل لاشعوري في اللقاءات الرياضية، جزء من الجهد التلقائي الذي يهدف إلى انضباط الذات. عندما لا يكون بوسع الشخص أن يجد القوة بداخله، عليه أن يستعيرها من جيرانه ويبحث عن القوة بالوكالة. والتأكيد الكبير جداً على الاعتماد أو القيادة يزيد من آلية الوكالة هذه. إن القيادة ليست حصريًا سر الروح المعنوية. ربما يعزز التماهي مع القائد في بعض الأحيان من قوة الشخص الداخلية، لكنه قد يحبط قدرته على التعامل مع مشاكله الخاصة. وقد يضعف القائد المثبط من قدرتنا على التسامح مع الإحباط.

إن العيش في ظل ظروف سائغة يعتبر على الأرجح من العوامل الموهنة؛ في دراسة نشرت حديثًا (**ريختر**)[124] عن خبرات رجال تعرضوا لضغوط المعركة، ولاحقًا لفئران في المعمل، أثبت أن الترف عمومًا يؤثر سلبًا على قدرة الإنسان على التحمل.

وعلى المنوال نفسه نوعًا ما، تعني الروح المعنوية المرتفعة أنها لم تعد تخشى الموت؛

---

124 - كورت بول ريختر Richter (1894 - 1988): عالم وراثة وعالم نفس وعالم أحياء أمريكي. (المراجع)

إنها تعني إيجاد طريقة للتعامل مع القلق الخرافي من أن الموت شيء أسود وغامض؛ وتعني الاستعداد لقبول القدر. إن قبول القدر والواجب والمسؤولية يعني العيش بطريقة مختلفة: إنه العيش بالشجاعة الأخلاقية للدفاع عن المبادئ الأخلاقية التي استجمعتها في حياتك ولا تستحق الحياة العيش بدونها.

إن توقع الأحداث السيئة يمكن أن يكون له تأثير سيئ. إذا توقع شخص ما انهيار الناس، ربما يستسلمون بسهولة أكثر لهذه التنبؤات الزائفة، أو بدافع من العدائية يشعرون برفع روحهم المعنوية. يجب على الصحافة والراديو والتليفزيون إدراك مسؤوليتها المعقدة باعتبارها وسائط للتأثير على المعنويات.

من المهم إدراك أن أنبياء العقل يتوقعون المزيد من الرعب في الآخرين عندما يشعرون هم أنفسهم بالقلق وعدم الأمان. في الحرب الأخيرة، كانت هناك العديد من التنبؤات المثيرة للهلع التي لحسن الحظ لم تحدث على أرض الواقع، مثل **دنكيرك**[125]. عادة ما يكون الإنسان أقوى بكثير من الناحية العقلية عما هو متوقع منه. ومن بين كافة الحيوانات يمكنه أن يعاني أكثر ويواجه الخطر – شريطة ألا يضعف نفسه بإيمانه بقصص الرعب الخارقة للطبيعة، أو أن تثار أعصابه في الحرب الباردة.

---

125 - دنكيرك Dunkerque: اسم بارجة حربية فرنسية، صممت في ثلاثينيات القرن العشرين، وغرقت في 1942. (المراجع)

الفصل السابع عشر

من الشجاعة القديمة إلى الشجاعة الجديدة

من يقاوم لفترة أطول ولماذا؟

أي شيء يمكنه أيضًا أن يلهم الإنسان القوة لمقاومة هجمة الإبادة العقلية؟ ما الذي مكن آلافًا مؤلفة من الناس من أن ينجوا عقليًا وجسديًا من أهوال معسكرات الاعتقال النازية ومعسكرات أسرى الحرب الشيوعية؟

الإجابة بسيطة في جوهرها؛ يخضع الناس في الأساس لأنهم عند نقطة ما يخضعون لصراعاتهم اللاشعورية. هذه الصراعات تبقى تحت السيطرة في الظروف العادية، وتظهر على السطح تحت تأثير ضغط الإبادة العقلية. يتحمل الناس الضغوط عندما لا يمكن استثارة هذه الصراعات بسهولة أو تجاوزها داخليًّا.

هذه الإجابة البسيطة في حد ذاتها تحتوي على مفارقة إكلينيكية؛ فإحدى سمات العصاب الحاد، وبعض حالات البنية الشخصية المَرضية تتمثل في أن الصراعات اللاشعورية تكون حادة جدًّا إلى درجة أنها تكبت عميقًا، حتى إن من يعاني منها لا يدرك، حتى ولو بشكل مبهم، أنها موجودة أو تتحول إلى مجموعة من السلوكيات الصريحة التي تكون مقبولة أكثر لدى الفرد؛ ومن ثم يسهل التعامل معها. إذا ما سمح المصاب بعصاب حاد لنفسه بأن يشعر بصراعاته الحقيقية، فسوف تسيطر

تمامًا على حياته؛ وبالتالي يبذل جهدًا خرافيًّا لتثبيط المواد المتفجرة بداخله. إن الإنسان المتمرد على الدوام، الذي لا ينمو أبدًا من التمرد الصحي إلى الرشد الصحي، ربما يحول بعض الصراعات الأساسية والعميقة في شخصيته إلى مقاومة شديدة ضد أي نوع من الطلبات الاجتماعية. أظهر الفحص الطبي النفسي لأسرى الحرب العائدين من كوريا أن العديد من الرجال الذين قاوموا دعاية العدو بأقوى شكل، كانوا ممن لديهم تاريخ من التمرد الممتد طوال حياتهم ضد السلطة – من الآباء، مرورًا بالمدرسين، ووصولاً إلى قادتهم في الجيش. كانوا مثيرين للمشاكل أينما كانوا، سواء بين أصدقائهم أو أعدائهم (سيجال).

هذا الجانب السلبي ليس سوى جزء واحد من الصورة. إن الإنسان الذي يمتلك معرفة عميقة بالذات، ويعي صراعاته الداخلية، ويعي أيضًا ما يحاول العدو فعله به يكون مستعدًّا لملاقاة الهجمة ومقاومتها. استجوبْتُ العديد من الأشخاص الذين مروا بتعذيب النازيين في السجون ومعسكرات الاعتقال، وكان بعضهم أعضاءً في المقاومة، وقليل منهم كانوا أخصائيين نفسيين ومحللين نفسيين. ومن فهم منهم نفسه وكان مستعدًّا لملاقاة الخطر والتحدي ويدرك، ولو بدرجة ضعيفة، مدى الوحشية التي يمكن أن يكون عليها الإنسان، كانوا قادرين على تحمل الخبرة الرهيبة في معسكر الاعتقال. لم تهزمهم حيرتهم البريئة وافتقارهم إلى معرفة أنفسهم والآخرين، لكنهم كانوا محميين بالمعرفة واليقظة الفضولية.

توجد عوامل أخرى تلعب دورًا مهمًّا أيضًا، وقد أوضحت جليا الفحوص التي قمت بها أن من يمكنهم المقاومة ومن يمكنهم الحفاظ على قوتهم في ظل الظروف الهامشية، لا يشعرون أبدًا بالوحدة. طالما أن بمقدورهم التفكير في أحبائهم في الوطن، وطالما أنه يمكنهم التطلع لرؤيتهم مرة أخرى، وطالما أنهم يعرفون أن عائلاتهم تنتظرهم بإخلاص يمكنهم أن يحافظوا على قوتهم ويدفعوا عن حياتهم استحواذ الدافع اللاشعوري للاستسلام. إن الحب والعاطفة التي نحصل عليها ونستجمعها في قلوبنا أعظم محفز للمداومة. إنها لا توفر فقط هدفًا يمكننا من

خلاله توجيه حياتنا، لكنها تعطينا ضمانًا داخليًا وإحساسًا بالقيمة يمكننا من مواجهة الصراعات المدمرة باستمرار.

تلك المعرفة بأنك تُحِب وتُحَب ليست محصورة على العائلة أو الأصدقاء، فالأشخاص الذين يتأصل فيهم الإيمان الديني أو الاعتقاد السياسي ويحيون به، لديهم نفس هذا الشعور بالانتماء وبالاحتياج لهم وبأنهم محبوبون. إن ولاءهم لمجموعة كاملة أو إلى مجموعة من المثل بدلاً من الأفراد. بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص، تكون المعتقدات حقيقية ومجسدة بنفس درجة حقيقة الأشخاص أو الأشياء وتجسدها. إنها تشكل حصنًا ضد الوحدة والرعب والفانتازيا التي يستحضرها اللاشعور، وتطلق الصراعات القابعة في الأعماق، إنه حصن منيع مثل ذاكرة الحب. إلا أن هؤلاء الأشخاص الأقوياء عقليًا يشكلون أقلية في مجتمعنا الذي تغلُب عليه الصراعات.

أظهرت الخبرة أن الرياضيين النشطين لا يمكنهم تحمل معسكرات الاعتقال أو معسكرات اعتقال أسرى الحرب أفضل مما قد يفعله إخوتهم الضعاف جسمانيًا. ولا يساعد الفكر وحده في صد الهجمات اليومية على الإرادة، بل على العكس يمكن أن يقدم مبررًا مفيدًا للاستسلام. إن الأساس العقلي والشجاعة المعنوية أعمق كثيرًا من الفكر. وليس الجَلد بالصفة الجسدية أو الفكرية؛ لكنه شيء ينمو فينا من المهد، من اتساق سلوك آبائنا، ومن معتقداتهم وإيمانهم؛ وقد أصبح نادرًا للغاية في عالم تتغير فيه القيم ويقل فيه الإيمان.

أسطورة الشجاعة

ثمة شيء ما في أسطورة القوة والشجاعة المجيدة التي تربكنا جميعًا. كثيرًا ما يتم الخلط بين القوة البدنية والقوة الروحية. في الحقيقة إن الشجاعة والبطولة خصلتان ضروريتان في المعركة، إلا أن تحليل الجنود في المعركة أظهر أن كل واحد منهم خاض معركة مستمرة ضد مخاوفه. الشجعان من يستطيعون مواجهة مخاوفهم،

والتغلب على الفانتازيا المسببة للشلل التي يصنعها الخوف، ويستطيعون التحكم في الرغبة في النكوص إلى هروب طفولي. لا يمكن إجبار الإنسان على أن يصبح بطلًا، ومن السخافة معاقبته لأنه ليس بطلًا. إنه أمر لا معنى له تمامًا، مثل معاقبته على التعرض لنزيف أو إغماء.

إن البطل، الإنسان الذي يهب نفسه حتى الموت لصالح الآخرين، يوجد في الأساطير أكثر من الواقع. وقد أظهر علم النفس والأنثروبولوجيا أن أسطورة البطل تتعلق بصور الحلم الخالد. يرمز البطل إلى الجيل الجديد المتمرد؛ حيث يصبح الابن القوي أقوى من أبيه. كما يمثل أيضًا رغبتنا في أن نكون أكثر رشدًا ونتحمل المسؤولية التي تقع على عاتقنا.

إننا في حاجة إلى الأسطورة من أجل الإلهام الذي تزودنا به. كما نعتني بالتمجيد فيما بعد الموت والأفعال البطولية للقلة التي وهبت نفسها على مدار التاريخ تضحية من أجل رفاقهم أو المجتمع. مع هذا، ما الذي تعرفه حول دوافعهم الحقيقية؟

خلال الحرب العالمية الثانية، قدمت علاجًا نفسيًا للعديد من الجنود. تحدثت وعملت معهم، ووعيت تدريجيًا مدى خطورة وضع الوسم البسيط «بطل» أو «جبان» على أي إنسان. على سبيل المثال، كان أحد مرضاي فتى حصل على وسام عسكري رفيع لأنه لزم مكانًا منفردًا مع بندقية آلية، كان يطلق النار آليًّا إلى أن أجبر العدو على الانسحاب. وفي مسار علاجه، اعترف الفتى أن بطولته الظاهرية كانت في الحقيقة نتيجة الخوف الذي أصابه بالشلل، مما جعل من المستحيل عليه أن يستجيب لأمر قائده بالانسحاب.

لا يمكن لأي أحد أن يعرف فعليًّا كيف يمكنه التصرف في أوقات الخطر. سوف يحل كل شخص الاختبار المرعب الذي تواجهه به الحقيقة بطريقته الخاصة. يوجد كثيرون ممن سوف يقبلون التحدي ويواجهونه، وبعض المبالغين في دفاعاتهم ربما يرحبون حتى بهذا العبء باعتباره اختبارًا لقوتهم. إلا أن آخرين – ممن تمتد جذور عدم الاستقرار لديهم في الماضي – سوف يستغلون لا شعوريًّا الموقف الخطر

لينهاروا تمامًا ويستسلموا لدموعهم وانفعالاتهم.

لفت فرويد انتباهنا إلى التفاعل الخاص بين الأخطار الخارجية والداخلية، بين الحقيقة المرعبة والخيال المرعب المساوي لها. كثيرًا ما تحفز الأخطار الموضوعية المعروفة العقل ليصبح يقظًا وتشجعه على إعداد دفاعاته. لكن ثمة عوامل ذاتية مسببة للهلع أيضًا – الإحباط، والشعور بالذنب، وفانتازيا الرعب الطفولي – وعادة ما يمكن أن تثير الهلع بتأثيراتها إلى درجة انهيار كل دفاعاتنا الثقافية. يمكن أن ينهار العديد من الرجال الذين يواجهون اختبار الحقيقة بشجاعة راسخة بسبب أمر تافه ظاهريًّا يمس نقطة حساسة لديهم.

أبدى أحد مرضاي نمطًا مماثلًا وقت الحرب ممن ذكرتهم آنفًا؛ إذ فجأة انهار تمامًا الطيار المحارب الشاب الذي نفَّذ أربعين مهمة معركة طيران بدون أن تبدو عليه أية بادرة خوف أو ذعر، وذلك أثناء وجوده في ملجأ غارات جوية في لندن. وأثناء فترة علاجه أصبح جليًّا أن هذا الرجل الشاب لم يكن سعيدًا على الإطلاق بشأن علاقاته الشخصية. لم يكن متوافقًا مع قادته الضباط، وتشاجر بعنف مع خليلته في الليلة التي سبقت انهياره. ولأنه شخص خجول وانطوائي، أصيب بالهلع في ذلك المناخ عندما وجد نفسه في الملجأ مع مجموعة من الخائفين حوله، وبسبب التعاسة التي أنهكته مؤخرًا وجد نفسه غير قادر تمامًا على وضع الدفاعات التي خدمته جيداً في ظل تجارب الحرب النشطة المروعة.

هل يمكننا القول إنه أقل بطولة من جندي البندقية الآلية الذي تقلد أوسمة أكثر؟

مازال يعيش في كل منا إعجاب بالاستعراض والتظاهر المسرحي بالشجاعة، والدعوة الشيطانية اللامبالية إلى الدمار. بدأنا ندرك الآن أن الشجاعة الحقيقية مختلفة؛ إنها التعبير عن الإيمان بالحياة والاستكانة للموت في الوقت نفسه. ليست الشجاعة شيئًا يمكن إجبار الإنسان عليه من الخارج، بل يجب أن تنبع من داخله.

في واقع الحرب الحديثة – النزعة الشريرة غير الشخصية – يمكن أن يتدهور الإنسان بسهولة إلى الشعور بالعجز والاعتمادية. كما يمكن للشجاعة الشخصية أن تحول سجال المعركة إلى اشتباك بالأيدي، لكن الشجاعة الشخصية ليست دفاعًا ضد قنبلة وبندقية آلية؛ إن الشجاعة المتهورة التي مجدناها أقل أهمية الآن من الروح المعنوية الشخصية والإيمان والاعتقاد والمعرفة والاستعداد المناسب.

جُند فتى في السابعة عشرة من عمره في الجيش، وقد أمضى كل حياته في بلدة صغيرة في ولاية تكساس، كما تلقى تدريبًا على نظام الحياة العسكرية وعلى استخدام أسلحته. بعد ذلك بوقت قصير بعث إلى كوريا، وعلى الفور تقريبًا تم أسره. والآن ينبغي على هذا الطفل أن يدافع عن نفسه ضد وابل الدعاية التي يرشقه بها يوميًّا المنظِّرون الشيوعيون المدربون على أرفع المستويات. تعليمه محدود، وخلفيته ضيقة، وتدريبه السياسي غير ملائم، بل إنه يحاول حتى الهرب من معسكر الاعتقال ويلقى القبض عليه. نتيجة لهذا تزداد قبضة العدو العقلية إحكامًا عليه، ويجعله الإحساس العظيم بالخذلان يشعر أنه محاصر. في النهاية يستسلم ويتآمر. كيف يمكن لمحكمة عسكرية أن تحمله المسؤولية، بل وتعاقبه، لأنه استسلم في النهاية لدعاية العدو؟

ذلك جانب من قصة العريف «كلود باتشيلور»[126]، الذي حكم عليه مؤخرًا بالسجن عشرين عامًا بسبب التآمر مع العدو. وسأجازف بالتخمين أن هذه تقريبًا قد تكون قصة أي فتى أمريكي له خلفية مشابهة.

عقب الحرب العالمية الثانية، كان على عدة دول أوروبية مواجهة مشكلة صعبة حول كيفية معاملة أفراد المقاومة تحت الأرض الذين اعترفوا وخانوا أبناء وطنهم بعد تعرضهم لتعذيب النازيين. في هولندا تشكلت محكمة الشرف للبت في تلك

126 - كلود باتشيلور Batchelor (1929 -): جندي في الجيش الأمريكي، أدانته محكمة عسكرية بتهمة التعاون مع الصين خلال الحرب الكورية. انضم إلى الجيش في سن 16 عامًا وأسر في أواخر عام 1950. (المراجع)

القضايا الخاصة، ووصلت هذه المحكمة إلى الاستنتاج التالي:

«لا يمكن لأي شخص أن يجزم أنه تحت أي ظرف من الظروف لن «يعترف» أو «يتآمر» أو «يخون» دولته. لا يمكن لأي شخص لم يخض بنفسه في الجحيم الذي استطاع الشيوعيون والنازيون تنظيمه أن يحكم على تصرف رجل خاض في هذا الجحيم».

إن التعذيب النفسي يكون ناجعًا في العديد من الحالات أكثر من التعذيب البدني. وينطبق هذا بحذافيره على الضحية الذي لديه خلفية ثقافية فوق المتوسطة. ويبدو أن الذكاء يجعل تحمل التعذيب البدني أكثر سهولة، لكنه في الوقت نفسه يعرض المرء أكثر لتأثير التعذيب العقلي. إن أي شخص «يخضع» للعدو في ظل هذه الظروف بعد إعطاء دليل على ولائه ونيته وشجاعته يعاني بشدة؛ لأن اتهامه لنفسه يكون أكثر حدة من اتهام أي قاض.

ومع ذلك لا يوجد أدنى سبب للخجل أو لاعتبار مثل هذا الشخص عاجزًا عن القيادة. على العكس، سيعلم أكثر من الغرباء ما تتطلبه القوة البشرية الخارقة لمقاومة وسائل التعذيب العقلي المعقدة، وسيعلم أكثر من الغرباء أنه يمكنه أن يكون مفيدًا للآخرين ليعدوا أنفسهم للمحنة بأقصى قدر ممكن.

[من خطاب كتبه «ج. فان هيوفين جودهارت»[127]، مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين، ورئيس محكمة الشرف الهولندية، نشرته نيويورك تايمز في 15 مارس عام 1954.]



فكرة رفع الروح المعنوية

عندما ننظر إلى مختلف تصرفات الإنسان في ظل ظروف متطرفة وعصيبة، نرى مدى سهولة القدرة على إغراء الإنسان، وفي الوقت نفسه نرى أن عوامل معينة

---

127 - جيريت فان هيوفين جودهارت G. Van Heuven Goedhart (1901 - 1956): سياسي وصحفي هولندي. (المراجع)

يبدو أن لها تأثيرًا إيجابيًّا على روحه المعنوية، وتحول بينه وبين اليأس والانهيار. عندما تعمل هذه العوامل تنتعش الروح، ويصبح الناس قادرين على العيش بسلامة بالرغم من الظروف الخطرة. وهناك الكثير من محفزات الروح المعنوية هذه – منها الإيمان الديني أو الإيديولوجيا السياسية. وربما تكون أنجع الطرائق الشعور بوجود مهمة ما أو هدف داخلي. وهذا المثل الأعلى الذي يتماهى معه الإنسان يمكن أن يكون حب الوطن أو حب الحرية أو حب العدالة، أو حتى فكرة الكره والانتقام. ومهما يكن، في لحظة الفاجعة تزداد الحاجة إلى فكرة مرشدة مثلما تزداد إلى القوة البدنية والقدرة على التحمل. في كل الحالات التي تعلم فيها الفرد أن يصمد أمام الخطر ويحافظ على بعض روحه العادية، في ظل ظروف الحرمان والحاجة والوحشية، يجب عندئذ أن يأتيه عامل أو أكثر من عوامل رفع الروح المعنوية.

لا أؤمن بأن فكرة البحث الداخلي عن تجديد محفزات الروح المعنوية وظيفة شعورية للعقل. هذا للإحياء النفسي يقارن بالعمليات الإحيائية البدنية التي نراها في الجسد. نادرًا ما يتخلى الجسد عن قدراته الإحيائية. حتى عندما يحتضر الإنسان بسبب السرطان، تستمر جروحه الناتجة عن العمليات الجراحية في الالتئام، تظل هناك القوى الإحيائية الموضعية. ويبدو أن الشيء نفسه يتم على المستوى العقلي؛ في أوقات الارتباك والضغط والإجهاد، تظل قوى الالتئام والإحياء النفسي لدى الإنسان فعالة. وينطبق هذا بالقدر نفسه على الجماعات البشرية الكبيرة، مثلما ينطبق على الفرد، مع أن القوى المقيدة تبقى فعالة في الحالة الأولى بسبب العلاقات البشرية المعقدة.

أظهرت خبراتي مع الأشخاص الذين يعيشون في ظل أقصى ظروف الخطر أنه بعد المرور بحيرة مبدئية، يطور الأفراد حاجة داخلية لما يمكن أن نطلق عليه الاقتصاد العقلي؛ فتظهر عليهم جميعًا أعراض إكلينيكية ملحوظة، تشير إلى استمرار عملية إعادة اكتساب المقاومة الحازمة. مثلًا، عندما جاؤوا للمرة الأولى إلى

معسكرات الاعتقال، ظهرت عليهم السلبية التامة والاستسلام وتبدد الشخصية، لكن سرعان ما بدأت فكرة ملهمة في النمو نبعت من الحاجة إلى فهم القدر، ومن الحاجة إلى التواصل الوقائي والإذعان إلى بعض الإيمان العام لترسيخ شيء ما في النفس. يمكننا رصد هذا التغيير الملائم في المزاج من الطريقة التي يحول فيها كل معتقل ركنه إلى مكان للأمان، حتى عندما يكون سريرًا خشبيًّا قذرًا من عدة طوابق. يبدأ في إعادة ترتيب بضعة أشياء لديه؛ ويبني عشه الخاص، ومنه يبدأ في التطلع إلى عالمه الهامشي البائس.

عندما يجد نزيل معسكر الاعتقال أصدقاء لديهم إيمان وقوة شخصية أكثر منه، تصبح قدرته على احتمال حياته أكبر. ومن خلال الارتباط المحض مع الآخرين يمكنه أن يواجه المخاوف الخارجية مواجهة أفضل. يمكن تحفيز الحب المتبادل والكره الشائع بالتبادل، وربما يحفزان بالتساوي. والتواصل البشري المتجدد يغير خوفه المتأصل بداخله حتى يثق في شخص آخر على الأقل. وعندما ينمو هذا ليتحول إلى هوية ما مع فريق نشط وعامل، يتلاشى فقدان القوة الداخلية المؤقت. لكن إذا لم يجد مثل هذه المجموعة أو الشخصية التي يتماهى معها، ربما يسيطر عليه حارس المعتقل وإيديولوجيته الأجنبية.

جدير بالذكر أن فكرة رفع الروح المعنوية المحفزة تكون عادة فكرة أخلاقية، تقييمًا أخلاقيًّا – الإيمان بالخير والعدالة والحرية والسلام والانسجام المستقبلي. حتى أكثر الطغاة المتهكمين في حاجة إلى مساعدة أفكار أخلاقية لرفع معنويات من يخضعون لنظامه. إذا لم يستطع إعطاءهم وهم السلام والحرية، بالإضافة إلى آفاق ثروة المستقبل، فإنه يتدنى بهم إلى مجرد أتباع لا مبالين وبليدين. على مدخل معسكرات الاعتقال النازية، تم تعليق لافتات كبيرة تحمل شعارًا متهكمًا: «العمل يحرر الإنسان»[128]. ربما لم يخدع هذا الأمر نزلاء المعتقل، لكنه أعطى طريقة للألمان

128 - في الأصل بالألمانية Arbeit macht frei، ثم بالإنجليزية بين قوسين. (المراجع)

خارج معسكرات الاعتقال لتبرير سلوكهم غير الإنساني. إن الحاجة إلى تبرير أخلاقي، التي يشعر بها حتى أقسى الطغاة، تثبت مدى رسوخ الأفكار الأخلاقية داخل الإنسان. كلما عاش الإنسان مواقف هامشية وموجعة، زادت حاجته إلى القيم الأخلاقية الداعمة وانعكاساتها المحفزة.

يمكن أن نقول عمومًا إنه توجد ثلاثة مؤثرات تحول ما لا يمكن تحمله إلى شيء يمكن تحمله. نردد مرة أخرى أنه ينبغي على المرء التحلي بالإيمان في المقام الأول؛ ربما يكون إيمانًا بسيطًا بالقيم الدينية أو الأخلاقية، أو إيمانًا بالإنسانية، أو إيمانًا باستقرار مجتمع المرء، أو إيمانًا بأهدافه الخاصة. وفي المقام الثاني، يأتي وجوب شعور الضحية بأنه على الرغم من المصيبة التي أصابته وحولته إلى منبوذ، إلا أن وجوده لازم وضروري في مكان ما على هذه الأرض. وفي المقام الثالث، يجب أن يوجد تفاهم، وليس معرفة من الكتب المعقدة، لكن الفهم النفسي البسيط وحتى الغريزي لدوافع العدو ودوافعه الهذائية. ومن لا يستطيعون الفهم وتصيبهم الحيرة الشديدة ينهارون أولًا.

يجب ممارسة التدريب المضاد لغسيل الدماغ بدقة شديدة. الحقيقة أنه يمكن بناء الدفاعات الداخلية ضد السيطرة على الأفكار، وضد وابل الإيحاءات اليومية. وبمساعدة التعليمات الجيدة والمكررة، يمكن للناس أن يألفوا هذه المفاهيم. عندئذ تبنى الدفاعات الإدراكية؛ نتعلم أن نرصد الدعاية الزائفة وألا نستمع إليها. حتى وإن تسرب جزء من الإيحاءات الدعائية عبر هذه الدفاعات الإدراكية، وتسللت إلى آرائنا بشكل خفي (كل الإعلانات قائمة على هذا التسرب) فإنه لا يمكنها أن تضغط علينا بما فيه الكفاية؛ لأن المعرفة التامة بوسائل العدو تعطينا قوة أكبر للمقاومة.

أخبرني العديد من علماء النفس كيف أنهم شعروا في ظل الظروف المرعبة للحياة في معسكرات الاعتقال النازية، بأنهم صامدون بفضل علمهم؛ ذلك أن هذا العلم أمدهم بمنظور أتاح لهم رؤية معاناتهم الخاصة من مسافة أكبر. وما عزز قوتهم

الداخلية هو السلوك الفلسفي للعقل البحثي.

مع ذلك، هناك بضعة قصص فحسب عمن لم يكن من الممكن تحطيمهم بعملية غسيل الدماغ الشيوعية. ومن أمثال هؤلاء الثوريين أقوياء الشكيمة نذكر الفلاح الإسباني[129]، الذي كان قادراً على تحملها (جونزالس وجوركين- Gonzales and Gorkin). كان يعرف حيل الشموليين، ويحتمل أيضًا أنهم لم يعتقدوا أنه مهم بما فيه الكفاية لإهدار كل هذا الوقت والجهد عليه؛ في النهاية كان يمكن وضعه في معسكر اعتقال في أي وقت ليهلك هناك.

يجب تكرار أن أي نوع من تشكيل مجموعات محظورة في معسكرات الاعتقال – مهما كان خطيرًا – يعطي الفرد على الفور إحساسًا بالحماية. معظم من قاوموا التعاون والالتحاق بعضوية مجموعة ما وعملوا بمفردهم استسلموا لليأس والهزيمة. ومن خانوا رفاقهم كانوا يفعلون هذا غالبًا بعد مرورهم بفترة عزل طويلة، لم تكن إجبارية بالضرورة، لكن عادة ما كان السبب وراءها بنية شخصيتهم الخاصة.

إن حاجة الإنسان إلى التواصل مع مصدر ثقة مطلوبة أكثر من الخبز للحفاظ على حيوية روح الحرية والانتماء. مثلًا، خلال الحرب العالمية الثانية عاش أفراد المقاومة المعادون للنازية تحت الأرض على أخبار الراديو اليومية التي تأتيهم من إنجلترا. وحتى الآن، مازال يوجد أناس في عبودية وكرب يعيشون على وسائل الاتصال القليلة التي يمكن بثها لهم؛ ومن ذلك إذاعة صوت أمريكا، وإذاعة أوروبا الحرة اللتان تؤديان دورا هائلا في رفع الروح المعنوية بالدول التي يسبب المناخ الشمولي لهم فيها حالة من اليأس.

---

129 - الفلاح الإسباني Spaniard El Campesino: الاسم الذي عرف به بالنتين جونثاليث (1904 – 1983)، قائد عسكري شيوعي إسباني، كان له دور بارز في الحرب الاهلية الإسبانية ضد عدة وحدات من الجيش الجمهوري. وفي آخر حياته السياسية، تحول إلى حزب العمال الاشتراكي الإسباني. (المراجع)

في خضم حربنا الحالية ضد غسيل الدماغ، من المفيد إلى أقصى حد الاستعداد الذكي لما يمكن أن يتوقعه السجان والفهم البسيط لأساليب العدو. في المقام الأول، سيقوض هذا من الإستراتيجية السياسية للعدو؛ فلا أحد سيؤمن بالاتهامات المخادعة. وفي المقام الثاني، لن يعاني ضحايا غسيل الدماغ من الحيرة المسببة للشلل التي تصيب من يقعون في موقف غير مألوف فجأة. وربما علينا أيضًا أن ننصح جنودنا بأن يعترفوا كثيرًا في ظل الإكراه، بأن يربكوا المحقق ويستخدموا إستراتيجية الإرباك والكذب والخداع التي يتبعها العدو لإحباطه. وقد اقترح هذا أيضًا الأدميرال «دانيل فنسنت جاليري»[130] من القوات البحرية الأمريكية. [*The Saturday Evening Post*، 22 يناير 1955.] في الحالات التي فعل فيها ضحايا الإبادة العقلية هذا، كان المحققون يتوسلون غالبًا لضحاياهم ليتعقلوا مرة أخرى؛ كان الجلاد نفسه ينزعج ويستاء من جنون ضحاياه الزائف. وأهم شيء هو وعي الضحية بأن الآخرين يعرفون ويفهمون ما يحدث، وأن هناك جبهة وطنية على معرفة بمعاناته وتعذيبه بمفرده.

إذا خضع فعليه معرفة أن الآخرين يفهمون أنه لا يمكن تحميله المسؤولية التامة عن تصرفاته. يريد دماغه المقاومة، ويريد عقله أن يقول لا، لكن في النهاية يتصرف كل شيء في جسده ضد إرادته. إنها خبرة عجيبة وغريبة – إدراك حقيقة أنه على الرغم من إرادة المرء، يمكن للمرء أن يفقد حرية تصرفاته العقلية. إنها خبرة يمكن للضغط الكافي أن يجعلها مألوفة بالنسبة إلى معظم الناس.

هل تأثير غسيل الدماغ مؤقت فحسب؟ هناك اختلاف بين الشبان الذين يرجح استمرارية صياغة أفكارهم في أنماط تفكير دائمة، والراشدين الذين تشكلت أنماطهم بالفعل من التعليم الحر. بالنسبة إلى الراشدين، يعتبر غسيل الدماغ كابوسًا اصطناعيًّا يمكنهم دومًا دحضه في اللحظة التي يعودون فيها إلى أرض الحرية. وقد

130 - دانيل فنسنت جاليري Daniel Vincent Gallery (1901 - 1977): أدميرال وكاتب أمريكي. (المراجع)

تترك في البعض ندبات من الكآبة والإذلال تدوم طويلًا، لكن هذه التعويذة تنحسر تدريجيًّا في مناخ تسوده الحرية.

خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة، جعل أفراد المقاومة الذين فقدوا قدرتهم على التحمل، تحت تأثير الإرهاب النازي، من الضروري على الأطباء النفسيين مواجهة مشكلة جديدة؛ مشكلة التغيير المؤقت في الشخصية. من الواضح أن الإرهاب في السجون ومعسكرات الاعتقال لم يصنع متآمرين خانعين من قلة بعينها، لكنهم خرجوا من محنتهم هذه كأرواح خاسرة، مليئة بالذنب والأسف، وغير قادرين على مواجهة أنفسهم بوصفهم مواطنين صالحين. حتى الإعفاء الرسمي الشرفي من المسؤولية الذي تمنحه لهم محكمة خاصة، لم يكن دومًا سببًا في إعادة تقديرهم لذاتهم. وقبل أن يتقبلوا أنفسهم، عليهم المرور بعملية نفسية بطيئة وصعبة لتفكيك هذا الارتباك العقلي الرهيب الذي قذفوا فيه. خلال العلاج النفسي، كان على الكثير منهم أن يتذكروا ويشعروا مرة أخرى بالإرهاب الذي عانوا منه: صراعهم المبدئي لمقاومة الإلحاح العقلي لمحققيهم، وشلل الإرادة التدريجي، واستسلامهم النهائي. كانت معركة داخلية معقدة بين شعورهم بالذنب والرغبة في إعادة تأكيد أنفسهم. وقد تبع الانفجارات الانفعالية أفكار انتحارية كهروب نهائي من خِزْيِهِم. وبعد أن نفَّسُوا عن انفعالاتهم المكبوتة، تمكن المعالج النفسي من إقناعهم بأن لكل شخص حدودا معينة من القدرة النفسية والجسدية على التحمل. من تلك المرحلة فصاعدًا، كان بإمكانهم التعبير عن أنفسهم بحرية باعتبارهم كائنات مستقلة، مع خليط من الصفات السلبية والإيجابية.

في إحدى الحالات، كان هناك شاب أمضى سنوات في معسكر اعتقال بعد عملية غسيل دماغ دقيقة من النازيين، دامت عملية إعادة تأهيله قرابة عامين، وخرج الضحية من هذه العملية بدون أية ندبات عقلية، بل زادت حتى قوته نتيجة خبرته المريرة.

لدي قناعة بأنه في حالة المعتقلين الذين أمضوا سنوات في معتقل شمولي،

وبالتالي خضعوا للارتباط الشرطي السياسي، سوف تساعدهم مقاربة العلاج النفسي التطهيري على إيجاد ذواتهم الداخلية القديمة مرة أخرى. إن التهديدات والمناقشات العدوانية سوف تكون استمرارًا فقط لعملية غسيل الدماغ الإكراهية التي استخدمها سجانوهم. وأفضل علاج لهم هو التواصل اليومي والتفاعل مع العالم الحر الديمقراطي، كما رأينا في العديد من حالات المعتقلين السابقين في الآلة الشمولية. إن المناخ الحر هو أفضل علاج لهم!

بالنسبة إلى ملايين الأطفال الذين يتعرضون للضغط في إطار عمل الآلية العقلية، لا يوجد خيار الحرية. بالنسبة إليهم ليس هناك أي عالم آخر، ولا توجد أية معتقدات أخرى؛ توجد فقط النزعات الشريرة الشمولية المستنزفة لهم، والتي تبرر فيها كل الوسائل والأفعال خدمة لها.

إن غاسلي الدماغ ساذجين للغاية بسبب اعتقادهم أن الإصلاح الإجباري للعقل - تحول المعتقلين الرأسماليين إلى مروجي دعاية شيوعيين - يبقى دائمًا. فبعد أسابيع قليلة من عودتهم إلى البيئة الطبيعية، سوف يتحدث المعتقل السابق باللغة التي «تعلمها». يستعيد مقطوعته، لكنه حينذاك، وعادة فجأة وعلى نحو مفاجئ، يسترجع ذاته القديمة. إذا كانت للضحية أية فرصة للتحقيق في الدعاية والاتهامات الشيوعية ودراستها، ينهار كل هذا الكابوس الاصطناعي. ولهذا السبب، يحرص السجانون على عدم إطلاق سراح كل من تحولوا إلى أفكارهم مرة واحدة. بل يجب إبقاء القليل منهم رهائن لضمان أن من أفرج عنهم لن يكشفوا كل المخطط، ومن ثم يعرضون أصدقاءهم في السجن للخطر. ومن يقولون الحقيقة أثناء عودتهم للوطن يشعرون بالذنب لأن إفصاحهم هذا قد يعرض الرهائن إلى قدر أكبر من التعذيب.

لقد أذهلتني سمة شخصية معينة تسبب الشجاعة والجلد، أطلقت عليها في دراسة عن مشكلة الوقت وحس الاستمرارية، ذلك الإدراك بأن خبراتنا الآن ليست مرتبطة فقط بخبراتنا من الماضي لكن أيضًا بصورنا الذهنية والفانتازيا عن

المستقبل. إننا نعيش في عالم نقبل فيه الكثير من الأحداث الفعلية بدون أن نسأل عن سبب حدوثها. إن من يفكرون في التخطيط للمستقبل يطلق عليهم بتهكم الحالمون بالمدينة الفاضلة، وكأن فكرة المدينة الفاضلة لم تكن نابعة دومًا من الاشتياق الإنساني. لقد آمن أسلافنا بالمستقبل وبمجيء المسيح، مجيء يسوع المسيح، وبمملكة الرب، وتوقعوا وعملوا على تحقيق عصر أفضل. ومن آمنوا بالمستقبل في معسكرات الاعتقال، الذين آمنوا بالتخطيط، وكان بإمكانهم رؤية محنتهم الفعلية باعتبارها سلسلة صغيرة بين الماضي والمستقبل، أولئك هم الذين أمكنهم تحمل معاناتهم المؤقتة تحملًا أفضل.

حظيت من قبل بمعرفة أشخاص منتمين لبعض نوى القوة الذين كانوا قادرين على فعل المزيد أكثر من التعامل بسلبية واستلهام القوة من الآخرين، كانوا قادرين على العيش بشجاعة في ظل الضغط الشديد في معسكرات الاعتقال النازية، وتقبلوا المعسكر والاضطهاد تحديًا لعقولهم، ولم يؤثر فيهم الألم الجسدي. حفزت الظروف غير العادية من روحهم؛ وتجاوزوا هذه الظروف. ألهمت الروح المعنوية لهؤلاء الرجال الآخرين، وعاشوا بتقويتهم للآخرين ومساعدتهم، وتقبلوا وأحبوا القدر على غرار فلسفة «سبينوزا». إنهم دليل حي على أن العقل يمكن أن يكون أقوى من الجسد.

الشجاعة الجديدة

جعلتنا الفلسفة وعلم النفس نعي التحديات الجديدة والشجاعة الجديدة. اعتبر «سقراط» منذ ألفي عام أن الشجاعة هي الشجاعة الروحية التي تتعدى مجرد الشجاعة البدنية في المعركة. يمكن للجندي أن يكون عدوانيًّا ويحتقر الموت بدون أن يكون شجاعًا، فاندفاعه قد يكون حماقة انتحارية مستلهمة من فورة حماسة جماعية؛ ربما تكون شجاعة ذعر الطفل البدائي الذي لا يعي بداخلنا.

توجد أيضًا الشجاعة الروحية، شجاعة عقلية تتعدى الذات، وتخدم فكرة ما.

ولا تتساءل فقط عن ثمن الحياة، لكن أيضًا عن السبب الذي من أجله يدفع هذا الثمن. إنها تتساءل عن الوعي الشديد للنفس بصفتها كائنًا روحيًّا مفكرًا.

بدأ تقدير الشجاعة الروحية منذ فترة بسيطة نسبيًا فقط. تطلبت فكرة سقراط وقتًا طويلًا لتتسلل إلى تفكيرنا. بعد حركة الإصلاح البروتستانتي فقط، بدأت المعاناة البطولية للشخصية التي تحارب بمفردها تكتسب قيمة. إذا ما دافعت عن رأيك المعارض الخاص بشجاعة، حتى وإن كان ضد ضغوط رأي الغالبية، يتطلب الأمر لونًا بطوليًا - خاصة عندما كان يمنع عدم الامتثال والهرطقة. تعتبر اليوم حملة «غاندي» الهادئة والمستعصية أكثر شجاعة من جسارة الجندي الذي يلقي بنفسه في خضم نشوة المعركة. لا توجد الشجاعة الروحية بين الممتثلين، أو بين من يدعون إلى التوحد، أو بين من يطالبون بتعديل اجتماعي سلس. يتطلب الأمر يقظة عقلية مستمرة وقوة روحية لمقاومة التيار الجارف لفكرة الامتثال. يجب أن يكون الإنسان أقوى من مجرد إرادة لحماية النفس والتأكيد على الذات؛ ينبغي أن يكون قادرًا على تجاوز نفسه خدمة لفكرة ما، ويكون قادرًا على الإقرار بإخلاص بأنه كان مخطئًا حين توجد قيم أسمى.

في الواقع، توجد شجاعة عقلية تتعدى كل أفعال الانعكاس التلقائية. ليس الإنسان مجرد كتلة أو قطعة من العجين السائغة؛ لكنه أيضًا شخصية. إنه يجرؤ على مواجهة جموع البشر وهو يواجه العالم بأكمله - بصفته كائنًا بشريًّا مفكرًا. إن الوعي والإدراك اليقظين في حد ذاتها شكلين من أشكال الشجاعة، والاستكشاف الفردي ومواجهة القيم. ومثل هذه الشجاعة تجرؤ على تحطيم العادات القديمة، والمحرمات، والإجحاف، وتجرؤ على الشك في العقيدة. ولا يعرف أبطال العقل الجعجعة، والعرض المثير للشفقة، والشجاعة الزائفة للتمجيد والمجد؛ يكافح هؤلاء الأبطال الشجعان معاركهم الداخلية ضد قناعة الاستعلاء، والجبن، والرغبة في الاستسلام من أجل الراحة. هذه الشجاعة تشبه البقاء متيقظًا عندما يذهب الآخرون للترويح عن أنفسهم بالنوم أو النسيان. بمقدور العقيدة الفكرية

الشمولية أن تبتز الإنسان من خلال الجبن الداخلي. إنها تهدده لتسليم معتقداته الداخلية مقابل المجد والقبول من أجل عبادة البطل، ومن أجل الشرف والعرفان. إلا أن البطل الصادق يكون صادقًا مع مُثله.

فقط عندما يتعلم الناس قبول المسؤولية الفردية، يمكن مساعدة العالم بالجهود المشتركة للعديد من الأفراد. لا تضاهِ السيد، لا تتماهَ مع القائد فحسب، لكن إذا امتثلت، تقبل قيادته مع الإقرار التام بمسؤوليتك الخاصة. مثل هذه البطولة الروحية تكون ممكنه فقط إذا ما سيطرت على مشاعرك وسيطرت تمامًا على عدوانيتك.

لن يعترف بالبطل الجديد بفضل عضلاته أو قوته العدوانية، لكن بسبب شخصيته وحكمته واتزانه العقلي.

تلك المعرفة الدقيقة بالشجاعة تستبعد كل الأفكار الشهيرة عنها باعتبارها فتنة جليلة. تتبنى المعرفة النفسية شكلًا جديدًا من الشجاعة، وتتطلب عملًا مضنيًا: إعمال الفكر بدلاً من العمل المتهور السهل.

لا يمكنني التوصل لأي اختيار آخر سوى تلك الشجاعة المستمرة في الحياة، شجاعة لا تجسد الانجذاب السحري للانتحار والتدهور. يجب أن تكون الشجاعة إيمانًا شديدًا، وإدراكًا يقظًا، واعتبارًا سليمًا لكل ما يتحرك في الحياة.

مثل هذه الشجاعة تتقبل الخوف العظيم وراء كافة ألغاز الحياة، وتجرؤ على العيش معه.

كان النازيون يدركون تمامًا وجود الأبطال الذين لا يقهرون بين ضحاياهم، الذين لم تتغير وجوههم، ولم يكن بالإمكان قهر عقولهم. وقد أطلقوا على هدوئهم وإرادتهم العنيدة العصيان السيمائي، وحاولوا قتل هؤلاء الأبطال بمجرد اكتشافهم. لحسن الحظ كان لهؤلاء السجانين العديد من النقاط العمياء عندما يتعلق الأمر بالعظمة الروحية.

وعند انتهاء الحرب، اختفى معظم هؤلاء الأبطال بتواضع وسط الجموع بعد إتمام مهمتهم، تاركين وراءهم القيادة للسياسيين الأكثر تمرسًا.

الفصل الثامن عشر

الحرية – عمودنا الفقري العقلي

تعمل الدولة الشمولية دومًا على قمع الآراء والمعتقدات الخاصة للإنسان. بالنسبة إلى الدولة البوليسية، التفكير مؤثر بالفعل. والاستعداد الداخلي لاتخاذ إجراء مثلما يحدث في إجراءات المحكمة – التفكير – غير مقبول. كما يُرفض الشك الفطري، والفتن، والمحن الناتجة عن التكيف الفكري. إن الفكرة الهدامة المتولدة داخليًّا لهي إحدى الطرائق لتقويض المجتمع. إن عدم الثقة بحرية الفكر والتعبير الحر عن الرأي أكثر خطورة؛ لأن الرغبات المدمرة الطبيعية تكبت في ذلك المجال العقلي الخارج عن السيطرة الذي يمكن أن ينفجر بسهولة شديدة على شكل فعل. ومع ذلك، كثيرًا ما يغزو التعبير اللفظي عن الفكرة المدمرة هذه الفكرة جزئيًّا، ويجعلها أقل قوة. وهنا تكمن المعضلة الفعلية! إن إدانة الفكرة غير الاجتماعية – وإن كانت لم توضع بعد موضع التنفيذ – يستثير حلقة قصيرة من الأفعال المتفجرة!

ربما يكون لكل منطق آثاره الخطيرة: وقعت جرائم قتل محاكم التفتيش باسم خدمة المثل العليا. إذا لم يكن بمقدورنا المقامرة بحس الخير الفطري للإنسان، فمن المستحيل الوصول إلى مجتمع حر ومسالم، ومن المستحيل تحقيق الديمقراطية. تبدأ الثقافة الأخلاقية بالإنسان وتنتهي به. وتبدأ الثقافة الأخلاقية بالفرد وتنتهي به. ولا يجعل الإنسان قادرًا على كبح رغباته الغريزية وقمع رغبته التدميرية سوى

مذهب الحرية الفردية، والملكية الفردية، والإبداع الفردي. ليس الإنسان كائنًا اجتماعيًا فحسب. في بقعة ما بعيدًا عن الزحام والضوضاء عليه أن يشدّ أزر نفسه ويواجه إلهه والطبيعة. ولكي ينمو فإنه بحاجة إلى التكتم والعزلة والصمت. وإلى جانب أجهزته الميكانيكية وآلاته، فإنه في حاجة إلى أن يعود للطبيعة، أن يخيم في العراء بنفسه. كما أنه في مرحلة ما ينبغي عليه أن يصنع بعض أدواته الخاصة، بصفته صانع أحذية أو معالجًا أو مدرسًا. بدون أن يلقى ليصبح مع نفسه فقط ويعرف الوحدة، يتضاءل الإنسان، ويضيع بين أمواج التأثير البشري الساحق، وبحر من الاحتمالات القسرية.

الإجراء الديمقراطي لعلم النفس

إن أكبر قناعاتي بقوة الفهم النفسي جاءتني نتيجة نضال عقلي مطول، كان الطرف المقابل لي فيه رجلًا عضوًا في منظمة شمولية، جاء إليَّ طالبًا نصيحة نفسية خلال الاحتلال النازي لهولندا، وعرفت أنه يجب علي أن أكون حريصًا لتجنب مناقشة السياسة معه. في تلك الأيام كان يمكن معاقبة التعبير الحر عن الآراء بشدة، وكان يمكن أن يبلغ عني مريضي لو قلت أي شيء «مريب».

ومع ذلك، وبالرغم من أن علاجي بالإنصات السلبي حرره من توتراته الداخلية، أصبح المريض أكثر إنسانية. وتطور لديه بناءً على ذلك احترام متزايد للشخصية الفردية، وفي بعض الأحيان كان يزداد انتقاده الشديد للمعاملة النازية القاسية لحياة الإنسان والكرامة الإنسانية. وبمرور الوقت، ينفصل أكثر وأكثر عن أصدقائه السياسيين. في الواقع، كانت هذه شجاعة لأن في ذلك الوقت تحديدًا كان التحول من التعاون إلى عدم الامتثال بمثابة خيانة عظمى. وفي زياراته الأخيرة قبل أن نتفق على أنه عولج، تحدثنا عن إيماننا المتبادل بكرامة الفرد وثقتنا في أن قرارات البالغ الرشيد رهن بمصلحته الخاصة.

هل لعلم النفس فعليًّا تأثير بالتحول إلى الديمقراطية على الروح السلطوية

والشمولية؟ يبدو أن الحالة التي استشهدت بها تشير إلى أن له هذا التأثير. من ناحية أخرى، نعرف أن الآلة الدعائية لـ «جوزيف جوبلز» طبقت مبادئ نفسية لتنويم الشعب الألماني كي يخضع، وسخر «هتلر» أيضًا قصف ترسانته النفسية لنشر الهلع في أنحاء أوروبا.

في ألمانيا النازية تمت السيطرة على كافة أشكال العلاج بالتحليل النفسي من علم نفس الفوهرر؛ شقيق «هيرمان جورينج». بالتأكيد يمكن استخدام علم الإيحاء والتنويم والتدريب على الارتباط الشرطي لتجنيد أتباع جبناء وخانعين لبرنامج استبدادي. هذه الاستخدامات للمعرفة النفسية انحراف عن مبادئ علم النفس والغرض منه. إن جوهر الحقيقة في مقاربة علم النفس، وقبل كل شيء في العلاج بالتحليل النفسي، عنصر مهم يتبنى موقفًا على النقيض تمامًا من الموقف الشمولي.

إن الغرض الحقيقي من علم النفس، وخاصة فرع الصحة النفسية فيه، هو تحرير الإنسان من التوترات الداخلية، من خلال مساعدته على فهم مسبباتها. يسعى علم النفس إلى تحرير الروح الإنسانية من اعتمادها على التفكير غير الناضج؛ بحيث يكون بمقدور كل إنسان أن يدرك قدراته الكامنة الخاصة. إنه يسعى لمساعدة الإنسان على مواجهة الحقيقة بمشاكلها المتعددة، وأن يدرك حدوده الخاصة، بالإضافة إلى احتماليات نموه. إنه مكرس لتطوير الأفراد الراشدين ليكون باستطاعتهم أن يعيشوا في حرية، ويقيدوا حريتهم طوعًا عندما يكون الغرض من ذلك خيرًا أعظم. إنه مبني على فرضية أنه عندما يفهم الإنسان نفسه، يمكنه أن يبدأ في أن يكون أستاذ حياته الخاصة، بدلًا من مجرد دمية بأحبال تحركها دوافعه اللاشعورية، أو يحركها ديكتاتور لديه رغبة منحرفة في السلطة.

كما قلنا من قبل، كل إنسان يمر عبر مرحلة أثناء نموه تتمثل في القابلية الشديدة للشمولية. ويحدث هذا عادة في فترة المراهقة عندما يدرك الفتى اليافع شخصيته – السلطة التي بداخله. بعدم قبول هذه المسؤولية، ربما يبحث عن قائد قوي خارج المنزل. وفي سن مبكرة – الطفولة – كانت تترسخ فيه المزيد من أنماط الإكراه

والطاعة الآلية اللاشعورية. ومع حلول إحساسه الجديد بذاتيته، يبدأ الشاب في معارضة سلطات الراشدين الذين كانوا يوجهون حياته مسبقًا.

إن إدراكنا للكيان الذي ندعوه الأنا أو الذات أو نفسي عملية عقلية مؤلمة. وليس من قبيل المصادفة أن الشعور بالحنين اللانهائي، ألم العالم[131]، يرتبط تقليديًّا بفترة المراهقة. إن عملية التحول إلى الاستقلالية والفرد الذي ينمو بذاته تنطوي على الانفصال عن الأمان العائلي. ولتحقيق ديمقراطية داخلية، يجب على المراهق أن ينأى بنفسه عن بيئته التي تأويه. وبفعل هذا الأمر فإنه لا يتسمم فحسب بشعوره بالنمو والتحرر، لكنه يمتلئ أيضًا بالإحساس بالخوف والوحدة. إنه يدخل إلى عالم جديد ينبغي عليه أن يتحمل فيه مسبقًا مسؤولية أفعاله. وفي هذا الوقت ربما يصبح فريسة سائغة للدعاية الشمولية. ربما تحدو به الضغينة الشخصية تجاه النمو إلى التخلي عن النضال من أجل النضج الشخصي.

هذه الظاهرة تكون حادة على وجه الخصوص في المجتمع الغربي، ليس فقط بسبب المعركة الفكرية الإيديولوجية السياسية التي ينبغي علينا مواجهتها، لكن أيضًا بسبب أن الطرائق التي نربي بها أبناءنا ربما تؤكد هذه المشكلة. بينما تفرض الجماعات البدائية معيارًا ما من المسؤولية الشخصية على الطفل في وقت مبكر من حياته وتزيد منها بالتدريج، فإن ثقافة الطبقة الوسطى لدينا تعزله بالكامل في عالم الطفولة والحضانة والفصل المدرسي؛ ومن ثم تغمره بتهور في مرحلة البلوغ ليغرق أو يعوم. عند تلك النقطة الفارقة، ربما يتخوف العديد من الشبان الصغار من هذا الاختبار. لا يريد الكثير منهم الحرية التي تحمل معها الكثير من الأعباء والكثير من الوحدة. إنهم على استعداد لتسليم حريتهم مقابل استمرار الحماية الأبوية، أو تسليمها إلى أفكار إيديولوجيات سياسية أو اقتصادية تحل في الواقع محل الصور الأبوية.

131 - ألم العالم Weltschmerz: بالألمانية في الأصل. (المراجع)

لكن تسليم الشاب للفردانية ليس، للأسف، ضمانًا ضد الخوف والوحدة. إن العالم الخارجي الحقيقي لا يحل بأي حال محل اختياره الداخلي. ومن ثم فإن الشاب الذي يتخلى عن حريته لصالح رمز أبوي جديد يتطور لديه شعور فضولي مزدوج بالحب والكره تجاه كل السلطات، وتعيش داخله المراوغة والتمرد والخضوع والكراهية جنبًا إلى جنب. وفي بعض الأحيان، ينحني تمامًا للسلطة أو الديكتاتور؛ وفي أحيان أخرى، عادة بشكل غير متوقع، يثور كل شيء داخله ضد قائده المختار. هذه الازدواجية لا نهاية لها؛ لأن أحد جوانب طبيعته يسعى دومًا ليتجاوز القيود التي فرضها الجانب الآخر الخانع، والشخص الذي يفشل في تحقيق حريته يعرف فقط طرفي نقيض: الخضوع المطلق، والتمرد المندفع.

وعلى العكس، إن الشخص القوي بما فيه الكفاية لتبني مرحلة البلوغ الناضجة يدخل في نوع جديد من الحرية. وبالفعل، هذه الحرية مفهوم غامض؛ حيث إنها تنطوي على مسؤولية اتخاذ قرارات جديدة، ومواجهة احتمالات مجهولة جديدة. إن جبهات الحرية من جانب هي الفوضوية والنزوة، والتقييد بالنظم والتضييق بالقواعد من جانب آخر.

لو كان يمكننا فقط أن نجد معادلة سهلة لسلوك الشخص البالغ تجاه الحياة! حتى إذا ما أطلقنا عليها روحًا ديمقراطية، مازال بإمكاننا أن نشرح بسهول أكبر ما لا تعنيه الديمقراطية، ثم ما تعنيه الديمقراطية. يمكننا القول إن ديمقراطيتنا القائمة على الفردانية عدو السلطة العمياء. إذا رغبنا في تفسير نفسي أكثر تفصيلًا، علينا أن نقارنها بالشمولية. إن ديمقراطيتنا ضد كل وضع النظم والمساواة التامة بين كل أفرادها. إنها لا تطالب بالتكامل المتجانس والتكيف الاجتماعي السلس. لكن الديمقراطية مقارنة بهذه الأهداف، تنطوي على الثقة في العفوية والنمو الفردي. إنها قادرة على التسليم بالنمو وتصويب الشرور. إنها تحمي المجتمع ضد خطأ الإنسان بدون اللجوء إلى الإرهاب. تتيح الديمقراطية السبيل لتدارك أخطائها؛ بينما تَعْتَبِر الشمولية نفسها معصومة من الخطأ. وفي حين أن الشمولية

يتحكم فيها الأنين والتلاعب بالرأي العام، نجد أن الديمقراطية تتعهد بتنظيم المجتمع بموجب القانون، وباحترام الطبيعة الإنسانية، وبحراسة مواطنيها ضد استبداد فرد واحد من ناحية، ومن قوة الغالبية المجنونة من الجانب الآخر. تخوض الديمقراطية دومًا معركة مزدوجة: من ناحية، يجب أن تحد من عودة ظهور الاندفاعات الاجتماعية الداخلية داخل الفرد؛ ومن جانب آخر، يجب أن تحرس الفرد ضد القوى الخارجية والإيديولوجيات المعادية لطريقة الحياة الديمقراطية.

معركة على جبهتين

يجب إعادة إصلاح الانسجام الداخلي بين التكيف الاجتماعي، وتأكيد الذات في كل بيئة جديدة. على كل فرد أن يخوض مرارًا وتكرارًا المعركة الخفية نفسها التي بدأت خلال مرحلتي الطفولة والرضاعة. تشكل الأنا، الذات، نفسها من خلال مواجهة الحقيقة. معارك الامتثال مع الأصالة، والاعتمادية مع الاستقلال، والانضباط الخارجي مع الروح المعنوية الداخلية. ليس في وسع أية ثقافة أن تهرب من هذه المعركة الإنسانية الداخلية، مع أنه يوجد فرق بالتأكيد في كل ثقافة ومجتمع وفي كل عائلة.

هذه التوليفة من النزاع الداخلي والخارجي والصراع على جبهتين، يجعل المثل الغربية للديمقراطية الفردية غير حصينة إلى حد كبير، خاصة عندما لا يدرك المذعنون لها هذا التضارب المتأصل. ستظل الديمقراطية بفضل طبيعتها في حد ذاتها في صراع دائم ضد الاستبداد من الخارج، والتخريب من الداخل. يجب أن تخوض الحرية الديمقراطية معركة ضد كل من رغبة الفرد الداخلية في السيطرة ودافعه للخضوع للآخرين. كما يجب أن تكافح ضد الدافع المعدي للوصول إلى السلطة، مقتحمًا الحدود مدعومًا بالجيوش غالبًا.

إن الحرية التي تكافح من أجلها الديمقراطية ليست حرية رومانسية لأحلام مراهقة، ولكنها حرية ذات مكانة راشدة. تصر الديمقراطية على التضحيات

الضرورية للحفاظ على الحرية. إنها تحاول التصدي للمخاوف التي تهاجم البشر عندما يواجهون بالحرية المطلقة ظاهريًّا للديمقراطية. هذا الحد من القيود يمكن إساءة استخدامه لإشباع دوافع غريزية خالصة. ومع ذلك، لأن الديمقراطية لا تستغل الإنسان بالخرافة، والسحر البدائي، والتنويم الجماعي أو أية وسائل إغواء نفسية أخرى، فإنها أقل جاذبية للفرد غير الناضج أكثر من السيطرة الاستبدادية. إذا لم تنخرط الديمقراطية في صراع مسرحي للنجاة، فربما تبدو للعيان باهتة وغير ملهمة نوعًا ما. إنها تلزم البشر بالتفكير والحكم بأنفسهم؛ بحيث ينبغي على كل فرد أن يمارس قدرته الواعية الكاملة في التكيف في هذا العالم المتغير، كما ينبغي على الرأي العام الأصيل أن يصيغ القوانين التي تحكم المجتمع. إن الديمقراطية في جوهرها تعني الحق في تطوير نفسك لا أن يطورك الآخرون. مع هذا، فإن ذلك الحق يشبه أي حق آخر، يجب أن يتوازن بالواجبات. إن حقك في تطوير نفسك يكون مستحيلًا بدون واجب بذل طاقتك وإيلاء انتباهك لتطور الآخرين. إن الديمقراطية ليست متأصلة فقط في الحقوق الشخصية للإنسان العادي، لكنها متأصلة أكثر من هذا حتى في المصالح الشخصية ومسؤوليات الرجل العادي. عندما يفقد هذا الشغف بالسياسة والحكومة، فإنه يساعد على تمهيد الطريق لسياسات القوة. ولهذا تتطلب الديمقراطية نشاطًا عقليًّا على درجة عالية من الرجال العادي.

ما يهضمه ويستوعبه عامة الشعب في عقولهم بنفس درجة أهمية تعليمات الخبراء. إذا كان النموذج الثاني يشكل ويوصل أفكارا تتعدى استيعاب العامة، فإنهم يتحدثون بدون جدوى. ولذا، ربما يسمحون بتسلل عقيدة فكرية أكثر بساطة وحتى غير حقيقية. لا يكفي أن تصاغ فكرة ما وتطبع فحسب؛ علينا أن نحرص على إمكانية مشاركة العامة في هذا المفهوم الجديد.

يكمن غموض الحرية في وجود هذا القدر الكبير من حب الحرية! من ذاقوها لن يترددوا. يثور الإنسان ضد الضغط الظالم، بينما يتراكم الضغط يثور في صمت، لكن عند مرحلة ما ينفجر ليصبح ثورة صريحة. من عاشوا في ظل هذه الفورة، يجدون الحياة نفسها في الحرية. تعلمنا هذا خاصة في أيام الاضطهاد والاحتلال في المقاومة

تحت الأرض وفي المعسكرات، وتحت تهديد الديماغوجية. يمكننا حتى اكتشافها في الدول الشمولية التي على الرغم من الإرهاب فيها، مازالت المقاومة مستمرة.

إن حرية الفرد واحترامه قيم متأصلة في **العهد القديم**، الذي أقنع الإنسان أنه يصنع تاريخه الخاص، وأنه مسؤول عن تاريخه. مثل هذه الحرية تشير إلى أن الإنسان يتخلص من مسيرته بالقصور الذاتي، ولا يتشبث تعسفيًّا بالتقاليد، وأنه يكافح من أجل المعرفة وقبول المسؤولية الأخلاقية. إن الخوف من الحرية هو خوف من تحمل المسؤولية.

لا يمكن صون الحرية تمامًا بالقواعد والقوانين، بل إنها تعتمد بالقدر نفسه على شجاعة كل منا ونزاهته ومسؤوليته، مثلما تعتمد على تلك الخصال فيمن هم في سدة الحكم. إن كل خصلة فينا وفي قادتنا تشير إلى الخضوع السلبي إلى القوة الخالصة خيانة للحرية الديمقراطية. وفي نظام حكمنا الديمقراطي الأمريكي، توجد ثلاثة أفرع قوى مختلفة تراقب بعضها، السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية. مع ذلك، إذا لم توجد الإرادة لمنع زحف سلطة أي منها على الأُخْرَيَيْن، يمكن أن يتدهور نظام الرقابة هذا.

ومثل حال المراهقين الذين يحاولون الاختباء خلف حماية السلطة الأبوية بدلًا من مواجهة البلوغ الراشد، يمكن للأفراد الأعضاء في الدولة الديمقراطية أن يرتدوا عن النشاط العقلي الذي تفرضه. إنهم يتوقون إلى الهروب إلى حالة من الأمان بلا تفكير. عادة ما يفضلون الحكومة أو نوعا من التجسيد الفردي للدولة لحل مشاكلهم. تلك هي الرغبة التي تصنع الشموليين والممتثلين. وتمامًا مثل الطفل الرضيع، يمكن للممتثل أن ينام بهدوء ويحيل كل قلقه للدولة الأب. حين يفقد المثقفون سيطرتهم على أنفسهم وشجاعتهم، وتسيطر عليهم مخاوفهم وانفعالاتهم فقط، تكسب قوة الظلم والغباء.

وحيث إنه بداخل كل منا تقبع بذور الديمقراطية والشمولية، فإن الصراع بين السلوك الديمقراطي والشمولي يتكرر في كل إنسان خلال فترة حياته. إن نظرته الشاملة عن نفسه وعن أقرانه تحدد مذهبه السياسي. مع رغبة الإنسان في الحرية

والنضوج، يعيش جنبًا إلى جنب الدمار والكره والرغبة في السلطة ومقاومة الاستقلال، والرغبة في النكوص إلى مرحلة الطفولة غير المسؤولة. وتتماشى الديمقراطية فقط مع الجانب الراشد في الإنسان؛ أما الفاشية والشمولية فيغريان الجانب الطفولي فيه.

إن الشمولية مبنية على نظرة ضيقة آلية للإنسانية. إنها تنكر تعقيد الفرد، والصراع بين دوافعه الشعورية واللاشعورية. إنها تنكر الشك وتناقض المشاعر وتضاربها. إنها تُبَسِّط الإنسان وتحوله إلى آلة يمكن أن تعمل بالنفط الحكومي.

في كل علاج تحليلي نفسي، تأتي اللحظة التي ينبغي على المريض فيها إقرار إذا كان سينضج أم لا. يجب ترجمة المعرفة والأفكار التي اكتسبها إلى أفعال. وإلى الآن أصبح يدرك الكثير عن نفسه؛ يجب أن تصبح حياته كتابًا مفتوحًا له. ومع أنه يفهم نفسه فهمًا أفضل، إلا أنه يجد صعوبة في ترك أرض أحلام الطفولة بخيالاتها وعبادة البطل والنهايات السعيدة. لأن صورته عن العالم ليست مشوشة بالأشواق غير الناضجة، إنه قادر الآن على التعامل في هذا العالم بصفته شخصًا بالغًا وراشدًا.

من الممكن تحقيق التعليم النظامي نحو الحرية. تنمو الحرية بينما يتحول التحكم في الدوافع الداخلية المدمرة إلى تحكم داخلي، ولا يعود يعتمد على التحكم من العالم الخارجي، من خلال سيطرة الآباء والسلطات.

ما يهم هو بناء شخصياتنا ووعينا – الأنا والأنا العليا. ولا يمكن إحداث هذا التطور بطرائق إجبارية وقهرية مثلما يحاول الطغيان والاستبداد فعله. علينا أن نطورها من خلال القبول الحر، أو رفض القيم الأخلاقية الحالية إلى أن يصبح الشخص الأخلاقي الداخلي فينا أكثر قوة؛ بحيث يكون قادرًا على تجاوز القيم الحالية والوقوف على أرضيته الأخلاقية الخاصة. إن اختيار كفة الديمقراطية يقع بين التقييد النابع من الذات – التحرر من الفوضى – والحرية الزائفة للفوضى اللاشعورية. بالنسبة إلى العديد من الأشخاص، تعتبر الحرية مفهومًا انفعاليًا للتنفيس عن أنفسهم؛ وهو ما يعني طغيانًا بدوافع سوداوية وغريزية. كما أنه يوجد أيضًا مفهوم ثقافي عن الحرية،

يعني الحد من القيود وعدم الحرية.

من أجل أن نغدو أحرارًا يجب منع ظروف خارجية معينة من إعاقة هذا التطور الأخلاقي للتحكم في الذات. علينا أن نصبح أكثر وعيًا بالأخطار الداخلية للديمقراطية: التراخي، والكسل، وعدم الوعي. على الناس إدراك أن التكنولوجيا الحديثة من دأبها تحويل عقولهم إلى الآلية. عليهم إدراك حقيقة أن وسائل الإعلام الجماهيرية والاتصالات الحديثة قادرة على ترسيخ كافة أنواع الإيحاءات في عقولنا. يجب أن يعرفوا أن التعليم يمكن أن يحولنا إما إلى مصانع ضعيفة لتوليد الحقائق، أو إلى شخصيات قوية. يجب على الديمقراطية الحرة أن تكافح سبل الحياة العادية من أجل ألا تختنق بأعداد المصوتين الآليين وحدهم. تتطلب الديمقراطية الحرة تقييمًا وفهمًا بذكاء عالٍ للنظام الديمقراطي نفسه. وهذه الحقيقة في حد ذاتها يصعب علينا الإعلان أو «الترويج» لها. بالإضافة إلى ذلك فإن غرس الديمقراطية بنفس درجة خطورة غرس الشمولية. إن جوهر الديمقراطية هو أنه يجب اختيارها ذاتيًا، ولا يمكن فرضها.

معضلة الحرية

لا يوجد بين الحرية والتخطيط تناقضات جوهرية. من أجل نمو الحرية، علينا أن نخطط لسيطرتنا على القوى التي تحد من حريتنا. وفيما يتعدى هذا، علينا أن نتحلى بالعاطفة والحرية الداخلية لاضطهاد من ينتهكون الحرية. يجب أن نتمتع بالحيوية لمهاجمة من يرتكبون الانتحار الذهني والقتل البدني من خلال انتهاك الحريات، وهم يجتذبون أناسًا آخرين في أعقابهم. إن الخضوع الانتحاري نوع من التخريب من الداخل؛ إنه استسلام سلبي لعالم آلي بلا شخصيات؛ إنه إنكار للشخصية. علينا أن نتحلى بالحماسة لندافع بثبات عن حرية الفرد، والتسامح المتبادل والكرامة، وعلينا أن نتعلم ألا نتسامح مع تدمير هذه القيم. يجب ألا نتسامح مع من يستغلون الأفكار والقيم السامية ليدمروها فقط بمجرد أن يصلوا إلى السلطة. علينا ألا نتسامح مع هذه الانتهاكات مادامت حرب الحياة أو الموت العقلية لم تضع أوزارها بعد.

ولا يمكننا التأكيد بشدة على أن الحرية تكون ممكنة فقط من خلال مجموعة المعتقدات والمعايير الأخلاقية القوية. وهذا يعني أنه على الإنسان أن يذعن للقواعد المقيدة النابعة من ذاته – القواعد الأخلاقية – للحفاظ على حريته. عندما يكون هناك افتقار لمثل هذا الصد الداخلي بسبب عدم وجود تعليم كافٍ أو نظرًا للتعليم النمطي، فإن الضغط الخارجي، أو حتى الطغيان، يصبح لازمًا لدرء الدوافع غير الاجتماعية. عندها تصبح الحرية ضحية لعدم قدرة الإنسان على العيش بحرية وضبط النفس.

يجب أن نضمن للبشرية حق عدم السماع، وعدم الامتثال، وحق الدفاع ضد الهجمة النفسية وضد التدخل على شكل دعاية شاملة مشوهة وضغط شمولي وتعذيب عقلي. لن يسمح بالمساومة أو المجاراة في التعامل مع مثل هذه السلوكيات. علينا أن نراقب بعناية، وإلا فإن أخطاءنا في الهجوم على الحرية الشخصية ستصبح دقيقًا لطاحونة الشمولية. حتى استنكارنا يمكن أن يكون له تأثير على النقيض. يزيد الخوف والهيستريا من الشمولية. ما نحتاج إليه هو التحليل والفهم الدقيق لمثل هذه الظاهرة. إن الديمقراطية عبارة عن نظام لكرامة الإنسان وحقه في التفكير بالأصالة عن نفسه، وحقه في أن يكون له رأيه الخاص – والأكثر من ذلك، حقه في التأكيد على رأيه الخاص وحماية نفسه من الغزو العقلي والقهر.

عندما تضع الأمم المتحدة قواعد للحد من إبادة العقل والتدخل النفسي، تكون قد ضمنت أن حقوق الإنسان مصانة بنفس قدر حق الوجود، وحق عدم امتثال الفرد الحر – والحق في المعارضة، والحق في أن يكون المرء نفسه. إن التسامح مع النقد والهرطقة أحد شروط الحرية.

وهنا نتطرق إلى نقطة أخرى حاسمة تتعلق بأسلوب حكم الناس: توجد علاقة بين المركزية الشديدة للحكومة، والمشاركة الجماعية والشمولية.

إن المشاركة الجماعية في الحكومة بدون عدم المركزية التي تؤكد على قيمة التنوع والفردية، ودون إمكانية الاختيار الجيد للقادة، تسهل من صنع القائد المستبد. عندئذ، تحول الجماهير رغبتهم في السلطة إليه. يشارك العبد بطريقة سحرية في تمجيد السيد.

يتحدد الحكم الذاتي الديمقراطي بالتحفظ وضبط النفس، بالروح الرياضية والعدالة، بالمراقبة التطوعية لقواعد المجتمع وبالتعاون. هذه الصفات تأتي بالتدريب. في الحكومة الديمقراطية، يُطالِب من انتخبوا في مناصب قيادية بضوابط وقيود ضد أنفسهم؛ لأنهم يعرفون أنه لا يوجد أحد بدون أخطاء. ليست الديمقراطية معركة استقلال، لكنها استقلال منظم بالتبادل. تعني الديمقراطية السيطرة على ميل الإنسان إلى استجماع قوى بلا حدود تحت إمرته، وتعني السيطرة على أخطاء كل منا. إنها تحد من عواقب قيود الإنسان.

مستقبل علم النفس

دعني أكرر ما قلته في مستهل هذا الكتاب، يمكن لأساليب غسيل الدماغ وإبادة العقل العصرية – انحرافات علم النفس تلك – أن تجعل أي إنسان يرضخ ويستسلم. إن العديد من ضحايا السيطرة على الأفكار، وغسيل الدماغ، وإبادة العقل الذين تحدثنا عنهم كانوا رجالًا أشداء كُسِرت إرادتهم وانهارت عقولهم. لكن مع أن الشموليين يستخدمون معرفتهم بالعقل من أجل أغراض خبيثة تفتقر إلى الضمير، يمكن لمجتمعنا الديمقراطي أن يستخدم معرفته، وعليه فعل ذلك، لمساعدة الإنسان على النمو وحماية حريته وفهم نفسه.

ربما ينتج عن المعرفة النفسية والعلاج النفسي سلوك ديمقراطي؛ لأن علم النفس في جوهره هو علم الحل الوسط، علم الاختيار الحر داخل إطار عمل القيود الشخصية والاجتماعية للإنسان. ومقارنة بملايين السنين من امتداد الوجود البشري والتطور، فإن الحضارة مازالت في مهدها. وبالرغم من الانتكاسات التاريخية، يستمر الإنسان في النمو، ومهما كان علم النفس غير مثالي الآن، فسوف يصبح إحدى أقوى أدوات الإنسان في سعيه من أجل الحرية والرشد.

ببليوجرافيا
BIBLIOGRAPHY

"Admissibility of Results of Lie-Detector and Truth Serum Tests" (Oklahoma Court), Journal of American Medical Association, Vol. 133

.1951

Ahrendt, H., The Origin of Totalitarianism. New York, Harper& Brothers, 1950.

Almond, G. A., and others, The Appeals of Communism. Princeton

Princeton University Press, 1954.

Asch, S. E., "Opinions and Social Pressure," Scientific American, Vol.

.1955 193

Ashby, W. R., Design for a Brain. New York, John Wiley & Sons, Inc.

.1952

Aspaturian, V., "What Do the Communists Mean by 'Peaceful Coexistence'?" The Reporter, 1955.

"Automation Is Here," Democratic Digest, 1955.

Baschwitz, K., Du Und Die Masse. Amsterdam, Elsevier, 1937.

Bauer, R. A., The New Man in Soviet Psychology. Cambridge, Harvard University Press, 1952.

Beck, F., and Godin, W., Russian Purge and the Extraction of Confession. New York, Viking Press, Inc., 1950.

Beer, M., "The Battle for Man's Rights," United Nations World, 1950

Bergler, E., The Battle of the Conscience. Washington, D. C.

Washington Institute of Medicine, 1948.

The Superego—Unconscious Conscience. New York, Grune & Stratton

Inc., 1952
Boeree, T. A., The Sinister History of Christiaan Lindemans, Alias King Kong. Unpublished manuscript.

Bonhoeffer, W., and Zutt, G., "Uber den Geisteszustand des Reichstagsbrandstifters Marinus Van Der Lubbe," Monatschrift für Psychiatrie, Vol. 89, 1934.

Burney, C., The Dungeon Democracy. New York, Duell, Sloan and Pearce, 1951.

Byfield, R. S., Logocide, The Fifth Weapon. New York, Privately printed, 1954.

Cantril, H., Gaudet, H., and Herzog, H., The Invasion from Mars.

Princeton, Princeton University Press, 1940.

Commager, H. S., "The Real Danger—Fear of Ideas" The New York Times Magazine, June 26, 1949.

The Convention on Genocide. Lake Success, N. Y., United Nations Department of Public Information, 1949.

Dicks, H. V., "Observations on Contemporary Russian Behavior"

Human Relations, Vol. 5, 1952.

Dobrogaev, S. M., Speech Reflexes (translated and digested from the Russian). New York, National Committee for a Free Europe, 1953.

"Document on Terror," News from Behind the Iron Curtain, Vol. 1, 1952.

Dooren, L., Dr. Johannes Wier. Salten, Holland, De Graafschap, 1940.

Ferenczi, S., "Stages in the Development of the Sense of Reality," in An Outline of Psychoanalysis. New York, Modern Library, 1925

Frazer, J. G., The Golden Bough. New York, The Macmillan Company

.1947

Freud, A., The Ego and the Mechanisms of Defense. New York

International Universities Press, Inc., 1946.

Freud, S., Basic Writings. New York, Modern Library, 1946.

Fried, J. H. E., Les Méthodes et les procédés du fascisme. [Paris], United Nations Educational, Social and Cultural Organization, 1949.

Fromm, E., Escape from Freedom. New York, Farrar & Rinehart, Inc.

.1941

Gallery, D. V., "We Can Baffle the Brainwashers!" Saturday Evening Post, 1955.

Gilbert, G. M., The Psychology of Dictatorship. New York, The Ronald Press Company, 1950.

Gonzales, V., and Gorkin, J., El Campesino: Life and Death in Soviet Russia. New York, G. P. Putnam's Sons, 1952.

Haggerty, J. J., Jr., "Think or Die," Collier's, 1955.

Heiden, K., "Why They Confess," Life Magazine, 1949.

Heller, E. L., "Thought I'd Never Get Home," Saturday Evening Post

.1955

Herling, G., A World Apart. New York, Roy Publishers, 1952.

Heron, W. Time, 1954.

Hershey, B., "The Sick Men Who Rule the World," The Nation, 1949.

Hill, G., "Brain-Washing: Time for a Policy," Atlantic Monthly, 1955.

Hitler, A., Mein Kampf. Boston, Houghton Mifflin Company, 1943.

Hook, S., "Why They Switch Loyalties," The New York Times Magazine

Nov. 26, 1950.

Horsley, Gantt W., "Bolshevik Principles and Russian Physiology,"

Bulletin of the Atomic Scientists, Vol. VIII, 1952.

Hsu, F. L. K., "Suppression Versus Repression," Psychiatry, Vol. XII,

.1949

Hunter, E., Brain-Washing in Red China: The Calculated Destruction of Mens Minds. New York, The Vanguard Press, 1951.

"Government by the Insane," The Freeman, 1953.

Huxley, A., The Devils of Loudun. New York, Harper & Brothers, 1952.

The Doors of Perception. New York, Harper & Brothers, 1954

Jong, L. de, The German Fifth Column in the Second World War.

Chicago, The University of Chicago Press, 1956.

Kafka, F., The Trial. New York, Alfred A. Knopf, Inc., 1937.

Kalme, A., Total Terror. New York, Appleton-Century-Crofts, Inc.

.1950

Karp, D., One. New York, The Vanguard Press, 1953.

Kayman, G., "Forensic Psychiatry," American Journal of Psychotherapy,

Vol. VIII, 1954.

Kisker, G. W., World Tension: The Psychopathology of International Relations. New York, Prentice-Hall, Inc., 1950.

Krugman, H. E., "The Role of Hostility in the Appeals of Communism in the United States," Psychiatry, Vol. I, 1953.

Lassio, S., "La Verite sur la condamnation du Cardinal Mindszenty," Le Figaro, 1950.

Lasswell, H. D., "The Strategy of Soviet Propaganda," Proceedings of The Academy of Political Science (Columbia University), Vol. XXIV,

.1951

Lea, C. H., The Inquisition of the Middle Ages. New York, The Citadel Press, 1954.

Lehmann-Haupt, H., Art Under a Dictatorship. New York, Oxford University Press, 1954.

Leites, N., and Barnart, E., Ritual of Liquidation. Glencoe, Ill., Free Press, 1954.

Little, A. M. G., "Pavlov and Propaganda," Problems of Communism

Vol. II, 1953.

London, T. D., "The Scientific Council on Problems of the Physiological Theory of Academician I. P. Pavlov: A Study in Control," Science, Vol.

.1952 116

Luther, R. H., American Demagogues—Twentieth Century. Boston

Beacon Press, 1954.

MacDonald, D., "The Lie-Detector Era," The Reporter, 1954.

MacDonald, J. M., "Narcoanalysis and Criminal Law," American Journal of Psychiatry, Vol. 111, 1954.

Malinowski, B., Magic, Science and Religion, New York, Doubleday& Company, Inc., 1954.

Mayo, C. W., Speech before the Security Council of the United Nations

Oct. 26, 1953.

"Medecine, quatrieme pouvoir?" Esprit, 1950.

Meerloo, J. A. M., "Die Abwehrreaktionen des Angstgefühls"

Zeitschrift fur die gesamte Neurologie und Psychiatrie, Vol 133, 1931.

Conversation and Communication, New York, International Universities Press, Inc., 1952.

"The Crime of Menticide," American Journal of Psychiatry, Vol. 107

.1951

Delusion and Mass-Delusion. New York, Nervous and Mental Disease Monographs, 1949.

"Democracy and Fascism Within Us," in Total War and the Human Mind.

New York, International Universities Press, Inc., 1945.

"International Law and Morality," New Europe, 1945.

"Living by Proxy," American Journal of Psychotherapy, Vol. 11, 1953.

'The Monument as a Delusional Token," American Imago, 1954.

"Morale," Military Review, 1954.

"The Psychology of Treason and Loyalty," American Journal of Psychotherapy, Vol. VIII, 1954.

"Television Addiction and Reactive Apathy," Journal of Nervous and Mental Diseases, Vol. 120, 1954.

"Thought Control and Confession Compulsion," in Explorations in Psychoanalysis. New York, Julian Press, Inc., 1953.

"Treason and Traitors," in Aftermath of Peace. New York, International Universities Press, Inc., 1946.

The Two Faces of Man. New York, International Universities Press, Inc.

.1954

Miller, W. L., "Can Government be Merchandised?" The Reporter, 1953.

Mitscherlich, A., and others, Doctors of Infamy: The Story of the Nazi Medical Crimes. New York, Henry Schuman, Inc., 1949.

Moloney, J. C., "Psychic Self-Abandon and Extortion of Confessions,"

International Journal of Psychoanalysis, Vol. 36, 1955.

"A Study in Neurotic Conformity: The Japanese," Complex, 1951.

Understanding the Japanese Mind. New York, Philosophical Library

.1954

Newman, C. L., "Trial by Jury Outmoded," Science News Letter, 1955.

"No Bands Playing: Colonel Arnold's Story," Time, 1955.

Pavlov, I. P., Conditioned Reflexes and Psychiatry. New York

International Publishers Company, 1941.

Peck, D. W., "Do Juries Delay Justice?" The New York Times Magazine

Dec. 25, 1955.

"People v. Leyra," North Eastern Reporter, Second Series, 1951.

Piaget, J., The Language and Thought of the Child. New York, Noonday Press, 1955.

Prychodke, N., One of the Fifteen Million. Boston, Little, Brown and Company, 1952.

Razran, G. Science News Letter, 1954.

Reik, T., Gestandniszwang und Strafbedurfnis. Zurich, International Psychoanalytischer Verlag, 1925.

The Unknown Murderer. New York, International Universities Press, Inc.

.1949

"Report on Vogeler," The New York Times, April 29, 1951.

Richter, C. P., "Civilized Life Affects Combat Stress," Science News Letter, 1954.

Ross, L., "Red China's Dope Peddlers," The New Leader, 1954.

Rostow, W. W., and others, The Dynamics of Soviet Society. New York

New American Library, 1954.

Rousset, D., The Other Kingdom. New York, Reynal & Hitchcock, 1947'
Rud, F., "The Social Psychopathology of Schizophrenic States," Journal of Clinical and Experimental Psychopathology, Vol. 12, 1951.

Samuels, G., "American Traitors," The New York Times Magazine, May .1949 22

Santucci, P. S., and Winokur, G., "Brainwashing as a Factor in Psychiatric Illness: An Heuristic Approach," Archives of Neurology and Psychiatry, Vol. 74, 1955.

Schultz, H. H., Das Autogene Training. Stuttgart, Georg Thieme Verlag

.1934

"The Schwable Case," The New York Times, March 10-11, 1954.

"The Schwable Case," The Reporter, 1954.

Segal, H. A., "Initial Psychiatric Findings of Recently Repatriated Prisoners of War," American Journal of Psychiatry, Vol. 111, 1954.

Shipkov, M., Bulletin of the State Department [Washington, D.C.], 1950.
Siegel, V., "College Freedoms Being Stifled by Students' Fear of Red Label," The New York Times, May 10, 1951.

"Soviet Expunging West's Psychiatry," The New York Times, Oct. 16

.1951

Spence, K. W., and Farber, I. E., "Conditioning and Extinction as a Function of Anxiety," Journal of Experimental Psychology, Vol. 45

.1953

Sperling, G. E., "The Interpretation of the Trauma as a Command"

Psychoanalytic Quarterly, Vol. 19, 1950.

Strassman, H. D., and others, "A Prisoner of War Syndrome: Apathy as a
Reaction to Severe Stress," Paper read at American Psychiatric
Journal of Nervous and Mental Diseases, Vol. 114, 1951.

سيرة ذاتية

«جوست أ. م. ميرلو»، دكتوراه في الطب



ولد «جوست ميرلو» عام 1903 في لاهاي بهولندا؛ حيث تلقى تعليمه المبكر. حصل على دكتوراه في الطب من جامعة ليدن Leyden (1927)، ودكتوراه الفلسفة في جامعة أوترخت Utrecht (1932). من 1928 إلى 1934 عمل الدكتور «ميرلو» معلمًا، وطبيبًا نفسيًّا في عدة مستشفيات. في العام الأخير، أَدخَل ممارسة خاصة في العلاج النفسي والتحليل النفسي إلى لاهاي؛ حيث عمل أيضًا مستشارًا للطب النفسي في الديوان الملكي والوكالات الحكومية. في ظل الاحتلال النازي لهولندا، تمكن الدكتور «ميرلو» من ملاحظة طرائق التعذيب النفسي والاستجواب القسري الموصوفة في هذا الكتاب.

في عام 1942 أفلت بصعوبة من الموت على يد قوات الاحتلال الألماني في هولندا وهرب إلى إنجلترا؛ حيث خدم برتبة عقيد، وعمل رئيسًا لقسم علم النفس في الجيش الهولندي. لمدة عامين، قبل قدومه إلى الولايات المتحدة في عام 1946، كان المفوض السامي للرعاية الاجتماعية للحكومة الهولندية، وعمل أيضًا مستشارًا لقوة المشاة في القيادة العليا للحلفاء SHAEF وإدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل UNRRA. حصل الدكتور «ميرلو» على وسام صليب الخدمة المتميزة عام 1943. منذ أن استقر في نيويورك، قام بالتدريس في عدة مدارس، وأدار الممارسة الخاصة للعلاج النفسي والتحليل النفسي. أصبح مواطنًا أمريكيًا في عام 1950. وهو عضو فخري وزميل في عدة جمعيات مِهْنِيَّة.

تشمل كتاباته ثلاثة عشر كتابًا، من بينها: **الحرب الشاملة وعقل الإنسان** *Total*

ووجهان *Patterns of Panic*، **وأنماط الهلع** *War and the Human Mind*، **للإنسان** *The Two Faces of Man*، وأكثر من مائتي مقالة في كل من المجلات العلمية والشعبية. يتميز أيضًا كمحرر ومراجع كتب معروف. يعتمد كتابه الرابع عشر، **اغتصاب العقل**، على تجاربه ومعرفته الحميمة لما يمكن أن يفعله الضغط الذهني الشديد لعقل الإنسان.

نعي

«جوست إيه إم ميرلو»، *(دكتوراه في الطب) 1903-1976*

كان الدكتور «ميرلو» رجلًا صاحب إنجازات بارزة. قام بتأليف 43 كتابًا ودراسة علمية، وأكثر من 1000 مقالة، وحاز على شهرة عالمية باعتباره مرجعية في الحرب النفسية، وخاصة فيما يتعلق بتقنيات غسيل الدماغ التي تم استكشافها في عمله النموذجي **اغتصاب العقل** (1956). منذ أوائل الثلاثينيات، حققت اهتماماته الواسعة أثرًا في كتاباته عن سيكولوجيا إدمان المخدرات، والارتباطات بين السرطان والأمراض الانفعالية، وظواهر الزمن، ومشاكل الموت والشيخوخة، ورمزية الفن والرقص، والتواصل بين الأشخاص، وعلم التخاطر، ومجموعة من الموضوعات الأخرى التي تحمل كلها طابع سعة الاطلاع، بيْد أن مؤلفها ظل أولًا وقبل كل شيء عالمًا.

- "م. س. نيلسون"، ***مجلة التحليل النفسي*** *- The Psychoanalytic Review، 1977.*



د. جوست ميرلو



يعتبرُ الدكتور جوست ميرلو، مؤلف هذا الكتاب، صاحب إنجازات بارزة. فقد ألف ٤٣ كتابًا ودراسة علمية وأكثر من ١٠٠٠ مقالة، وحاز على شهرة عالمية باعتباره مرجعًا في الحرب النفسية، وخاصة فيما يتعلق بتقنيات غسيل الدماغ التي تم استكشافها في عمله النموذجي، اغتصاب العقل (١٩٥٦). ومنذ أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، حققت اهتماماته الواسعة أثرًا كبيرًا في كتابات عن سيكولوجيا إدمان المخدرات، والارتباطات بين السرطان والأمراض الانفعالية، وظواهر الزمن، ومشاكل الموت والشيخوخة، ورمزية الفن والرقص، والتواصل بين الأشخاص، وعلم التخاطر، ومجموعة من الموضوعات الأخرى. وقد رأى د. ميرلو في هذا الكتاب أنه من خلال الضغط على نقاط ضعف معينة في التكوين الإنساني، يمكن للأنظمة الشمولية أن تحوّل أي شخص إلى "خائن". ويمضي أبعد بكثير فيتحدّث عن التأثيرات العسكرية المباشرة للتعذيب العقلي ليصف كيف أن ثقافتنا تظهر، بشكل ليس من السهل ملاحظته، أعراض الضغوط التي تتعرض لها عقول الناس. إنه يقدم تحليلًا منهجيًا لوسائل غسيل الدماغ والتعذيب العقلي والإكراه، ويوضح كيف أن الاستراتيجية التي تعتمدها الأنظمة الشمولية التي تستخدم سيكولوجيا الجماهير تؤدي إلى «اغتصاب العقل» اغتصابًا منهجيًا، كما يصف العصر الجديد، عصر الحرب الباردة بالهلع العقلي الذي يميزه والغموض اللفظي والدلالي، وكيفية استخدام الخوف لإخضاع الجماهير، ومشكلتي الخيانة والولاء.

ISBN: 978-603-91498-7-3



WWW.PAGE-7.COM